نزهة الحادي
بأخبار ملوك
القرن الحادي

نزهة الحادي باخبار ملوك القرن الحادي

تاليف

محمد الصغير بن الحاج بن عبد الله الوفراني النجار
المراكشي الوجار

قد صحح عباراته التاريخية السيد هوداس
مدرس اللغة العربية بباريز المحمية

تم طبعه
على يد بردين صاحب المطبعة بمدينة انجي
سنة ١٨٨٨

بسم الله الرحمن الرحيم

قال مؤلّفه عبيد الله سبحانه محمّد الصغير بن الحاجّ محمّد بن عبد الله الوفرانيّ النجار المراكشيّ الوجار جبرّ الله صدعه وسكن روعه :

الحمد لله المتعالى عن تواريخ الازمان ملكه * المتقدّس في ملكوته عن الامثال وكيف لا وكلّ ما في الكون ملكه * القديم الذي لا يبيد سلطانه ولا يتحوّل * المدبّر الذي ليس بساهٍ على شيء من خلقه ولا ناس * القايل وقوله الحقّ وتلك الايام نداولها بين الناس * فنجوم الاملاك ما بين شارق وغارب في افلاك الدول * الباقى الذي كتب على خلقه الفناء ووسمهم به على الخرطوم * وقادهم لسكنى الاحداث قود الجمل المخطوم * فلا ينفع في عبور حقيقة مجازه مختصر السعد والمطوّل * نحمده سبحانه ان ذلّل لنا الاقلام فغاصت في بحر ظلمات المحابر على الدرر * وملّكنا بها ثدى العلوم فاحتلبنا منها اباريق الدرر * وارتضينا من شرف العلم ماكلّ شرف سواه مؤمّل * والصلاة والسلام على سيّدنا ونبيّنا ومولانا محمّد الذى رفع الله به عن امّته الحرج والنصب * وجمع فيه جميع الفضايل ولولا عجايب صنع الله ما اجتمعت في لحم ولا عصب * المصطفى من بنى هاشم شمّ الانوف من الطراز الاوّل بعثه الله ومملكة الكفر لا تزداد الّا انتصاراً * فثلّ عروشها وقال ان كنت ريحاً لقيت اعصاراً * ودرس رسمها وهل عند رسم

دارس من معوّل * والرضى عن آله واصحـابه الذين اطلعهم الله نجومـاً في سمـاء هذه الملّة * واعطاهم من الكتايب الاكفيـة جمع الكثره بجمع القلّة * وخوّلهم من كرامته ما خوّل *

امّا بعد فان علم التاريخ من اشرف العلوم * ومكانه من العلوم الشرعيّة معلوم * وما زال الجهابذة الاخيار * يقطعون نفايس اوقاتهم في جمع الاخبار * ويعتنون بمسائلها ويرونها من اسنى ما يدخّر * ويقدّمونها ولا يقولون الاصل في الاخبار ان تؤخّر * ولا شكّ انّ النظر في ملح النوادر * فيه تنشيط للافكار السوادر * واني لم ازل منذ علّقت تميمة التميز في عضدي * وجعلت سوار الطلب في زندي * متشوّقاً الى اخبار الدولة السعديّة * وسائلاً هل استنشق احد نفحـات اخبارها الورديّة * فلما لم ار الّا محيباً بلا * تيقّنت ان رسم العلم غيّره البلاء * وقمت منتهزاً الفرصة * ومفرغاً على خاتم السبق من الافادة فصّة * علماً منّي بانّي ان احسنت في التدوين * وذبحت خوان الاخبار بما يشتهى من التلوين * كان ما انتهيه من الاصابة والتايد * والّا كنت محرّكاً لهمّة غيري ومعيناً له على التقييـد * وفي كلا الحالتين فالتجارة رابحة * وهمّة النفس في لجّة الخير سابحة * وقد كنت بدا لي ان المّ بدولة بنى وطاس * واواخر بنى مرين * بما يكون ذيلاً لروض القرطاس * وروضة النسرين * فرايت الدولة السعديّة عناية اهل زماننا بها اكثر * والاقتصار عليها لا يكون بها تاريخ الملك ابتر * وسمّيت هذا الموضوع * الذي حديثه حسن صحيح غير موضوع * نزهة الحادي باخبار ملوك القرن الحادي * وهذه الدولة السعديّة وان كان ابتداؤها عام ستّة عشر من القرن العاشر * لاكن انّما ظهرت واتّسعت ايالتها في آخر العاشر واوّل الحادي * فلذلك ادرجناها في الحادي * وما قارب الشيء فهو له في الحكم محادي * واعلم انّي الّفت هـذا التصنيف * من عدّة كتب تزري بزهور الروض المنيف * وسوف اعيّن لك في الاخر اسمـائهم * وانصب مدارج الامـالة لمن اراد ان يرقى سـماءهم * فجدير لمن سرّح فيـه الحاظه * ان يسامح نسيجه ولا ينتقد الفاظه * ولا يكون من قوم الجم الحسد

السنتهم * واطال على فراش العصبيّة استّهم * لاكن السلامة من الخلق قضيّة في المحال مفروضة * واعراض الاشراف لم تزل بالسنــة اللئام مقروضــة * والله يغنينا في ذاته عن الهجو والقديح * ويجعلنا ممّن يرى ان كلام الخلق كلّه شبــه المــديح * وهذا اوان الشروع في المقصود والمــرام والله المعين بمنّه وكرمــه على التمــام

ذكر الخبر عن نسبهم الشريف

وما قيل من تنكير وتعريف

امّا عمود نسبهم فقد ذكره غير واحد من المؤرّخين ورفعه من لا يحصى من الشيوخ المعتبرين وهذا نصّه : محمّد المهديّ بن محمّد القايم بامر الله بن عبد الرحمن بن عليّ بن مخلوف بن زيدان بن احمد بن محمّد بن ابي القاسم بن محمّد بن الحسن بن عبـد الله بن محمّد المدعـو ابي عرفة بن الحسن بن ابي بكر بن عليّ بن الحسن بن احمد بن اسماعيل بن قاسم بن محمّد الملقّب بالنفس الزكيّـة بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنّى بن الحسن السبـط بن امير المؤمنين عليّ بن ابي طالب كرّم الله وجهه وفاطمة رضي الله عنها بنت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم . قـال الشيخ الامـام العلّامة ابو العبّاس احمد بن القاضى في كتابه المنتقى المقصور على مئاثر خلافة السلطان ابي العبّاس احمد المنصور اطلعنى على هذه النسبـة الشريفة ابو العبّاس احمد بن يحيي الهوزاليّ قايد قوّاد وليّ عهـد المنصور مولانا ابي عبد الله محمّد المامون وبمثل هذا حدثنى شيخنـا ابو العبّاس احمد بن عليّ المنجور وحدثنى شيخنـا ابو راشد يعقـوب بن يحيي اليدريّ انّه راى هذه النسبة ايضاً مكتوبـةً بخطّ ابي عبد الله محمّد بن غالب بن حشّـار وعليها استفـأال القاضى ابي عبد الله بن علّال . وهكذا رايتــه بخطّ بعض

الاشراف من السعديّين ايضاً واظنّ انّ فيه بتراً بين قاسم ومحمّد النفس الزكيّة اذ ليس في اولاد النفس الزكيّة من اسمه قاسم وانّما القاسم بن الحسن بن محمّد بن عبد الله الاشتر بن محمّد النفس الزكيّة بن عبد الله الكامل الّا انّ هذا يقع من ذهول الناسخ او جهله بحقيقة الامر والله اعلم وقوله واظنّ انّ فيه بتراً هو الصحيح اذ لا يعرف في اولاد محمّد النفس الزكيّة القاسم اصلاً ولا عدّه منهم ابو عبد الله المصعب الزبيديّ ولا ابن حزم في جمهرتيهما ولا غيرهما من النسّابين الحفّاظ والذي ضعّفه الشيخ المسناويّ في نسبهم انّهم من اولاد عبد الله الاشتر بن محمّد النفس الزكيّة لان النفس الزكيّة وان كان له اولاد خمسة عبد الله الاشتر وعليّ والحسين بالتصغير والطاهر وابراهيم كما عند مصعب او ستة كزيادة احمد مع تكبير الحسين كما عند ابن حزم حسبما سبق لكن قال الشريف المكّى السمرقنديّ في تحفة الطالب انّه لم يعقب الّا من ولده عبد الله الاشتر المقتول في كابل من ارض السند وانّ الاشتر لم يعقب الّا محمّداً المولود بكابل . قال واعقب محمّد هذا على الصحيح ولده الحسن الذي يقال له الاعور وكان اجود بنى هاشم وقتل ايّام المعتزّ العبّاسيّ واعقب الحسن الاعور هذا اربعة رجال وهم ابو جعفر محمّد وابو عبد الله الحسين بالتصغير وقد انقرض عقبه في المائة السادسة وابو محمّد عبد الله وقد كثر في ولده الادعياء فيجب الاحتياط في اثبات من ينسب اليه والقاسم ولكلّ من الثلاثة عقب

قال الشيخ المسناويّ بعد نقل كلامه فتبيّن من هذا انّ القاسم الموصول في عمود النسب المذكور بمحمّد النفس الزكيّة ليس هو بابنه المباشر وانما هو ابن الحسن الاعور بن محمّد الكابلىّ بن عبد الله الاشتر بن محمّد المهديّ وهو النفس الزكيّة وفيه اسقاط بين القاسم ومحمّد النفس الزكيّة بثلاثة اباء والله اعلم . وما ذكره صاحب المنتقى من انّ محمّداً القايم هو ابن عبد الرحمن بلا واسطة كذلك يوجد في بعض الكتب وليس بصواب بل هو القايم بن محمّد بن عبد الرحمن فاسقط محمّداً القايم بن عبد الرحمن وقد وقفت على رسالة بخطّ الامام النظّار

ابي عبد الله محمّد بن القاسم القصّار بعث بها الى السلطان ابي العبّاس المنصور في هذا المعنى نصّها سلام الله ورحمته وبركاتـه على مولانا المنصور نصره الله نصراً عزيزاً وادام الخلافة فيه وفي ذرّيتّه الى يوم الدين يقبّل بساطكم عبدكم محمّد القصّار زاده الله من رضاكم وسمع انّ في النسب الكبير العظيم ثلاثة محمّدين فتبدّل التثنية بالجمع ويحمل على اقلّه اذ لو كان اكثر لبيّن ويقال احمد محمّد ج عبد الرحمن وقال العبد الضعيف

روى ابو داوود ثمّ الحاكم ... ما صحّ عن بعث المجدّد اعلم
براس كلّ مايـة وابن الرسول ... شرّط في الحديث فالغير يزول
ولم تر ابناً جدّد الدين سوى ... امامنا المنصور فالكفر ثوى
بخيلـه وناره احيـا العلـوم ... واهلها وكتبها على العموم
في كلّ يوم جوده على الشريف ... مع الاسير والفقيـه والضعيف
امّا المساجـد فكالجنّات ... حسناً وتدريساً على الساعات
ابقاه ربّنا لاحيا الدين ... في قوّة وغلب متين

ولو علمت يامولاى انّ احداً يحبّكم اكثر منّي ما عددت نفسي من المسلمين . انتهى بخطّه واشار بقوله فتبدّل التثنية الخ الى انّه يقال عند سرد هذا النسب احمد المنصور بن المحمّدين بصيغة الجمع واقلّ الجمع ثلاثة او يكتب احمد محمّد وبعده جيم لان نقطها ثلاثة كل ذلك فراراً من التصحيف وكذلك ايضاً من التصحيف اسقاط ذكر محمّد بن ابي عرفة فانّ عقب النفس الزكيّة انتهى بينبوع النخيل الى السيد القاسم والسيد عبد الله ابنَيْ محمّد بن ابي عرفة حسبما ذكره الشيخ النّسّابة ابو عبد الله الازورقانيّ في كتابه الدوحة وهولاء السادات يقولون انّ اصل سلفهم وفد على المغرب من الينبوع وانّهم ابناء عمّ السادات الاشراف اهل سجلماسة وانّ السيّد الحسن بن قاسم الداخل بلد سجلماسة كما سياتي ان

شاء الله هو ابن عمّ جدّهم الداخل لدرعة وهو زيدان بن احمد بن محمّد والد قاسم والد الحسن الداخل ولذلك قال في المنتقى لا خلاف انّ نسبهم اصحّ شرف اهل المغرب لانّ اصلهم من شرفاء الينبوع وقصّة اتيانهم من الينبوع الى درعة اذ اتى بهم اهلها من هناك كما اتى اهل سجلماسة ببنى عمّهم قبل ذلك وحكايتهم شهيرة بين المؤرّخين فلا نطيل بذكرها . واشار بذلك الى ما يزعمه السعديّون من انّ اهل درعة كانوا لا تصاح ثمارهم وتعتريها العاهات فقيل لهم لو اتيتم بشريف الى بلادكم كما اتى به اهل سجلماسة الى بلادهم لصلحت ثماركم كما صلحت ثمارهم فاتوا بالسيّد زيدان بن احمد من الينبوع كذلك فصلحت ثمارهم الّا انّ من الناس من يطعن في هذا ونقل ذلك عن الامام الحافظ الحجّة ابي العبّاس احمد المقّريّ التلمسانيّ ولكن صرّح غير واحد من فقهاء دولتهم بصراحة نسبهم وسلامة جرثومتهم من الطعن وقال به غير واحد من الايمّة المقتدى بهم كالامام المنجور وابي يوسف يعقوب اليدريّ والامام ابي العبّاس احمد بن قاسم الصومعىّ والشيخ ابي العبّاس سيّدي احمد بابا السودانيّ وقال ابن عرضون انّ نسبهم في غاية الشهرة فلا مطعن فيه ولعلّ ما نسب للمقّريّ من تصحيح انّهم من بنى سعد لا من قريش لا يصحّ عنه فانّه صرّح في كتابه نفح الطيب بشرفهم وهو من اخر ما الّف بل الّفه في بلاد الشام وفي نوازل قاضي الجماعة ابي مهديّ عيسى بن عبد الرحمن السجتانيّ من جملة سوال كتب به اليه الفقيه الصالح ابو زيد عبد الرحمن التلمسانيّ وهو يقول ولا شكّ انّ مولانا عبد الله مجمع على عدالته وبيعته وقد اخبرني الثقة من اصحاب الشيخ الجامع القطب الكبير ابي العبّاس سيّدي احمد بن موسى السملاليّ انه قال مولانا عبد الله ياقوتة الاشراف هو صالح لاسلطان . وناهيك به شهادة على صحّة شرفه وعلو طبقته في العدل وستاتي هذه الحكاية في محلّها باتمّ ممّا هنا وقد الّف في خصوص دولتهم جماعة كالفقيه المشارك لسان المغرب ابي فارس عبد العزيز بن محمّد بن ابراهيم الفشتاليّ وسمّى كتابه مناهل الصفاء في اخبار

الملوك الشرفاء قال في نفح الطيب وعهدي به انّه اكمل منه ثماني مجلّدات وكذلك الّف فيهم الكاتب البارع ابو عبد الله محمّد بن عيسى وسمّى كتابه الممدود والمقصور من سنا السلطان ابي العبّاس المنصور قال في نفح الطيب ايضاً وهذه التسمية وحدها مطربة • واعلم انّه جرى على الالسنة وصف هولاء الاشراف بالسعديّين ولم يكن لهم هذا الوصف في القديم ولا وقعت تحليتهم به في ظهائرهم وسجلّاتهم وصدور رسائلهم بل كانوا لا يقبلون ذلك ولا يجترئ احد على مواجهتهم به لانّه انّما يصفهم بذلك من يطعن في نسبهم ويقدح في وشيج اصلهم ويزعم انّهم من بنى سعد بن بكر بن هوازن الذين منهم حليمة السعديّة ظئر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وكثير من العامّة واخوانهم من الطلبة يعتقدون انّهم انّما سمّوا بذلك لانّ الناس سعدوا بهم ونحو ذلك ممّا لا معنى له وقد وقفت على رسالة بعث بها مولاي محمّد الشيخ الاصغر بن مولانا زيدان الى الامير مولاي محمّد بن مولاي الشريف الحسنّى السجلماسيّ ومن فصولها ان قال له بلغنى انّك تعلى في النوادي من الحواضر والبوادي انّ جرثومة انتمائنا لبنى سعد بن بكر بن هوازن مع انّها من بنى نزار بن معدّ وافية المكائيل ثقيلة الموازين وانّنا من تدسي احد القصور بوادي درعة ومنها انبت الله اصلنا فازهر واثمر فرعه فان كان غرضك حطّ منطقة قدرنا من النسب فهذا من الغلاء عليك عار وان تحاول محونا من صحيفة الحسب فتلك ايضاً دعوى لا تغلى ولا ترخص علينا سوايق الاسعار وقد صرّفنا لك نسخة من مناهل الصفاء في اخبار الشرفاء ليطلع انظارك الملوك على ما يزيل ما في الخاطر من اشراك الشكوك فاجابه مولاي محمّد بن الشريف عن هذا الفصل بان قال له وعتابكم انّنا عزيناكم لبنى سعد بن بكر بن هوازن بن منصور وناشرون ذلك في الحلل والمدن والقصور تالله ما فهمنا بذلك عن معايرة لكم ولا جهل بكم ولا بان نضيفكم لمن لا عشرة له ولا اهل بل اعتمدنا في ذلك بعون الله على ما نقله المؤرّخون لاخبار الناس من علماء مرّاكش وتلمسان وفاس ومكناسة الزيتون

ولقد امعن الكلّ التأمّل بالذكر والفكر فما وجدوكم الّا من بنى سعد بن بكر ولا معوّل على كتاب احد من الفشاتلة ولا السيّد احمد بن القاضى المكناسىّ ولا ابن عسكر الشريف الشفشاونيّ ولقد بلغتنا نسخة من مناهل الصفاء فلم نجد فيها مؤرّخاً صوّر وصفا وكفى في الظاهر والباطن قول الثقة مولانا عبد الله بن علىّ بن طاهر ومع هذا فلم نعتمد دفعكم عن شرف النسب ولا رفعكم عمّا رسمكم الله به من زينة الحسب ٠ انتهى الغرض من هذه الرسالة وستاتي ان شاء الله في موضع اليق بها من هنا واشار بقوله الثقة مولانا عبد الله بن علىّ بن طاهر الى ما يحكى شائعاً انّ السلطان ابا العبّاس المنصور كان يوماً جالساً مع الفقيه الورع الزاهد ابي محمّد مولانا عبد الله بن علىّ بن طاهر الحسنىّ احد السادات السجلماسيّين وبين يديهما خوان ياكلان منه وذلك بقصر السلطان المذكور من حاضرة مرّاكش امّنها الله فقال السلطان لابي محمّد اين اجتمعنا يعنى في النسب فقال له ابو محمّد في هذا الخوان ويروى في هذا المشور فاستشاط له السلطان غضباً واسرّها في نفسه الى ان احتال على ابي محمّد بما كان السبب في تجرّعه كاس المنون فكان المنصور بعد ذلك ينادي ابا محمّد فيجلس هو على الرخام في زمان كلب البرد وهيجانه من غير حائل وقد اتّخذ المنصور لبدة صوف داخل سراويله ولا يحسّ معها البرد فاذا رآه ابو محمّد جالساً معه تجلّد واستحيا ان يقوم من موضعه والسلطان معه وهما يتفاوضان في مسائل العلم فعمل به ذلك مراراً وايّاماً حتى سكنت علّة البرد في جوفه فلم يبرح ابو محمّد يشتكى من ضررها الى ان قضت عليه وجواب ابي محمّد من النوع البيانيّ المسمّى عندهم بتاقّى المخاطب بغير ما يترقّب على ما هو مبيّن في الكتب البيانيّة وانّما ساله السلطان المذكور لما تقدّم اوّلاً من انّ هولاء السعديّين يزعمون انّهم لم يجتمعوا معهم في قبيل ولا دبير والله اعلم لكن صحّ لنا غير واحد من اشياخنا انّ الشيخ ابن طاهر رجع عن ذلك الانكار وانّ السلطان ابا العبّاس المنصور اطلعه بعد ذلك على ظهير فيه خطّ الامام ابن عرفة وشيخه ابن عبد السلام

بثبوت نسبهم فاطمأنت نفس ابن طاهر لذلك فكان بعد ذلك يصرّح بصحّة نسبتهم ويزجر من يطعن فيهم وامامة ابن طاهر وعدالته شهيرة وكذلك صرّح بصحّة نسبهم الامام العلّامة مفتى الحضرة المّراكشيّة ابو مالك عبد الواحد بن احمد الشريف الحسنىّ الفلاليّ وهو من بنى عمّ ابي محمّد بن طاهر المذكور وله في المنصور امداح يعلن فيها بشرفه مع انّه كان من اهل العلم والدين والتحفّظ فيما يكتب ويقول وعلى ما ذكرنا عنهم وانّ جدّهم قدم من الينبوع قال ابن القاضى في درّة السلوك انّ جدّهم قدم من الينبوع واستقرّوا اوائلهم بدرعه فسكنوا بها وذلك في مبدا الماية الثامنة وفي هذا العهد قدم جدّ شرفاء سجلماسة ايضاً كما سياتي ان شاء الله هذا بعض ما يتعلّق بنسبهم الشريف وقد ضربنا صفحاً عن مطاعن هنا راينا الإعراض عنها أَوْلَى اذ من شرط المؤرّخ ان لا يتبع العورات ولا يهتك الاعراض والله المسئول ان يمنّ علينا بالستر دنيا واخرة بمنّه وكرمه امين

ذكر كيفيّة اتّصالهم بالملك

وسبب ركوبهم الفلك

قال صاحب درّة السلوك لم يزل اسلافهم مقيمين بدرعة الى ان نشا منهم ابو عبد الله محمّد القايم بامر الله فنشا على عفاف وصلاح وحجّ بيت الله الحرام وكان مجاب الدعوة ولقى جماعة من العلماء الاعلام والصلحاء العظام في وفادته على الحرمين الشريفين اخبرني بعض الفضلاء انّه لقى رجلاً صالحاً بالمدينة المشرّفة على ساكنها افضل الصلاة والسلام فاشار له بما يكون منه ومن ولديه وكان راى رؤيا وهى ان اسدَيْن خرجا من احليله فتبعهما الناس الى ان دخلا صومعةً فوقف هو ببابها فعبّرت رؤياه بانّه يكون لولديه شان عظيم وانّهما

سيملكان الناس ثمّ رجع الى المغرب وهو مضمر للدعوة ويقول في كلّ محفل انّ ولديه سيملكان المغرب ويكون لهما شان عظيم من غير تردّد منه ثقةً بقول الرجل الصالح وتفسير رؤياه المذكورة فما زال الى ان قام في سنة خمسة عشر وتسعماية وايضاً من معنى تلك الرؤيا المذكورة ما يحكى شائعاً ان ولدَيْ ابي عبد الله القايم وهما ابو العبّاس احمد الاعرج واخوه محمّد المهديّ كانا يقرءان القرءان بمكتب وهما صبيّان صغيران فدخل ديك فوثب على راس كلّ منهما وصاح فاوّل ذلك مؤدّبهما سيكون لهما شان عظيم فكان الامر كذلك وقال شارح زهرة الشماريخ كان السبب في قيام ابي عبد الله القايم انّ اهل السوس احاط بهم العدوّ الكافر ونزل بجوانبهم من كلّ جهة حتّي اظلم الجوّ واستحكمت شوكة الروم وبقى المسلمون في امر مريج لعدم امير يجتمعون عليه وتجتمع به كلمة الاسلام لانّ بنى وطاس كانت قد فشلت ريح ملكهم في بلاد سوس وانّما كان لهم الملك في حواضر المغرب ولم يكن لهم من السلطنة بسوس الّا الاسم مع ما كانوا فيه بنو وطاس ايضاً من معاناة قتال الكفّار بثغر اصيلا والعرايش وطنجة وبادس وغيرها من الثغور والمراسي فلمّا راى اهل السوس ما دهمهم من تفاقم الاهوال وطمع العدوّ في بلادهم ذهبوا الى الشيخ الوليّ الصالح ابي عبد الله محمّد بن مبارك فذكروا له ما هم فيه من انتشار جماعتهم وافتراق كلمتهم وكلب العدوّ على مباكرتهم بالقتال ومراوحتهم وطلبوا منه ان تجتمع كلمتهم عليه ويعقدون له البيعة ويقوم بامر الناس في امضاء الحكم عليهم وجمعهم لقتال عدوّهم فابى من ذلك وامتنع منه كلّ الامتناع وقال لهم انّ رجلاً من الاشراف بتاكمادارتُ من بلاد درعة يقول انّه سيكون له ولولديه شان فلو بعثتم اليه وبايعتموه كان انسب بكم واَلْيَق بمقصودكم فبعثوا اليه واتى اليهم وكان من امره ما كان . ورايت بخطّ الفقيه العالم العلّامة الحافظ ابي زيد سيّدي عبد الرحمن ابن شيخ الجماعة ابي محمّد سيّدي عبد القادر الفاسيّ ما صورته ذكر لنا الوالد عن سيّدي احمد بن سيّدي علىّ السوسيّ البوسعيديّ انّ ابتداء

دولة الشرفاء بسوس سببها انّ بعض السادات وهو سيّدي بركات توسّط في فداء بعض الاسارى فاراد ان يكون اتّفاقه مع النصارى على ان لا يقبضوا اسيراً فكلّمهم في ذلك فقالوا له حتّى يكون لكم امير فان ملككم ذهب واضمحلّ قال ثمّ انّ بعض اهل سوس سار الى قبيلة جسيمة يكتال القوت فاخذهم جسيمة واكلوا بضاعتهم وامتعتهم فذهبوا الى شيخهم وكان ذا حزم وتدبير فردّ لهم كلّ ما ضاع لهم حتّى لم يبق لهم شيء فلمّا رجعوا الى بلادهم قالوا انّ هذا الشيخ الرءيس هو الذي يليق ان نبايعه فاجتمعوا واتوه فطلبوه ان يراسهم فامتنع واحتاط لدينه واعتذر بتشويش هذا الامر للدين ودلّهم على رجل شريف كان مؤذّناً بدرعة فقال لهم ان كان ولا بدّ فاقصدوا الشريف الفلانيّ فانّه يذكر انّ ولديه يملكان المغرب فقصدوه واستصحبوه الى بلادهم وفرّضوا له ما يكفيه ويكفى اولاده من المؤنة وبقى عندهم في نحر العدوّ هنالك الى ان كان منه ما كان وسيّدي بركات المذكور هو الوليّ الصالح بركات بن محمّد بن ابي بكر التدسيّ ورايت بخطّ بعض الفضلاء انّه هو الذي ادخل الشرفاء لسوس سنة سبعة عشر وتسعماية . وفي الدوحة لابن عسكر في ترجمة ابي عبد الله محمّد بن المبارك المذكور قيل انه الذي امر قبايل السوس بالانقياد الى السلطانَيْن الشريفين ابي العبّاس احمد الاعرج واخيه ابي عبد الله محمّد الشيخ وامرها بالعدل والجهاد في سبيل الله لمّا راى النصارى تغلّبوا على سواحل تلك البلاد فكان من امرها ما هو معلوم . وفيه بعض مخالفة لما ذكر قبله لانّ ما ذكره شارح الزهرة يقتضي ان ابن المبارك انّما حضّكم على مبايعة ابيهما ابي عبد الله القايم بخلاف ما ذكره في الدوحة ولعلّه امرهم بالانقياد للجميع والله اعلم وابن المبارك هذا من اكابر الاولياء المشاهير من اهل التصريف بالعيان كان نزيلاً ببلاد اقّ وزاويته هناك شهيرة الى الان وكان رحمه الله قطعيّ الولاية عند اهل السوس وظهرت له كرامات عديدة منها انّ نفراً من القبايل قدموا عليه بقصد الانكار فامر الشيخ ان يطبخ لهم العصيدة في قفاف من عسف الجريد

فجعلت القفاف على النار واوقد عليها الى ان طبخ لهم ما امر به الشيخ والناس ينظرونه جميعاً ومن ذلك ان جعل لهم ثلاثة ايام في كلّ اسبوع في كلّ شهر لا يحمل احد فيها سلاحاً ولا يتعرّض بعض القبايل فيها لبعض ومن انتهك فيها الحرمة عجلت له العقوبة حتّى ذكروا انّ اعرابيّاً قبض في تلك الايّام على يربوع فقال له بعض اصحابه اطلقه فهذا يوم من ايّام عافية سيّدي محمّد بن مبارك فابى الاعرابيّ وضرب اليربوع فكسّر رجله فما هو الّا ان صاح الاعرابيّ ياويحاه كسّرت رجلى فما مشي عليها بعد وكراماته كثيرة ولمّا ثبتت ولايته عند القبايل السوسيّة اذعنوا له وانصتوا لقوله فامرهم بالاجتماع على ما ذكرنا والله اعلم وفي الدوحة ايضاً في ترجمة الشيخ الأكبر العالم الاشهر ابي محمّد عبد الله بن عمر المطغريّ دفين درعة ما صورته وكان السلطان ابو عبد الله محمّد الشيخ واخوه ابو العبّاس الاعرج من تلامذته وبسببه كانت دعوتهما . وهذا مخالف لما تقدّم ايضاً الّا ان يتاوّل على انّ كلا من ابن المبارك وابن عمر وغيرهما حضّ على مبايعتهما او ابن المبارك بالسوس وابن عمر بدرعة ونواحيها وفي مرءات المحاسن انّ السلطان ابا عبد الله محمّد الشيخ ماهد دولة الشرفاء كان يتوهّم من مشايخ الفقراء ويخاف منهم لدخولهم الملك من بابهم . وقد اتّفقت كلمة اولائك الاشياخ على انّ ابا عبد الله محمّد القايم انّما كان نهوضه باشارة من الصالحين واذن من العلماء العاملين وكفى ذلك شاهداً على صحّة نسبه الشريف عندهم والّا لما خصّوه بالامامة العظمى التى لا يتطلّق حرمتها الّا شريف النسب قرشيّ الحتد هذا ما وقفت عليه في سبب اتّصالهم بالملك وقد تركت اخباراً ولعت بها العامّة في ذلك وراينا اخلاء كتابنا منها اولى والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم . لطيفة رايت بخطّ الفقيه الاستاذ مؤدّب اولاد الملوك ابي عبد الله محمّد بن يوسف الترغىّ رحمه الله ما نصّه كان سيّدي علىّ بن هارون ياخذ دولة الشرفاء اهل درعة من قول الله تعالى ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر انّ الارض يرثها عبادي الصالحون . ولم يبيّن كيفيّة الاخذ لذلك

من الاية الكريمة ثمّ رايت في الرحلة لشيخ شيوخنا الفقيه العلّامة العالم الامام ابي سالم عبد الله بن محمّد العياشيّ ما صورته حدّثنا شهاب الدين ابو العبّاس احمد بن التاج انّ السلطان سليماً العثمانيّ احد ملوك الترك وهو اوّل من ملك مصر منهم وانتزعها من يد السلطان الغوريّ سنة ثلاث وعشرين وتسعماية وذلك انّه لمّا ملك الشام اراد ان يتملّك العراق لانّها مساكن اسلافهم الترك فلمّا اراد النهوض لذلك من الشام تعذّر عليه الحال لقلّة الاقوات وغلاء الاسعار فكتب لسلطان مصر الغوريّ المذكور يستاذنه في الامتيار من بلده وكان الشاه ملك العراق في ذلك الحين لمّا سمع بتحرّك السلطان سليم اليه كاتب الغوريّ وكانت بينهما صداقة يطلب منه ان يشغله عنه وان يثبطه ما استطاع وصادف ذلك من الغوريّ غيرة من السلطان سليم وانفة من تملّكه لبلاد الشام وخشي ان اتّسع ملكه ان يتولّى على مصر ومصر اذّاك هى امّ البلاد الاسلاميّة وملكها اعظم الملوك لانتقال الخلافة العبّاسيّة بعد واقعة التتر من العراق الى مصر وغيرها وعند ما طلب السلطان سليم من الغوريّ الميرة تعلّل له بانّ ذلك لا يمكن في هذا الوقت لغلاء الاسعار واعتذر باعذار ضعيفة ففطن سليم لمقصده وعلم انّه انّما ارادتعويقه عن السير الى العراق فحدّثته نفسه بالوثوب عليه وصرّف العنان عن غزو العراق الى غزو مصر فاستشار في ذلك كلّ من كان في حضرته من العلماء وذكر لهم عذره وانّ الغوريّ منعه التزوّد من بلاده وهو محتاج الى الزاد فكلّهم قالوا انّ ذلك لا يبيح لك قتاله لانّه ملك بلاده ولم يخلع لك يدًا من طاعة ولا بداك بحرب فكيف يجوز لك الهجوم عليه في بلاده ومحاربته بلا سبب وكان من جملة العلماء الحاضرين المحقّق ابن كمال باشا وكان اصغرهم سنًّا فقال له ايّها الامير انّه يباح لك غزوه وفي كتاب الله انّك تدخل مصر من هذه السنة فقال له وكيف ذلك فقال له لا افتى بين يدي هاولاء الايمّة وهم مشايخ الاسلام حتّى تؤجّلهم سبعاً لينظروا وليتذكّروا فانّ الله سبحانه وتعالى قال ما فرّطنا في الكتاب من شىء فكيف لا تكون هذه النازلة

في كتاب الله الذي فيه بيان كلّ شيء فقال له سليم انّي اجّلتكم سبعاً لتبحثوا عن صحّة ما قال فقالوا كلّهم ايّها الامير ما كان جوابنا الان هو جوابنا بعد سبعة فقال ابن كمال لا بدّ من التاجيل وقصده والله اعلم اظهار مزيّته عند الملك وانّه اهتدى لما عجزوا عنه بعد التاجيل والتلوّم اذ لو ابدا ما عنده في المجلس لربّما ادّعى انّ ذلك يمكن الاهتداء اليه بالتامّل والتدبّر فاجّلهم الامير سبعاً فلمّا انقضت جمعهم وسالهم الامير فقالوا جوابنا فيما مضي هو جوابنا الان قال ابن كمال ايّها الامير انّهم ليقرءون في كتاب الله العظيم انّك تدخل انت وبنوك وجنودك مصر في هذه السنة الّا انهم لا يهتدون لفهمه فقالوا اين هذا فقال قوله تعالى ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر انّ الارض يرثها عبادي الصالحون فضحكوا منه وقالوا اين هذا ممّا نحن فيه فقال انّ قوله تعالى ولقد في قوّة لفظ سليم بحساب الجمل فانّ كلّ واحدة من الكلمتين عددها ماية واربعون فتكون اشارة الكلام سليم كتبنا في الزبور من بعد عشرين وتسعماية انّ الارض يرثها لانّ الذكر عدده بدون الة لتعريف كما تقدّم والارض في الاية الكريمة على قول كثير من المفسّرين هى ارض مصر والعباد الصالحون في هذا الوقت هم جنودك اذ لا اصلح منهم في عساكر المسلمين في اقطار الارض لاقامتهم سنّة الجهاد وفتحهم اكثر البلاد النصرانيّة وهم على مذهب اهل السنّة والجماعة وامّا غيرهم من الاجناد امّا من فسدت عقايدهم كاهل العراق واكثر اليمن والهند وامّا من ضعفت عزايمهم من اقامة شعاير الاسلام كالمغرب وامّا من استولت عليهم الدنيا كاهل مصر وبالغ في تقرير هذا المعنى وسرّ السلطان سليم بقوله وسلّم له الفقهاء حسن الاستنباط من لفظ الاشارة الّا انّهم قالوا انّ هذا لا يكفى في اباحة قتال من لم يخلع من طاعة ولاحارب احداً من المسلمين ولو كانت الاشارة القرءانيّة تدلّ انّ هذا سيكون فلا بدّ من اظهار وجه تعتمده في الفتاوي الفقهيّة فقال ابن كمال ايّها الامير انّ هذا سهل ايضاً وذلك بان

تبعث للغوري وتقول له انّي لمّا قدمت الى هذه الاوطان ولم يتيّسر الذي قدمت لاجله عزمنا على التوجّه للحجاز لاجل فريضة الحجّ وليس لنا طريق ولاتزوّد الّا من بلادكم فاردتّ ان تاذن لي في المرور والتزوّد فانّه لا محالة مانعك وصادّك عن المرور على بلاده فاذا صدّك عن البيت جاز لك قتاله وصار محارباً فاستحسن الفقهاء رايه في ذلك لانّ الحيل في مذهبهم سايغةٌ فكتب السلطان سليم للغوريّ بذلك فراجعه الغوريّ بجواب سّيىء وصرّح بمنعه وقال له لاتشرب من نيل مصر جرعة ماء الّا اذا مشيت على ظهور الموتى فقوي اذاً عزم السلطان سليم على غزو مصر وتهيأ لذلك فكان ما كان من استيلائه عليه ودخوله مصر بالسيف فعظمت مرتبة ابن كمال عند سليم وخيّره فيما شاء من الولايات فاختار الفتوى وتولّاها وحسنت مرتبته فيها وتصدّر لنشر العلم والله يتقبّل منه انتهى نصّ الرحلة المذكورة وكان دخول السلطان سليم لمصر عام عشرين وتسعماية كما قاله ابن كمال ولمّا دخل مصر قتل الخليفة العبّاسيّ وبه انقرضت دولة بنى العبّاس وقتل جماعة من العلماء والصلحاء وكثيراً من المجاذيب وارباب الاحوال لانّ الغوريّ خرج بهم يستنصر بهم فلم يُغْن ذلك شيئاً عن قدر الله عزّ وجلّ قُلْ فمن يملك من الله شيئاً ان اراد ان يهلك المسيح ابن مريم وامّه ومن في الارض جميعاً قلت فلعلّ الذي اخذ دولة السعديّين من الاية يشير لاستنباط ابن كمال فان شرفاء السعديّين نبع امرهم في حدود العشرين وتسعماية كما ياتي والعلم عند الله سبحانه ونظير هذا ما رايته بخطّ الفقيه قاضي الجماعة بالحضرة الاسماعليّة ابي عبد الله محمّد بن عبد الرحمن المجاصي قال استخرج بعض الاصحاب وهو السيد عبد الكريم السجلماسيّ الاربعة عشر ماية التى يقال لاتزيد عليها هذه الامّة الماخوذ من كلام دانيال النبيّ صلّى الله عليه وسلّم من قوله تعالى فقد جاء اشراطها

ذكر بقية الخبر عن دولة الامير ابى عبد الله

القايم بامر الله

قال ابن القاضي انّ السلطان ابا عبد الله القايم اجتمع بالشيخ الصالح ابي عبد الله محمّد بن مبارك المتقدّم الذكر بموضع يقال له اقّ من بلاد السوس الاقصى فتكلّم معه ثمّ رجع الى قراره من بلاد درعة وذلك عام خمسة عشر وتسعماية وفي العام المقبل بعده وهوعام ستّة عشر بعث له فقهاء المصامدة وشيوخ القبايل واستدعوه الى تقديمه عليهم وتسليم الامر اليه فلبّى دعوتهم واجاب رغبتهم وجاء معهم الى قرية يقال لها تد سي قرب تارودانت فبايعه الناس بها واصبحوا معه بقلوب متّفقة واغراض على الجهاد مجتمعة وموافقة فندب الناس الى مقارعة النصارى واجلائهم عن مرسى تفتنت فانتدب معه جموع حافلة من المسلمين وعمدوا الى النصارى فناوشهم القتال فاتاح الله له النصر ومزّق اشلاء الكفر بمخالب الظفر واخرج حيّة الغيّ من حجرها واعاد شريد الدين الى وطنه فلمّا راى ذلك المسلمون تيمّنوا بطلعته وتفاءلوا بطايره الميمون وزادهم ذلك محبّةً في جانبه وتعظيماً لمكانته ثمّ انّه رجع الى مكانه من تدسي المذكورة فوقع بينه وبين بعض الرؤساء هنالك منافرة ادت الى ارتحاله عنها ورجوعه الى درعة فلم يزل بدرعة الى عام ثمانية عشر فرجع الى مكانه من تدسي واطمانّت به دارها وازال الله ما كان ازعجه عنها ثمّ دعا الناس الى بيعة اكبر ولديه ابي العبّاس احمد الاعرج فبايعه الناس ثمّ جاء اشياخ حاحة والشياظمة لما بلغهم من حسن سيرته ونصر لوائه فشكوا له امر العدوّ الكافر في بلادهم وشدّة شوكته عليهم وطلبوا منه ان ينتقل اليهم هو وولده وليّ عهده المذكور فاجابهم الى ذلك وخرج معهم هو وولده الى محلّ يقال له افُغَل من بلاد حاحة وترك ولده

الاخر الاصغر ابا عبد الله محمّد المهديّ بالسوس يمهّد به المملكة ويقعّد اساس الملك ويباكر مع العدوّ ويراوحه وبقى الامام ابوعبد الله القايم بمكانه من افُغَل الى ان توفّى به رحمه الله عام ثلاثة وعشرين وتسعماية وفى هذه السنة استولى الترك على الجزائر وتلمسان وما والاهما وتملّكوا مدن المغرب الاوسط ولم يكن لهم قبل ذلك تملّك فى المغرب ولاصولة وسبب ذلك انّ الشيخ الامام العالم ابا العبّاس احمد بن القاضي الزواويّ كانت له همّة شديدة فى غزو الكفّار وقوّة شكيمة عليهم وله مع ذلك شهرة عظيمة فى بساط المغرب الاوسط وجباله وفيه قال الشيخ سيّدي عبد الله الهبطيّ مارايت احداً قام قيام الاراثة النبويّة على اصلها من سيرة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الا رجلَيْن سيّدي احمد بن القاضي فى زواوة وسيّدي سعيد بن عبد المنعم فى حاحة ولمّا راى ابو العبّاس المذكور قوّة شوكة النصارى الكفّار وانتشارهم فى بلاد المغرب وضعف المسلمون عن مقاومتهم كاتب الترك وعرّفهم عزّة هذه البلاد لما يسمع من شدّة الاتراك في المعارك ونجدتهم في الحروب والمضايق وارهابها للكفرة فقصد بحسن نيّته ان يرفعوا من عزّة الاسلام ما انخفض ويقوّوا من امره ما ضعف وقال انّ بلادنا بقيت لك اولاخيكَ اوللذئب فاقبل الترك نحوه مسرعين وجعل هو يحضّ الناس على اتباعهم والانخراط فى سلكهم والسمع والطاعة لاميرهم عروج التركمانيّ الذي هو الباي فيهم فدخل الترك الجزائر وتلمسان ثمّ انهم مكروا بالشيخ وغدروا به خوفاً على رياستهم فقتل رحمه الله شهيداً بعد الثلاثين والتسعماية ولمّا اخذ الترك تلمسان اكثروا فيها الفساد ونهب عروج اموال اهلها وادار عليهم دايرة البوار والسوء ومزّقهم كلّ ممزّق وخرج عنهم الى بنى يزناسن فاشفق منه اهل تلمسان وخافوا منه اذا رجع اليهم ان يستاصلهم فجاؤوا الى الشيخ الامام عالم تلمسان اذّاك ابي العبّاس احمد بن ملوكة فشكوا اليه ما نابهم منه وما يخافون من اوبته فانقبض الشيخ انقباضاً عظيماً ثمّ ضرب الارض بيده وقال والله لايرجع لتلمسان ابداً اعتماداً منه

على الله تعالى فكان كما قال وقتل عروج ومن معه من الاعلاج والاتراك فكان الشيخ ممّن قال في حقّه الصادق المصدوق صلّى الله عليه وسلّم انّ من عباد الله من لواقسم على الله في شيء لابرّه ولمّا توفّى السلطان ابو عبد الله بالمحلّ المذكور من بلاد حاحة دفن هنالك بازاء ضريح الوليّ الصالح والقطب الواضح شيخ الطريقة ومعدن الحقيقة ابي عبد الله سيّدي محمّد بن سليمان الجزوليّ مؤلّف دلايل الخيرات وذلك قبل ان ينقل الى مرّاكش ولمّا نقل الشيخ الجزوليّ على يد السلطان ابي العبّاس الاعرج نقل السلطان المذكور اباه المذكور ايضاً فدفن بازاء ضريح الشيخ الجزوليّ حيث هو اليوم من مرّاكش وكان سبب نقل الجزوليّ انّ عمر المغيطيّ الشياظميّ ويعرف بالسيّاف قدم بعد موت الشيخ مظهراً طلب ثار الشيخ الجزوليّ ممّن سمّه اذ مات مسموماً وصار يدعو الناس الى نفسه واخرج الشيخ من قبره وصار يحمله وانما توجّه به ينصره الله على اعدائه الى ان قتل عمر المذكور في قضيّة طويلة فلمّا ولى الاشراف خافوا ان يثور عليهم احد فيفعل مثل ما فعل عمر فنقلوه الى مرّاكش وقيل انّ الحامل لهم على نقله انّه ذكر لهم انّ تحته كنزاً فتعلّلوا للحفر عليه بقصد نقله الى بلادهم والله اعلم وكان ذلك في حدود الثلاثين والتسعماية والامر لله سبحانه

ذكر الخبر عن دولة السلطان ابى العبّاس

احمد المدعوّ الاعرج رحمه الله تعالى

ولد رحمه الله حسبما ذكره ابن القاضي عن بعض الثقات عمّن وثق به عن عبد العزيز بن يعقوب الاحسن سنة احدى وتسعين وثمانماية وبويع باشارة ابيه عام ثمانية عشر وتسعماية ولمّا اخذ له والده البيعة على الناس وتوفّى صرّف همّته الى تمهيد البلاد واقتناء الاجناد وتعبية الجنود الى الثغور واستكثر من شنّ

الغارات على العدوّ الكافر بتالمست واسفي وكان النصارى قد عاثوا في السواحل مفسدين وخيّموا بشطّ البحر من كلّ جهة وناحية فاجلاهم من تلك النواحي وطهّر الله من نجاستهم تلك البقاع والمناحي ويقال انّ النصارى دمّرهم الله لمّا راوا ما وقع بمن منهم بالسوس من القتل والسبي اخلوا ازمّور ورباط اصيلا من غير قتال فسارع جماعة من ابطال المسلمين وفيهم الشيخ ابو عبد الله محمّد بن ساسي والشيخ ابو محمّد عبد الله الكوش الى ثغر ازمّور يحرسونه حتّى يجتمع فيه من المسلمين ما يقمع الكفرة ويذود عن بيضة الاسلام مخافة ان يرجع اليه العدوّ بعد ذلك فكان من قدر الله انّ العدوّ رجعوا اليه فاخذوا جميع من وجدوه هنالك من المسلمين واسروا الشيخين المذكورين الى ان افتديا بعد ذلك ويقال ان الشيخ الكوش لمّا افتدي وعزم على الخروج وكان ملكاً لامراة نصرانيّة قالت له انّ عندي كتباً من كتب المسلمين فخذها فجعلها الشيخ في قفّة وحملها على راسه فكان من جملة تلك الكتب تنبيه الانام المعروف في الصلاة على خير الانام صلّى الله عليه وسلّم فكان ذلك اوّل دخوله لهذه البلاد على يد الشيخ المذكور ثمّ انّ السلطان ابا العبّاس احمد الاعرج لمّا بعد صيته وانتشر في البلاد ذكره وعلا امره وملك جميع البلاد السوسية هرع الناس اليه وقصدوه من كلّ جهة ووفدوا عليه وكاتبه امراء هنتاتة وملوك مرّاكش ودخلوا تحت طاعته فدخل مرّاكش في حدود الثلاثين والتسعماية ثمّ انّ المرينيّ بلغه الخبر وهو بفاس بدخول الاشراف الى مرّاكش فاقبل عليه في جموع عديدة مع وزيره ابن عمّه مسعود بن الناصر فلمّا راى السلطان ابو العبّاس ما لا طاقة له به من المرينيّ تحصّن منه بمرّاكش وشحن اسوارها وملاها من الرماة ونصب الانقاض ودام الحصار كذلك ايّاماً فيحكى انّه قيل للشيخ العارف بالله القطب الكبير ابي محمّد سيّدي عبد الله الغزوانيّ وكان اذّاك قد استوطن مرّاكش بعد ما وقع له من بنى وطّاس ما وقع من سجنهم له ولاصحابه وهو الذي لمّا توجّه الى مرّاكش من فاس اخذ برنوسه

في يده وجعل يشير به وهو يقول سيري معي ياسلطنة فاس الى مرّاكش ثمّ انّ اهل المدينة سئموا من الحصار فركب مع اصحابه وخرج من باب مرّاكش المعروف بباب الشيخ ابي العبّاس السبتيّ فوجد رماة المرينيّ يرمون من بالاسوار من اهل المدينة فوقف الشيخ يعتبر فجاءت رصاصة وضربته في صدره وخرقت الجبّة عليه والتصقت بلحمه وصارت كالعجين كانّها وقعت في صخرة صمّاء فقبض الشيخ عليها بيده وقال هذه خاتمة حربهم ثمّ دخل الشيخ المدينة فوردت الانباء على المرينيّ في تلك الليلة بانّ اولاد عمّه قاموا عليه بفاس ونبذوا دعوته فاصبح راحلاً عن مرّاكش وظهر مصداق ما قال الشيخ الغزوانيّ ولم يعد للمرينيّ وصول مرّاكش بعد ذلك ولا بلوغ لاحوازها بل كان السلطان ابو العبّاس يتلاقى معه في تادلا واحوازها وكانت بينهما معركة بموضع يقال له انماي وذلك في ذي القعدة من عام خمسة وثلاثين وتسعماية فافترقا على اصطلاح ثمّ حرّك له المرينيّ ايضاً فا لتقيا بابي عقبة احد مشارع وادي العبيد فوقعت الهزيمة على المرينيّ وكان يوم الجمعة ثامن صفر عام ثلاثة واربعين وتسعماية ولمّا راى الناس ما وقع بين السلطانين المرينيّ وابي العبّاس الاعرج من التهالك على الملك والتقاتل عليه وفناء الخلق بينهم دخلوا بينهما بالصلح والتراضي على قسمة البلاد وحضر لذلك جماعة من العلماء والصلحاء منهم سيّدي عمر الخطّاب دفين جبل زرهون وسيّدي المحجوب المعروف بابي الرواين وكان رجلاً مجذوباً ذا قلق وانزعاج فجعل الناس يوصونه بالسكوت مخافة ان يفسد على الناس شغلهم فلمّا دخلوا على السلطان ابي العبّاس الاعرج واخيه محمّد الشيخ واعلموهما بما قدموا لاجله وجدوا فيهما فظاضة وغلظة وقلّة مبالاة بذلك وامتنعا من المساعدة على ما اراد الناس فحلف الشيخ سيّدي عمر الخطّاب لادخلتما فاساً ما دمت على وجه الارض فما دخلاها حتّى مات الشيخ الخطّاب بعد مدّة فكان بعضهم يقول لو علم بنو مرين شيأً ما تركوا سيّدي

عمر الخطّاب يدفن ولرفعوه في تابوت على الاعناق لانّه قال ما دمت على وجه الارض هكذا ساق هذه الحكاية صاحب ممتع الاسماع وذكر في شرح زهرة الشماريخ انّ الصلح انبرم بين السلطانين على انّ للاشراف من تادلا الى السوس وللمرينيّ من تادلا للمغرب الاوسط وانّ من حضر الصلح المذكور قاضي الجماعة بفاس ابو الحسن عليّ بن هارون المطغريّ بالطاء مطغرة تلمسان والامام الشهير ابو مالك عبد الواحد بن احمد الونشريسيّ وغيرهما من مشايخ فاس ويذكر انّه لمّا تواطأت كلمة الحاضرين على الصلح وعقدوا شروطه وهدأت الاصوت وسكن اللجاج اوتي بدواة وقرطاس ليكتب الصلح فما وضعت بين يدي احد من العلماء الحاضرين الّا وجم وانقبض ودفعهما عن نفسه استحياء في ذلك المحفل ان يكتب ما لا يناسب الجهتَيْن فقام قاضي الجماعة المذكور واخذ الدواة والقرطاس واساودها ووضعها بين يدي ابي مالك المذكور فانشا ابومالك في الحين خطبة مليحة ونسج الصلح على منوال عجيب واخترع لذلك اسلوباً بديعاً تحيّر فيه الحاضرون وعجبوا من ثبات جاشه وجموع قريحته في مثل ذلك المشهد العظيم الذي تخرّص فيه السن الفصحاء هيبةً واكباراً فقام قاضي الجماعة وقبّله بين عينيه وقال له جزاك الله عن المسلمين خيراً وما هو باوّل بركاتكم يا آل ابي بكر وكان ذلك كلّه في حدود اربعين وتسعماية

ذكر الخبر عن خلع السلطان ابى العبّاس الاعرج

وسجنه الى وفاته وسبب ذلك

كان ابو العبّاس الاعرج رحمه الله من السلطنة وضخامة الدولة بالمحلّ الذي وصفناه قبل وكان اخوه محمّد الشيخ اصغر منه سنّاً تحت طاعته وواقفاً عند

اشارته وكان ابو العبّاس يستشيره ويفاوضه في مهمّات الامور وعظايم النوازل ويستضئ برايه في ظلم المعارك وكان الشيخ ثاقب الذهن نافذ البصيرة مصيب الراي حازماً في اموره فكانت كلمتهما واحدة ورايهما متّفقاً الى ان دخل بينهما الوشاة فافسدوا ما بينهما فتغيّرت قلوبهما وتبدّل الامر بينهما حتّى افضى بهما الحال الى المقاتلة فانعزل كلّ منهما بطائفة من الجيش وتقاتلا مدّة مديدة فغلب الشيخ على اخيه ابي العبّاس ونزع خاتم الملك من يده واستولى على جميع ما كان بيده من الذخائر والعدد وقبض عليه فسجنه هو واولاده بمرّاكش فكان يجري عليه الجرايات العظيمة ويعامله باحسن المعاملة وكان ذلك سنة ستّ واربعين وتسعماية فلم يزل ابو العبّاس في حكم الثقاف الى ان قتلت الاتراك بالسوس الاقصى اخاه محمّداً الشيخ المذكور كما سياتي في اواخر ذي الحجّة من عام اربعة وستّين وتسعماية فبلغ خبر مقتله لخليفته بمرّاكش القايد علّى بن ابي بكر ازيكّ فاسرع بقتل ابي العبّاس واولاده ذكوراً واناثاً وصبيةً جميعاً خشية ان يخرجوه اهل مرّاكش من السجن فيبايعوه وكان ابن مخدومه ابو محمّد عبد الله الغالب غائباً بفاس خليفة ابيه بها ووليّ عهده من بعده كما ياتي ان شا الله مستوفىً وذكر بعضهم انّ الشيخ العارف بالله الوليّ الشهير سيّدي ابا عمرو القسطليّ الاندلسيّ المرّاكشيّ دخل ذات مرّة على السلطان ابي العبّاس الاعرج قبل ان ينتزع الملك من يده فاغلظ له الشيخ في القول وواجهه بما يكرهه فلمّا خرج من عنده لامه بعض الاقارب وقال له كيف تواجه السلطان بهذا وحذّره من وثبات الملوك فقال له الشيخ ابو عمرو وكيف اخاف من المذبوح والله انّي لارى الذبحة في عنقه من الاذن الى الاذن والله ان لم ادفن جيفته ما دفنها احد فكان الامر كذلك فلمّا قتل ابو العبّاس واولاده لم يتجاسر احد على دفنهم حتّى دفنهم الشيخ ابو عمرو بمقربة من ضريح الشيخ الامام ابي عبد الله سيّدي محمّد بن سليمان الجزّوليّ وهى القبّة القريبة من ضريح الامام المذكور وتسمّى بقبور الاشراف فكانت مدّة خلافة ابي العبّاس اثنتين وعشرين

سنة قاله ابن القاضي وكان بين قتلـه وقتل اخيـه قبله ثلاثة ايّام ومن حجّابه محمّد بن عليّ الانكرطي ومحمّد بن ابي زيد المترازيّ ومن كتّابه سعيد بن عليّ الحامديّ رحمة الله تعالى عليهم اجمعين والملك والبقاء والدوام لله وحده

ذكر الخبر عن زيدان بن ابى العبّاس

الاعرج

قال صاحب درّة الحجال اختلف هل بويع لزيدان هذا بعد وفاة ابيه ابي العبّاس ام لا وقال صاحب زهرة الشماريخ كان ولده زيدان بسجلمـاسة فبويع بها فلم يتمّ له الامر وتوفّى سنة ستين وتسعمايـة

ذكر الخبر عن اوّليّة السلطان ابى عبد الله محمّد الشيخ

ابن امير المؤمنين ابي عبد الله القايم بامر الله

كانت ولادته رحمه الله سنـة ثلاث وتسعين وثمانماية ويلقّب بامغار ومعناه بلغة البربر الشيخ ويلقّب من الالقاب السلطانيّة بالمهديّ لقّبـه غير واحد من الايمّة به ونشا رحمه الله في عفاف وصيانة وعنا بالعلم في صغره وتعلّق باهله فاخذ عن جماعة من الشيوخ وبلغ في العلم درجة الرسوخ حتّى كان يخالف القضاة في الاحكام ويردّ عليهم فتاويهم فيجدون الصواب معه وقع له ذلك مراراً وله حواشي على التفسير وذلك ممّا يدلّ على غزارة علمـه قال في المنتقى كان اديباً متفنّناً حافظاً حدّثني شيخنـا ابو راشد انّه كان ممتع المجالسـة والمذاكرة نقيّ الشائبة عظيم الهيبة مـا رايت بعد شيخي ابي الحسن عليّ بن هارون احفظ منه

للمقطّعات الشعريّة وكثيراً ما كان ينشد من الشعر بيتاً واحداً وهو

النـاس كالنـاس والايّام واحدة   والدهر كالدهر والدنيا لمن غلب

وكان حافظاً للقرءان وفهمه جيّداً ويحفظ ديوان المتنّبي عن ظاهر قلب خلافاً لصحيح البخاريّ ويستحضر ما للناس عليه ويقول في شرح ابن الحجر ما صنّف في الاسلام مثله عارفاً بالتفسير وغيره وكان يحضّ على المشاورة ويقول لاسيّما في حقّ الملك وينشد قول الشاعر

ومن جهلت نفسه قدره   راى غيره منه ما لا يرى

ويقول ينبغي للملك ان يكون طويل الامل فان طول الامل وان كان لا يحسن من غيره فهو منه صالح لانّ الرعيّة تصلح بطول امله وكان يقول من طول امله اخذ تلمسان وسبتة وغيرها . وكان سبب حفظه لديوان المتنّبي ما رايته في الدوحة قال مؤلّفها اخبرني الوزير المعظّم ابو عبد الله محمّد ابن الامير ابي محمّد عبد القادر ابن السلطان ابي عبد الله محمّد الشيخ الشريف المذكور قال لمّا غدرت قبيلة المنابهة لجدّي السلطان المذكور وانجاه الله من غدرتهم عرّف الشيخ ابا محمّد بن عمر بذلك فكتب اليه وهو يقول له اين انت من قول ابي الطيّب المتنّبي

غاض الوفاء بما تلقّاه من احد   واعوز الصدق في الاخبار والقسم

قال فعكف السلطان المذكور على ديوان المتنّبي حتّى علق بحفظه كلّه ولم يضرب عنه بيت واحد منه . وابن عمر المذكور هو احد اشياخ السلطان المذكور

وهو عبد الله بن عمر المطغريّ اخذ عن ابي عبد الله الغوريّ والونشريسيّ مؤلّف المعيار وغيرهما وكان علّامة حافظاً توفّى ببلاد درعة سنة سبع وعشرين وتسعماية قاله سيّدي احمد بابا في كفاية المحتاج والذي عند صاحب الفوايد انّه توفّى سنة ثمان وخمسين وتسعماية وهو اشبه بالصواب وكان ابن عمرو شديد المحبّة للسلطان ابي عبد الله واخيه السلطان ابي العبّاس الاعرج وتقدّم في كلام صاحب الدوحة انّ بسببه كانت دعوتهما وقد وفد السلطان ابن عمر لسوس على تلميذه السلطان ابي عبد الله مراراً وقال ابو زيد في الفوايد اخبرنى ابومحمّد عبد الله بن مبارك الافاونيّ قال سمعت من القاضي ابي عثمان الهوزاليّ يقول لمّا رجع ابن عمر المذكور من وفادته الى درعة وقد ساله فقهاؤها على اهل سوس فقال لهم وجدت فقهاءهم على ضعيف الفتاوي وفقراءهم على كثرة الدعاوي وعامّتهم على كثرة المساوي .ومن فوايد ابن عمر المذكور انّه سئل عن مدّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فاجاب بما نصّه وعليكم السلام معشر السادات ورحمة الله وبركاته وبعد فقد سالتموني عن مقدار الصاع النبويّ فاقول وبالله تعالى التوفيق مبلغ علمنا وآخر نظرنا مع طول بحثنا انّ من اراد معرفته تحقيقاً ومعرفة مقداره عياناً فليعدّ من الحبوب الشعير الوسط المقطوع الاطراف اربعة وثلاثين الف حبّة وستّماية حبّة وحبّة واحدة وثلاثة اخماس الحبّة لانّ الرطل ماية وثمانية وعشرون درهماً بالدرهم السنّيّ والدرهم السنّيّ خمسون وخمسا حبّة ضعف ما في المدّ اربع مرّات تكن الجملة ما ذكرنا في الصاع آنفاً وانّما الجاني هذا العمل انّي لمّا جئت من فاس المحروسة بالمدّ والصاع وبنصفه لقيت شيخنا الفقيه الجليل ابا علىّ الحسن بن عثمان بن عبد الله التامليّ فقال هل اتيتنا من فاس بصاع النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وبمدّه فقلت قد اتيت بهما فقلت لصاحبي اخرجهما من حوايجنا فلمّا نظر اليهما ضحك كالمستهزئ فقال وربّ الكعبة ما جئت بمدّه ولا صاعه صلّى الله عليه وسلّم قد غلطوا فيهما غلطاً متفاحشاً فكانّه استكبرها وكنت

اذاك معتقداً فاساً واهله فقلت اتق الله ايها السيد كيف تنسب الغلط الى مدينة الامام والمسلمين وهذا الطابع فيهما وقد جعلوا العالم النحرير على النجّارين فلا يبيعون صاعاً ولامداً حتّى ينزل طابعه فيه بعد امتحانه فقال لي ردّ الىّ بالك فشان غلطهم انّهم اعتمدوا قول الفقهاء في المدّ وزن رطل وثلث فوزنوهما من الاشياء الخفيفة ارايت لو وزنوهما من التبن كان اكبر واكبر فظهر لي صحّة قوله فرجعت الى طلب التحقيق فاعتمدت فيما ذكرت على ما ذكره ابو راشد القفصيّ والصاع الذي جئت به من فاس في ملئه ثماني عشر قبضة وملء هذا اثنا عشر قبضة فبينهما مقدار الثلث فمن اراد الاحتياط فليخرج زكاة الفطر بالاكبر ويعتبر بلوغ النصاب بالاصغر . ومن اشياخ السلطان ابي عبد الله ايضاً الامام الشهير الصدر الكبير شيخ الجماعة بالصقع السوسيّ ابو علىّ الحسن بن عثمان التاملىّ وذكره في المنتقى وكان عالماً علّامة حافظاً متابّداً على التعليم مجانباً للراحة كثير السهر والتدريس والعبادة وكان اذا غلبه النوم يضع راسه على حجر لتوقظه قسوة الحجر ولا يستغرق النوم ويطول في مجلس تدريسه حتّى كان يقرا في المجلس الواحد اربع عشر دولة وكان حافظاً لتوضيح خليل لكثرة ملازمته في النسخ والتدريس يقال انّه نسخه اربعة عشر مرّة وكان حين كونه بفاس يتعيّش بنسخه ونسخ الرسالة قال المنجور في فهرسته حدّثنى بذلك كلّه ابن اخيه الثقة المشارك النجيب الخير الناصح الصالح ابو الحسن علىّ بن سليمان بن عبد الله بن عثمان اعانه الله على ما هو بصدده من الاخذ بايدي المسلمين . وكان ابو علىّ رحل لفاس فاقام بها مدّة واخذ بها عن جماعة كالامام الونشريسيّ مؤلّف المعيار والامام ابن غازي وغيرهما ثمّ رجع لبلده سوس ولمّا خرج من فاس شيّعه شيخه الونشريسيّ وذكر في المنتقى قال حدّثنى ابو راشد انّه لمّا اكمل على ابن غازي قراءته واراد الرجوع الى وطنه فجاء للشيخ ليودّعه فاخذ الشيخ ابن غازي بيده اليمنى وقال له استودع الله دينك وامانتك وخواتم عملك ثمّ قال الشيخ ابن غازي بعد ذلك الان اجزأت فاس اي

ولدت الاناث ومنه على تاويل وجعلوا له من عباده جُزُءاً اي اناثاً . ولاهل سوس اعتناء عظيم بفتاويه رحمه الله وقد افتى باباحة كل ما صيد بالرصاص وخالفه بعض اهل عصره حسبما في نوازل ابي مهديّ الشجتانيّ ومن بعض اجوبته ما نصّه احباس المسجد تزكّى على ملك المحبّس فان حبّس واحد ما فيه النصاب زكّى والّا فلا سواء حبّس على مصالح المسجد اوالعلم لقولهم فالمعتبر الجملة اي جملة ما حبّس واحد لاجملة احباس المسجد وامّا ما اشتري بالغلّات فلا يزكّى فانّها لم تكن ملكاً للمحبّس والمسجد غير مكلّف والمحبّسون اموات غير مكلّفين وبقى النظر فيما اذاكان المحبّس حيًّا . وفوايده رحمه الله كثيرة توفّى سنة اثنتين وثلاثين وتسعماية ومن اشياخ السلطان ابي عبد الله ايضاً الامام العلّامة المحقّق ابو عبد الله محمّد بن احمد اليستثنيّ اخذ عنه علوماً منها التفسير قال المنجور وكنت انا قاريه بين يدي امير المؤمنين العالم العابد المقدّس المجاهد ابي عبد الله المذكور وكان شديد المحبّة له قال المنجور ولمّا توفّى الشيخ وذهبت مع ولده صبيحة تلك الليلة التى توفّى فيها لنخبر السلطان بوفاته وجدناه يقرا ورده بجامع المرينيّ فخرج السلطان الينا وهو يبكى بصوت عالٍ يفجع من سمعه حتّى راينا فيه العجب وما سكت الّا بعد مدّة لما كان يعلم منه من صحّة الدين ومتانته والنصح لخاصّة المسلمين وعامّتهم وحضر جنازته توفّى رحمه الله عام تسعة وخمسين وتسعماية وللسلطان رحمه الله عدّة اشياخ وفيما ذكرناه كفاية والله وليّ التوفيق

ذكر الخبر عن بيعة السلطان ابى عبد الله
محمّد الشيخ وتمهيده البلاد

قال في شرح درّة السلوك كانت بيعة ابي عبد الله المهديّ بمرّاكش سنة احدى وخمسين وتسعماية فاستولى على البلاد التى كانت بيده وبيد اخيه ابي العبّاس

المخلوع من اقليم تادلا الى وادي نول ثمّ تحرّكت فيه الهمّة السلطانيّة والشهامة الهاشميّة وطمح بصره الى الزيادة في مملكته وسما الى الوغول في مداين المغرب وقُرَاه فتوجّه الى مقاتلة بقايا بنى مرين ونكث ما بينه وبينهم من الصلح المتقدّم فرُموا منه بداهية دهيا ووقعت عليهم منه صاعقة صمّاء وصار يستسلبهم من ملكهم وما بايديهم بما اتاح الله من النصر الى ان استولى على ما بايديهم واوّل ما ملك من مداين المغرب مدينة مكناسة افتتحها سنة خمس وخمسين وتسعماية بعد حصار ومقاتلة قال صاحب الدوحة ولمّا تغلّب على مكناسة والحّ بالمطالبة لاهل فاس جاءه الشيخ ابو الرواين وقال له اشتر منّى مدينة فاس بخمسماية دينار فقال السلطان ما انزل الله بهذا من سلطان هذا شيء لم تات به الشريعة فقال والله لادخلتها هذه السنة فبقى اشهراً والامر لايزيد عليه الّا تعصّباً فقام الامير ابومحمّد عبد القادر وقال لابيه يا ابت افعل ما قال لك الشيخ ابوالرواين فانّه رجل مبارك من اولياء الله تعالى وما زال به كذلك حتّى اذن له في الكلام معه فكلّمه الامير عبد القادر فقال له ادفع المال فدفعه له فقال له عند تمام السنة ان شاء الله يقضى الله الحاجة وامري بامره سبحانه ثمّ انّ الشيخ ابا الرواين فرّق المال من يومه على الضعفاء والمساكين ولم يمسك لنفسه منه حبّة واحدة ومن ذلك اليوم والسلطان المذكور في الظهور الى ان تمّت السنة فدخل فاساً كما قال . قال صاحب ممتع الاسماع والشيخ ابو الرواين هذا كان احد الاسباب في تمكين السلطان المذكور من الملك واخراج بنى مرين منه فانّه لمّا راى مرج الناس وهيجان النصارى دمّرهم الله على بلاد الاسلام جعل ينادى ياحران جئ فانّي اعطيتك الغرب والحران هو احد اولاد السلطان صاحب الترجمة وهو اكبر اولاده حسبما ياتي ذكرهم وهو كان يتقدّم للحروب ولم يفتح والده من البلاد الّا ما فتح له على يديه ثمّ انّ الشيخ ابا الرواين بعد ان قال ماقال راى بعض الاكابر الاشياخ من اهل وقته وضع يده على بنى مرين قيل هو الشيخ ابو عمرو عبد الواحد الزعريّ وقيل هو الشيخ ابو العبّاس احمد بن الشاهد المصباحىّ احد اولاد مصباح سلالة الاولياء ركب بغلة

وذهب اليه فلمّا بلغ داره وجد ببابها ولداً له فقال له ياعمّ ابا الروابن اعطنى هذه البغلة فقال له هى لك فنزل عنها ومكّنه منها فدخل الى والده الشيخ واعلمه بذلك فخرج الشيخ وقال له بعد السلام عليه ما ثمن تلك البغلة فقال له ان ترفع يدك عن هولاء الناس بنى مرين فقال له قد رفعتها ومثل هذا تقدّم عن الشيخ ابي محمّد عبد الله الغَزَوانيّ وذكر ايضاً عن ابي الحسن علىّ الصنهاجىّ انّه كان يوماً ينادي بقنطرة الصّباغين بفاس اخرجوا يا بنى مرين والله مانترككم ببلدنا ابداً وكان دخول السلطان ابي عبد الله محمّد الشيخ المهديّ لمدينة فاس سنة ستّ وخمسين وتسعماية قال ابن القاضي فى شرح درّة السلوك ويوافقه فى التاريخ لمّا دخل مدينة فاس من القول بلدة سرك بحساب الجمل . ولمّا تملّك مدينة فاس وحلّ بها والقى فى دار ملكها عصا التسيار طمحت به الهمّة العالية الى تلمسان فانصرف اليها بجموع عديدة فملكها ونفى عنها الاتراك وانتشر حكمه فى اعمالها ونواحيها الى وادي شلف وكان دخوله لتلمسان يوم الا ثنين الثالث والعشرين من جمادى الاولى عام سبعة بموحّد ة وخمسين وتسعماية ثمّ رجع الى فاس وقد اتّسعت له مملكة المغرب ودانت له البلاد كلّها واشتغل بترتيب ديوان الملك وتحسين شارة السلطنة وضبط امور الخدم والعبيد ويقال انه لمّا دخل مدينة فاس وعليه وعلى اصحابه المدرعات الصفر وسمة البداوة لايحة عايهم حماوا انفسهم على التادّب باداب الحضرة والتخلّق باخلاق المدينة وذكر انّ ملك الاشراف انّما تاتّي على يد رجل وامراة الرجل قاسم الزرهونيّ فانّه عمل للسلطان محمّد الشيخ هيئة السلاطين في ملابسهم ودخولهم وخروجهم وجلوسهم واداب اصحابه وكيفيّة منواهم بين يديه والمراة العريفة بنت نجّو فانّها عملت سيرة الملك في داره وحالته في الطعام واللباس وعادته مع النساء وغير ذلك فاكتسى ملك الشيخ بذلك طلاوةً وزاد في عيون الناس العامّة حلاوةً بسبب جريانه على العوايد الحضريّة فلم يزل ابو عبد الله يدور على مدن المغرب ويطيل الاقامة بفاس الى ان ورد عليه ابوحسّون من تلمسان واخرجه من فاس والله غالب على امره

ذكر الخبر عن دخول ابى حسّون المرينى مدينة فاس

واخراجه ابا عبد الله محمّداً الشيخ منها

كان ابو حسّون المعروف بالبادسىّ ابن الشيخ محمّد بن ابي زكري المرينىّ الوطّاسىّ حين اخرجه ابو عبد الله الشيخ من دار ملكه فاس وتملّكها كما ذكرنا قبل مستوفىً مرّ متوجّهاً الى الجزائر حقناً لدمه وطلب الاغاثة ولم يزل عند ترك الجزائر يفتل لهم في الغارب والسنام ويحسن لهم بلاد المغرب ويعظّمها في اعينهم ويقول لهم انّ ملكها اليوم استلبنى ملكى وملك اباءي وغلبنى تراث اجدادي فلو ذهبتم معى الى قتاله عسى الله ان يتيح بنا النصر عليه ويرزقنا الظفر به والغلبة عليه ولا تعدمون انتم مع ذلك منفعة من ملء ايديكم غنايم وذخاير وواعدهم بمال جزيل فاقبلوا معه في جيش حفيل وباشتهم صالح التركمانيّ الى ان دخلوا مدينة فاس وخرج ابو عبد الله محمّد الشيخ هارباً بعد حروب عظيمة ومعارك شديدة وكان دخول ابي حسّون لفاس ثالث صفر سنة احدى وستّين وتسعماية ولمّا دخل فاساً فرح به اهلها فرحاً شديداً وترجّل هو عن فرسه وصار يعانق الناس كبيراً وصغيراً وشريفاً ومشروفاً وهو يبكى على ما دهمه واهل بيته من فتن الاشراف واستبشر الناس بقدومه وتيمّنوا بطلعته ولم يلبث ابو حسّون الّا يسيراً فكثرت شكاية الناس له بالاتراك وانّهم مدّوا ايديهم للحريم وعتوا في البلاد فبادر بدفع ما اتّفق معهم عليه من المال لهم واخرجهم من فاس وتخلّف منهم نفر يسير ثمّ انّ ابا عبد الله محمّداً الشيخ المهديّ لمّا وصل لمرّاكش بعد الكاينة عليه صرّف همّته لاستنفار القبايل وتعبية الاجناد وابقاء الابطال فاجتمع له من الجيوش ما تقوّى به عضده فتوجّه به الى فاس فخرج ابو حسّون فى رماة فاس وما انضاف اله من جيش المغرب فكانت

الوقعة على ابي حسّون فتحصّن بفاس وحوصر فيها .فلم يزل ابو عبد الله محمّد الشيخ محاصراً له الى ان قتل ابو حسّون وكانت الوقعة بينهما بموضع يقال له مسلّمة ودخل السلطان ابو عبد الله مدينة فاس يوم السبت الرابع والعشرين من شوال سنة احدى وستّين وتسعماية هكذا ذكره بعضهم والذي عند صاحب الدوحة انّ دخول ابي حسّون لفاس كان في المحرّم من سنة ستّين وتسعماية وانّ رجوع السلطان ابي عبد الله ودخوله لفاس كان في ذي القعدة سنة ستّين وتسعماية وابو حسّون المذكور هو علىّ بن محمّد بن ابي زكري الوطّاسىّ وكان بويع بفاس سنة اثتين وثلاثين وتسعماية ثمّ قبض عليه ولد اخيه احمد بن محمّد وخلعه واشهد عليه بخلعه وبويع احمد بن محمّد يوم خلع محمّد ابي حسّون اخر ذي الحجّة من السنة المذكورة قال ابن القاضى وقد رايت البيعة التى كتبت له بخطّ الامام عبد الواحد الونشريسىّ من انشائه وعليها خطوط جماعة من فقهاء فاس كابي العبّاس الحبّاك والفقيه المواسى وغيرهما . وانظر ما وجه كتب البيعة لاحمد مع انّ خلع ابي حسّون لا موجب له والونشريسىّ من اهل الورع كما ستراه عن قريب ولعلّه لامر لم يظهر لنا ولم يزل السلطان احمد متمادياً على الملك الى ان اسره السلطان ابو عبد الله محمّد الشيخ ودخل فاساً وفرّ ابو حسّون للجزائر وقبض السلطان ابو عبد الله على الوطّاسيّين وبعث بهم مصفدين لمرّاكش ثمّ غدر بهم فيما قيل بعد ان اظهر العفّة عنهم وسرّح السلطان احمد من وثاقه والله غالب على امره وفي دخلة السلطان ابي عبد الله الثانية امر بقتل الفقيه الصالح قاضى الجماعة بفاس ابي محمّد عبد الوهّاب ابن محمّد الزقاق لانّه اتهمه بالميل الى ابي حسّون ويحكى انّه لمّا مثل بين يديه قال له اختر بايّ شىء تموت فقال له الفقيه اختر انت لنفسك فان المرء مقتول بما قتل به فقال لهم السلطان اقطعوا راسه بشاقور فكان من قدر الله سبحانه انّ السلطان قتل به ايضاً كما سياتي بعد ذلك من صدق فراسة الفقيه ابي محمّد وكان ابو محمّد هذا فقيهاً مشاركاً ووقعت بينه وبين معاصره الامام اليستثنىّ منازعة

في مسئلة خلف الوعيد من الله فزعم ابو محمّد انّه يصحّ من الله خلف الوعيد وخالفه اليستثنّ والّف كلّ منهمـا فى المسئلة والصواب مع اليستثنّى وكان قتل ابي محمّد فى ذي القعدة من عام احد وستّين وتسعماية وفى هذه الدخلة ايضـاً امر بقتل خطيب مكناسة الزيتون صـانها الله الشيخ الفقيـه ابي الحسن علىّ حرزوز المكناسىّ لكلام بلغه عنه وانّه كان يذكره فى خطبته يحذّر النـاس من اتباعه والانقياد له ويقول فى خطبته جاءكم من سوس الاقصى البعاد واذا تولّى سعى فى الارض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحبّ الفساد واذا قيل له اتّق الله اخذته العزّة بالاثم فحسبـه جهنّم ولبئس المهـاد وكلام اخر لم اتحقّق لفظه فقتله رحمه الله فى ذي القعدة من السنة المذكورة وذكر فى الدوحة انّ سيّدي ابا الرواين بعث الى ابي الحسن حرزوز وهو يقول له اشتر نفسك منّى فلم يكترث بكلامه فقال ابو الروابن للرسول ارجع اليه وقل له انّه سيقتل ذبيحاً هو وولده ويعلّقان على باب دارهما فى القرب فبلغ ذلك الفقيه ابا الحسن حرزوز فذهب مسرعاً حتّى اتي الشيخ ابا الرواين فقـال له يا سيّدي ما هذا الذي تقول فقـال هفوة صدرت ومشيئة سبقت فقال له يا سيّدى نفعل كلّ ما تقول فقال له ما يكون الّا ما كان ثمّ تراخى الامر مدّة من ثلاثة اشهر فكان الامر كما قال . ويحكى شائعاً انّ ولد ابي الحسن حرزوز كان يوماً جالساً بباب داره وكان فى الطريق طين فمرّ ابو الرواين وعليـه ثيـاب رفيعة كانّه ذاهب لصلاة الجمعة فقال ولد ابي الحسن ان كنت تحبّ الله فتمرّغ فى هذا الطين لما قدّم له الله قال فجعـل الشيخ يتمرّغ فى الطين ثمّ قام فقـال له اقنعت قال نعم فقال له هكذا تتمرّغ انت وابوك فى الحديد وكان كما قال . وقد قتل السلطـان ابو عبد الله محمّد الشيخ المهدىّ ايضـاً قبل دخلته الاولى لفاس الفقيه الامام المفتى الخطيب ابا محمّد عبد الواحد ابن العلّامة الامام ابي العبّاس احمد الونشريسىّ وذلك انّه لمّا الحّ بالمطالبة لاخذ فاس وصعب عليه امرهـا قيل له لا سبيل لك اليها ولا يبايعك اهلها الّا اذا بايعك ابن الونشريسىّ فبعث اليه ورغبه فقال له

بيعة هذا السلطـان يعنى ابا العبّاس احمد بن محمّد الوطّاسىّ فى رقبتى ولا يحلّ لي حلّ ربقتها الّا بموجب شرعىّ وهو غير موجود فلمّا امتنع ابن الونشريسىّ من الاجابة امر السلطـان محمّد الشيـخ جماعـة من المتلصّصين ان ياتوا به من فاس ويخرجوه بظاهرها فاتوه وراودوه ان يذهب معهم فلمّا امتنع من الذهاب معهم قتلوه وذكر انّ السلطان ابا عبد الله محمّد الشيـخ كتب لاهل فاس وهو يقول لهم ان دخلت فاساً صلحاً ملاتها عدلاً وان دخلتها عنوةً ملاتها قتلاً فاجابه ابن الونشريسىّ بابيات اغلظ له فيها واوّلها

كذبت وبيت الله لا تحسن العدلا   ولاخصّك المولى بفضل ولا اولى
ومـا انت الّا مسرف ومعـاند   تمثّـل للجهّـال بالـسمة المثـلى

فحقّق ذلك عليه السلطان وامر بقتله وحكى انه كان يقرا صحيـح البخاريّ بين العشاءين بجـامع القرويّين وينقل عنـه كلام ابن حجر فتـح البـاري عليه ويستوفيـه لانّه شرط المحبّس فقـال له ابنـه يا ابت انيّ سمعت انّ اللصوص ارادوا الفتك بك الليلة فى مجلسك فلو تاخّرت عن القراءة الليلة فقال له اين وقفنا من القراءة فى البخاريّ فقال له ولده على كتاب القدر فقال له كيف نفرّ من القدر اذا انطلق بنا الى الميعاد فلمّا افترق المجلس خرج الشيـخ من باب الشمّاعين احد ابواب المسجد المذكور فضرب احدهم يده فقطعها ثمّ جهزوا عليه رحمه الله هنالك بالباب المذكور فى ذي الحجّة سنة خمس وخمسين وتسعماية قال المنجور فى فهرسته واشتهر عن الفقيه الصالح ابي عبد الله محمّد بن ابراهيم المدعوّ بابي شامة انّه راى هذا الشيـخ فى المنام بعد مقتله فساله عن حاله وما فعل الله به فانشا يقول

لـقد عمّنى رضوان ربّي وفضله   ولم ار الّا الخير فى وحشة القبر

وانّي لاسال الالاه بفضله ليحفظني يوم الخروج الى الحشر
وما بعد ذاك من امور عريضة كنشر الكتاب والجواز على الجسر
بجاه النبيّ الهاشميّ محمّد واله والاصحاب ذي الشرف الغر

وكان ابو محمّد عبد الواحد الونشريسيّ رحمه الله امام وقته غير مدافع صحيح الدين متين الورع مهيباً ذا سمة حسن وحال مستحسن فصيح العبارة متقدّماً على اهل عصره في صناعة الانشاء وعقد الشروط والوثايق ولمّا زوّجه والده الامام الكبير مؤلّف المعيار وهو شابّ واعرس اطلق الفقيه القاضى المفتى ابو عبد الله محمّد ابن عبد الله اليفرنيّ المكناسيّ مؤلّف المجالس المكناسيّة يده على الشهادة وقال لابيه هذه هديّتى لهذا العرس يعنى الشهادة وكانت خطّة الشهادة عند هذا القاضى عزيزة ومزيّة كبيرة حتّى كان يقول من خطبها منّى فكانّما خطب لي ابنتى واصاب في ذلك لانّ بعض القضاة كان يقول للشهود انتم القضاة ونحن المنفّذون فخرج ابو محمّد عبد الواحد من الاعراس الى الشهادة بالسماط ثمّ امتدّ به الحال الى ان ولى القضاء بفاس مدّة من ثمان عشرة سنة ثمّ تخلّى عنه الى الفتوى بعد موت الشيخ ابن هارون وكان شاعراً مجيداً له ازجال وموشّحات مع رقّة طبع واهتزاز عند سماع الالحان والة الطرب لاعتدال مزاجه وقوام طبعه قال المنجور من رقّته وذكايه انّه كان يدرّس يوماً فرعى ابن الحاجب بالمسجد المعلّق برحبة الزبيب فاجتازت من هنالك عماريّة مصحوبة بطرب من زمّارات وطبال وبوقات فاخرج الشيخ راسه من الطاق فاصغى الى ذلك ثمّ قال ما تاتّى هذا لاصحاب العماريّة حتّى انفقوا فيه مالاً معتبراً ونحن نسمعه مجّاناً كيف لا نفعل ولمّا توفّى ابوه قيل انّه لايحسن درس ابيه فجلس على كرسىّ ابيه بالمدرسة المصباحيّة لتدريس المدوّنة وحشر الناس يختبرون وحضر الامام ابن غازي فاجاد كما ينبغى فاعجب ابن غازي وقبّله بين عينيه وقال لو لم تحسن الدرس لقمت مقامك حتّى تحسنه

وتاخذ مرتب ابيك لما كان بين ابن غازي وبين والده من الصداقة وكان يحضر مجلسه اعيان الطلبة كالشيخ ابي محمّد المساريّ صاحب حاشية المكوديّ والزقّاق وغيرهما ونظم ايضاً ايضاح المناسك لابيه وزاد عليه وشرّحه ومن شعره قوله في تاريخ قنطرة الرصيف

جسر الرصيف ابو العبّاس جدّده ... فخر السلاطين من ابناء وطّاس
فجاء في غاية الاتقان مرتفعا ... لمن يمرّ به من عدوتيْ فاس
وكان تاريخه في نصف عامِ غنى ... من هجرة المصطفى المبعوث للناس

وكان الوطّاسيّ السلطان المذكور واقفاً عند اشارة ابي محمّد الونشريسيّ لايتعدّى رايه ولا يخالف امره كما وقع له معه في رجل اسلاميّ يعرف بعبد الرحمن المنجور وكان تاجراً جمّاعاً للمال شهد عليه في حكاية طويلة اربعون رجلاً من العدول المبرّزين باستغراق ذمّته فاخذه السلطان وقتله وصيّر ساير املاكه لبيت مال المسلمين فرغب اولاد المنجور من السلطان ان يودوا عشرين الف دينار ويسقط عنهم بقيّة الاستغراق ويردّ اليهم املاكهم فقال السلطان لحاجبه اذهب الى الشيخ عبد الواحد الونشريسيّ وشاوره في ذلك وقل له انّي في الحاجة الى هذا المال لاجل هذه الحركة فذهب الحاجب واخبره بمقالة السلطان ورغبه في قبول ذلك فقال له الشيخ والله لا القى الله بشهادة اربعين رجلاً من عدول المسلمين لاجل سلطنتك اذهب اليه وقل له انّي لا اوافق على ذلك ولا ارضاه فرجع الحاجب للسلطان واخبره بما قال الشيخ فرجع السلطان عمّا عزم عليه وانظر هذا مع ما جرى معه ايضاً وذلك انّ الناس خرجوا يوم العيد للصلاة فانتظروا السلطان فبطىء عليهم ولم يات الى ان خرج وقت الصلاة وحينئذ اقبل السلطان في ابهته فلمّا وصل للمصلّى نظر الونشريسيّ للوقت فراه قد فات فرقى المنبر وقال يا معشر المسلمين عظّم الله اجركم في صلاة العيد فقد عادت ظهراً ثمّ امر الموذّن فاذّن واقام

الصلاة وصلّى بالناس صلاة الظهر فخجل السلطان واعترف بخطيئته رحمهم الله واخبار ابي محمّد الونشريسى رحمه الله كثيرة وفي هـذا القـدر الذي ذكرناه كفـاية والله اعلم

ذكر الخبر عن ضخامة دولة السلطان ابى عبد الله محمّد الشيخ المهديّ واتّساع ايالته

لمّا فتح ابوعبد الله محمّد الشيخ المهدىّ مدينة فاس واستولى عليها اتّسعت له مملكة المغرب من باب تلمسان الى تخوم الصحراء ودانت له الرقاب واجتمعت عليه الكلمة وكان قد استولى على تلمسان واعمالها الى وادي شلف وكان دخـوله لتلمسان يوم الاثنين الثالث والعشرين من جمادى الاولى سنة سبع بموحّدة وخمسين وتسعماية كما تقدّم بعد ان اقام محاصراً لها تسعة اشهر ومات في محاصرته ايّاها ولده مولاي محمّد الحرّان ثمّ تراجعت عليه الترك واخرجوه من تلمسان فانصرف عنها الى المغرب الى ان عاود المجيء اليها عام سبع وستّين لمّا بلغه قيام اهلها على الترك وانحـصار الترك منهم بقصبتها فاقام مرابطاً عليها ايّاماً ثمّ رجع ولم يدخلها عليهم قال ابن القاضى كان رحمه الله ماضى العزيمة قوىّ الشكيمة عظيم الهيبة كثير الحركة ذا همّة عالية وشهامة غالية حتّى اقعد قواعد الملك واسّس مبانيه واحيا مراسم الخلافة الدارسة ومعالمها الطامسة وكان ذا سعد وبخت عظيم الرغـبة في الجهاد داير بيضاءه في اسلام فتح حصن النصارى بسوس بعد ان اقام النصـارى فيه اثنتين وسبعين سنة وكان منصوراً بالرعب حتّى تركوا اسفى وازمّور من غير قتال ولا ايجاف عليهم واصيلا . وتقدّم في كلامنا مايخالف هذا في ترجمة ابي العباس احمد الاعرج وكان نزول النصارى بازمّور سنة اربـع عشرة وتسعماية وفي هذه السنة بنى النصارى حجر بادس وفي اواخر المحرّم منها اخذ النصارى مدينة وهران

ونكب اهلها فما منهم الّا اسيراً وقتيلاً الى ان اعادها الله للاسلام على يد الاتراك في حدود العشرين وماية والف والامر لله وحـده

ذكر الخبر عن اولاد السلطان ابى عبد الله محمّد الشيخ

وتسميتهم وتسمية حجّابه وقضاته

كان رحمه الله له عدّة اولاد نجباء انجبهم مولاي محمّد الحرّان وبه عرف وهو اكبرهم وهـو الذي يتقدّم للحروب ولم يفتح لابيه من البلاد الّا ما فتح على يديه وهو الذي كان ينـادي سيّدي ابو الرواين ويقول قبل ان يكون للاشراف ذكر ياحرّان جيء فانّي قد اعطيتك الغرب فلم يفقه الناس قوله الى ان ظهر مـولاي محمّد المعروف بالحرّان هذا ومنهم الوزير ابو محمّد عبد القادر توفّي سنة تسع بثمناة وخمسين وتسعماية وابو محمّد عبد الله الغالب بالله وابو مروان عبد الملك الغازي في سبيل الله وابو العبّاس احمد المنصور وابو سعيد عثمان وابو السعادة عبد المومن وابو حفص عمر وغيرهم قال المنجور في فهرسته حضرت يوماً بمجلس مولانـا امير المؤمنين ابي عبد الله محمّد الشيخ المهديّ وقد حضر عنده اولاده الصـناديد الامراء مولانا محمّد الحرّان ومولانا عبد القادر ومولانا عبد الله فدخـل شيخنا الامام العالم ابو عبد الله اليستنيّ فلمّـا نظر الى بنيه حـوالى ابيهم انشد بيتاً من تلخيص المفتـاح

فقلت عسى ان تبصرني كانّمـا بنّي حوالي كالاسود الحثاذر

فاعجب ذلك السلطان واولاده رحمهم الله وامّا حجّابه فعلى بن ابي بكر ازيكيّ الحاحيّ وموسى بن ابي جمادة الغمريّ وغيرهما وامّا قضاته فبفاس ابو حسّون

علی بن احمد الاخصاصیّ وبمرّاكش ابو علیّ الحسن بن ابي بكر السجتانيّ

ذكر الخبر عن سيرته ولمع من سياسته

رحمه الله

فكان رحمه الله مولعاً بتدبير امر الرعيّة مستيقظاً في مسائله حازماً في اموره غير متوقّف في الدماء وهو اوّل من استخرج الضريبة المسمّاة على لسان العامّة بالنايبة وفرض على الناس المغارم والمطالب وكان لا ينزه عنها احداً حسبما ذكره ابن عسكر في الدوحة اظنّه في ترجمة سيّدي خالد المصموديّ وانّه رماها حتّى على اولاد سيّدي خالد المذكور مع ما لابيهم من الشهرة بالولاية والصيت المديد في تلك البلاد وحسبك انّ كرامة سيّدي خالد الباقية الى الان انّه كتب في حجر باصبعه لا اله الّا الله فاثر في الحجر وانتقش فيه كانّما نقش في شمع وما نزه السلطان عنها اولاده حتّى ظهرت له مع ابيهم كرامة ذكرها في الدوحة فراجعها وقد رايت رسالة كتب بها السلطان ابو المعالي زيدان بن منصور للشيخ ابي زكرياء يحيي بن عبد الله بن سعيد بن عبد المنعم الحاحیّ فكان من فصولها ما صورته ونحن نلخّص لكم الكلام امّا بعد ما اورده الناس في الخراج امّا ما بنوا عليه فرضه في اوّل الاسلام والدول العظام فلا نطيل به وامّا في المغرب خصوصاً فاوّل من فرضه عبد المؤمن بن علی وجعله على اقطاع الارض بناءً على انّ المغرب فتح عنوةً واليه ذهب بعض العلماء ومنهم من يقول انّ السهل فتح عنوةً والجبال صلحاً فاذا تقرّر هذا وعلمت انّ اهل ذلك العصر قد بادوا واندثروا فبقى السهل كلّه ارثاً لبيت المال تعيّن ان يكون الخراج فيه على ما يرضى صاحب الارض وهو

السلطان والجبل تتعذّر معرفة ماكان الصلح عليه ولا سبيل الى الوقوف عليه فيرجع فيه الى الاجتهاد وقد اجتهد سلفنا الكرام في فرضه لاوّل الدولة الشريفة على حسب وفق ايمّة السنّة ومشايخ اهل العلم والدين في ذلك العهد فجري الامر على السند القويم الى ان هبّت عواصف الفتنة لايّام ابن عمّنا صاحب الجبل وادالة مولانا الامام وصنوه المرحوم على حواضر المغرب وسهله عند الزحف بالاتراك وامتدّت به الفتنة بالجبل الى ان هلك مع النصارى في الغزوة الشهيرة وجاء الله بمولانا الامام المقدس بالجبل العاصم للاسلام من طوفان الاهوال قدر رضى الله عنه الاشيـاء حقّ قدرها وراى المغرب غبّ تلك الفتن قد فغر افواهه لالتقامه عدوّان عظيمان من الـترك وعدوّ الدين الـطـاغيـة فاضطرّ رحمه الله الى الاستكثار من الاجناد لمقاومة الاعداء والذبّ عن الدين وحماية ثغور المسلمين فدعى تضاعف الاجناد الى تضاعف العطاء وتضاعف العطاء الى تضاعف الخراج وتضاعف الخراج الى الاجحاف بالرعيّة والاجحاف بالرعيّة امر يستنكف رضى الله عنه من ارتكابه ولا يرضاه في سيرة عدله طول ايّامه فلم يبق له حينئذ الّا امعان النظر في اصل الخراج فوجد بين السعر الذي بنى عليه في قيمة الزرع والسمن والكبش الذي تعطى فيه الرعيّة من زمن الفرض وبين سعر الوقت اضعـافاً فحينئذ تحرّى رحمه الله العدل فخيّر الرعيّة بين دفع كلّ شيء بوجهه او دفع ما يساوي سعر الوقت فاختاروا السعر مخافة ان يطلع الى ما هو اكثر فاسعفهم اليه رضى الله عنه وعرف الناس الحقّ فلم ينكره احد من اهل الدين ولا من اهل السياسة ليت شعري لوطلبنـا نحن الرعيّة اليوم بسعر الوقت الذي طاع الى اضعاف مضاعفة اليوم ماذا تقولون وقد انتقدتم علينا مـا هو اخفّ من ذلك والحاصل راجعوا رضى الله عنكم ما عند الامام المـاوردي في الاحكام السلـطانيّة في ضرب الخراج فقد استوفى الكلام في ذلك انتهى نصّ المحتاج اليه من الرسالة وكانت هذه النـايبة في زمن السلطان ابي عبد الله تفرّض على الكوانين وتوظّف على حسـاب الـسكّان ويفرض الشيء الخفيف في ذلك

وجرى على ذلك ولده الغالب واخوه بعده السلطان المعتصم ثمّ اشتدّ امرها في ايّام المنصور وتفاقم الحال بعده وقد وقفت على رسالة كتبها السلطان ابو مروان عبد الملك الغازي المعتصم لاخيه المنصور يامره بفرض مؤنة محلّته على بعض القبايل ومنها تعلم خفّة الامر في زمانه ونصّها من عبد الله المعتصم بالله المجاهد في سبيل الله امير المؤمنين ابي مروان عبد الملك ابن امير المؤمنين ابي عبد الله محمّد الشيخ الشريف الحسنيّ ايّد الله تعالى امره واعزّ نصره الى اخينا الاعزّ الانجب باب احمد ابن مولانا الوالد حرّس الله تعالى كريم اخايه سلام كريم ورحمة الله تعالى وبركاته امّا بعد فانّا كتبناه اليكم من محلّتنا السعيدة بتامسنا ولا زايد بحمد الله الّا الخير والعافية والنعم الصافية هذا وانّه ساعة وصوله اليكم تخرجوا من الخدّام لعمالة مكناسة وازمّور واولاد جلّول من يفرض عليهم علف محلّتنا المنصورة ومؤنتها وتامرهم بدفعه وابلاغه لمدينة سلا وقدر ذلك صحفة شعير وعشرون مدًّا قمحاً لكلّ نايبة وصاع من سمن وكبش لاربع نوايب واكّد عليهم رعاك الله ان يعتنوا بذلك وبايصاله للمكان المذكور من غير عطلة وهذا ما وجب به الاعلام اليكم والله يرعاكم بمنّه والسلام . ومن هذا المعنى ما يحكى انّ ابا عبد الله القايم لمّا بويع له بصقع سوس وراى ضعفه وقلّة ما بيده مع انّ الملك لا يتاتّى الّا مع المال امر اهل السوس ببيضة لكلّ كانون اجتمع من ذلك الاف لاتحصى لانّ الناس استهانوا امر البيضة فلمّا اجتمع عنده البيض امرهم ان ياتي كلّ من اتى ببيضة بدرهم ففعلوا فاجتمع عنده مال وافر فاصلح به شانه وقوّى به جيشه وهذه اوّل نايبة فرضت في دولة الاشراف والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم

ذكر الخبر عن مآثر السلطان ابي عبد الله محمّد الشيخ

المهديّ وما وقع في ايّام دولته من الاحداث

قال في المنتقى كانت له رحمه الله مآثر حسنة منها بناء جسر نهر سبوا ووادي امّ الربيع . وسياتي في كلامنا في ترجمة المنصور ما يخالف هذا ومنها انّه اوّل من اختطّ مرسى اكّدير بالسوس الاقصى سنة سبع بموحّدة واربعين وتسعماية لمّا اجلى النصارى دمّرهم الله من الموضع المعروف بفنت على مقربة من اكدير المذكور وكان في اختطاطه رايُ مصيب وفراسة تامّة وفي سنة ثلاث وثلاثين وتسعماية وقع مطر غزير بمرّاكش حتّى امتلات البيار وتهدّمت الديار وصار الناس يؤرّخون بعام الابيار وفي سنة ثمان وخمسين وتسعماية كانت حركة مالوا وفي سنة ثمان وخمسين امر بامتحان ارباب الزاويا المتصدّرين للمشيخة خوفاً على الملك لانّه دخله من بابهم فامتحن جماعة كسيّدي عبد الله الكوش فاخلى زاويته بمرّاكش وامر برحيله لفاس وفي الدوحة في ترجمة ابي علىّ الحسن بن عيسى المصباحىّ قال لمّا امتحن السلطان ابو عبد الله محمّد الشيخ زاويا المغرب قيل لابي علىّ الا تخشى من هذا السلطان فقال انّما الخشية من الله تعالى ومع هذا فالماء والقبلة لا يقدر احد على نزعهما والباقى امر متروك لمن طلبه وكان السلطان يطالب ارباب الزاويا بودايع بنى مرين ويتهمهم بذلك وبعث خديمه يوماً لابي عثمان سعيد بن ابي بكر دفين مكناسة يطالبه بذلك فوجده جالساً بناحية من زاويته يضفر الدوم واذا بطاير لعلّه اللقلاق سلح امامه فما رفع ابو عثمان بصره حتّى سقط الطير ميّتاً متطاير الريش فلمّا راى ذلك خديم السلطان فزع وولّى لسيّده هارباً وفي سنة تسع بمثنّاة وخمسين قدم عليه بمرّاكش العالم العلّامة الصالح ابو عبد الله محمّد بن علىّ الخروبيّ الطرابلسىّ

نزيل الجزائر سفيراً بينه وبين سلطان الترك ابي الربيع سليمان شاه صاحب القسطنطنيّة العظمى بقصد المهادنة بين السلطانين وتحديد البلاد بينهما وفي قدمة الخروبيّ هذه لمرّاكش انكر على سيّدي ابي عمرو القسطلّي قصّه لشعر الشارب وقال انّه بدعة فقالوا له انّ الشيخ الجزوليّ كان يفعله فقال لهم لعلّه باذن والاذن لا يعمّكم فانّ الاذن للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم يعمّ اتباعه والاذن للوليّ لا يعمّ اتباعه وانكر عليه مسايل كثيرة وبعث له رسالة ابدع له فيها وهى شهيرة توفّى الخرّوبيّ رحمه الله سنة ثلاث وستّين وتسعماية بالجزاير ودفن خارجها والله سبحانه اعلم

ذكر الخبر عن وفاة السلطان ابى عبد الله محمّد الشيخ المهديّ وسببها وكيفيّتها

لمّا تغلّب رحمه الله على بلاد المغرب ودانت له حواضره وبواديه تافت همّته العليّة الى بلاد المشرق فكان يقول لا بدّ لي ان اذهب الى مصر واخرج منها الاتراك من احجارهم وانازلهم من ديارهم فتخوّف منه السلطان سليمان العثمانيّ وكان ابو عبد الله لا يسمّى سلطان العثامنة الّا سلطان الحواتة لانّ الغالب على هاولاء الاتراك السفر في السفاين فانتهى ذلك للسلطان خان العثمانيّ فبعث له ارساله فلم يحتفل بهم ابو عبد الله بل قال لهم اخبروا صاحبكم انّي مفتح عليه بلاده ومتوجّه للقاية فلمّا رجعت الارسال للعثمانيّ واخبروه بمقالة ابي عبد الله وما واجههم به بعث لترك الجزائر ان يانوه براس ابي عبد الله فبعثوا رجلاً من ابطالهم يقال له صالح الكاهية فى شرذمة قليلة من اجنادهم مظهرين له انهم هربوا من العثمانيّ ورغبوا في خدمته والتحصن به من طلبهم ونيتّهم المكيدة والاغتيال حيث امكنهم الحال فلمّا قدموا على السلطان ابي عبد

الله فرح بهم غاية واظهر السرور بقدومهم عليه وكان ابو عبد الله لمّا دخل مدينة فاس في المرّة الثانية وجد جماعة من الاتراك تخلّفوا عن الجيش الذي قدم به ابو حسّون المرينيّ الوطّاسيّ من الجزائر كما تقدّم ضمّهم اليه وجعلهم على حدة في جيشه وسمّاهم الانكشارية وقدم الى مرّاكش وكان ابو عبد الله لمّا يركب يقربهم ويدنيهم منه ويامن فيهم وما علم انّ الترك كما قال الشاعر

لا تامنن تركياً فيما يقول ولو   من العبادة حتّى طار في السحب
ان لك جاد فذاك الجود من غلط   وان تمرّد عن امّ له وأب

ولمّا قدم صالح الكاهية فرحوا به وجنحوا له اذ كلّ غريب للغريب نسيب انّ الغريب يعجب الغريب فلم يزل مع اصحابه ينظرون في المكيدة ويتربّصون الدواير بالسلطان ابي عبد الله الى ان امكنتهم الفرصة منه وهو بحركته بجبال درن بموضع يقال له اكلاكل فدخلوا عليه خباءه على حين غفلة من العسس فضربوه بشاقور ضربة واحدة ابانوا بها راسه عن جسده واحتملوه في مخلاة وذهبوا به يخوضون في احشاء الظلماء واستمطوا مطيّة الخوف والغنى وخرجوا عامدين الى جهة سجلماسة كانّهم ارسال الى تلمسان لئلّا يفطن بهم احد فادركوا في بعض المواضع فقتلت منهم طائفة حتّى هلكوا وهرب بعضهم بالراس الى ان بلّغوه للسلطان بالقسطنطينيّة فلم يزل معلقاً بها الى ان تلاشا وقتل معه في تلك الليلة الفقيه ابو الحسن علىّ بن ابي بكر السجتانيّ والكاتب ابو عمران الوجانيّ وحكى صاحب ممتّع الاسماع انّ سيّدي احمد الشريف نزيل بنى سلمان من جبل لمطة وكان صاحب حال وله قدم راسخ في الطريق وقعت له وحشة في باطنه بينه وبين سلطان الوقت يعنى ابا عبد الله ادّى ذلك الى ان صرّف همّته الى اهلاكه فدخل عليه في الغيب ليوقع به بشاقور في يده او ورد عليه بذلك واراد ازعاجه فاذا بسيّدي سعيد بن ابي بكر دفين مكناسة قايم على راس

السلطان المذكور ويده على راسه كالحافظ له فقال له كالمنكر عليه الى هنا اذهب فما لك الى ذلك من سبيل فرجع قال في الممتّع وهكذا اتّفق فى الخارج فان الترك قطعوا راس السلطان بشاقور الّا انّ الوقت كان متاخّراً وحال سيّدي احمد المذكور حال صحيح انظر تمام كلامه وكان قتل السلطان ابي عبد الله رحمه الله تعالى يوم الاربعاء التاسع والعشرين من ذي الحجّة عام اربعة وستّين وتسعماية وحمل الى مرّاكش بغير راس فدفن قبلة جامع المنصور في قبور الاشراف هنالك وقبره شهير وممّا نقش على رخامة قبره

حيّ ضريحاً تغمّدته رحمات   وظلّلت لحده منها غمامات
واستنشقت نفحة التقديس منه فقد   هبّت من الخلد لي منها نسيمات
لموته كدّرت شمس الهدى فكست   من اجله السبعة الارضين ظلمات
يا مهجة غالها غول الردى فقضى   واثبتت سهمها فيها المنيّات
دكّت لموتك اطواد العلا ضغنا   وارتجّ من نعيك السبع السماوات
وشيّعت نعشك المزجى الى عدن   من الملائك الحان واصوات
كان الثريا صعاداً تعتليه وقد   اصبحت تحت الثرى تعلوك درّات
يا رحمة الله عاطيه سلاف رضى   تدور منها عليه الدهر كاسات
قضى فوافق في التاريخ منه جلى   دار امام الهدى المهديّ جنّات

وتقدّم ذكر من قتل معه وقتل اخيه ابي العبّاس الاعرج في السجن بعده بثلاثة ايّام رحم الله الجميع بمنّه وكرمه

ذكر الخبر عن دولة السلطان ابى محمّد مولانا عبد الله

ابن السلطان ابي عبد الله مولانا محمّد الشيخ الشريف

صفته كان رحمه الله تعالى ادعج العينين مستدير الوجه متّسعة اسيل الخدّين متشرّف الوجه ربعة للقصر وكانت ولادته بتارودانت بعد العشرين من التسعماية ويلقّب من الالقاب السلطانيّة بالغالب بالله تعالى لقّبه بذلك غير واحد من الايمّة ونشا فيعفاف وصيانة وضبط احواله وحفظ القرءان العظيم واخذ بطرف صالح من العلم وكان وليّ عهد ابيه ولّما وافته الانباء بمقتل ابيه بايعه اهل فاس ولم تتخلّف عن بيعته منهم احد وذكر شارح زهرة الشماريخ انّ الفقيه الميقاتي المعدّل بمنار القرويّين ابا عبد الله المزوار كان بصيراً بعلم الازياج والحدثان بينما هو ليلة يراقب الطالع والغارب وقد ابهرّ الليل واسودّ ديجوره راى نجم السلطان ابي عبد الله محمّد الشيخ قد سقط وكانت بينه وبين مولانا عبد الله معرفة وخلطة فاسرع في الذهاب اليه ليخبره بما راى فلمّا بلغ باب فاس الجديد وجده مغلقاً فاستاذن الموكّلين به في افتتاحه فامتنعوا فقال لهم انّي جئت للخليفة في امرمهمّ عنده وان لمتعلموه بمكاني الساعة لحقكم منه غداً ما تكرهونه فانذروا الخليفة به فحمل اليه وساله فاخبره منها بما راى ونعى اليه اباه فلميكذّب في ذلك واستعدّ وتهيّأ فلم تمض الّا ايّاماً قلايل فوافقته الاخبار بمقتل ابيه في تلك الساعة التى قال له فيها الفقيه المعدّل فوجدته على اهبة واستعداد ولمّا بلغ اهل مرّاكش مبايعة اهل فاس ايّاه وافقوا عليها فاستوثق له الامر وتمهّد له ملك ابيه وكان ذلك كلّه في المحرّم من سنة خمس وستّين وتسعماية

ذكر الخبر عن سيرته وثناء الناس عليه

ومـا قيل في ذلك كلّه

كان السلطان ابو محمّد عبد الله الغـالب بالله ذا سياسة وخبرة بالمـلك وليّن عريكة ولمّا استبدّ بالخلافة الان الجانب وخفض الجناح وسـار سيرة حسنة حتّى صلحت الرعيّة وازدانت الدنيا وانتعش الناس حتّى كان يقال ثـلاث عـينات هم عيون الزمان مولاي عبد الله وسيّدي عبد الله بن حسين الشريف وسيّدي عياد السوسىّ ورايت من جملة سؤال كتب به الفقيه الصالح خطيب الجامـع الاعـظم بتارودانت ابو زيد عبد الرحمن التلمسانيّ الى قاضى الجماعـة الفقيه ابي مـهديّ سيّدى عيسى بن عبد الرحمن السجتانيّ وهو يقول ولاشكّ انّ مولانا عبد الله مجمع على عدالته وبيعته وقد اخبرني الثقة من اصحاب الشيخ الجامع القطب الكبير ابي العبّاس سيّدي احمد بن مـوسى السملاليّ عـنه انّه قال مولانا عـبد الله ياقوتـة الاشراف هو صالح لا سلطـان وقد قال لي الفقيه سيّدي عبد الرحـمن بن عمر البوعقيليّ سال فلان سيّدي احمد ابن موسى عن القطب فقال له انا فقال له ومن بعدك قال فلان قال ومن بعده فقال له مولاي عبد الله فقال له ومن بعده فقال له كفاك ولم يجبه وناهيك شهادة الشيخ له بما ذكر وقد اشتهر عند الناس من الخاصّ والعـامّ انّ مولانا عبد الله كان سلطاناً عـدلاً ورجـلاً صالحاً واستفاض ذلك ثمّ رايت في الرسالة التى كتب ابن اخيه السلطان ابو المعالي زيدان بن احمد المنصور لابي زكرياء يحيي بن عبد الله بن سعيد بن عبد المنعم الحاحىّ مايخالف ذلـك ويوذن انّه كغيره من الملوك وذلك انّ ابا المعالى انكر على ابي زكـرياء تعرّضه لامور السلطنة وانكاره على الملوك ودخوله في ذلك وانّ ذلـك فضول منه لانّ الصحابة رضـى الله عنهم كانوا في زمن اليزيد بن معاوية وماتصدّى احد منهم لـعزله ومـا قام به

ولا شغل نفسه بذلك لانّ السلطان لاينعزل بالفسق والجور الى ان قال له مانصّه واعلم ايضاً انّ والدك افضل منك بدليل اباؤكم افضل من ابنائكم الى يوم القيامة وكان عمّنا مولانا عبد الملك رضى الله عنه سمح له على ماكان عليه واشتهر عياناً وكان والدك في زمنه ودولته وبيعته ووفد عليه ولم يستنكف من ذلك ولاظهر منه ما يخالف السلطنة ولا انكر عليه ولاعرض بما يسوء ملوك الوقت ولا سمع ذلك منه فان كان راضياً بفعله فهو مثله وان لم يرضه فما وجه سكوته والوفادة عليه وقد تحقّقت وعلمت انّ ولاية احمد بن موسى كادت تكون قطعية وقد اشتهر امره عند الخاصّ والعامّ حتّى اطبق اهل المغرب على ولايته وقد كان على عهد مولانا عبد الله برّد الله ضريحه وكان الوليّ المذكور على ماكان عليه واشتهر عنه وما برح الشيخ المذكور يدعو له بالبقاء ولدولته بالدوام ويظهر حبّه وكان المولى المذكور يعزل ويولّي ويقتل وكان شرد منه لزاويته المرابط الاندلسيّ وولد ازيك وامثالهما وكان يقدم للشفاعة ويشفع ولايتعقّب ولايعتب ولايبحث عمّا وراء ذلك باق على عهده ومودّته وكان المولى المذكور بعث لابن حسين بسدّ داره فسدّها وما فتحها حتّى امره ولا استعظم احد ذلك ولا اكثر فيه ولاجعله سبّة لفتح باب الفتنة وكان قوّاد المولى المذكور مثل وزيره ابن شقرة وعبد الكريم بن الشيخ وعبد الكريم بن موسى العلج والهبطيّ والزرهونيّ وعبد الصادق بن ملوك وغيرهم ممّن لايحضرني ذكرهم لبعد عصرهم قد انغمسوا في شرب الخمر واتّخاذ القيان وبسط الحرير وغير ذلك من الات الذهب والفضّة وكان في عصره احمد بن موسى المذكور وابن حسين والشرقيّ وابوعمرو القسطليّ ومحمّد بن ابراهيم التمنارتي والشطيبيّ وغير هولاء من المشايخ واهل الدين الذين لايسع من يدّعى هذه الطريقة التقدّم عليهم ولا اكتساب الفضيلة دونهم فاحسنوا السيرة ولا تعرّضوا للسلطنة ولاسمع منهم مايقدح في ولاة الامر وقادة الاجناد ممّن ذكر الذين كان الملك يدور عليهم ويرجع في تدبيره اليهم ومثل من ذكر من الاولياء كان علّامة الزمان وواحد وقته شيخ مشايخ افريقية وبعض اهل المغرب عبد العزيز القسنطينيّ

الشيخ المتكلم في الصوفيّة صاحب الايات البيّنات قد كان من سكّان تونس وكان ملوك تونس وما انضاف اليها من الفساد الذي لا ينحصر واشتهر امرهم حتّى عرفوا به في المشارق والمغارب ولم يبرح الشيخ المذكور من بينهم ولاتصدّى لتغيير المنكر والامر بالمعروف حتّى قبضه الله اليه انتهى محلّ الحاجة من هذه الرسالة المذكورة فمقتضى كلام ابي المعالي هذا خلاف ما استفاض الان وشاع عن الرجل وقول احمد بن موسى الجزّوليّ المذكور ووصفه له بالقطبانيّة لعلّه اراد قطبانيّة الملك فقد رايت في كتاب قوت القلوب لابي طالب المكّيّ رحمه الله ما نصّه وقال ابو محمّد سهل بن عبد الله التستريّ رحمه الله الخليفة اذا كان غير صالح فهو من الابدال واذا كان صالحاً فهو القطب الذي تدور عليه الدنيا قال ابوطالب قوله من الابدال يعنى ابدال الملك وقريب من هذا ما رايته ايضاً في اخر كتاب المنتقى المقصور لابن القاضى وامّا السلطان امّا ان يكون وليّاً اوقطباً واحسن من هذا كلّه ما رايته في قواعد الشيخ زرّوق انّ الامام احمد بن حنبل كان يقول السلطان اذا كان صالحاً فهو خير من صالحى الامّة واذا كان فاسقاً فصالح الامّة خير منه وهو قول عدل وحكى صاحب الممتّع انّ السلطان مولاي عبد الله رحمه الله تعالى ذهب لزيارة الشيخ احمد بن موسى الجزّوليّ المذكور وساله تمهيد الملك له من غير طعن ولاضرب واعتذر بانّه لايمكنه العيش بدونه ولا يامن على نفسه ولا تاويه ارض ان تخلّى عنه فقال الشيخ يا عرب يا بربر يا سهل يا جبل اطيعوا السلطان ابا عبد الله فلم يزل ملكه ممهّداً في هدو وسكون الى ان نزل الترك مرّة بمرسى طنجة وسبتة فتخوّف منهم فردّ بريده للشيخ فلمّا لحق به البريد سمع الشيخ يقول قبل ان يراه يا ترك ارجعوا الى بلادكم ويا مولاي عبد الله هنّاك الله في بلادك فرجع الرسول ووردت الانباء على السلطان بانزعاج الترك ورحيلهم في تلك الساعة التى قال فيها الشيخ ما قال ثمّ انّ الشيخ لمّا قدم مرّاكش استدعاه السلطان لداره وضع له طعاماً فابى ان ياكله وقال له من اكل طعام السلطان وهو حلال اظلم قلبه اربعين يوماً ومن اكله وفيه شبهة مات قلبه

اربعين سنة وقوله بمرسى طنجة وسبتة لعلّ صوابه وحجر بادس فان الترك قد نزلوا به كما قال ابن القاضى في درّة الحجال وسياتي وذكر بعضهم انّ السلطان مولاى عبد الله لمّا راى عمارة الجزائر وسفنهم لاينقطعون عن مرسى حجر بادس ومرسى طنجة وتخوّف منهم اتّفق مع الطاغية ان يعطى له حجر بادس ويخليها من المسلمين فتقطع بذلك مادّة الترك في المغرب ولايجدون سبيلاً اليه فنزلوا النصارى على حجر بادس واخرجوا المسلمين ونبشوا قبور الاموات واحرقوها واهانوا المسلمين كلّ الاهانة ولمّا بلغ خبر نزولهم عليها لولده مولايّ محمّد وكان خليفة على فاس خرج بجيوشه لاغاثة المسلمين فلمّا كان بوادي اللبن بلغه استيلاؤهم عليها فرجع وتركها لهم ونحو هذا ما ذكرعنه انّ قايده علىّ بن تودة دخل البريجة التى بثغر ازمّور واخذ اسوارها وعزم ان يستاصل في الغد بقيّتها ولايبقى للكفر بها اثراً فكتب له السلطان مولاي عبد الله ينهاه عن ذلك فتراجع النصارى اليها بعد ان ركبوا البحر عازمين على الجلاء عنها ونظير هذا قضيّته مع اهل غرناطة واطال فيها بما استكفيت انا عن كتبه هنا وهذه امور شنيعة ان صحّ انّه فعلها ولست ادخل في عهدتها انّما رايتها في اوراق مجهولة المؤلّف اشتملت على ذمّ هذه الدولة السعديّة وظنّى انّها من وضع بعض اعدائهم لحطّهم من قدرهم واخراجهم عن النسب الشريف ووصفه دولتهم بالدولة الخبيثة فلذلك تجنّبت منها كثيراً من الاخبار التى لاتظنّ باولائك السادات الاشراف رحمهم الله قال الشيخ تاج الدين ابن السبكىّ رحمه الله في طبقاته انّ المؤرّخين على شفا جرف هار لانّهم يستطيلون على اعراض الناس وربّما وضعوا من الناس تعصّباً او جهلاً او اعتماداً على نقل من لا يوثق به قال فعلى المؤرّخ ان يتّقى الله تعالى . الّا انّ الملوك لايستغرب في حقّهم ان يهدموا اساس الشريعة ليبنوا منار رياستهم ويستوهنوا عظايم الامور لتطيعهم الرعيّة ساعةً وكيف لا وشراع افئدتهم تلعب به رياح الشهوات فتلتقى سفينة قلوبهم على ساحل بحر القنوط من رحمة الله تعالى والله يسامح الجميع ويتجاوز عن كافّة

عصاة هذه الامّة المشرفة بمنّه وكرمه

ذكر بقيّة اخبار مولانا عبد الله رحمه الله

وما وقع في ايّامه من الاحداث

قال ابن القاضى لمّا ولي مولانا عبد الله الخلافة اشتغل بتاسيس ما بيده وتحصينه بالعدّة والعدد ولم تطمح نفسه للزيادة على ما ملك ابوه قبله وفي جمادى الاولى من سنة خمس وستّين وتسعماية حرّك له الباشا حسين بن خير الدين التركىّ في جيش حفيل من الاتراك فخرج مولاي عبد الله لملاقاته فالتقيا بمقربة من وادي اللبن من عمالة فاس فكانت الدايرة على حسين فرجع منهزماً يطلب صياصى الجبال الى ان بلغ بادس لانّها كانت للاتراك يومئذ فرجع مولاي عبد الله لفاس ولم يدخلها لوباء كان بها حينئذ وهو وباء عظيم كسى سهل المغرب وجباله وافنى كماته وابطاله ولمّا رجع مولاي عبد الله من معركته تلك امر بقتل اخيه ابي سعيد عثمان لامر نقمه عليه فقتل في السنة المذكورة وفي يوم الاربعاء الثامن والعشرين من رمضان سنة اربع وستّين وتسعماية خسفت الشمس خسوفاً عظيماً وبعد صلاة الجمعة اوّل يوم من المحرّم فاتح عام سبعة وسبعين بموحّدة فيهما وتسعماية حدثت زلزلة عظيمة وفي اواخر شوال يوافقه وسط مارس من الشهور العجميّة عام ثمانية وسبعين بموحّدة وتسعماية قدم مرّاكش جراد كثير وفي ذي الحجّة من سنة خمس وثمانين وتسعماية قتل الفقيه السيّد محمّد الاندلسىّ وكان متظاهراً بالزهد والصلاح حتّى استهوى كثيرًا من الناس وتبعوه وكانت تصدر منه مقالات من الطعن على ايمّة المذهب رضى الله عنهم ينحو فيها منحى ابن حزم الظاهرىّ ويفوه بمقالات شنيعة في الدين فامر السلطان بقتله فاعتصم بالعامّة ووقعت عليه فتنة الى ان قتل وصلب بباب داره من رياض الزيتون انظر الدوحة وفى عام

واحد وثمانين وتسعماية وقعت وقعة البارود التى انهدمت بها القبّة الواسعة بجامع المنصور وانشقّت بها صومعة الجامع المذكور وذلك باحتيال من اسارى النصارى فحفروا تحت الارض وملاوه بالبارود لينقلب الجامع باهله يوم الجمعة فكفى الله المؤمنين شرّ تلك المكيدة ولم يتمكّن لهم الحال على وفق ما ارادوه وفى عشرة السبعين بموحّدة انشا مولاى عبد الله رحمه الله جامع الاشراف والسقاية الملاصقة بالجامع المذكور التى عليها مدار المدينة بالمواسين والمارستان الذي ظهر نفعه ووقّف عليه اوقافاً عظيمةً وهو الذي جدّد ايضاً بناء المدرسة التى بجوار جامع علىّ بن يوسف اللمتونيّ وليس هو الذى انشاها كما يعتقده كثير من الناس بل الذى انشاها اوّلاً هو السلطان ابو الحسن المرينّى رحمه الله تعالى حسبما ذكره ابن بطوطة فى رحلته وشاع على الالسنة انّ السلطان مولاى عبد الله بنا ذلك بصنعة الكيمياء وانّ الشيخ الصالح ابا العبّاس احمد بن موسى علّمها له لمّا تلمذ له كما سلف وهذا محض كذب وجهل فانّ الذى ينقل عن الشيخ سيّدى احمد بن موسى انّ رجلاً جاء وطلب منه ان يعلّمه صنعة الكيمياء فقال له الشيخ حروف الكيمياء خمسة وهى عدد اصابع اليد فان اردتها يا اخى فعليك بالحراثة والفلاحة فتلك كيمياء الناس لا كيمياء الرصاص والنحاس وايضاً فانّ الشيخ من اكابر الاولياء وما كان ليفتح على مسلم باباً عظيماً من ابواب الفتنة وسبباً بليغاً من اسباب المحنة فانّ هذه الصنعة من اعظم ابواب الفتن وكان الشيخ ينشد هذا البيت لزايريه كثيراً وهوهذا بعينه

عليك باوسط الامور فانّها نجاة ولا تركب ذلولاً ولا صعبا

وقد اجمع اولياء الله تعالى على التحذير من خلطة الكيمياء وطلبها لاحد اوجه ثلاثة اوّلها انّها من المستحيلات لما ذكره ابن سينا مستدلّاً بقوله تعالى لا تبديل لخلق الله وكما انّه ليس في قدرة المخلوق ان يبدّل القرد انساناً والذئب غزالاً كذلك ليس فى قدرته ان يبدّل الرصاص ذهباً والنحاس فضّة

ولقد تناظر فيها رجلان فقال مجوّزها اتنكر ما تشاهده فى الصبغ وتغيير الجسد الاحمر اصفر والابيض اسود فقــال له مــانعها لا انكر ذلك الصبغ لانه ليس تغيير اصــل وانّمــا انكر انّ ثوب الصوف الابيض تردّه صنعــة الصبغ قطناً او حريراً احمر او اخضر وامّــا الصبغ فلا شكّ ان النحــاس يصير ابيض ولا يخرجه ذلك عن اصله ولا يسلب عنه اسم النحاس بل يقال فيه نحاس ابيض كما لا يسلب صبغ الصوف عنه اسم الصوف ثانيها انّها جائزة الوجود لاكنّها معدومة في الخارج كما ذهب اليه ابو الفرج ابن الجوزيّ رحمه الله من انّ ثلاثة متّفق على وجودها في الغالب وقد اتّفق على عدم رويتها اهل المشارق والمغارب الكيمياء والغول والعنقاء واخبارها كلّها على وجه السماع والاسنادات وحكاياتها كالموضوعات عن العجماوات والجمادات ثالثها انّها على تقدير وجودها ومعرفتها يحرم تناولها والبيع والشراء بها وقد سئل عنها ابو اسحاق التونسيّ رحمه الله فقيل له احلال هى ان كانت خالصة فقال لو دبّرت الفضّة او غيرها من الاجساد حتّى تصير ذهباً خالصاً لا شكّ فيه فتى لم يقل بائعها لمبتاعها هذا كان فضّة او غيرها من الاجساد فدبّرته حتّى صار ذهباً كما ترى لكان غاشّاً مدلّساً قال فتى ذكر ذلك لم يشتره منه احد ويقال كذلك يدبّر غيرك فيرجع الى اصله ومن لم يبيّن فيها فهو داخل في قوله عليه السلام من غشّنا فليس منّــا فتكون صنعتها حراماً وذكر ابن عبد البرّ عن القاضى أبي يوسف انّه قال من طلب الدين بالكلام تزندق ومن طلب المــال بالكيمياء افتقر وكان ابو محمّد صــالح يقول اتركوا ثلاثة لئلّا تجرّكم الى ثلاثة اتركوا شرب الربّ لئلّا يجرّكم الى شرب الخمر واتركوا الاشتغال بصنعة الكيمياء لانّها توقع فى الغشّ والتدليس واتركوا مجالسة العجايز فانّها تجرّكم الى مجالسة الصغائر منهنّ وقيل لبعض الفضلاء لِمَ لم تتحدّث بهذه الصنعة فانّها تسلّى الخواطر فقال قيل للحمار لِمَ لم تحبر فقال انّي اكره مضغ الباطل وانشد

فقلت لاصحابي هى الشمس ضؤها   قريب ولاكن في تنـاولهـا بعد

وبالجملة فما شـاع عن مولانا عبد الله فى ذلك لا اصل له وقدكان اهل الورع يجتنبون الصلاة في جامع الاشراف لمّـا بنى مدّة ويقال انّ موضع ذلك الجامع كان مقبرة لليهود لعنهم الله والله اعلم

ذكر وزرائه وحجّابه وكتّابه وولاة

مظالمه

وامّا وزراؤه فنهم الامير الجليل الفقيه ابو عبد الله مولاي محمّد ابن اخيه الامير مولاي عبد القادر ابن السلطان مولاي محمّد الشيخ رحمه الله وكان من انبل وزرائه والطفهم مسلكاً واخفّهم روحاً له عارضة في النظم والنثر وذكر صاحبنا ابو محمّد عبد الله بن محمّد الفاسىّ رحمه الله في كتابه الاعلام بمن مضى وغبر من اهل القرن الحـادي عشر ما صورته قدم الوزير ابو عبد الله محمّد بن عبد القـادر من مرّاكش لفاس صـانها الله ومعه الفقيه قاضى الجماعة ابو مالك عبد الواحد الحميديّ والفقيه الامام ابو العبّاس المنجور فلمّا تبدّت لهم معالم فاس الجديد وتلظّى للشوق في جوانبهم اوار

وابرح ما يكون الشوق يوماً   اذا دَنَت الديار من الديار

انشد الوزير لنفسه بديهةً

اخلّاي هـذا المـستقى وربوعـه   وهـذي نواعر البـلاد تنوح

وذاك المصلّى مسرح الشوق والاسا   وهـذي منازل الديار تـلوح

فقال القاضى الحميديّ ايضاً بديهة

وتلك القباب الخضر شبه زبرجد   بهـنّ عوان طرفهـنّ جموح
يحسن كاملود من الروض يانـع   شذاهنّ من حول الديار تفوح

وقال ابو العبّاس المنجور مذيّلاً ايضاً بديهةً

ويرفلن في الحلّات يرقمن بالحلا   وفيهنّ انواع الجمال وضوح
يبادرن ترقيع الكوى بمحاجر   لاقبال حبّ طال منه نزوح

ولمّا بلغت الابيات للشيخ الامام الاستاذ ابي العبّاس احمد الزمّوريّ فقال مذيّلاً ايضاً

تامّل الى الحسناء تحت نقابها   كشمس بدت تحت السحاب تلوح
تجلّت ربوع المستقى بجمالها   وانت الى تلك القباب تروح

وجعل بعضهم البيتين الاوّلين للامام سيّدي عبد الواحد بن احمد الشريف السجلماسيّ وكان كاتباً عند الوزير المذكور ويجعل موضع اخلّاي امولاي والبيتين بعدهما للوزير والمستقى بضمّ الميم وسكون السين المهملة وفتح المثناة الفوقيّة وبعدها قاف مقصور اسم بستان معروف ونظير هذا ما ذكر صاحبنا المذكور في اعلامه قال كان الوزير المذكور مع كاتبه الامام سيّدي عبد الواحد الشريف في بعض الاسفار وارسلت السماء بغيثها المدرار فقال الوزير

لله اشكو غداة السفح اذ ركدت   سرى المطايا وحادي الريح يحدونا

فاجابه كاتبه المذكور

والغيم في الافق قد ارخى ذوايبه　　باسهم الوذق لا ينفكّ يرمينا

فقال الوزير

حتّى استوى الماء في الأكام واستترت　　معالم الرشد لا قريب يهدينا
فظلّت الخيل فى الامواج سابحة　　سبح الاساطيل ليت الدهر يهدينا

فاجابه الكاتب ايضاً رحمه الله

والنفس في قلق ليس بالفتها　　والشوق يحدو بنا والحال يقضينا

فقال الوزير المذكور رحمه الله

كانّنا لم نبت والوصل ثالثنا　　حتّى غدا الطير فوق الصرح يغشينا

واخبار هذا الوزير رحمه الله كثيرة ومحاسنه اثيرة وخصاله السنيّة عظيمة خطيرة توفّى رحمه الله في عشرين من جمادي الثانية عام خمسة وسبعين بموحّدة وتسعماية ومن حجّابه القايد عبد الكريم بن مومن بن يحي الجنديّ العلج وابن تودة وقاسم الزهرونيّ واحمد الهبطىّ ومن ولاة مظالمه ابو عمران موسى بن مخلوف الكنسوسىّ وهو والي الشرطة وكان فقيهاً مشاركاً وذكر بعضهم انّ الشيخ الصالح سيّدي احمد بن موسى في بعض قدماته على مولاي عبد الله انحشر الناس لزيارته فوقف ابو عمران هذا يذود عنه وهو يقول لهم رحمكم الله من زار خرج فسمعه الشيخ فقال له لا تقل ذلك بل قل من جار خرج واّما كتّابه فمنهم السيّد محمّد بن عبد الرحمن السجلماسىّ والسيّد محمّد بن احمد

بن عيسى وغيرهما واما قضاته بمرّاكش فالفقيه قاضى الجماعة ابو القاسم بن علىّ الشاطبيّ وبفاس ابو عبد الله العوفيّ وعبد الواحد بن احمد الجميديّ وغيرهما بحسب الاحيان والاعوام والملك والبقاء للواحد العلّام

ذكر الخبر عن وفاة مولانا عبد الله

رحمه الله تعالى وسببها

قال الفقيه ابو العبّاس احمد بن القاضى رحمه الله في شرح درّة السلوك توفّى ابو محمّد مولانا عبد الله الغالب بالله في السابع والعشرين من رمضان سنة احدى وثمانين وتسعماية بسبب غمّ كان يعتريه . وهذا الغمّ الذي كان به هو المسمّى على السنة العامّة بالضيقة اعاذنا الله منها وذكر غيره انّه توفّى بشوال بسبب تكلّفه الصيام فعدّت عليه العلّة الموصوفة وشاع على الالسنة انّه بات يصلّى ليلة سبع وعشرين فوافته المنيّة وهو ساجد وذلك كذب ودفن رحمه الله عند ضريح ابيه بقبور الاشراف وقبره معروف وممّا نقش على الرخامة التى على قبره

ايا زائري هب لي الدعاء تكرّما   فانّي الى فضل الدعاء فقير
وقد كان امرُ المؤمنين وملكهم   اليّ وصيتى في البلاد شهير
فها انا هذا صرت ملقى بحفرة   ولم يغن عنّى قائد ووزير
تزوّدت حسن الظنّ بالله راجى   وزادي بحسن الظنّ فيه كثير
ومن كان مثلى عالماً بحنانه   فذاك بنيل العفو منه جدير
وقد جاء انّ الله قال تفضّلا   الى ما يظنّ العبد بي سيصير

وحكى انّ ابنه ابا عبد الله لمّا قرا هذه الابيات عاقب ناظمها وقال له انّ قولك

بحفرة دسيسة وتلويح الى الحديث الكريم القبر روضة من رياض الجنّة او حفرة من حفر النار فهلّا قلت ببلقع او نحوه

ذكر الخبر عن دولة السلطان ابى عبد الله مولاى محمّد

ابن مولانا عبد الله ابن مولانا محمّد الشيخ رحمه الله

بويع له بعد وفاة ابيه سنة احدى وثمانين وتسعماية وكان ابوه عهد له بالخلافة في حياته فلمّا توفّى ابوه انعقدت له البيعة المستانفة بحضرة مرّاكش ووصلت له البيعة لمدينة فاس قال ابن القاضى وامّه امّ ولد وكنيته ابو عبد الله ولقبه المتوكّل على الله ويعرف عند العامّة بالمسلوخ لانّه سلخ جلده بعد وفاته وملئ تبناً كما سياتي ان شاء الله تعالى ووصفه غيره بانّه كان متكبّراً غيرّ مبال باحد ولا متوقفاً في الدماء شديد العسف على الرعيّة وكان مع ذلك فقيهاً مشاركاً في الفنون اديباً مجيداً قويّ العارضة نظماً ونثراً ومن شعره

خليليّ ما يخفى انحصاري عن الصبا فخلّا عقالي قد اضرّ بي الربط
ولا تجعلا من لام او من تلوّما فانّ بحور اللوم ليس لها شطّ

وقد خمّس هذين البيتين الفقيه الامام الشيخ الاستاذ ابو العبّاس احمد الزمّوريّ رحمه الله فقال

الا فاعجبوا من عاذل لي قد اغربا فكم ذاد عن عيني كراها واذنبا
و في شرعتى حلّ الخلافة مذهبا خليليّ مايخفى انحصاري عن الصبا
فخلّا عقالي قد اضرّ بي الربط

الا فارعدوا عن عدل صبّ تظلّما   وبالبين صار القلب منه متيّما
والحاظه تنهلّ عن غيره دما   ولا تجعلوا من لام او من تلوّما
فانّ بحور اللوم ليس لهاشطّ

ومن شعره ايضاً قوله

فقم بنا نصطبح قهواء فانية   في وجهها عسجد في وجهه نقط
وانهض اليها على رغم العدا قلقا   فانّ تاخير اوقات الصبا غلط

وقد خمّس هذين البيتين الفقيه المذكور ايضاً فقال

كم شادن بسهام اللحظ ءاونة   رمى فؤادي وكم حوراء سافكة
وفي العقار اغتنم داباً مسالمة   فقم بنا نصطبح قهواء فانية
في وجهها عسجد في وجهه نقط
وخلّ عن عاذل باللوم قد نطقا   وبَكّتَنْه واكّد فيه مطفقا
لايعرف الشوق الّا والتزُم ارقا   وانهض اليها على رغم العدا قلقا
فانّ تاخير اوقات الصبا غلط

ومن شعره ايضاً رحمه الله قوله

ساروا فسار فؤادي اثر ظعنهم   وخلّفوني نحيل الجسم حيرانا
لاافترّ ثغر الثرى من بعد بينهم   ولاسقى هاطلٌ ورداً وريحانا

وقد خمّسه ايضاً الفقيه المذكور فقال

استخبروا خبري بعد انفصالهم   قد اضرمت في الحشا نار بعادهم
وصبوتي لن تري نفسي لغيرهم   ساروا فسار فؤادي اثر ظعنهم

وخلّفوني نحيــل الجسم حيرانا

قد كان صفو حياتي يوم قربهم ولوعتى في اقتراب من بســاطهم

والان ابقيت في فيفــا غرامهم لاافترّ ثغر الــثرى من بعد بينهم

ولاسقى هــاطلٌ ورداً وريحــانا

ولم تطل خلافته رحمه الله الّا انّه بقي الى اواخر سنة ثلاث وثمانين وتسعماية فاتاه عمّه ابو مروان عبد المالك بجيوش الاتراك فاستلبه ملكه ونبذ دولته وكان خليفته بمرّاكش القايد علىّ بن شقرا وحاجبه احمد بن حمّ الدرعىّ وكتّابه يونس بن سليمان التاملىّ وعلىّ بن ابي بكر وغيرهما

ذكر الخبر عن مجئ ابى مروان مولانا عبد المالك

بن مولانا محمّد الشيخ

بجند الاتراك وغلبته على ابن اخيه مولاي محمّد بن عبد الله المذكور

لمــا توفّى السلطــان ابو عبد الله محمّد الشيخ رحمه الله وولي بعده ولده مولاي عبد الله رحمــه الله كما تقدّم وكان مولانا عبد المالك الغــازي واحمد المنصور بسجلماسة وحين بلغتهما وفاة ابيهمــا واستيلاء اخيهما على الملك بعده فرّا الى تلمسان خوفاً على انفسهما منه ولحق بهما اخوهما مولاي عبد المومن فبقيا بها مدّة ثمّ فرّا الى الجزائر ولم يزالا مقيمين بها الى ان بلغهما خبر وفاة اخيهما عبد الله واستبداد ولده مولاي محمّد بعده بالملك فسار عبد المالك الى اصطنبول وهى القسطنطنيّة العظمى قاصداً للسلطان مراد العثمانيّ ابن السلطان سليمان المدعوّ بسليمان شاه ابن السلطان سليم خان العثمانيّ فنزل عليه وطلبه ان يمدّه

بجيش يذهب به الى المغرب فينتزع الملك من ابن اخيه فغضب عليه السلطان مراد ولم يوافقه على غرضه فلم يزل عنده هو وامّه سحابة الرحمانيّة الى ان اجابهما الى ذلك وذكر بعضهم انّ سبب ذلك انّ تونس تغلّب عليها العدوّ الكافر فسكن قصبتها وسكن المسلمون نصفها بعد ان ضربت عليهم الجزية ورضوا بالبقاء تحت الذمّة وذلك بسبب انّ ملك افريقية وملك تونس كانا اخوين ونشبت بينهما نيران الحروب الى ان تغلّب ملك افريقية على اخيه ملك تونس ففرّ ملك تونس الى طاغية النصارى فجاء معه بجيوش الروم الى ان تملّكوا تونس كما ذكر وفعلوا فيها الافاعل العظيمة وانتهكوا حرمات المساجد وذكر المنجور في فهرسته انّ ابا الطيّب الظريف التونسيّ كان واعظاً بجامع الزيتونة رحل لفاس بعد اخذ العدوّ لتونس فخاطبه قاضى الجماعة بفاس ابو الحسن علىّ بن هارون رحمه الله بابيات منها قوله

ساقك الغيث اذ الغيث انهمر ... حضرة الانس البديع المونّس
لم يكن الّا كلمح البصر ... او بريق لاح لي يا تونس
يا لها من فجعة زبد الخبر ... انّها شقيقة الاندلس
كم خدود في وجوه كالقمر ... خدّها دمع جرى من نرجس
حالكات غيّرت منها الصور ... ذلّ اسر بعد عزّ الانفس
اصبحوا اسرى بايدي مَنْ كفر ... ملّكت ارقابهم بالافلس
ما لترك بقسىَ ووتر ... اخرجوهم من ظلام حندس
واستعينوا بعلىّ وعمر ... وابي بكر الرضىّ مع أَنَس
وارغبوا الله مساءً وبكر ... فعسى فتح من الله عسى
ربّ بشرى بنصر وظفر ... عاجلاً قبل حلول الرمس
وارى الكافر مقبوضاً يجر ... بارتفاع البيض فوق الارءس
وابا الطيّب طاب ونشر ... كتبه يقرا فوق الكرس

وعلا الاسلام والحقّ انتشر   بعلوّ هاشمّى الانفس

فاجابه ابو الطيّب بابيات منها قوله

ايّها الشيخ الفقيه المعتبر   سيّد العصر وصدر المجلس
قد تفضّلتم بنظم كالدرر   حلّ من قلبى محلّ النفس
هاجنى شوق اقتفاء للاثر   ان اكن عن دركه ذا فلس
كلّما هبّ نسيم للسحر   وقعت اطياره للغلس

وقال في النفحة المسكيّة انّ النصارى لمّا استولوا على تونس وانتزعوها من يد بقيّة الامراء الحفصيّين قسموا البلاد بينهم وبين من بقى تحتهم من المسلمين نصفين فسكن النصارى قلعة البلاد وما والاها وسكن المسلمون بقيّته بعد ان هدم النصارى في جانب المسلمين كلّ ما كان حصيناً من بابٍ ودار وحائط ثمّ بنوا حصناً اخر منيعاً على باب المدينة خارجها ثمّ بنوا مثله في وسط بحيرة ممدودة من المرسى الى باب المدينة وعند المرسى حلق من البحر يدخل اليها وبها سمّى حلق الوادي وليس هناك واد عذب ثمّ بنوا على المرسى حصناً عظيماً وقشتيلاً منيعاً متّقناً عجز الترك لمّا اخذوه عن هدمه وملئوه بالانفاض والعدّة والرجال والقوت بحيث ايقنوا انّهم ملكوا تلك البلاد وانّه لا ياتي من يقدر على اخراجهم منها ثمّ انّ الترك انتدبوا اليها وخرجوا اليها فيقال انّ الساطان مراد بينما هو نايم ذات ليلة وقف عليه رجلان في النوم وقالا له ان لم تغث العرب فما انت من المسلمين فتوضّا ورجع الى فراشه مستعيذاً بالله من الشيطان فوقفا عليه وقالا له ما قالا اوّلاً فقال لهما في المرّة الثانية من انتما فقال احدهما انا ابن العروس وهذا ابن الكلاعىّ وهما من صلحاء تونس فانتبه وقصّ روياه على اصحابه فاعلموه بخبر تونس كيف وقع بها الواقع فوجّه لها

جيوشاً حافلة في البحر فى كتاب النفحة المسكيّة ايضاً انّ عدد السفن التى وجّه اليها اربعمـاية وخمسين سفينة من القسطنطنيّة العظمى ومن غيرها من سـاير افريقية فيها ماية الف مقاتل وازيد وبعث معهم مولانا عبد المـالك رحمه الله فهزم الله الكفرة ومكّن من رقابهم السيف وطهّر البلاد من نجسهم بعد ان حاصرهم اربعين يومـاً وذلك عام اثنين وثمـانين وتسعماية فكان مولانا عبد المالك اوّل من ارسل بالبشارة مع اصحابه الى السلطان العثمانيّ فبلغت الرسـالة امّه سحابة الرحمانيّة فاعطت للسلطان المذكور مـا كتب به ابنها والتمست منه ان يعطيها في بشارتها امر اهل الجزائر بالذهاب معه للغرب فاعطاها ذلك فجاء عبد المالك مع امّه بكتـاب السلطـان الى اهل الجزائر يامرهم بالمسير معه الى تملّك مـا كان بيد ابائه فطلبه اهل الجزائر بالراتب فقـال لهم اسلفوني وعلى الخلاص فاتّفق ان يعطيهم عشرة الاف في كلّ مرحلة وكان عدد جيش الترك اربعة الاف وقال في شرح الدرّة انّ عبد المالك طلب من رايس الاتراك ان يعينه بحصّة منهم توصله الى حدّ بلاده ليدخلهـا اذ الجند كلّه جند والده فـلا يمكن ان يقاتلوه ويضربوه في وجهه لتعظيمهم ايّاه فاسعفه على مراده وارسل معه عصابة وحصّة قليلة فاقبل بهم الى موضع يقـال له الركن من احواز بنى وارثين من بوادي مدينة فاس المحروسة فلمّا سمع ذلك نجل اخيه مولاي محمّد بن عبد الله خرج الى لقائه بنفسه فالتقى الجمعان بالموضع المذكور فلمّا التقيا فرّ رايس جند الاندلس سعيد الدغاليّ الى عبد المالك وكان عبد المـالك يكاتب دايرة مولاي محمّد وبطانته ورايس اجناده ويعد طائعهم ويوعد عاصيهم فلمّـا سمع مولاي محمّد بفرار جند الاندلس الى عمّه مع قايدهم بتّ في عضده وفشلت ريحه وايقن بالنكبة ظنًّا منـه انّ جنده كلّه سيفعل مثل الدغاليّ فكان ذلك سبب جزعه وفراره من المعركة وسبب انخرام ملكه واقامة ملك عمّـه ويقال انّ بعضهم لمّا راى القائد كرمان واولاد عمران هربوا الى عبد المالك جاؤا الي محمّد وقالوا له انّ القائد ابن شقرا غدر وفرّ الى عبد المـالك فارتاع

محمّد لذلك وانقلب منهزماً وانتهبت خزاينه واوقدوا فيها النار حتّى رئي البارود من الجبال ودخل محمّد فاس الجديد واخذ ما يعزّ عليه من الذخائر ثمّ خرج فارًّا متوجّهاً الى مرّاكش فلحق به القائد علىّ بن شقرا بوادي النجا بمقربة فاس واغلظ له في القول ولامه على عدم التثبّت والتانّي والصبر وكان امر الله قدراً مقدوراً

ذكر الخبر عن دولة ابي مروان مولانا عبد المالك

واستيلائه على المغرب

قال ابن القاضى كان دخول ابي مروان عبد المالك الى فاس واستيلاؤه عليها بعد هزيمة ابن اخيه اواخر ذي الحجّة سنة ثلاث وثمانين وتسعماية وبعد ان دخلها وبايعه اهلها وبقى فيها ايّاماً طمحت نفسه الى اتباع ابن اخيه لمرّاكش ولمّا عزم على التوجّه تلقاء مرّاكش طلبه الترك ان يردّهم الى بلادهم وان يعطيهم المال الذى اتّفق معهم عليه وهم يسمّونهم بلغتهم البقشيش فاعطاهم اربعماية اوقية لكل واحد واستسلف المال من كبراء فاس حتّى يتّسع عليه الحال فاعطاهم خمسماية الف واعطاهم عشرة من الانفاض منها النفض الكبير الذي له عشرة افواه وزادهم من تحف المغرب وظرفه ما سلّى به انفسهم وركب لوداعهم بنفسه الى نهر سبو ثمّ رجع وتوجّه لمحاربة ابن اخيه بجنوده التى اقامها هو وكان غرسها بيده وبما انضاف اليه من جند ابن اخيه فسار بهم الى مرّاكش ولمّا سمع ابن اخيه بخروجه اليه وقصده مرّاكش تهيّا للملاقاته وسار لمنازلته فالتقى الجمعان بموضع يقال له خندق الريحان على مقربة من الشراط من احواز سلا فكانت الهزيمة ايضاً على محمّد ابن عبد الله وفرّ مثل دابه وعادته وتبعه عمّه ابو العبّاس المنصور خليفة ابي مروان فلمّا سمع محمّد باتباعه

بعد بلوغه الى مرّاكش مرّ عنها لجبل درن واسلم له مرّاكش فدخلها ابو العبّاس المنصور نائباً عن اخيه ابي مروان فلمّا استقرّ لمرّاكش لحق به اخوه السلطان ابو مروان ودخلها واقام بها مدّة ثمّ خرج منها في طلب ابن اخيه فعميت عليه انباؤه فرجع ابو مروان لمرّاكش ثمّ انّ ابن اخيه لم يزل يجول في جبال السوس لا يقرّ له قرار الى ان اضاف لنفسه طائفة من الصعاليك واجتمع له منهم شبه الجيش فتوجّه بهم الى مرّاكش فسمع به ابو مروان فخرج لملاقاته فخالفهم محمّد في الطريق وسلك طريقاً غير طريق ابي مروان وقصد مرّاكش فدخلها باتّفاق اهلها ونصروه وكتبوا له البيعة الّا انّه لم يتمكّن من القصبة لانّ ابا مروان ترك بها اخته الستّ مريم في نحو ثلاثة الاف من الرماة فتحصّنوا بها وبلغ الخبر ابا مروان بحلول محمد مرّاكش فرجع مسرعاً الى ان وافاه بمرّاكش فحاصره بها وكتب الى اخيه احمد المنصور ان ياتي بجيش فاس مسرعاً وكان احمد المنصور لمّا دخل مرّاكش اوّلاً وهرب ابن اخيه محمّد الى سوس طلب من اخيه ابي مروان ان يخلّفه على فاس فاعطاه ايّاها وكان الوزير عبد العزيز المدعوّ عزوز بن سعيد الوزكيتيّ حاضراً للطلب والعطيّة فانكر ذلك عليهما ولم يره صواباً وقال لهما لا ينبغي لكما ان تجاسا حتّى يحكم الله بينكما وبين ابن اخيكما فغاظ ذلك احمد المنصور وظنّ انّ ذلك من سوء راي عبد العزيز في جانبه ومن بغضه فيه ولم ينصتا لمقالة الوزير فذهب المنصور خليفة الى فاس فلمّا رجع المنصور الى مرّاكش بالجيش تلاقى مع عبد العزيز فقال له وقفت على الراي اوّل الفكرة اخر العمل فبانت للمنصور نصيحته وزال عنه ما كان يختلج في صدره ولمّا جاء المنصور بجيش فاس فرّ محمّد الى السوس وبقى اهل مرّاكش متمادين على الحصار الى ان اتّفق ابو مروان مع اعيان كرارة فادخلوه من الاسوار وبعض الانقاب ولمّا توجّه محمّد الى السوس تبعه المنصور فكانت بينهما حروب عظيمة اتاح الله فيها النصر للمنصور وهزم محمّد كعادته ففرّ الى جبال درن ثمّ دخل طنجة مستصرخاً بعظيم الروم والى الله عاقبة الامور

يضلّ من يشاء ويهدي من يشاء ولا يسال عمّا يفعل

ذكر الخبر عن مولانا محمّد بن عبد الله واستصراخه بالنصارى

ومـا وقع بسبب ذلك

كان مولانا محمّد بن عبد الله عفا الله عنّا وعنه لمّـا ضـاق ذرعاً بعمّه ابي مروان لم يجد منه ملجاءً ولا مفراًّ ذهب لطاغية النصارى عظيم نصارى بردقيس فاستصرخ به واستغاثه على عمّـه فاغاثه وبعث معـه جيوشاً كثيرة ومن هنالك كتب مولاي محمّد رسالة الى اعيان المغرب من علمائه واشرافه وذوي الراي فيه يخطّى عليهم في نكث بيعته ونقضها ومبايعة عمّه من غير موجب شرعىّ وقال لهم ما استصرخت بالنصارى حتّى عدمت النصرة من المسلمين وقد قال العلماء يجوز للانسان ان يستعين على من غصبه بكلّ ما امكنه وهدّدهم في رسالته وابرق وارعد وعدّد واوعد وقال فان لم تفعلوا فاذنوا بحرب من الله ورسوله وسمّى النصارى اهل العدوة واستنكف عن تسميتهم نصـارى فاجابه علمـاء الاسلام رضى الله عنهم عن رسالتـه تلك برسالـة دافعة لجيش اباطيله وفاضحة لدكيك تاويله وهذا نصّ تلك الرسالة المذكورة حرفاً حرفاً فالحمد لله كما يجب لجلاله والصلاة والسلام على سيّدنا محمّد خير انبيائه وارساله والرضى عن اله واصحابه الذين هاجروا لدين الاسلام وهجروا دين الكفر فما نصروه ولا استنصروا به حتّى اسّس الله دين الاسلام بشروط صحّته وكماله وبعد فهذا جواب من كافّة اهل المغرب من الشرفاء والعلمـاء والصلحاء والاجناد والرؤسـاء وفّقهم الله لمولانا محمّد ابن مولانا عبد الله السعديّ رحمهم الله عن كتـابه الذي استدعاهم فيه لحكم الكتاب واستدلّ بحججه الواهية الاطناب المنتكبة عن الصواب قائلين له عن اوّل حجّة صدر بهـا الخطـاب لو رجعت على نفسك باللوم والعتـاب

لعلمت انّك المحجوج المصاب فقولك خلعنا بيعتك التى التزمناها وطوّقناها اعناقنا وعقدناها والله ماكان ذلك منّا عن هوى متبع ولا عن سبيل خارج عن طريق الشرع مبتدع وانّمـا ذلك منّا على منهج الشرع وطريقـه وعلى الحقّ وتحقيقه وسنشرح لك ذلك ونبيّنه ونسطره لك بادلّة الشرع وسنّتـه وتعيينـه نعم كنت سلطاننا بما عقد لك والدك من البيعة وترك لك من الاموال والذخائر والعدّة والعدد والحصون ما لم يتهيّا مثله لاحد من اسلافكم الكرام رضوان الله عليهم اجمعين فجاهدوا بما حصل لهم من ذلك في الله حقّ جهـاده حتّى استخلصوا من ايدي الكفّار رقاب عباد الله وحصون بلادهم واسّسوا لدين الله قواعد واركاناً وملكوا من المغرب بلاداً معتبرة واوطاناً فلمّـا وصل اليك ذلك القت اليك العبـاد اعنّتها وملّكتك ازمّتهـا غير مبدلين ولا مغيرين ولا طاغين ولا منكرين الى ان قام عليك عمّك فخجتك التى لا يمكنك جحدها حسبما ثبت كما يجب عقدها فخرجت مبادراً له برفعها ولقيته بها وانت واسطة عقدها وحامل راية عهدها وعمّك في فئة لا يخطر على بال عاقل ان يقابل جنداً من جنودك او يدافع ما تحت لواء من الويتك وبنودك فما هو الّا ان جرى القتال وحضر النزال رجعت على عقبك هـارباً هروب مطرود القصـاص وجنودك تناديك ولَاتَ حين مناص فتركت عددك ومحلّتك بكلّ ما فيها وخلّفتها لعدوّك ينهبها ويسبيها وهربت عن مدينة فاس المحروسة وسكّانها ينادونك لِمَ تركتنا والى من تكلنا فلم تلتفت اليهم واسلمت بلادهم بمـا فيهـا من خزائن الاموال والاعداد الوافرة من الرجال والاسوار المرتفعة المانعة والمدينة المشهورة الجامعة فاصبح اهلها واليد العـادية من السفهـاء والمفسدين تريد ان تمـدّ ايديهم الى الحريم والاموال والاولاد والطارد والتلاد ولا دافع عن الضعفاء والمساكين الّا الله سبحـانه الذين قال في مثلهم ومن اصدق من الله قيلا لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً فما امكنهم بعد هروبك عنهم واسلامك لهم فوضى الّا النظر في امرهم واعمال الفكر في التدبير على انفسهم فبينما هم كذلك اذا بعمّك وجنوده

على باب مدينتهم قائماً بحجّته سالكاً في ذلك سبيل ابيه رحمه الله ومحجته حسبما تقرّر ذلك عندكم وظهر ولم يخف عنكم منه عين ولا اثر اذ كان مولانا محمّد الجد الاكبر عهد لاولاده مولانا احمد ومولانا محمّد الشيخ واخوانهما الّا يتولّى الخلافـة منهـم ولا من اولادهم الّا الاكبر فالاكبر فالتـزموا ذلك الى ان كبر اولادهم فطلب جدّك من اخيه الوفاء بذلك فامتنع فقاتله على ذلك حتّى تمّ له الامر وانتظم فعهد لوالدك الذي كان اكبر اولاده فلم ينازعه احد في ذلك الى ان التى والدك رحمه الله ذلك وعهّد اليك ولم ينازعك احد فابى الله الّا ان يحقّ الحقّ فاعطى الملك لعمّك الذي هو اكبركم بعد ابيك فان سلّمت هذا فايّ حجّة تدلى بهـا وايّ طريق تعتمد عليهـا وان انكرت هذا فلا اثر لخلافة ابيك من قبلك ولا لجدّك من قبله لثبوتها لعمّكم مولاي احمد اذ لا حجّـة حينئذ لجدّكم في القيام على اخيه مولانا احمد فخلافته صحيحة لبيعة جدّك له فلم يبق الّا التغلّب الذي تدلي به في مسالة عمّك وفي قيامه عليك فان كنت تريد ان تسقط حجّته بالتغلّب عليك فحجّتك ابين في السقوط لعدم ثبوت الخلافـة لمن عهدهـا لك اذ المعدوم شرعـاً كالمعدوم حسّـاً فلم يبق بينكم الّا الملك بعد ابي ليلى لمن غلب فيلزمك على هذا ان تثبت ما عقده مولانا الجدّ رحمه الله في خلافته لعمّك القائم عليها اذ هو اكبركم فى هذا التاريخ فان قلت انّ ما عقده الجدّ غير صحيح قلنا قد ذكر الامـام المـاورديّ رحمه الله فى كتاب الاحكام السلطانيّة له فى باب عقد الخلافة انّ عبد الملك بن مروان رتّبها في الاكبر فالأكبر من بنيه فلم ينازعه احد في ذلك فان قلت فعل عبد المالك ليس بحجّة قلنا سكوت العلماء على ذلك وهم ما هم في زمانه هو الحجّة اذ لا يمكن لهم ان يسكتوا على باطل واقرار اهل العصر الواحد على مسئلة من المسائل واتّفاقهم عليها يقوم مقام الاجماع الذي هو حجّة الله في ارضه وكان ايضاً من محفوظات علماء فاس المحروسة ما خرجه مسلم رضى الله عنه في صحيحه في كتاب الامارة مـا نصّـه قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يرفع لكلّ غادر يوم القيامة لواء يعرف به يقال هذه غدرة فلان

بن فلان الّا ولا غادر اعظم غدراً من امير عامّة غدرهم قال القاضى ابو الفضل عياض بن موسى رحمه الله في كتاب اكمال المعلّم على شرح مسلم يعنى لم يحظّهم ولم ينصح لهم ولم يوف بالعقد الذي تقلّده من امرهم وفي الباب بنفسه عنه عليه السلام ما من امير استرعاه الله رعية فلم ينصح لهم الّا لم يرح رايحة الجنّة وانّ ريحها ليوجد من مسيرة خمساية عام وفي كتاب الاكمال بنفسه قال القاضى والذي عليه الناس انّ القوم اذا بقوا فوضى مهملين لا امام لهم فاهم ان يتّفقوا على امام يبايعونه ويستخلفونه عليهم ينصف بعضهم من بعض ويقيم لهم الحدود فلمّا اسلمْتَهم واصبحوا بغير امام وعمّك يدلي بحجّته التى ذكرنا لك مع ما حفظوه من كلام النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وكلام السلف الصالح وايسوا من رجوعك لهم وبقوا فوضى مهملين لم يسعهم الّا الرجوع لما عليه الناس رضوان الله عليهم فاتّفقوا على ان يبايعوا عمّك لما ذكرنا لك من الحجج التى لا يسعك جحدها الّا على وجه المكابرة فاطمانّ الناس وسكنوا وانفتحت السبل واقيمت الحدود وارتفعت اليد العادية فان قلت الان يجب على اهل فاس ان يقاتلوا على البيعة التى التزموها لك قلنا انّما يلزمهم القتال ان لو اقمت بين اظهرهم فيكون القتال على وجه شرعيّ لانّ القتال على الحدود الشرعيّة انّما يكون بعد نصب امام يصدر الناس على رايه ويمكنك ايضاً جحدها ايه ثمّ وصلت مرّاكش الغراء التى تجبى اليها الاموال من البوادي والامصار وتشدّ اليها الرحال من سائر النواحى والاقطار فلقيك اهلها بالرحب والسرور وانواع الفرح والحبور فوجدت خزائنها تموّج ملئً من كلّ شيء فامّا اسوارها ورجالها فهى كما قيل تربة الوليّ والبرج النبى الجلى ودرج الحمى فحلّلتها وتمكّنت من اموالها وخزائنها ووافقك اهلها فما نكثوا ولا غدروا ولا خرجوا عليك في سلطانك ولا نكروا فطلبت ايضاً قتال عمّك وجنّدت جنوداً لا يجمعها ديوان حافظ ولا يحيط بعدّها لسان لافظ فخرجت اليه تجرّ اعنّة الخيل ووراءك كالسيول والرماة ملات الهضاب والتلول فما كان حديثك الّا ان وقع القتال وحضر الضرب والطعان والنزال

فبادرت هارباً محكماً للعادة تاركاً للروساء من اجنادك القادة فخلّت بهم الخطوب والرزايا واختطفتهم ايدي المنايا فتركت ايضاً محلّتك بما فيها من حريمك واموالك وعدّتك ورجالك ثمّ اسرعت هارباً لمرّاكش فما صدّك احد من اهلها ولا قال لك لستَ ببعلها فعملوا على القتال معك والتمنّع باسوارها الحصينة والحصار داخل المدينة فلمّا كان الليل غدرتهم وغدرت بناتك ونسائك واخواتك وعمّاتك وخرجت عنهم من القصبة وتركتهم لا بوّاب عليهم ولا حارس ولا راجل ولا فارس فيا لها من مصيبة ما اعظمها ومن داهية ما ادهمها ولولا فضل الله ولطفه ووعده بتطهير اهل البيت لامتدّت اليهم ايدي السفلة من الفسقة فايّ حجّة تبقى لك بعد هذا وايّ كلام لك بين الرجال يا هذا ثمّ جاءها عمّك ايضاً بما سلف من الحجج فوجد اهلها في لطف الله سبحانه وهم يحرسون اولادهم وديارهم من اليد العادية فانقذهم الله به ايضاً فبايعوا عمّك واطمانّوا وسكنوا ثمّ هربت الى الجبل عند صاحبه فصرتما في نهب اموال الرعيّة وسفك دمائهم واكثر ما صفى لك من ذلك اهل الذمّة المصغرين بحكم القرآن الداخلين تحت عهد سيّد الثقلين في الامن والامان فانت وايّاهم في استيلائك وظلمك كما قيل

ان هو مستولياً على احد　　الّا على اضعف المجانين

ولم تبال بقول النبيّ صلّى الله عليه وسلّم انا خصيم من ظلم ديماً يوم القيامة ثمّ خربت العامر وافسدت ما شيد الاسلاف للاسلام من المئاثر فلمّا راى اهل السوس الاقصى ذلك ايقنوا انك انّما قصدت خراب الاسلام واهله فتنكّب عنك اهل الدين والعلم منهم وبقيت كما قيل كجلد الاجرب فان قلت انّ اولائك الخلق لم يبايعوا عمّك فتنقص بهم ما قررناه قلنا لم يطعن في خلافة امير المومنين علىّ بن ابي طالب رضى الله عنه من تخلّف عنها من اهل الشام وفيهم من قد علمت من الناس واجماع على صحّة بيعته ويسمّى من تخلّف عنها باغيا

لقول النبي صلّى الله عليه وسلّم لِعُمَر تقتلك الفئة الباغية فقتله اصحاب معاوية رضى الله عنه والحديث من اعلام نبوّته عليه الصلاة والسلام والقاعدة انّ ما اجمع عليه من يعتبر من اهل العصر الواحد هو المعوّل عليه ولا يعدّ خلاف من خالفه خلافاً وهذا كلّه بالنظر الى ما كان من حديثك قبل التحزّب مع عدوّ الدين والاخذ في التخليط العظيم على المسلمين بان اتّفقت معهم على دخول اصيلا واعطيتهم بلاد الاسلام فيا لله ويا لرسوله هذه المصيبة التى احدثتها وعلى المسلمين فتقتها ولاكن الله تعالى لك ولهم بالمرصاد ثمّ لم تتمالك ان القيت نفسك اليهم ورضيت بجوارهم وموالاتهم كانّك ما طرق سمعك قول الله سبحانه ياايّها الذين آمنوا لا تتّخذوا اليهود والنصارى اولياء بعضهم اولياء بعض ومن يتولّهم منكم فانّه منهم قال ابو حيّان رحمه الله اي لا تنصروهم ولا تستنصروا بهم وفي كتاب القضاء من نوازل الامام البرزليّ رحمه الله انّ امير المؤمنين عليّ بن يوسف بن تاشفين اللمتونيّ رحمه الله استفتى علماء زمانه رضوان الله عليهم وهم ما هم في استنصار ابن عبّاد الاندلسيّ بالكتاب الى الافرنج ان يعينوه على المسلمين فاجابه جلّهم رضى الله عنهم بردّيّته وكفره فتامّل هذا مع قضيّتك تجدها احرويّة ومناسبة قضيّة ابن عبّاد في عقدها بناءً على انّه متى طرق الكفر وجب العزل وناهيك بقول النبيّ صلّى الله عليه وسلّم عليكم بالسمع والطاعة ولمّا افتى به العلماء رضوان الله عليهم من ردّة من استنصر بالنصارى على المسلمين فهو نصّ جلي في وجوب خلعك وسقوط بيعتك فلم يبق لك الّا منازعة الحقّ سبحانه في حكمه ومن يشاقق الله ورسوله فانّ الله شديد العقاب وامّا قولك في النصارى انّك رجعت الى اهل العدوة واستنكفت ان تسمّيهم بالنصارى ففيه المقت الذى لايخفى وقولك رجعت اليهم حين عدمت النصرة من المسلمين ففيه محظوران يحضر عندهما غضب الربّ جلّ جلاله احدهما انّك اعتقدت انّ المسلمين كلّهم على ضلال وانّ الحقّ لم يبق من يقوم به الّا النصارى دمّرهم الله والعياذ بالله والثاني انّك استعنت بالكفّار على المسلمين وفي

الحديث انّ رجلاً من المشركين ممّن عرف بالنجدة والشجاعة جاء الى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فوجده يحدّ شفرة فقال يامحمّد جئت لانصرك فقال له النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ان كنت تومن بالله واليوم الاخر فقال لا افعل فقال له عليه السلام انّي لا استعين بمشرك وما سمعته من قول العلماء رضى الله عنهم في الاستعانة بهم انّما هو بان تجعلهم خدمة لازبال الدوابّ ونحو ذلك لا مقاتلة فامّا الاستعانة بهم على المسلمين فلا يخطر الّا على بال من قلبه وراء لسانه وقولك يجوز للانسان ان يستعين على من غصبه بكلّ ما امكنه وجعلك قولك هذا قضيّة انتجت لك دليلاً بجواز الاستعانة بالكفّار على المسلمين ففى ذلك من مصادمة للقرءان ما لايخفى وهو عين الكفر ايضاً والعياذ بالله وقولك فان لم تفعلوا فاذنوا بحرب من الله ورسوله ايه انت مع الله ورسوله ومع حزبه فتامّل ما قلت وفي الحديث يتكلّم احدكم بالكلمة تهوى به في النار سبعين خريفاً ولمّا سمعت جنود الله وانصاره وحماة دينه والعرب والعجم قولك هذا حملتهم الغيرة الاسلاميّة والحمية الايمانيّة وتجدّد لهم نور الايمان واشرق عليهم شعاع الايقان فمن قائل من يقول سترون ما اصنع عند اللقاء ومن قائل ليعلمنّ الله الذين آمنوا وليعلمنّ المنافقين ومن قائل يقول انّما قصدي التشفّي في المسلمين اذ لو كان يطلب الصلاح لما صدرت منه هذه الافعال القبيحة الى غير ذلك فجزاهم الله عن الاسلام خيراً رضى الله عنهم وبارك فيهم فللّه درّهم من رجال وفرسان وابطال وشجعان فلو لم يكن منهم الّا ما غيّر قلوبهم على الدين لكان كافياً في صحّة ايمانهم وعظيم ايقانهم فقد بلغ نور غضبهم في الله سبحانه ساق العرش والحبّ في الله والبغض في الله من قواعد الايمان وقولك ايضاً متبّرياً من حول الله وقوّته فان لم تفعلوا فالسيف فهو كلام هديان يدلّ على قلّة حياء قائله فقط اسيفك هذا نبا وانت مع المسلمين اربعاً وعشرين معركة لم تثبت لك فيها راية ثمّ زال نبوه الان بالكفّار فهذه اضحوكة فتامّلها وامّا ما نسبتم لامام دار الهجرة فكفاك عجزاً ان تعيّن لنا نصّاً جليّاً نعتمد عليه فيما تحتجّ به وامّا ما نسبتم

للحنفية من اكل الميتة عند الضرورة واباحة الغصّة بخمر فهو ممّا نصّ عليه المالكية في مختصراتهم التى الّفوها للصبيان فعدولك عن ذلك الى نصّ الحنفيّة امّا قصور وامّا الغاء لمذهب مالك رضى الله عنه وهو النجم الثاقب وامّا قولك انتم اهل بغى وعناد فلا نسلّم لك ذلك الّا لو اقمت بين اظهرنا وقاتلت معنا حتّى ترى انسلّمك ام لا فامّا اذا هربت عنّا وتركتنا فالحجّة عليك لا علينا على انّك في كتابك تفسق الكلّ بذلك وتكفّره وقد قال العلماء رضوان الله عليهم من يقول بتكفير العامّة فهو أَوْلى بالتكفير وذلك معزر لزعيم الفقهاء ورايس العلماء ابي الوليد بن رشد والقاضى ابي الفضل عياض رحمهما الله وكيف لا تنظر لقضايا تلمسان وتونس وغيرهما من سائر البلدان كيف وقع لامرائهم المستنصرين بالكفّار على المسلمين هل حصلوا على شيء ممّا قصدوه او بلغوا شيأً ممّا املوه على انّ اكثر العلماء حكم بردّتهم ففاتتهم الدنيا والاخرة والعياذ بالله وقد افتخرت في كتابك بجموع الروم وقيامهم معك وعوّلت على بلوغ الملك بجيوشهم وانّى لك هذا مع قول الله تعالى اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام ديناً ويابى الله الّا ان يتمّ نوره ولو كره الكافرون وفي الحديث عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم لن تغلب هذه الامّة ولو اجتمع عليها من الكفّار ما بين لامات الدنيا وعنه صلّى الله عليه وسلّم سيقاتل هذه الامّة الدجال وعنه عليه الصلاة والسلام انه قال سالت ربي ثلاثاً فاعطاني اثنتين ومنعنى واحدة سالته الّا يهلككم بسنين كسنى يوسف فاعطانيها وسالته الّا يغلبهم عدوّهم الكافر فاعطانيها وسالته الّا يجعل باسهم بينهم فمنعنيها والكلّ عليك واياك نعنى وما ذكرته عن عمّك المنصور فاعلم انّه لمّا بلغه خبرك واستنصارك بالكفّار عقد الراية المنصورة بالله في وسط جامع المنصور بعد ان ختم عليها اهل الله حملة القرءان ماية ختمة وصحيح البخاريّ وضجوا عند ذلك بالتهليل والتكبير والصلاة والسلام على البشير النذير والدعاء له وللاسلام بالنصر والتمكين والفتح الشامل الشامخ المبين فلو سمعت ذلك لعلمت وتحقّقت انّ

ابواب السماء قد انفتحت لذلك وقضى ما هنالك وبلغه كتابك الذي كان هذا جوابنا عنه وهو بوسط تامسنا معه من جنود الله وانصاره وحماة دينه ما يجعل الله فيه البركة ولولا انّ الشرع العزيز امر بتعظيم جيوش الاسلام وجنوده اهل الايمان والمباهاة بها والافتخار بكثرتها لما قرّرنا لكم امرها اذ لا اعتماد له ايّده الله عليها وكذلك هم لا اعتماد لهم وله الاّ على حول الله وقوّته ونصره وتاييده والناس على دين الملك وقد قاتلك في جيش المسلمين في بضع عشرين معركة ثمّ لم تنصر لك راية فايّ شوم ونحس حلاّ بديار الروم فان حللت بهم فالله لك ولهم بالمرصاد فارجع الى الله ايّها المسكين وتب الى الله فانّه يقبل التوبة عن عباده في كلّ وقت وحين ودع عنك كلام من لا ينهضك حاله ولا يدلّك على الله مقاله وهذه نصيحة ان قبلتها وموعظة ان وفقت اليها والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم وهونعم المولى ونعم النصير وهو حسبنا ونعم الوكيل والسلام

ذكر الخبر عن غزوة وادى المخازن وما وقع فيها للمسلمين من النصر المبين

قال في المنتقى هذه الغزوة من الغزوات العظيمة والوقائع الشهيرة حضرها جمّ غفير من اولياء الله تعالى حتّى انّه اشبه شئ بغزوة بدر حدّثني شيخنا ابو راشد يعقوب اليدريّ عمّن يثق به انّ الرجل من حاضري ذلك المعترك يستبق للنصرانيّ لينتهز به الفرصة فما يصله حتى يجده ميّتاً . وكان خروج النصارى في هذه الوقعة بجيوش حافلة وجموع عديدة يقال انّه زهاء ماية الف وخمسة وعشرون الف مقاتل وقصدوا هلاك المغرب وحصر المسلمين وادارة رحى الهوان على اهل الدين فعظم ذلك على الناس وامتلات قلوبهم رعباً وصدورهم

كرباً وبلغت القلوب الحناجر واشتعلت على اهل العقول نيران الهواجر الى ان اتاح الله لهم نصر دينه واعلاء كلمته وظهر من لطيف صنع الله تعالى ما لم يخطر لاحد ببال وسبب ذلك كلّه انّ محمّد بن عبد الله لمّا دخل طنجة قصد الطاغية واستصرخه على عمّه وطلب منه المعونة فشرط عليه الطاغية ان يكون للنصارى سائر السواحل وله هو ما وراء ذلك كلّه فقبل ذلك منه محمّد بن عبد الله والتزمه واسم هذه الطاغية بستيان البرتقاليّ ويقال برتقيس فخرجوا بجيوش وافرة وسلف بيان نهايته حسبما انهاه ابن القاضى والذي عند غيره انّهم كانوا نحواً من ستّين الف وقال في المنتقى وعدد الكفرة ماية الف وخمسة وعشرون الفاً الخمس والعشرون بقيت في السفن والماية الف حضرت القتال اسر بعضهم وقتل الباقى. وكان مع محمّد بن عبد الله نحو الثلاثماية من اصحابه قال بعضهم وكان عدد الانفاض التى يجرّونها مايتين من الانفاض فشنّوا الغارات على اهل السواحل فاعلموا اهلها السلطان عبد المالك وكان بمرّاكش وشكوا له كلب العدوّ عليهم فكتب عبد المالك من مرّاكش الى الطاغية انّ سطوتك قد ظهرت في خروجك من ارضك وجوازك البحر الى العدوة فان ثبتت الى ان نقدم عليك فانت نصرانيّ حقيقيّ شجاع والّا فانت كلب ابن كلب فلمّا بلغه الكتاب غضب وشاور اصحابه هل نقعد هنا حتّى يلتحق بنا من خلّفنا من اصحابنا فقال لهم محمّد بن عبد الله الراي ان نتقدّم ونملك تطاون والقصر والعرايش ونجمع ما فيها من العدّة ونتقوّى بما فيها من الذخائر فاعجب ذلك الراى اهل الديوان ولم يعجبه هو وكتب عبد المالك الى اخيه احمد ان يخرج من فاس واحوازها بالجيوش ويتهيّا للقتال وكتب عبد المالك الى الطاغية انّي رحلت اليك ستة عشر مرحلة اما ترحل الىّ واحدة فرحل العدوّ من موضع يقال له تهدّارت ونزل على وادي المخازن بمقربة من قصر كتامة وكان من عبد المالك مكيدة ثمّ انّ الطاغية قطع بجيوشه وعبر جسر الوادي ونزل من هذه العدوة فامر عبد المالك بالقنطرة ان تهدم ووجّه لها كتيبة من الخيل فهدموها

وكان الوادي لا مشرع له ثمّ زحف عبد المالك الى العدوّ بجيوش المسلمين وخيل الله المسوّمة وانضاف له من المتطوّعة كلّ من رغب في الاجر وطمع في الشهادة واقبل الناس سراعاً من الافاق وابتدروا حضور هذا المشهد الجليل وكان ممّن حضر من الاعيان ابو المحاسن سيّدي يوسف الفاسيّ وغيره وسمعت انّ الشيخ الغوث سيّدي ابا العبّاس السبتيّ رحمه الله رئي فيها جهاراً على فرس اشهب وهو يحضّ الناس على التقدّم ولا يستنكر مثل هذا فانّ الشهداء احياء عند ربّهم فالتقت الفئتان وزحف بعضهم الى بعض وحمي الوطيس واسودّ الجوّ بنقع الجياد ودخان مدافع البارود واشتدّ القتال وكثر الضرب والطعن واستمرّ النزال فلمّا قامت الحرب على ساق والتفّت الساق بالساق توفّي عبد المالك عند الصدمة الاولى منه وكان مريضاً في محفّته وعند ما اضرمت نار القتال وكان من قضاء الله السابق ولطفه السابغ انّه لم يطلع على وفاته احد الّا حاجبه ومولاه رضوان العلج فانّه كتم موته وصار يختلف الى الخباء ويقول انّ الامير يامر فلاناً ان يذهب الى موضع كذا وفلاناً ان يلزم الراية وفلاناً ان يتقدّم وفلاناً ان يتاخّر وهكذا وقال شارح الزهرة ولّما مات عبد المالك لم يظهر الذي كان سايس المحفّة موته فصار يقدّم دوابّ المحفّة نحو العدوّ ويقول للجند الملك يامركم بالتقدّم الى الكفرة وعلم ايضاً بموته اخوه المنصور فكتمها ولم يزل كذلك والناس في المناضلة ومداناة القواضب واحتساء كؤس الحمام الى ان هبّت على المسلمين ريح النصر وساعدهم الدهر واثمرت كمايم رماحهم زهور الظفر فولّوا المشركون الادبار ودارت عليهم دائرة البوار وحكمت السيوف في رقابهم ففرّوا ولات حين فرار وقتل الطاغية البرتقاليّ غريقاً في الوادي وقصد النصارى للقنطرة فلم يجدوا لها اثراً فكان ذلك من اكبر الاسباب في هلاكهم واعظم الحبايل في اقتصامهم ولم ينج من الروم الّا عدد نذر وشرذمة قليلة وبحث في القتلى عن محمّد بن عبد الله فوجد غريقاً في وادي لكّس وذلك انّه لّما راى الهزيمة التى بنفسه فيه ورام قطعه فغرق فيه فاستخرجه الغوّاصون

فسلخ جلده وحشي تبناً وطيف به في مرّاكش وغيرها وممّن وجد في القتلى ابو عبد الله محمّد بن عسكر صاحب دوحة الناشر فانّه هرب مع المسلوخ وكان من بطانته ودخل معه بلاد الروم فوجد ميّتاً بين قتلى النصارى صريعاً وتكلّم الناس في امره حتّى قيل انّه وجد على شماله مستدبراً للقبلة وفي ذلك يقول الفقيه العلّامة سيّدي محمّد ابن الامام الشهير سيّدي عبد الله الهبطيّ رحمه الله فيمنظومته التى نظم فيها اصحاب ابيه معتذراً عن ابن عسكر المذكور ومشيراً الى توهين ما قيل فيه

ومنهم الشيخ الذي لا ينكر   محمّد اخو الدهاء عسكر
فان يكن اتى بذنب ظاهر   فقلبه من الشكوك طاهر
رايته في النوم ذا بشارة   وهيئة حسنة وشارة

وكانالتقاء الجمعين يوم الاثنين منسلخ جمادى الاولى عام ستّة وثمانين وتسعماية قال في المنتقى وكان قدر المقاتلة خمساً واربعين درجة او اثنتين وخمسين درجة على ما حدّثني به بعض الموقّتين . وتوفّي عبد المالك في زوال اليوم المذكور وبايع النـاس اخاه ابا العبّاس احمد المنصور كما سياتي ان شاء الله قال في درّة الحجال فانظر لحكمة الله الواحد القهّار اهلك الله ثلاثة ملوك في يوم واحد وهم ابو مروان وابن اخيه محمّد بن عبد الله والطاغية بستيان واقام واحد وهو ابو العبّاس المنصور ولمّا بلغت الهزيمة الى الطاغية الاعظم بعث الى المنصور بعد استبداده بالملك ورجوعه لفاس كما سياتي يلتمس منه الفداء لمن بقي في يده من الاسارى ففداهم وجمع في ذلك اموالاً سنيّة وذكر بعضهم انّ الاسارى الذين وقع فداؤهم لمّا توجّهوا الى بلادهم ووصلوا لملكهم قال لهم الطاغية لِمَ لم تاخذوا القصر والعرايش وتطاون قبل ان يصل ملكهم اليكم فقالوا له امتنع من ذلك الامير الذي امّرته علينا فامر بهم فاحرقوا جميعاً . غريبة وفيها

مضحكة ذكر بعضهم انّ النصارى دمّرهم الله لّما وقعت عليهم الكائنة المذكورة وفنى من فنى منهم راى اساقفتهم قلّة الروم وخلاء البلاد اباحوا للعامّة فاحشة الزنى ليكثر التناسل ويخلف ما هلك منهم وراوا ذلك من نصرة دينهم وتقويم ملّتهم اخزاهم الله ودمّرهم .

ذكر الخبر عن سبب وفاة ابى مروان عبد المالك

وبقيـة اخبـاره

قال ابن القاضى كان سبب وفاة عبد المـالك انّه سقى سمّاً وذلك انّ قائد الاتراك الذي كان معه واسمــه رضوان العلج بعث لبعض قوّاده ان يتلقّـاهم بكعك مسموم هديّة لعبد المالك وقت جوازهم عليه قصد بذلك قتله بعد اخذه به مدينة فاس ليثبت لهم الملك فيها فلم يكمل الله مرادهم لما شاهدوا من عظيم جيش المغرب وكثرته فكان ذلك سبب موته . ولّمـا توفّى حمــل الى مرّاكش فقبر بها وكانت مدّة خلافته اربعة اعوام ومن حجّابه القائد رضوان العلج ومن كتّابه محمّد بن عيسى ومحمّد بن عمر الشاويّ وقضاته قضاة ولد اخيه وكان يتزيّا بزيّ الاتراك ويجري مجراهم في كثير من شئونه وكان يتهم بالميــل للاحداث وربّمـا كان يظهر ذلك كما سلف ويلقّب من الالقـاب السلطانيّـة بالمعتصم وكان اخوه ابو العبّاس احمد المنصور خليفة له على فاس وما والاهـا وكانت له فيه محبّة تامّة وكان يظهر انّه وليّ عهده ويرشحه لذلك كثيراً وقد وقفت على رسالة كتب بهـا اليه ابو مروان تدلّ على ذلك ونصّها بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله المعتصم بالله المجـاهد في سبيل الله امير المؤمنين عبد المالك ابن امير المؤمنين ابي عبد الله محمّد الشيخ الشريف الحسنيّ ايّد الله امره واعزّ نصره واسعد زمانه المبـارك وعصره وابقى بمنّـه فخره من املائه ايّده الله وادام ذكره الى اخينا الاعزّ الاحظى باب احمد حفظه الله سلام

عليكم ورحمة الله وبركاته امّـا بعد فاعلم انّي لا احبّ احداً بعد نفسى محبّتى لك ورغبتى في انتقال هذا الامر من بعدي الّا اليك لا لغيرك غير انّي نعتاد منك التراخى في الامور حتّى انّك لا تبـالي بعظيم الامر ولا تعتبره الى ان يتطرّق الىّ ما لا يتلاقى جبره من الامور التى تكاد لولا لطف الله تذهب بهذا الملك وتهدم اركانه ويبلغ العدوّ مناه ورضاه ومراده من ذلك في هذا التراخى اهمالك امر الجند الذي بالعرايش واغفـالك له مع ما يترادف عليك في كلّ ساعة من تلقائه من استدعاء ما دعت الحاجة اليه من المئونة والبارود والرصاص الذي لا يستقيم لهم امر في مقاومة العدوّ دون ذلك وجعلت تقابل خطابهم بالاهمال وعدم المبالاة الى الان ساعــة يرد عليك كتابنا هذا قبل وضعه من يدك ابعث لهم مئونة عشرة ايّام بينما نصل ان شاء الله فيقع التدبير فما يحتاجونه زايداً على ذلك مع ما عندكم هنـالك من البارود والرصاص من غير عطلة ولا تراخٍ ولا نقبل منك عذراً في هذه المسالة التى لاتحتـاج للاهمال ولابدّ ولابدّ وقد بلغنا انّ صاحب النصارى بقرب اصيلا بخمس عشرةماية من النصارى وتمنّيت ان لو حركتك الهمّة لاقتحـامه في مكانه بجيش يكسيه اردية الصغار ويرجع سـاعة رويته الى عادته من الذلّ والفرار فانتبـه من الغفلة وافتح عين الانتباه واليقظة فانّ الساعة لا تقتضى الّا الحزم والتشمير على ساعد الجد والاجتهاد والعزم والسلام

ذكر الخبر عن اوليّة السلطان ابى العبّاس

مولانا احمد المنصور الذهبىّ رحمه الله

صفته كان رحمه الله طويل القامة ممتلئ الخدّين واسع المنكبين تعلوه صفرة رقيقة ادعج اسود الشعر اكحل العينين ضيّق الفلج برّاق الثنـايا جميل الوجه

مليح الصورة ظريف النزع لطيف الشمايل حسن الشكل كانت ولادته رحمه الله بفاس سنة ستّ وخمسين وتسعماية وامّه الحرّة مسعودة بنت الشيخ الاجلّ ابي العبّاس احمد بن عبد الله الوزكيتيّ الورزازاتيّ وكانت من الصالحات حريصة على انشاء المفاخر راغبة في فعل الخير قال في المنتقى وهى التى انشات المسجد الجامع بحومة باب دكّالة داخل مدينة مرّاكش وحبّست عليه اوقافاً عظيمة وكان ذلك عام خمسة وستّين وتسعماية وهى التى بنت جسر وادي امّ الربيع وغير ذلك وتوفّيت رحمة الله عليها سحر يوم الثلاثاء السادس والعشرين من صفر في متمّ الالف ومن المستفيض انّها رئيت بعد موتها فسئلت ما فعل الله بها فقالت غفر لي بسبب انّي كنت ذات يوم جالسة لقضاء الحاجة فسمعت الموذّن قد شرع في الاذان فردّدت علىّ ثيابي اعظاماً لذكر الله تعالى حتّى فرغ الموذّن من اذانه فشكر الله لي ذلك فغفر لي ونشا المنصور رحمه الله في عفاف وصيانة وكانت مخايل الخلافة لايحة عليه من لدن عقدت عليه التمايم وكان والده المهديّ ينبّه على انّه واسطة عقد اولاده قال في مناهل الصفاء حدّثنى الشيخ المسنّ القائد ابو محمّد مومن بن غازي العمريّ انّ المنصور اقبل يوماً في حياة ابيه وهو صبيّ والمجلس غاصّ بالاكابر فاندفع يخترق الصفوف قال فصاح بي المهديّ اذّاك وانا اصغر القوم فقال يا مومن ارفعه فسينفعك وينفع عقبك فابتدرت حمله وكان كذلك فانّ المنصور لمّا افضت اليه الخلافة كان القائد مومن بن غازي هذا عنده بالحضرة الرفيعة والمنزلة العليّة قال ابو فارس ولمّا اخذ البيعة لولده السلطان الغالب بالله كما تقدّم استقدمه من فاس واوصاه بالمنصور جدّاً وقال له انّ الفائدة فيه او كما قال وكان المنصور يحدّث انّه راى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم في النوم وانواره تشرق قال فوقع في نفسى ان اساله عن نصيبى من الخلافة فكاشفنى عليه الصلاة والسلام بما في خاطري واجابنى بما حقّق لي مقالتها ثمّ اشار لي باصابعه الثلاثة الشريفة ضامّاً الابهام منها الى السبّابة والوسطى وقال امير المؤمنين وحدّث الفقيه سفير الخلفاء العالم الوليّ ابو عبد الله محمّد بن محمّد بن علىّ

الدرعىّ الجزّوليّ انّه اجتمع ببعض اهل المكاشفة بمصر فساله عن السلطان محمّد الشيخ المهديّ وعن اولاده فسمّيتُهم له واقتصرتُ على الكبـار منهم ولم اذكر المنصور لانّه كان اصغرهم سنّاً اذّاك فقـال لي بقى منهم من لم تذكر فقلت احمد فقال لي ذلك واسطة عقدهم ووجه صفقتهم فكان الامر كذلك وقال الامام ابو زيد عبد الرحمن بن محمّد التمارتيّ في كتابه الفوائد الجمّة باسناد علوم الامّة اخبرنا الفقية ابو العبّاس احمد بن عبد الله الدغوغىّ صاحب الحسبة بتارودانت انّه راى في منامه كانّه في حلقة يسرد فيها صحيح البخاريّ بمحلّ من دار الخلافة بها وابو العبّاس المنصور يومئذ بها قبل ولايته قال فرايت في طرّة الكتاب وريّ الزند فكنت اتامّل معناه فالتفتّ فاذا انا برجل في ناحية انعزل فيها على طنفسة فوقع في نفسى ان اساله فا تيته بالكتاب وقات له يا سيّدي ما معنى هذه الكلمة التى في طرّة هذا الكتاب فقال لي قل لمولاك احمد انا الذي اوريت زندك مـا دمت على الحقّ فان عدات عنه فانا برئ منك فقات له ومن انت يا سيّدي فقـال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ثمّ استيقظت فلم يمض الّا قليل حتّى ولي الخلافة وحمدت سيرته قال ابو زيد وناهيك بزند اوراه النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وهذا ممّا يدلّ على انّ ولاية الاسلام لا تنعقد الّا بامر النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وقد اشتهرت المراءي بذلك. ويقرب من هذا ما ذكره صاحب كتاب ابتهاج القلوب بذكر مناقب سيّدي عبد الرحمن المجذوب انّ الولىّ الصالح سيّدي كدار المالكى راى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ليلاً فشكى اليه اولاد مطاع لما راى مـا هم عليه من الفساد في الارض فقال له النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ياتيهم احمد فـكان الامر كذلك اتاهم بالقرب السلطان احمد المنصور فاخذهم وفلّ جمعهم كما سيـاتي ان شاء الله وذكر في المنتقى قال مرض المنصور ذات مرّة في صغره مرضاً شديداً حتّى ايس منه فرات امّه شخصاً في النوم وهو يقول لها زوّريه سيّدي الدراس بن اسمـاعيل نفع الله به فانّما اصابتـه عين فزوّرته ايّاه فعوفى واخبـاره من هذا النمط يطول تتبّعها وجمعها

ذكر الخبر عن دولة المنصور

واوّل امرها

قد ذكرنا كيفيّة مبايعته قبل وانّها كانت عقب وقعة وادي المخازن في يوم الاثنين منسلخ جمادي الاولى عام ستّة وثمانين وتسعماية واجتمع عليها اهل الحلّ والعقد ممّن هنالك من الاعيان ثمّ لمّا اقبل المنصور من تلك الغزوة ودخل مدينة فاس العليا يوم الخميس عاشر جمادي الاخيرة من السنة المذكورة جدّدت له البيعة بفاس ووافق عليها من لم يحضرها في حومة الوغا من الناس ثمّ بعث لمرّاكش وغيرها من حواضر المغرب وبواديه فاذعن الكلّ للطاعة وسارعوا للدخول فيما دخلت فيه الجماعة ولمّا تمّت للمنصور البيعة بوادي المخازن كان اوّل ما بدئ به انّ الجيش طلبوا منه ارزاقهم واستنجزوا منه اعطياتهم حسبما هى عادة من قبله معهم فطالبهم هو بخمس الغنيمة لانّهم جعلوها نهبة ولم يقتسموها على الوجه الشرعىّ فصعب اخراجها منهم لعدم التعيين وجرءة الناس على الغلول فسلّم لهم فيها وسمحوا في رواتبهم واعطياتهم وكان ذلك صلحاً وقطعاً للكلام فيما بينهم والامر لله سبحانه

ذكر الخبر عن بعث المنصور للافاق

يخبرهم بهذا الفتح المبين

قال الفشتاليّ لمّا وقعت غزوة وادي المخازن وكبّت الله فيها الكفر واهله ونصر الدين واستوثق الامر للمنصور وتمّت له البيعة بفاس كتب المنصور

لصاحب القسطنطنية العظمى ولسائر ممالك الاسلام المجاورين للمغرب يعرفهم بما انعم الله به عليه من اظهار الدين واهلاك عبدة الصليب واستيصال شوكة الروم وردّ كيدهم في نحورهم فوفدت عليه الارسال من سائر الاقطار مهنّئين له على ما فتح الله له وعلى يديه وكان اوّل من وفد عليه رسول صاحب الجزاير ثمّ تلته ارسال طاغية برتقال اريك القائم بامر الروم بعد هلاك ابن اخيه بستيان بوادي المخازن فجاء بهديّة عظيمة وضعوها يوم دخلوا لفاس على العجلات والكراريط فعجب الناس منها عجباً بليغاً وكان ممّا فيها ثلاثماية الف دقات من ريال الفضّة وامّا الظرف والحوائج النفيسة فامر لا يحصى ثمّ ورد ارسال صاحب قشتالة بهديّة عظيمة منها اليواقيت الكبار التى انتزعها الطاغية من تاج ابائه وربعية مملوة من الدرّ الفاخر وغير ذلك وتكلّم الناس فيما بين هديّة برتقال وهديّة صاحب قشتالة ايّهما اعظم ولم يعرف اهل العقول التفاوت بين الهديّتين ثمّ قدمت ارسال السلطان خاقان العثمانيّ ومعهم هديّة وهى سيف محلّى لم ير قط مثله مضاء واصفى متناً ثمّ قدمت ارسال طاغية الافرنج ويقال لهم اليوم افرنصيص وبها يعرفون اليوم ومعهم هديّة عظيمة ولم تزل الوفود مترادفة ببابه والارسال تصبح وتمسى على اعتابه الى ان لم يبق احد ممّن تتشوّق النفوس لمبعثه وحينئذ اطمانت نفس المنصور وقرّت عينه بتمهيد الامر له وفي جمادي الاولى عام سبعة وثمانين وتسعماية مرض المنصور مرضاً مخوّفاً وطال به حتّى كادت الامور ان تختلّ ثمّ تداركه الله على يد الحكيم الماهر ابي عبد الله محمّد الطبيب ولمّا استقلّ من مرضه احسن للطبيب المذكور ونثرت عليه من الخلع يوم خروجه ما لا يحصى وكان يوم خروجه يوماً مشهوداً وفي ذلك يقول الفقيه اللغوىّ الاديب ابو عبد الله محمّد بن علّى الهوزاليّ المعروف بالنابغة

تردّى اذى من سقمك البرّ والبحر   وضجّت لشكوى جسمك الشمس والبدر
وبات الهدى خوفاً عليك مسهرا   واصبح مذعور الفؤاد الندى الغمر

فلمّا اعاد الله صحّتك التى اافاق بها من غمّة البدو والحضر
تراءت لنا الدنيا بزينة حسنها وعاد الى ايّامها ذلك البشر
وصار بك الاسلام في كلّ بلدة يهنّا ويدعو ان يطول لك العمر
وصحّت لنا الامال بعد اعتلالها وعاد الى الايناع اغصانها الخضر
ولا غَرْوَ إنْ صامت على سمط الندا اذا اَغبرّ وجه الارض واحتبس القطر
بسيب ابي العبّاس انصت عجافها قديماً فخافت ان يعاودها الضر
لئن جدلت بيض المعالى فقد غدت نشىء الكمات البيض واللون اسمر
بقيت لهذا الدين تحمى دماره ويحميك ربّ العرش ما بقى الدهر

ذكر الخبر عن اخذه البيعة لولده وولّى عهده

محمّد الشيخ المامون وسبب ذلك

قال الفشتالىّ لّما ابلّ المنصور من مرضه المذكور وعاد الى حاله من الصحّة اجمع راى اعيان الدولة واتّفقت كلمة كبرائها على ان يطلبوا منه تعيين من يلى الامر بعده ويكون ولّى عهده وكان المنصور مهاباً فلم يقدر احد على مراجعته في ذلك فاتّفقوا على ان يكون البادي لذلك القائد مؤمن بن غازي الغمرىّ لما له من الادلال على المنصور بطول الخدمة وسالف التربية فقال له القائد المذكور يا مولانا قد حفظ الله الاسلام بابلالك من هذا المرض وحفظ الدين بابقائك عليه وقد بقى الناس في ايّام سقمك في حيرة عظيمة ودخلهم من الدهش ما لا يخفى عليك فلو عيّنت لنا من ابنائك القساورة من تجتمع كلمة الاسلام عليه ويشار بالخلافة اليه لكان اولى واليق بسياسة الملك وانّ ابنك الابرّ ابا عبد الله مولانا محّمداً المامون حقيق بذلك وجدير بسلوك تلك المسالك لما فيه من خلال الخير وخصال السيادة زيادة على ما هو عليه من التيقّظ في اموره

والحزم في شئونه وقد ظهرت للناس محاسن سيرته فاستحسن المنصور ذلك واعجبه ما اشــار به عليــه وقال له سـوف استخير الله في ذلك فان كان من عند الله يمضيه فلبث المنصور ايّاماً يستخير ربّه في ذلك وشـاور من يعلم اهليّته للمشورة من اهل العلم والصلاح فلمّا انقضت ايّام الاستخارة واتّضحت وجهة الاستشارة وتواطات العقدة على حسن تلك الاشـارة جمع المنصور اعيـان حاضرة مرّاكش واعيان مدينة فاس وغيرهم من اشياخ القبـايل ووجوه النـاس من البوادى والحواضر واوصى بالعهد لولده ابي عبد الله محمّد الشيـخ المامون المذكور وذلك في يوم الاثنين لليلتين خلتا من شعبان وذلك عام سبعة وثمانين وتسعماية وكان المـامون اذّاك خليفـة ابيــه على فاس ولم يحضر بيعته فبعث له المنصور بعد ذلك ليقدم من فاس ويبايعه بحضرته ولم يقنعه ما اخذ له من البيعة وهو غائب ولّما بعث له للمجئ خرج المنصور خارج مرّاكش بعساكره ونزل بتانسيفت في الثاني عشر من صفر عام تسعة وثمانين وتسعماية ولم يزل بعسكره ذلك متلوّمـاً منتظراً لقدوم ولده المامون الى ان قدم في غرّة جمادى الثانية من العـام المذكور فكان يوم ملاقاتهما من عجايب الزمان ولّما اصطفّ جيش المامون وجيش المنصور ترجّل المامون عن فرسه واقبل حافى القدم فعفر وجهـه بين يدى والده ثمّ قبّل رجله والمنصور على فرسه بين الصفّين فدعا له بخير واظهر الفرح بقدومه وكان المامون قد عبّا جيشه تعبية لم ير مثلها ورتّبهم ترتيباً حسناً في لباسهم وسائر امورهم فسرّ المنصور بذلك وبعد ايّام من بلوغه امر به فاجلس في سرادقه الاعظم الذى لم يكن للملوك قبله مثله كما سياتي وامر اهل الحلّ والعقد فازدحموا على تقبيل يده واقتضيت منهم الايمـان بمحضره وقام الشعراء فافصحوا عن وصف الحال وغمر المنصور الناس بالعطاء وكان ذلك يومـاً مشهوداً وبعد ايّام من ذلك امر المنصور بالمامون ان يرجع لحضرة فاس فرجع ودخل المنصور لحضرته السعيدة مرّاكش حرّسها الله تعالى

ذكر الخبر عن مخالفة الامير داود بن عبد المومن

وشقّه العصا عن عمّه ابي العبّاس المنصور وما وقع في ذلك

قال الفشتاليّ لمّا وقعت البيعة للمامون وتكامل امرها ثار الرايس الاجلّ ابو سليمان داود بن عبد المومن ابن الامام المهديّ وهو ابن اخى المنصور وفرّ الى جبل سكساوة وشقّ العصا على عمّه ودعا لنفسه فانثالت عليه شرذمة من البربر وغيرهم ونجم امره وكثرت في اذان الرعيّة جعجعته فبعث له المنصور قائده الزعيم ابا عبد الله محمّد بن ابراهيم بن القاسم بن بجة فناوشه القتال بجبل سكساوة فهزمه فهرب الى جبل هوزالة فتحزّبوا عليه وقويت بهم شوكته وبقى يشنّ بهم الغارات على اهل درعة الى ان ضاقوا به ذرعاً فشكوا امره ايضاً للمنصور فبعث له قائده المذكور فلم يزل في مقاتلته الى ان شرّده من هوزالة ففرّ منها الى الصحاري واستقرّ به الرحل في عرب الوداية من عرب الجنوب فلم يزل عندهم الى ان هلك عندهم عام ثمانية وتسعين وتسعماية وكفى المنصور امره والامر بيد الله سبحانه

ذكر الخبر عمّا وقع للمنصور مع السلطان مراد العثمانىّ

وما السبب في ذلك

قد ذكرنا قبل انّ المنصور وردت عليه الارسال بالتهاني من ملوك الاقاليم وانّ ممّن وفد على ابوابه ارسال الملك العثمانيّ فقدموا عليه بهديّة سنيّة وتشاغل المنصور عنهم وتركهم بحضرته مهملين وتاخّر عن جواب خاقان ملك القسطنطنيّة

العظمى السلطان مراد ابن السلطان سليم التركماني فغاظه ذلك ولم يزل الرايس على علوج وزير البحر يسعى بالمنصور عنده ويذكره ما وقع من ابيه من القدح في امارة الاتراك والطعن فيهم ويهين عليه امره الى ان اذن له في منازلته بالمغرب وياخذ عليه بافاقه الى ان يستاصل امر المنصور ويخمد جمرته فاخذ الوزير في التهيئة لذلك فبلغ الخبر للمنصور فارتحل لفاس وشحن الثغور وملا المراسى وكان على اهبة وكمال استعداد وبعث ارساله الى السلطان المذكور بهديّة عظيمة وكان من ارساله القائد الانجب احمد بن ودّة العمريّ والكاتب الشهير ابو العبّاس احمد بن علىّ الهوزاليّ فركبوا في البحر من ثغر تطاون فبينما هم على تيح البحر في اثناء الطريق لقيهم وزير خاقان علوج المذكور وهو قاصد للمغرب بنيّة مصادمة المنصور فلمّا راهم سقط ما بيده وايقن بخيبة مسعاه ففاوضهما فيما قصداه وايسهما من تدارك الامر وقال لهما انّ الخرق قد اتّسع على الراقع ولو كان لصاحبكم غرض في المسالمة ما بقى اصحابنا بابوابه كالكلاب والبادي اظلم فلم يزل علوج بالقائد ابن ودّة الى ان ردّه معه وترك الهوزاليّ يبلغ الرسالة ظنّاً منه انّه صغير السنّ لا يحسن مخاطبة خاقان وابن ودّة الذي عنده مظنّة التدبير وكماله ومساجلة الملوك ردّه معه فلمّا بلغ الهوزاليّ الى خاقان اظهر من فراسته ولطافته في مخاطبته ما تحيّر منه خاقان واعتذر له عن تاخير المنصور عن الجواب بما لا يعود بوهن على مرسله ولايفيد مغالبة بمخاطبه فقبل خاقان الاعتذار وقبل الهديّة بقبول حسن وكتب مع الهوزاليّ لوزيره علوج بالرجوع عن منازلة المنصور فرجع به الهوزاليّ يطير فرحاً ولم يغب عن علوج الّا قدر الشهر فقرع علوج سنّ الندم واسف على ما فرط منه وبعث خاقان ارساله مع الهوزاليّ الى المنصور يلومه على التراخى في امور الملوك فلمّا وردت عليه الارسال احسن نزولهم وتلقّاهم بالترحيب وردّهم مكرمين وبعث معهم الفقيه الامام قاضى الجماعة ابا القاسم بن علىّ الشاطبيّ والقائد الانجب عبد الرحمن بن منصور الشياظمىّ المريديّ فلمّا وردا على خاقان فرح بهما كلّ الفرح وصنع

الشياظمي كلاماً بليغاً اعرب فيه عن فضل الدولتين وقرّر فيه حقّ اهل البيت واطرا المنصور غاية الاطراء وحضّ على اتحاد كلمة الاسلام وقرا ذلك على خاقان يوم السلام عليه ففرح بذلك خاقان واهتزّ لسماعه ثمّ بعد ايّام بعثهم خاقان واحسن اليهم كلّ الاحسان ولمّا تكامل ذلك الغرض وصحّ جسم الملك من ذلك المرض ورجعت الارسال في احسن الا حوال رجع المنصور الى مرّاكش وفي خروجه من فاس خرج اعيان فاس ومشيخة العلم بها وقرئ البخاريّ بين يديه على عادة الخلفاء رضى الله عنهم وكان ذلك عام تسعة وثمانين وتسعماية

ذكر الخبر عن فتحه لبلاد توات وثيكرارين

وما وقع في ذلك

لمّا استقرّ المنصور بمرّاكش مرجعه من فاس وامن مقاتلة الترك طمحت نفسه الى التغلّب على بلاد توات وثيكرارين وما انضاف اليهما من القرى والمداشر اذ كان اهلهما قد انفكّت عنهم ايدي الملك منذ زمان ولم يستول عليهم سلطان قاهر فسنح للمنصور ان يجمع بهم الكلمة ويردّهم الى امر الله فبعث اليهما قائده احمد بن بركة وقائده احمد بن حدّاد العمريّ المعقليّ في جيش عرمرم بلغوهما عن سبعين مرحلة من مرّاكش وكانوا قد تلوّموا الى اهلها باعذار والدعاء للطاعة فامتنعوا من الاذعان واستزلّهم الشيطان فنازلوهم وقامت الحرب بينهم على ساق وطالت المعركة بينهم ايّاماً فمكّن الله منهم وحقّ عليهم القول فاصبحوا كامس الذاهب وانتهى الفتح للمنصور ففرح بذلك غاية وقال في ذلك الشعراء قوافي وكان ذلك كلّه سنة تسع وثمانين وتسعماية ولله عاقبة الامور

ذكر الخبر عن فتح المنصور لبلاد السودان

وكيفيّة ذلك وسببه

لمّا استولى المنصور على بلاد توات وتيكّرارير واعمالهما تاقت همّته لبلاد السودان لكون تلك البلاد مجاورة لبلاد السودان ولمّا اجمع امره على ذلك راى ان يبدا اوّلاً بمراسلة ملوك السودان ويدعوهم الى الطاعة فان اذعنوا كان ذلك هو المطلوب وكفى الله المؤمنين القتال وان امتنعوا يحكم الله بينه وبينهم فكتب الى سلطانهم سكية في شان معدن الملاحة الكائن بتغازى ومنه يجلب لسائر بلاد السودان ويقول له انّ على كلّ حمل مثقالاً من الذهب عوناً لجيوش الاسلام فلمّا بلغت رسالته لسكية اظهر الامتناع من ذلك وابى من مساعفته وكان المنصور لم يكاتبه في ذلك حتّى استفتى علماء ايالته واشياخ الفتوى بها فافتوه بما هو المنصوص للعلماء رضوان الله عليهم من انّ النظر في المعادن مطلقاً انّما هو للامام لا لغيره وانّه ليس لاحد ان يتصرّف في ذلك الّا عن اذن السلطان او نائبه وكانت الرسالة المتوجّهة من انشاء الامام العلّامة الاشهر مفتى الحضرة المرّاكشيّة ابي مالك عبد الواحد بن احمد الشريف السجلماسىّ لانّ كاتب الانشاء ابا فارس عبد العزيز بن محمّد بن ابراهيم الفشتاليّ كان مريضاً في الوقت ولمّا فرغ من انشائها بقى عليه الصدر فلم يدر كيف يقول في مخاطبة سكية ولا كيف يمدحه وهل يتوغّل في المدح او يتوسّط فكتب ابو مالك حين تحيّر في ذلك للمنصور بما نصّه ايّدكم الله ونصر اعلامكم انّ مخاطبة هذا الرجل الذي هو في مرتبة مماليك الحضرة المولويّة امر تلعثم فيه لساني ووقف عن خوض لجّته بناني لانّ النـاي عن هذه المحجّة قد مدّ بينى وبينها حجاباً واغلق في وجهى باباً فلا آمن ان اقتحم من الوقوع في

تفريط او افراط وخير الامور لو علمتها الاوسط لكن لاسبيل الى معرفته الّا بعد علم الطرفين والعبد محجوب عن ذلك دون مين فتركت ايّدكم الله الصدر لمن هو به منّى اقعد وتحاميت عقده لمن هو له اعقد ابي فارس عبد العزيز الذي افاضت عليه ابوابكم واضاءت له سبل هذا الخبر اقاركم والّا قرعت هواتف لسان الحال سمعى بقوله

يا باري القوس برياً ليس يحسنــه   لا تظلم القوس اعط القوس باريها

والله ولّي التوفيق

ذكر الخبر عن ال سكية ملوك السودان

واوّلـيّتهم

قال الامــام التكروريّ في كتــابه نصيحة اهل السودان آل سكية اصلهم من صنهاجة وملكوا كثيراً من بلاد السودان واوّل ملوكهم الحاجّ محمّد سكية بضمّ السين وسكون القاف بعدهما ياء مفتوحة ثمّ تاء وكان الحاجّ محمّد المذكور رحل في اواخر المائة التاسعة الى مصر والحجاز بقصد حجّ بيت الله الحرام وزيارة قبر نبيّه عليه الصلاة والسلام فلقى بمصر الخليفة العبّاسىّ فطلب منه ان ياذن له في امارة السودان وان يكون خليفة له هنالك ففوّض له الخليفة العبّــاسىّ النظر في امور تلك الاقاليم وجعله نائباً عنه على من وراءه من المسلمين فآض الحاجّ الى بلده وقد بنى رياسته على القواعد الشرعيّة وجرى على منهاج اهل السنّة ولقى بمصر الامام شيخ الاسلام حافظ الحفّاظ جلال الدين السيوطىّ فاخذ عنه عقائده وتعلّم منه الحلال والحرام وسمع منه جملاً من اداب الشريعة

واحكامها وانتفع بوصاياه ومواعظه فرجع الى السودان فنصر السنّة واحيا طريق العدل وجرى على منهاج الخليفة العبّاسىّ في مقعده وملبسه وسائر اموره ومال للسيرة العربيّة وعدل عن سيرة العجم فصلحت الاحوال وبرئ جسد الرشاد هنالك من الداء العضال وكان الحاجّ محمّد المذكور سهل الحجاب رقيق القلب خافض الجناح شديد التعظيم لايمّة الدين محبّاً للعلماء مكرماً لهم غاية الاكرام يفسح لهم في المجلس ويوسع عليهم في العطاء ولم يكن في ايالته كلّها بوس ولا باس بل كانت رعيته في خصب عيش وامن سرب وفرض عليهم شياً خفيفاً من المغارم وظّفه عليهم وزعم انّه ما فعل ذلك حتّى استشار فيه الامام السيوطىّ شيخه المذكور ولم يزل على سيرته الموصوفة الى ان اخترمته المنيّة فقام بالامر بعده ولده داود فاحسن السيرة ما شاء وتبع طريقة ابيه الى ان مضى لسبيله ولحق بربّه فقام بالامر بعده ولده اسحاق فعدل عن بعض سيرة ابيه وجدّه ولم يكن فى اموره بالذميم وعليه انقرض ملك آل سكية وكان تحت طاعتهم من بلاد السودان مسيرة ستّة اشهر والملك لله وحده وتصاريف الامور سبحانه اليه

ذكر الخبر عن مشاورة السلطان المنصور اصحابه

في غزو اسحاق سكية واقتحام بلاد السودان عليه

قال الفشتاليّ لمّا رجعت ارسال المنصور اليه من عند اسحاق سكية واعلموه بمقال سكية وامتناعه واحتجاجه بانّه امير ناحيته وانّه لا تجب عليه طاعته شاور المنصور اصحابه وجمع اعيان دولته والتقى اهل الراي والمشورة فاجتمعوا وكان يوم اجتماعهم يوماً مشهوداً وقال لهم المنصور انّي عزمت على منازلة امير كاغوا وصاحب السودان وبعث الجيوش اليهم لتجتمع كلمة الاسلام وتتّفق ولانّ

بلاد السودان وافرة الخراج كثيرة المال يتقوّى بها جيش المسلمين ويشتدّ بها ساعد كتيبة المومنين مع انّ صاحب امرهم والمتولّي عليهم اليوم ملكهم معزول عن الامارة شرعاً اذ ليس بقرشيّ ولا اجتمعت فيه شرائط السلطنة العظمى فلمّا نثل المنصور ما في كنانته وابدى ما في وطائه وفرغ ما في عيبته من المرارة سكت الحاضرون ولم يراجعوا بشيء فقال لهم اسكتّم انصاتاً للراي ام ظهر لكم خلاف ما ظهر لي فاجابوا كلّهم بلسان واحد وراي متّفق انّ ذلك راي عن الصواب بعيد وانّه بمهانة عن الاراء السديدة ولا يخطر ببال السرقة فكيف بالملوك فقال وما بيان ذلك فقالوا انّ بيننا وبين السودان مهامة فيح يقصر عنه الخطا وتحير فيها القطا وليس فيها ماء ولا كلا فلا يتاتّى السفر فيها لاعتساف طرقها مع كونها مخوفة مملوة الجوانب ذعراً وايضاً فانّ دولة المرابطين مع ضخامتها ودولة الموحّدين على عظمتها ودولة المرينيّين على قوّتها لم تطمح همّة احد منهم لشيء من ذلك ولا تعرّضوا لما هنالك وما ذلك الّا لما راوا من صعوبة مسالكها وتعذّر مداركها وحسبنا ان تقتفي اثر تلك الدول فانّ المتاخّر لا يكون اعقل من الاوّل فلمّا قضى اولائك الاقوام كلامهم وابدوا اليه رايهم وافهامهم قال لهم المنصور ان كان هذا غاية ما استضعفتم به امري وقابلتم به رايي فليس فيه حجّة ولا ما يخدش فيما عندي امّا قولكم بيننا وبينها صحارى مخوفة ومفاوز مهلكة من جدبها وعطشها نحن نرى التجّار على حالة ضعفهم وقلّة استعدادهم يشقّون تلك الطرق في كلّ وقت ويخوضون في احشائها مشاةً وركباناً ومثنى وفرادى وقط لم تنقطع ركاب التجّار منها وانا اقوى اهبة منهم وللجيش همّة وهيبة ليست للقوافل وامّا قولكم انّ من قبلنا من الدول الطنّانة لم تطمح ابصارهم لذلك فاعلموا انّ المرابطين صرّفوا عنايتهم لغزو الاندلس ومقاتلة الافرنج ومن بذلك الساحل من امم الاروام والموحّدون اقتفوا سبيلهم في ذلك وزادوا بحرب ابن غانية والمرينيّون كانت غالب وقائعهم مع بني عبد الواد بتلمسان ونحن اليوم قد انسدّت ابواب الاندلس باستيلاء العدوّ الكافر عليه

جملة وانقضت عنّا حروب تلمسان ونواحيها من الجزائر باستيلاء الترك عليها ثمّ انّ اهل تلك الدول لو ارادوا ما اردنا لصعب عليهم ادراكه لانّ جيوشهم فرسان رامحة ورماتهم ناشبة ولم يكن عندهم هذا البارود وعساكر النار المرهبة بالصواعق واهل السودان لم يكن عندهم الان الاّ الرماح والسيوف وهى لا تقاوم هذه المدافع المستحدثة فمقاتلتهم سهلة وحربهم اسهل من كلّ شئ وايضاً فانّ بلاد السودان انفع من افريقية فالاشتغال بها اولى من منازلة الاتراك لانّه تعب كثير في نفع قليل فهذا جواب ما عرض لكم ولا يحملنّكم ترك الملوك الاوّل ذلك على استبعاد القريب واستصعاب السهل فانّه كم ترك الاوّل للاخر وقد يفتح على المتاخّر بما لم يفتح به على المتقدّم فلمّا فرغ المنصور من خطابه استحسن الحاضرون جوابه واستملحوا اشارته واستجادوا رايه وقالوا له طبقت المفصّل والهمت الصواب ولم يبق لاحد ما يقول وصدق من قال عقول الملوك ملوك العقول فانفصل الجمع على البعث للسودان ومناهضة اهله ومتابعة المنصور في رايه قلت وقع في كلام المنصور امران يحتاجان الى مزيد بيان الاوّل ما قاله انّ الملثّمين لم تكن لهم سلطنة على السودان والذي احفظه لابن خلدون وغيره انهم ملكوا غانة واستقضوا منها الامارات والجزية وغانة دار ملك السودان وهى مدينتان على ضفّتىْ النيل الثاني ما قال انّ البارود حدث ولم يكن في تلك الدول الفارطة فالذي وقفت عليه في تاريخ حدوثه ما ذكره شيخ شيوخنا الامام الحافظ ابو زيد عبد الرحمن بن عبد القادر الفاسىّ رحمه الله في شرحه لمنظومته فيما جرى به العمل بفاس قال كان حدوث البارود سنة ثمان وستّين وسبعماية حسبما ذكر بعضهم في تاليف له في الجهاد وانّه استخرجه حكيم كان يعمل الكيمياء ففرقع له فاعاده فاعجبه واستخرج منه هذا البارود والله اعلم . والله سبحانه وتعالى يفعل في ملكه ما يريد

ذكر الخبر عن بعث المنصور جيوشه

الى السودان

لمّا اتّفق راى المنصور مع اهل الشورى من اعيان دولته على البعث للسودان اختار من جملة جيشه وابطال جنده وانصاره ممّن يعلم بخدمته ويعرف كفايته فهيّا جيشاً عظيماً وتخيّر من الابل كلّ بازل وكوماء ومن الخيل كلّ عتيق وجرداء وعقد لواء الجيش لمولاه الباشا جودر فخرج في زيّ عظيم وهيئة لم ير مثلها وكان خروجه من مرّاكش في السادس عشر من ذي الحجّة عام ثمانية وتسعين وتسعماية وكتب المنصور الى قاضى تينبكت وهو الامام العلامة ابو حفص عمر ابن الشيخ محمود بن عمراقيت الصنهاجىّ يامره بحضّ الناس على الدخول في الطاعة ولزوم حزب الجماعة ولم يزل جودر ينتقل من مرّاكش مرحلة فمرحلة الى ان بلغ عمائر تينبكت واحتلّ بعمالتها فلقى هناك اسحاقاً في جنوده وكان لمّا سمع اسحاق سكية بخروج الجيش وتوجّهها اليه حشر جنوده وبعث في المدائن حاشرين وجمع جموعاً عديدة ويقال انّه جمع ماية الف مقاتل واربعة الاف مقاتل وكان ذا اهبة واستعداد قال الفشتاليّ ولم يقنع بالجيوش التى جمع حتّى اضاف الى ذلك اشياخ السحرة واهل النفث في العقد وارباب العزائم والسيما ظنّاً منه نجح ذلك وهيهات

السيف اصدق انباء من الكتب   في حدّه الجمع بين الجدّ واللعب
بيض الصفائح لاسود الصحائف في   متونهنّ جلاء الشكّ والريب

فلمّا التقت الفيئتان نكص اسحاق على عقبه وانتثرت جموعه وفلّ غربه

والتحمت الحرب من لدن الضحى الى قرب العصر فطحنتهم رحى الحرب وصيّرتهم كاعجاز نخل خاوية ونجا اسحاق بنفسه في قليل من حاشيته وكان جيش اسحاق انّما سلاحهم الحرشان الصغار والرماح والسيوف ولم تكن عندهم هذه المدافع فلم تغن حرشانهم ورماحهم مع البارود شيأً ومن حينهم ولّوا الادبار وحقّ عليهم البوار وحكمت في رقابهم سيوف جودر وجيوشه حتّى كان اهل السودان ينادون نحن مسلمين نحن اخوانكم في الدين والسيوف عاملة فيهم وكان ذلك كلّه في السادس عشر من جمادى الاولى عام تسعة وتسعين وتسعماية ولّما فرّ اسحاق تبعه جودر بعد ان استولى على تينبكت وسائر ما يواليها من المدائن والقرى وبعث جودر للمنصور يخبره بالفتح وبهديّة عظيمة فيها عشرة الاف مثقال ذهباً ومايتان من الرقيق وغير ذلك ولم يزل في مطالبة اسحاق الى ان قطع بحر النيل فقطعه جودر بجيوشه خلفه وتبعه الى ان حاصره في مدينة كاغوا وهى كانت دار ملك اسحاق ثمّ انّ اسحاقاً راسل جودر يطلب منه الصلح على ضريبة يبذلها له في كلّ سنة واموال طائلة يوديّها على ان يتركه في دار ملكه فاعجب ذلك جودر وبعث للمنصور يستشيره في ذلك فانف من ذلك المنصور وامتنع كلّ الامتناع وكتب لجودر على ظهر رسالته بخطّ يده اتمدّونني بمال فما اتاني الله خير ممّا اتاكم بل انتم بهديّتكم تفرحون ارجع اليهم فلناتينّهم بجنود لا قِبَل لهم ولنخرجنّهم منها اذلّة وهم صاغرون وكان جودر حين طال عليه الحصار بكاغوا وسئم من طول الاقامة وشكى اليه الجيش وخامة تلك البلاد واستيلاء الاسقام عليهم رحل عنها راجعاً الى تينبكت ريثما ياتيه جواب المنصور عن ذلك الصلح الذي طالبه به اسحاق فخنق المنصور عليه حين رجع القهقرا وانقلب الى وراء وارسل الباشا محموداً وعزّل به جودر عن امارة الجيش وابقاه تحت امره فلمّا وافى محمود بمنازلة اسحاق والتضيق عليه في كاغوا رجعوا الى مدينة كاغوا وكان اسحاق لمّا تخوّف من استيلائهم عليها امر في خلال ذلك بنقل الاقوات منها واخلائها فلمّا ضيقوا

عليه خرج هارباً من كاغوا وظنّ انّهم لا يتبعونه فتجاوز كاغوا الى مدينة كوكية وقطع النيل فقطعوا خلفه ولم يزالوا في اتباعه الى ان مات وادبرت ايّامه وانصرم سماط ملكه فانتظمت المماليك السودانيّة في سلك طاعة المنصور مابين البحر المحيط من اقصى ارض المغرب الى بلاد كنو المتضامّة لبلاد برنو فاذعن صاحب برنو وتنتهى مملكة برنو الى بلاد النوبة المتضامّة لصعيد مصرقال الفشتاليّ فكلمة المنصور نافذة فيما بين بلاد النوبة والبحر المحيط من ناحية المغرب وهذا ملك ضخم وسلطان فخم لم يكن لمن قبله والله يؤتي ملكه من يشاء ولمّا فتح عليه مماليك البلاد السودانيّة حمل له من التبر ما يغير الحاسدين ويحيّر الناظرين حتّى كان المنصور لا يعطى في الرواتب الاّ النضار الصافي والدينار الوافي وكانت ببابه كلّ يوم اربعة عشر ماية مطرقة تضرب الدينار دون ما هو معدّ لغير ذلك من صوغ الافراط والحلى وشبه ذلك ولاجل ذلك لقّب بالذهبيّ لفيضان الذهب في زمانه ولمّا وافت المنصور وفود البشائر بالفتح سرّ بذلك سروراً عظيماً وامر بالمفرحات وتزيين الاسواق غدوة وعشية ثلاثة ايّام واتته الوفود من كلّ ناحية يهنونه على ما اتاه الله من النصر المكين والفتح المبين وقال الشعراء في ذلك وقام به في المحافل الخطباء وممّا قيل في ذلك ما انشده ابو فارس عبد العزيز بن محمّد الفشتاليّ فقال

جيش الصباح على الدجا متدفّق	فيّاض ذا لسواد ذلك ممحق
وكانّه رايات عسكرك التى	طلعت على السودان بيضاً تخفق
لاحت وأفقهم ليال كلّه	كعمود صبح في الدجا يتدفّق
نشرت لتطوى منه ليلاً دامسا	اضحى بسيفك ذى الفقار يمزّق
ارسلتهنّ جوائحاً وجوارحا	في كلّ مخلبها غراب ينعق
وسرَتْ فكان دليلهنّ اليهم	مشحوذ عزمك والسنان الازرق
له من اليالى قد جلا احلاكها	نور النبوة من جبينك يشرق

صعقت بـهنّ رعود نارك صعقة   رجّت لصيحتهـا العراق وجلق
سحقاً لاسحاق الشقى وحـزبه   فلقد غدا بالسيف وهُو مطوّق
رام النجاة وكيف ذاك وخلفه   من جيش جودرك الغضنفر فيلق
جيـش اواخـره ببابك سيلة   عرم واوّله بـكاغـوا محـدق
لم يشعـروا الّا واسداد الرضى   ضربت عليهم من قتال وخندق
كتب الاله على عداتك انّـهـم   قنص لسهمك غرّبوا او شرّقوا
ظلّت ملوك سـاجلوك على العلا   سفهاً وساوك في العلا لا يلحق
ان يشبهوك ولا شبيه يرى لكم   في الخلق اين من اللجين الزيبق
بشّر مـلوك الارض انّك فاتح   بالمشرفيّ على الولا مـا اغـلق
ويعاصل لك ذو الفقار ففـرّق   مـا جمّعوه وجامـع ما فرّقـوا
دامت طيور السعد وهْى غوادر   بالمشتـهى لك والمسرّة تنطـق
ما دام ذكر علاك في صحف الثنا   اصل الفخار وكلّ ذاك ملحق

قال ابن القـاضى في شرح درّة السلوك كان فتح السودان المذكور سنة تسع وتسعين وتسعماية واليه اشرت بقولي من قصيدة

فتـح مـبين هـو تاريخـه   فاعجبْ لفتح ما له من جناح

ولقد هدى الله تعالى وارشد صاحبنا ابا الحسن علىّ بن عبد الرحمن بن عمران السلاسىّ الى اخذ تاريخ الفتح المذكور بحسـاب النيم بعد اسقاط الفات الوصل وحرف التضعيف من قوله تعالى ولينصرنّ الله من ينصره انّ الله لقويّ عزيز الى قوله ولله عاقبة الامور وهو منزع لطيف وذكر لي انّ الكوشىّ المفسّر نصّ على انّ الاية من باب الاخبار بالمغيبات وكان محمود لّمـا استوثق له الامر هناك بعث نصف جيشه مع هديّة للمنصور فيهـا من الذخاير ما لا يحصى وهى اثنتا

عشرماية مملوك من الجواري والغلمان واربعون حملاً من التبر واربعة سروج من الذهب الخالص واحمالاً كثيرة من اليـابلوز وكوز من الغـالية وقطوط الغالية وغير ذلك من الاشياء النفيسة ذات الاثمان العالية ولم يزل محمود هنالك خليفة للمنصور وفي مقامه هنالك قبض على الامـام العلاّمة الهمـام علم الاعلام ابي العبّاس احمد بن احمد بابا وعلى اهل بيته فحملوا مصفّدين فى الحديد لمرّاكش ومعهم حريمهم ونهبت اموالهم وذخائرهم وكتبهم قال في بذل المنـاصحة سمعته يقول انا اقلّ عشيرتي كتباً نهبت لي ستّة عشر مـاية مجلّد وكان القبض عليهم اواخر المحرّم عام اثنين والف ووصلوا لمرّاكش في رمضـان من العام بعده واستقرّوا مع عيالهم في حكم الثقاف الى وقت انصراف المحنة عنهم فسرّحوا في يوم الاحد الحادي والعشرين من رمضـان عام اربعة والف ففرحت بذلك قلوب المؤمنين ولمّـا ادخل ابو العبّـاس بعد التسريح من السجن على المنصور وجده يكلّم الناس من وراء حجاب وبينه وبينهم شملة مسدولة فقال له انّ الله تبارك وتعالى يقول ومـا كان لبشر ان يكلّم الله الاّ وحيـاً او من وراء حجـاب وانت قد تشبّهت بربّ الارباب فان كانت لك حاجة في الكلام فانزل الينـا وارفع عنّـا الحجاب فنزل المنصور ورفع الاستار فقال له ابو العبّاس ايّ حاجة لك في نهب متاعى وضياع كتبي وتصفيدي من تينبكت الى هنا حتّى سقطت من فوق الجمل واندقّ ساقى فقال له المنصور اردنا كى تجتمع الكلمة وانتم في بلادكم من اعيانها فان اذعنتم اذعن غيركم فقال له ابو العبّاس هلاّ جمعت الكلمة بترك تلمسان وما يليها من البلدان فانّهم اقرب اليك منّا فقـال له المنصور قال النبيّ صلى الله عليه وسلّم اتركوا الترك مـا تركوكم فامتثلنا الحديث فقال له ابو العبّاس ذلك زمان وبعده قال ابن عبّاس لا تتركوا الترك ولو تركوكم فسكت المنصور ولم يجد جواباً وانفض المجلس ولمّـا سرّح ابو العبّاس تصدّى لنشر العلم وهرع النـاس للاخذ منه ولم يزل بمرّاكش الى ان مات المنصور لانّه مـا سرّحهم من السجن حتّى شرط عليهم سكنى مرّاكش ولمّا مات المنصور اذن له ولده زيدان في الرجوع

الى بلاده فرجع اليها وكان يتشوّق لرويتها ويسكب العبرات عند ذكرها ولم يئس من روح الله في العود اليها ومن شعره متشوّقاً الى ما هنالك ومتشوّقاً الى تحصيل ذلك

ايا قاصداً كاغـوا فعج نحو بلدتي ... وزمزم لهـم باسمى وبلّغ احبّتى
سلاماً عطيراً من غريب وشـائق ... الى وطن الاحباب رهطى وجيرتي
وعزّ اقاربـاً هـنـاك اعزّة ... على السادة الاولى دفنت بقريتى
ابي زيدهم شيخ الفضائل والهدى ... وصنو بنى عمّى واقرب اسوتي
وسيفى بسيف البين سلّ لفقدهم ... علىّ وهدّ الموت ركنى وعمدتي
ولا تنس عبد الله ذا النجد والندا ... فقد مدّ حزني فقد قومى وعشرتي
وشبّان بيتى ساروا عن اخيرهم ... الى مالك الاملاك في وقت غربتى
فوا اسفـاً منّى وحـزني عليهم ... فيا ربّ فارحمهم بواسع رحمتى

ولمّا خرج من مرّاكش بقصد بلده شيّعه اعيان الطلبة فاخذ بعضهم بيده عند الوداع وقرا قوله تعالى انّ الذي فرض عليك القرءان لرادّك الى معاد على ما جرت به العادة من قراءتها عند وداع المسـافر فيرجع سالماً فنزع ابو العبّاس يده بسرعة وقال لا ردّني الله الى هذا المعاد ولا رجعنى لهذه البلاد وسلّم عليهم وذهب لبلاده بسلامة وامـان رحمة الله عليه

ذكر الخبر عن وقيعة المنصور بعرب الخلط

وغيرهم من اهل ازغار وسبب ذلك

هولاء العرب من الخلط ومختار وسفيان اصلهم من جشم القبيلة المشهورة وكانوا في القديم من شيعة بنى مرين وهم الذين اقدموهم من المغرب الاوسط

وفيه كان قرارهم وكانت لهم فى الدولة المرينيّة صولة ومرتبة فلمّا ادبرت ايّام بنى مرين واستولى على ملكهم ابو عبد الله محمّد الشيخ المهدي انحاشوا اليه واظهروا الخدمة والنصيحة له فلمّا جاء ابو حسّون المرينىّ بالاتراك حسبما شرّحناه قبل اوقعوا الهزيمة على المهدي من ابي حسّون كما سلف خلّفهم عن الجنديّة ووظّف عليهم الخراج ومحى اسمهم من ديوان الخدمة ونقل اعيانهم لمرّاكش واتّخذهم رهائن عنده ولم يزل الامر على ذلك الى ايّام المنصور فراى مقاتلتهم فى وادي المخازن وابلاءهم فيه البلاء الحسن فاختار نصفهم للجنديّة وابقى نصفهم الاخر في غمار الرعيّة ونقلهم لازغار فسكنّهم فيه فعتوا في البلاد واكثروا فيها الفساد ومدّوا ايديهم لاولاد مطاع فنهبوهم وضيّقوا ببنى حسن فكثرت الشكاية بهم للمنصور فضرب عليهم سبعين الفاً فلم يزيدوا الاّ شدّة فبعث لهم ليرسلوا طائفة لتيكّرارين فامتنعوا من ذلك فبعث القائد موسى بن ابي جمادة العمريّ لهم فانتزع الخيل منهم وابقاهم رجالة ثمّ حكم فيهم السيوف فمزقهم كلّ ممزق ومن ثمّ اخمدت شوكتهم ولانت للمغامر قناتهم

ذكر الخبر عن تجديد المنصور البيعة لولده

محمّد الشيخ المامون

وفي شوال عام ائنين وتسعين وتسعماية جدّد البيعة لولده وليّ عهده محمّد الشيخ المامون على اخوته خصوصاً لانّهم كانوا في البيعة الاولى قبل البلوغ فاراد ان يستوثق له من اخوته بعد البلوغ حسماً لمادّة النزاع بينهم فارتحل المنصور من مرّاكش لتامسنا وبعث الباشا عزّوز بن سعيد الوزكيتيّ لياتي بوليّ عهده من فاس فتوافى العضدان بتامسنا وباشر المنصور اخذ البيعة له بنفسه وحضر الاعيان واهل الحلّ والعقد واحضر المصحف الكريم الذي هومصحف عقبة بن نافع

الفهريّ رضى الله عنه وهو من ذخائر الخلفاء واحضر الصحيحَين البخاريّ ومسلم وقرئ ظهير البيعة فتولّى قراتها الفشتاليّ وبجنبه القاضى ابو القاسم الشاطبيّ يفسّر ما شكل في لفظ الظهير ولّما اخذ البيعة اخّر اولاده غد يومها فكتبوا خطوطهم عقبها بالموافقة على ذلك ورايت في بعض رسائل زيدان بن المنصور وقد الم بهذه البيعة فقال انّي حضرت بيعة محمّد الشيخ صاحب المغرب وحضر اولاد السلطان فاستحلفهم له الّا انا فانّه رضى الله عنه قال فلان لا يحلف ولا يحتاج اليه فما نامر به يفعله وعظم على ذلك اخوتي وظهرت في وجوههم الكراهية ولّما فرغ المنصور من تجديد البيعة راى ان يرشح كلاًّ من اولاده للامارة ويقسم بينهم البلاد حتّى لا يبقى في نفوسهم احن ولا تنطوي قلوبهم على ضغائن فعقد لابي فارس شقيق المامون على السوس وسائر عمائره وعقد لابي الحسن عليّ على مكناسة وما والاها وعقد لزيدان على بلاد تادلا ثمّ عكس لامر اقتضاه فنقل زيدان لمكناسة ونقل ابا الحسن لتادلا ولم يزل امرهم على ذلك

ذكر الخبر عن ثورة الناصر بن الغالب بالله

على عمّه ابي العبّاس المنصور وما وقع في ذلك

كان الناصر في حياة ابيه الغالب خليفة على تادلا ونواحيها ولّما توفّى ابوه قام بالامر اخوه المتوكّل كما استوفينا شرحه قبل هذا قبض المتوكّل على الناصر فاعتقله ولم يزل معتقلاً مدّة خلافته ولّما انتزع المعتصم الملك من يد المتوكّل كما اسلفناه فيما مرّ سرّحه من اعتقاله واحسن اليه ولم يزل تحته في ارغد عيش فلمّا توفّى المعتصم يوم وقعة وادي المخازن فرّ الناصر لاصيلا وكانت بيد الكفرة ثمّ عبر عنها البحر لجزيرة الاندلس فكان عند طاغية قشتالة مدّة الى ان بعثه

الطاغية الى مليلية وزيّن له الثقاف لتتفرّق كلمة الاسلام فخرج الناصر لمليلية ونزل بها للثالث من شعبان عام ثلاثة والف فتسامعت به الغوغاء وسُقَط الناس وهمجهم فاقبلوا اليه يزفّون وسارعوا نحوه يهرعون فكثرت جموعه وتوافرت عساكره وشيوعه فخرج منها قاصداً لتازى فدخلها واتته القبائل المجاورة لها كالبرانس وغيرهم فتالّفوا عليه وتمالئوا على اعزازه ونصره ولمّا دخل تازى طلب اهلها بالمكس وقال لهم انّ النصارى يغرمون حتّى البيض ولمّا سمع المنصور بخبره احزنه امره وتخوّف منه غاية لانّ الناصر اهتزّ المغرب لقيامه وتشوّفت له العيون لميل القلوب عن المنصور لشدّة وطاته واعتسافه للرعيّة قال في ابتهاج القلوب في ترجمة الوليّ الصالح ابي الحسن علّى بن منصور البوزيديّ انّه كان يوماً سائراً مع اصحابه وهو راكب على بغلة فقال لهم يا فقراء اتسمعون ما تقول بغلتى انّها تصيح بالنصر لمولاي الناصر وكذلك الحجر والشجر وانّي ارى غير ذلك فكان الامر كما قال فقد اهتزّ كلّ شئ لقيام مولاي الناصر ثمّ قتل قريباً ولم يتمّ له الامر ثمّ انّ المنصور بعث لهم جيشاً وافراً فهزمهم الناصر واستوثق له الامر فامر المنصور وليّ عهده بمنازلته فخرج اليه في تعبية حسنة وهيئة تامّة فلمّا التقى الجمعان كانت الدائرة على الناصر فهرب على تازى وفرّ هارباً فاحتلّ بلجاية بليدة من عمل جبل الزبيب فلحق به وليّ العهد فلم يزل في مقاتلته الى ان قبض عليه فقتله وقطع راسه وحمل لمرّاكش وكان ذلك عام خمسة والف وذكر الشيخ ابو علىّ اليوسىّ في المحاضرات ما نصّه لمّا قام على المنصور ابن اخيه الناصر قال سيّدي احمد بن بلقاسم الصومعىّ انّ الناصر يدخل تادلا بمعنى دخول الملك فلمّا بلغ الخبر الى سيّدي محمّد الشرقىّ قال مسكين بابا احمد راى راس الناصر يدخل تادلا فظنّه الناصر فهزم الناصر وقطع راسه وحمل الى مرّاكش فدخل تادلا في طريقه ولمّا قتل الناصر فرح بذلك المنصور وجاءته الوفود بالتهنيـة وكتب الفتح لسلطان مكّة وهو السلطان حسن بن ابي انمى وللشيخ العارف بالله سيّدي احمد البكريّ الصديقىّ

والامـام بدر الدين القرافيّ وغيرهم يعلمهم بمـا منحه الله من الفتح والعزّ والظفر وقال في ذلك الكاتب البايغ ابو عبد الله محمّد بن عمر الشاويّ

تهنّـا امير المؤمنين فقـد جرت لسطوتك الاقدار جرى السوابق
اضاءت بك الايّام واحلولكت على عـدوّك وارتجّت رءوس الشواهق
وذاك الذي قـد خيّب الله سعده تردّى فلم تنفعـه نصرة مـارق
فكان كما قد قيـل لاكنّ راسـه اتي سابقاً والرجل ليست بسابق

واشـار بذلك الى قول بعضهم في الوزير ابن الفرس حين قتل وصلب وقد رآه منكوس الراس

لقد طمح المهر الجموح لغـايـة تقطّع اعنـاق العتـاق السوابق
جرى فجرت رجلاه لاكنّ راسه اتي سابقاً والرجل ليست بسابق

ذكر الخبر عن بناء المنصور للبديع

ووقته وسبب ذلك

قال فى مناهل الصفا كان السبب الحامل للمنصور على بناء البديع وانفاقه فيه جلائل الاموال ونفائس الذخائر هو انّه اراد ان تكون لاهل البيت به مـاثرة وشفوف عـلى دولة الـبربر وغيرهم من المرابطين والموحّدين ومن بعدهم من بنى مرين فكان كلّ من اهل تلك الدول ابتنى بناء يحيي به ذكره ولم يكن لاهل البيت فى ذلك المغنى شئ تزداد به حظوتهم مع انّهم احقّ الناس بالجدّ الاصيل والسودد الاثيل فتصدّى لبنائه بقصد تشريف اهل البيت لانّ البناء كما قيل فى فوائده

همّ الملوك اذا ارادوا ذكرها من بعدهم فبألْسُن البنيان
انّ البناء اذا تعاظم شانه اضحى يدلّ على عظيم الشان

ولمّا عزم على الشروع فيه احضر اهل العلم ومن يتهم بالصلاح فتحيّنوا اوان الابتداء ووقت الشروع فيه فكان ابتداء الشروع فى تاسيسه فى شوال خامس الاشهر من خلافته عام ستّة وثمانين وتسعماية واتّصل العمل فيه الى عام اثنين والف ولم يتخلّل ذلك فترة وحشر له الصنّاع حتّى من بلاد الافرنجة فكان يجتمع كلّ يوم من ارباب الصنائع ومهرة الحكماء خلق كثير حتّى كان ببابه سوق عظيم يقصده التجّار ببضائعهم ونفائس اعلافهم وجلب له الرخام من بلاد الروم فكان يشتريه منهم بالسكّر وزناً بوزن وكان المنصور قد اتّخذ معاصير للسكّر ببلاد حاحة وشوشاوة وغيرهما حسبما ما ذكره الفشتاليّ في مناهل الصفا واما جبصه وجيره وباقى انقاضه فانّها جمعت من كلّ ناحية حتّى انّه وجدت بطاقة فيها انّ فلاناً دفع صاعاً من جير حمله من تينبكت وظّف عليه في غمار الناس وكان المنصور مع ذلك يحسن للاجراء غاية الاحسان ويجزل صلة المعلّمين بالبناء ويوسع عليهم في العطاء ويقوم بمؤنة اولادهم كى لا تتشوّق نفوسهم وتتشعب انظارهم وهذا البديع دار مربّعة الشكل وفى كلّ جهة منها قبّة رائقة الهيئة واحتفّ بها مصانع اخر من قباب وقصور وديار فعظم بذلك بناؤه وطالت مسافته ولاشكّ ان هذا البديع احسن المباني واعظم الصنائع يقصر عنه شعب بواق وينسى ذكره غمدان ويبخس الزهراء والزاهرة ويزري بقباب الشام واهرام القاهرة وفيه من الرخام المجزّع والمرمر الابيض المفضّض والاسود وكلّ رخامة طلى راسها بالذهب الذائب وموّه بالنضار الصافي وفرشت ارضه بالرخام العجيب النحت الصافى البشرة وجعل فى اضعاف ذلك الزلاج المتنوّع التلوين حتّى كانّه خمائل الزهر او برد موشّى واما سقوفه فتجسّم فيها الذهب وطليت الجدارات به مع بريق النقش ورائق الرقم بخالص الجبص فتكاملت فيه المحاسن

واجرى بين قبـائه ماء غيراسن وبالجملة فانّ هذا البديع من المباني المتـاهية البهاء والاشراف المباهية لزوراء العراق ومن المصانع التى هى جنّة الدنيا وفتنة المحيا ومنتهى الوصف وموقف السرور والقصف وفى ذلك قيل

كلّ قصر بعد البديع يذمّ   فيه طاب الجنى وفيه يشمّ
منظر رائـق ومـاء نمير   وثرى عاطر وقصر اشمّ
انّ مرّاكشاً به قد تناهت   مفخراً فهى للعلا الدهر تسمّ

وفيه الاشعار المرقومة فى الاستـار والابيـات المنقوشة فى الخشب والزليج والجبص ما يسرّ الناظر ويروق المتامّل ويبهر العقول وعلى كلّ قبّة ما يناسبها وفى بعض القباب مفاخرة على لسانها لمقابلتها وتتبّع ذلك يطول لكن لا باس ان نلمّ بشىء هنا بثمالة من ذلك الحوض ونخوض في بحـار تلك البدايع بعض الخوض اذ في ذلك عبرة لمن اعتبر وترويح القلب بكيفيّة فعل الدهر بمن غبر فمن ذلك مـا نقش خارج القبّة الخمسينيّة قال في نفح الطيب وانّمـا سمّيت بالخمسينيّة لانّ فيهـا خمسين ذراعاً بالعمل من انشـاء الكاتب البليغ ابي فارس الفشتاليّ على لسان تلك القبّة المذكورة

سموت وخرّ البدر دوني وانحـطّ   واصبح قرص الشمس في اذني قرطا
وضعت من الاكليل تاجـاً لمفرقى   ونيطت الى الجوزاء فى عنقى سمطا
ولاحت باطـواقى الـثريا كانّهـا   نثير جمـان قـد تتبّعـه لقـطـا
وعدّيت عـن زهر النجوم لانّنى   جعلت على كيوان رجلى منحطـا
وأُجريت من فيض السماحة والندا   خليجـاً على نهر المجرّة قد غطـا
عقدت عليه الجسر للفخر فارتمت   اليه وفود البحر تغرق مـا انطـا
تنضنض مـا بين الـغروس كانّه   وقد رقرقت حصباؤه حبّة رقطـا

حواليـه من دوح الرياض خرائد　　وعين تجرّي من حمائلها صرطا
اذا ارسلت لدى الفروع وفتّحت　　جنا الزهر لاح فى ذوائبها وخطا
يرنّحهـا مـن الـنسيم اذا سرى　　كما مـال نشوان تشرّب اسفنطا
يشقّ رياضاً جادهـا الجدّ والندا　　سواء لديهـا الغيث اسكب ام ابطا
وسالت بسلسال اللجين حياضهـا　　بحاراً غدا عرض البسيط لها شطا
تطلّع منهـا وسط وسطـاء ديمـة　　هى الشمس لا تخشى كسوفاً ولا غمطا
حكت وحباب المـاء فى صبياتهـا　　سنى البدر يبدو من نجوم السما وسطا
اذا غزلتها الشمس التى شعاعهـا　　على جسمها الفضّى نهراً هـالطـا
توسّمت فيها من صفـاء اديمها　　نقوشاً كانّ المسك ينقطهـا نقطـا
اذا آتسقت بيض القبـاب قـلادة　　فانّي لها فى الحسن درّتها الوسطا
تكـنّفنى بيض الدمـا فـكانّهـا　　عذارى نضت عنها القلائد والريطا
قدود ولاكن زادها الحسن عريها　　واجمل فى تنعيمها النحت والخرطا
نمت صعـداً تيجـانهـا فـتكسّرت　　قوارير افلاك السمـاح بها ضغطـا
فيالك شـأواً فى السعـادة هـائل　　فاكنافه رحل العلا والهدى مطـا
وكعبة مجد شـادهـا العزّ فانبرت　　تطوف بمغناها اماني الورى شرطا
ومسرح غزلان الصريم كناسهـا　　حنايا القباب لا الكثيب ولا السقطا
فلكن به ما طاب لا الاثل والخمطـا　　ووسّد فيه الوشى لا السدر والارطا
تراه مـن المسك الفـتيت مدبرا　　اذا مازجته السحب عاد بها خلطا
وان باكرته نسمة　　　سرى　　الى كل انف عرف عنبره قسطـا
اقرت له الزهراء والخـلد وانتقت　　اواوين كسرى الفرس تغبطه غبطا
خبـاب رواق المجد فيـه مطنّبـا　　على خير من يعزى كخير الورى سبطا
امـام يـسير الدهر تحـت لوائه　　وترسى سفـائن العـلا حيثما حطّا
وفـتّح اقطـار البـلاد بفيـلق　　يفلّق هامـات العدا حيثما خبطـا
تطلّع من خرصـانه الشهب فانثنت　　ذوائب ارض الزنج من ضوئها شمطا

كتائب نصر ان جرت لملمّة　　جرت قبلها الاقدار تسبقها فرطا
اذا ما عقدن راية علوية　　جعلن ضمان العز في عقدها شرطا
فما للسنا تلك الاهلّة انّما　　سنابكها انفت مثالاً بها حطّا
يطاوع ايدي المَلَوَات عنانها　　فيعتاض من فيض الزمان بها بسطا
يد لامير المومنين بكفّها　　زمام يقود الروم والفرس والقبطا
ادار جدارا للعلا وسرادقا　　يحوط جهات الارض من رعيه حوطا

وقال ايضاً ممّا كتب بداخل القبّة المذكورة

جمال بدائعي سحر العيونا　　ورونق منظري بهر الجفونا
وقد حسنت نقشي واستطارت　　سنا يغشى عيون الناظرينا
واطلع سمكي الاعلى نجوما　　ثواقب لا تغور الدهر حينا
وجوي من دخان الندا التي　　على الارض الغياهب والدجونا
علوت دوائر الافلاك سبعا　　لذاك الدهر ما الفت سكونا
فصغت من الاهلة والخنايا　　اساور والخلاخل والبرينا
تكنّفني حياض مايحات　　امامي والشمائل واليمينا
يعيد حبلها الطرف انفساحا　　وفيها الفلك والكور والسفينا
تدافع نهرها نحوي فلمّا　　تلاقى البحر فى جري دفينا
ترى شهب السماء بهنّ غرقا　　فتحسبها بها الدرر المصونا
وقد نشر الاحباب على سماها　　لئالي تزدري العقد الثمينا
فخرت وحقّ لي لما اجتباني　　لمجلس امير المومنينا
هو المنصور حائز خطل سبق　　وباني المجد بنيانا مكينا
وليث وغا اذا زار امتعاضا　　يروع زائره هندا وصينا
اذا امّت كتائبه الاعادي　　بعثن برعبه جيشاً كمينا

يدير عليهم من كلّ حرب تدقّهم رحى او مجنونا
امام بالمغارب لاح شمسا به الشرق اكتسى نورا مبينا
بقيت بذي القصور الغرب درّا يلوح بافقهنّ مدا السنينا
تحفّ بكم عواكف عند بابي ملائكة كراما كاتبينا
لك البشرى امير المومنينا ادخلوها بسلام امنينا

وقال ايضاً ممّا كتب ببهوها بمرمر اسود في بياض

لله بهو عزّ منه نظير لمّا زهى كالروض وهو نظير
وصفت نقوش حلاه رقش قلائد قد نضرتها فى النحور الحور
فكانّها والتبر سال خلالها وشى وفضّة تربها كافور
وكانّ ارض قرارها ديباجة قد زان حسن طرازها تشجير
واذا تصدّع نده نوراً فنى انماطه نور به مسطور
شاو القصور قصورها عن وصفه سيّان فيه خورنق او سدير
فاذا اجلت اللحظ فى جنّاته ترتدّ وهو بحسنه مسحور
وكانّ موج البركتين امامه حركات سجف صافحته دبور
صفّت بصفّتها تماثل فضّة مثل النفوس بحسنها تصوير
فتدير عن وصف الزلال معللا ليسري الى الارواح منه سرور
ما بين اساد يهيج زائرها واساود يسلو لهنّ صفير
ودحت من الانهار ارض زجاجة واظلّه فلك يضئ منير
راقت فمن حصبائها وفواقع يطفو عليها اللولو المنثور
ياحسنه من مصنع فبهاؤه باهى نجوم الافق وهى تنور
وكانّما زهر الرياض لجنبه حيث التفتّ كواكب وبدور
ولدستى الاسمى تخيّر وصفه فخر الورى وامامها المنصور

ملك اناف على الفراقد رتبته واظلّه فوق السماك سرير
قطب الخلافة تاج مفرق دولة رميت بجحافلها اللهام الكور
وجرى الى اقصى العراق لرعبها جيش على جسر الفرات عبور
نجل النبيّ ابن الرضى سليل من حقن الدماء وعفّ وهُو قدير
بحر الندا لاكنّه متموّج سيف العلا لاكنّه ممطور
طود يخفّ لحمله ووقاره ولجيشه يوم النزال بشير
دامت معاليه ودام مجده طوق على جيد العلا مزرور
وتعاهدته من الفتوح بشائر يغدو عليه بها المسا وبكور
لا زال منزل سعده يرتاده نصر يدقّ لواءه المنشور
وجرت به مدحاً جياد مسرّة وادار كاس الانس فيه سمير

قال ايضاً وكتب في بعض المباني البديعيّة ما نصّه

معاني الحسن تظهر في المباني ظهور السحر في حدق الحسان
مشاقّه في صفات الحسن اضحت تمتّ بها المغاني للغواني
بكلّ عمود صبح من لجين تكون في استقامة خوط باني
مفصّلة القدود مثلّثات مواصلة العناق من التداني
تردّت سائر المحاسن يزري بحسن السابريّ الخسرواني
وتعطو الخيزرانة من دماها بسالبة القطيع البرهماني
لمجدك تنتمي لاكن نماها الى صنعاء ما صنع اليدان
يدين لك ابن ذي يزن ويعنوا لها غمدان في ارض اليمان
غدت حرما ولاكن حلّ فيها لوفدكم الامان والاماني
مباني بالخلافة اهلّات بها يتلو الهدى السبع المثاني
هى الدنيا وساكنها امام لاهل الارض من قاص ٍ وداني

قصور ما لهـا في الارض شبه   ومـا في المجـد للمنصور ثان

وقال ايضاً فيما كتب على المصرية المطلعة على الرياض المرتفعة على القبّة الخضراء وكان انشاؤها عام خمسة وتسعين وتسعماية

باكر لدىّ من السرور كئوسها   وارض النديم اهلّة وشموسـا
واعرج على غرفى المنير سماءها   تلق الفراقد فى حمـاى جلوسـا
واذا طلعت باوجهـا قمر العلا   لا ترتضى غير النجوم جليسـا
شرف القصور بريقها لمّا اجتلت   منّى عـلى بسط الرياض عروسا
واغتظتّ بالمنصور احمد ضيعهـا   ورداً تحيّر مـن بديع خَيَسـا
ملك يرى كلّ الملوك ممالـكا   لعـلاه والدنيـا عليـه خيسـا
دامت وفود السعد وهى عواكف   تصـل المقيـل لدىّ والتعريسا
وهنـاك في شرف الخلافة دولة   تلـغى برويتهـا طـلائع عيسـا

وقال بعض الكتّاب مّما طرز به الا ستارالمذهّبة المحكمة الصنعة لتستر بها النواحى الاربعة من القبّة الخمسينيّة وتسمّى هذه الاستـار عند اهل المغرب بالحائطىّ

فى الجهة الاولى

متّع جفـونك في بديع لبـاس   وادر عـلى حسنى حمى الـكاس
هذه الربا والروض من جرعائها   علم اهتدى بالعارض البجـاس
انّى لروض ان يروق بهـاؤه   مثـلى وان يجرى على مقيـاس
فالروض تغشـاه السوام وانّمـا   تاوي الى كنفى ظباء كنّاس

وفي الجهة الثانية

من كلّ حسن كالقضيب اذا انثنى   تزري بعـضّ البـانة الميّـاس

ولقد نشرت على السماك ذوائبي   ونظرت من شرز الى الكنّاس
وجررت ذيلي بالمجرّة عابثا   فخراً بمختر عى ابي العبّاس
ما نيط مثلى في القباب ولا ازدهت   بفتى سواه مراتب وكراس

وفى الجهة الثالثة

ملك تقاصرت الملوك لعزّه   ورماهم بالذل والانغاس
غيث المواهب بحر كلّ فضيلة   ليث الحروب معسر الاوطاس
فرد المحاسن والمفاخر كلّها   قطب الجمال اخو الندا والباس
ملك اذا وافى البلاد تراجعت   منه الوهاد بعاطر الا نفاس

وفى الجهة الرابعة

واذا تطلع بدره من هالة   يغشى سناه نواظر الجلّاس
ايّامه غرر تجلّت كلّها   ابهى من الاعياد والاعراس
لا زال للمجد السنى يشيده   ويقيم مغناه على الاساس
ما مال بالغصن النسيم وحيّت   درر الندا فى جيده الميّاس

وقال بعض الكتّاب ممّا نقش فى عضادتَيْ باب من الابواب

يا ناظراً بالله قف وتامّل   وانظر الى الحسن البديع الاكمل
واذا نظرت الى الحقيقة فلتقل   السرّ فى السكّان لا فى المنزل

وقال الكاتب البليغ ابو فارس عبد العزيز بن محمّد بن ابراهيم الفشتاليّ ممّا نقش ببعض الا بواب

هذي وفود السعد نحوي تنتمى   وطلائع البشرى لبابي ترتمى

وسمت الى عفّان عرفك مثل ما　　يسمو الحجيج الى سقاية زمزم
حطّت بمصراع السعود بشائر　　لاحت على الشرفاء مثل الانجم
اولى بصنع ان تقول ولا تبل　　فبديع احمد جنّة المتنعّم

قال الفشتاليّ لمّا عرضتها عليه استحسنها الّا انّه كره لفظة الجنّة وتغيّر عليها كثيراً وكان الفراغ من بناء البديع عام اثنين والف وفى تاريخه يقول الوزير الفقيه الاديب ابو الحسن علىّ بن منصور الشياظمىّ وهو ممّا نقش فى باب الرخام احد ابواب البديع

الحسن لفظ وهذا القصر معناه　　يا ما اميلح مرءاه وابهاه
فهو البديع الذي راقت بدائعه　　وطابق اسم له فيه مسمّاه
صرح اقيمت على التقوى قوائمه　　ودلّ منه على التاريخ معناه
ولاح ايضاً وعين الحفظ تكلؤه　　تاريخه من تمام قل هو الله

وقال الوزير المذكور ايضاً فيما نقش على احد ابواب البديع

باب اتى كبراعة استعلال　　وكانّما القصر المشيد التالى
ولذلك سمّى بالبديع وجاء　　بالاغراق والتجنيس والايغال
واتى التمام فقلت من تاريخه　　بيت بلا عقد ولا اشكال
صرح على التقوى من الله ابتنى　　في طالع للسعد والاقبال

وقال ايضاً فيما كتب بنباح قبّة الزجاج

ان شئت تاريخ كمال البديع فقل　　ايوان احمد ايوان السعادات

وقال ايضاً في تمام البديع مبيّناً له

يا مالكاً ملكه فيمن ملك   كطلوع الفجر من بعد الحلك
تمّ هذا القصر فاسكنه على   حسن حال بدوام الملك لك

قال فى نفح الطيب اخترع المنصور من الصنايع ثلاثة اشياء فجاءت غريبة الشكل بديعة الحسن وهى البديع والمسرّة والمشتهى وممّا قال المنصور فى ذلك مورّخاً

بستان حسنك ابدعت زهراته   ولكم نهيت القلب عنه فما انتهى
وقوام غصنك بالمسرّة ينثنى   ياحسنه رمانه للمشتهى

والذي ذكره صاحب كتاب البيان المعرب عن اخبار الغرب وهو الشيخ ابو عبد الله بن عذاري الاندلسىّ حسبما رايته في السفر الثاني انّ اوّل من انشا المسرّة التى بظاهر جنان الصالحة عبد المومن بن علىّ كبير الموحّدين قال وهو بستان عظيم طوله ثلاثة اميال وعرضه قريب منها فيه كلّ فاكهة تشتهى وجلب اليه الماء من اغمات واستنبط له عيوناً كثيرة قال ابن اليسع وما خرجت انا من مرّاكش في سنة ثلاث واربعين وخمساية الّا وهذا البستان الذي غرسه يبلغ مبيع زيتونه وفواكهه ثلاثين الف دينار مومنيّة بحسب رخص الفاكهة بمرّاكش ولعلّ المنصور جدّد معالم المسرّة بعد اندراسها وافاض سجال الحياة على ميّت اغراسها وكان المنصور يفتخر بالبديع كثيراً وبنوه بعده كذلك وفي ذلك يقول ابو فارس الفشتاليّ

هذا البديع يعزّ شبه بدائع   ابدعتهنّ به فجاء غريبا
اظنى الغزالة حسنه حسداً له   ابدى عليه للاصيل شحوبا

شيّدتهنّ مصانعاً وصنائعا انجزن وعدك للعلا المرقوبا
وجريت في كلّ الفخار لغاية ادركتهنّ وما مسسن لغوبا
فانعم لملكك فيه دام موقّرا تجنى به فنن النعيم رطيبا

ولمّا اكمل المنصور البديع وفرغ من تنميق بردته وتطويق حلّته صنع مهرجاناً عظيماً ودعا الاعيان والاكابر فقدّم لهم من ضروب الاطعمة وصنوف الموائد وافرغ عليهم من العطايا ومنحهم من الجوائز ما لم يعهد منه قبل وكان ممّن دخل فى غمار الناس رجل من البهاليل ممّن كانت له شهرة فى الوقت بالصلاح فقال له المنصور عابثاً به كيف رايت دارنا هذه يا فلان فقال له اذا هدمت كانت كدية كبيرة من التراب فوجم لها المنصور وتطيّر منها وقد ظهر مصداق ذلك على يد السلطان المظفّر مولانا اسماعيل بن الشريف فانّه امر بهدمه عام تسعة عشر وماية والف لموجب يطول شرحه فهدمت معالمه وبدّلت مراسمه وغيّرت محاسنه وفرّق جموع حسنه وعاد حصيداً كانّ لم يغن بالامس حتّى صار مرعىً للمواشي ومقيلاً للكلاب ووكراً للبوم وحقّ على الله ما رفع شيأً من الدنيا الاّ وضعه ومن العجائب انّه لم تبق بلد بالمغرب الاّ ودخلها شئ من انقاض البديع ولقد تذكّرت بهذا ما حكاه بعض مؤرّخي الاندلس ان الزاهرة التى بناها المنصور ابن ابي عامر وهى من عجائب الدنيا في اتقان البنيان مرّ عليها فى ايّام المنصور ابن ابي عامر بعض اهل البصائر وهى فى غاية العمران والازدهاء بساكنيها فقال يا دار فيك من كلّ دار فجعل الله منك في كلّ دار قال فضرب الدهر ضربانه وسلّط عليهم ايدي العدوان فهدمت وتفرّقت محاسنها حتّى نقل بعض انقاضها للعراق . ولمّا دخلت البديع مقفلى فى الرحلة ورايت ما هالنى قرات عليها ابياتاً انشاها محي الدين بن عربي فى كتاب المسامرات لمّا دخل الزاهرة فوجدها متهدّمة

ديار باكناف الملاعب تلمع وما ان بها من ساكن وهى بلقع

ينوح عليه الطير من كلّ جانب — فتصمت احياناً وحيناً ترجع
فخاطبت منها طائراً متفرّداً — له شجن في القلب وهو مروّع
فقلت على مَ ذا تنوح وتشتكى — فقال على دهر مضى ليس يرجع

وانشدت ما انشده ابن الابّار في تحفة القادم

قلت يوماً لدار قوم تفانوا — اين سكّانك الكرام علينا
فاجابت هنا اقاموا قليلا — ثمّ ساروا ولست أعلم اينا

وانشدت ايضاً قول الشاعر

وقفت بالزهراء مستبصراً — معتبراً اندب اشتاتا
فقلت يازهراء الا فارجعى — قالت وهل يرجع من فاتا
فلم ازل ابكى وابكى بها — هيهات يغدي الدمع هيهات
كانّما اثار من قد مضى — نوادب يندبن امواتا

فتاملت لفظ البديع فوجدت عدد نقط حروفه بحساب الجمل مائة وسبعة عشر وهذا القدر هو الذي بقى فيه البديع قائماً عامراً فانّه فرغ منه عام اثنين والف فمدّة بقائه بعد تمام بنائه مائة وسبع عشرة سنة على عدد اسمه وذلك من غريب الاتّفاق والبقاء والدوام والملك التامّ لله الملك الديان لا يسئل عمّا يفعل وهم يسالون

ذكر الخبر عن سيرة المنصور في ترتيب جيوشه

وتعبية جنوده

قال الفشتالي كانت السيرة على عهد ابي عبد الله محمّد الشيخ المهدي وولده الغالب وولده المتوكّل سيرة العرب في الجيش من الماكل والملبس وغير ذلك ولمّا ولي المعتصم حمل الناس على السيرة العجميّة وجنح اليها في سائر شئونه لما راى منها في بلاد الترك حيث كان بها فكره الناس ذلك وابقوا منه وقوفاً مع العوائد فلمّا جاء الله بالمنصور الّف بين سيرة العرب والعجم واصطفى من العجم موالي وربّاهم بنعمته واشمل لهم درر احسانه منهم مصطفى باي ومعناه بلغة الاتراك قائد القوّاد ويختصّ به قائد الاصباحيّة وكان برسم حراسة الباب العلىّ ومنهم الباشا محمود وهو صاحب خزائن الدار بيده مفاتيح بيوت المال ومنهم القائد العلوج قائد جيش العلوج ومنهم الباشا جودر فاتح السودان وهو قائد جيش الاندلس وكان لاهل الاندلس جيش عظيم رماة ومنهم عمر قائد جيش السوس فهولاء اكابر العلوج وتليهم طائفة اخرى منها بختيار وبغى ثمّ انّ جيش العجم من الاتراك والعلوج قسمه الى اقسام منها البياك وهم اهل القلانس الصفريّة المذهّبة ذوات الاعراق من ريش النعام الملوّن يقفون سماطين امام قبّته او فسطاطه والسلاق اهل القلانس الطويلة المسبولة على المناكب ويناط بها من اعلا الجباه جعاب صفر مذهّبة ويزيدون عند الحزام باجنحة طوال يربعونها ايضاً من ريش النعام الباقى على اصل خلقته ويركزونه بالجعاب المنوطة بالقلانس من اعلا الجباه ويرسلونها الى وراء يقفون هولاء خلف البياك وبلبردوش وهم اهل اللقاقيف وهى رماح قصيرة غليظة العصا مغشاة بالحديد مرصّعة بمسامير بيض ركبت عليها اسنّة

عظام وزجاج هائلة ينبت من ريشتيْ كلّ سنان منها اضلاع مستقيمة ويقف هولاء خلف السلاق والشنشريّة وهم اهل الطعام وضعاً ورفعاً لا غير وقائدهم بختيار من سبي وقعة وادي المخازن والقبجيّة وهم اهل حفظ الابواب وغلقها وفتحها وقائدهم مولود الشاوي وطائفة من هولاء تحرس ليلاً وتطوف على مسائف السور المحيط بالدار ومن وظيفة هولاء خدمة الكرسى والسرير اللذان يجلس عليهما بالايوان وتعاهد انماط الجلوس وكنهها والشواش وهم الذين يتولّون ضبط مصافّ الجيوش في الحرب والسلم وانهاء الكتب والرسائل للجهات بخير او شرّ قال الفشتاليّ وهذا ممّا زادت به دولته على سائر الدول فاذا خرج في يوم عيد او لملاقاة او لتهنية خرجوا مترتّبين هكذا وكلّ قائد يقف عند انبعاث جيل جيشه تحت الوية محفوف بجيش من روساء جنده اهل الخيل وهم الذين يدعون عندهم بُلُكْباشات فاصلاً بذلك بين جيشه وجيش من يردفه خلفه قال الفشتاليّ والترتيب الذي جرى به العمل في عسكر الناس ان يتقدّم اوّلاً جيوش السوس ثمّ يردفه جيش شراقة وكلّ منهما ينقسم جيلين ثمّ يردفهما العسكران العظيمان عسكر الموالي العلوج ومن انضاف اليهم وعسكر الاندلس ومن لبس جلدتهم ودخل زمرتهم وهذان يسيران صفّين متواليين لاستواء مرتبتهما وعند العطا تارة يتقدّم هولاء وتارة هولاء غير انّ الموالي يكونون فى الميمنة لمزيّة الولاء وكلاهما يحظى بموالاة ركابه ويتقدّم قائدها محمود قائد الموالي وجودر قائد الاندلس وترفع على راس كلّ منهما الرايات ويحفّه عسكر من بلكباشات ثمّ تتّصل بهذين العسكرين الدخلة العظيمة المولفة بين الباياك والسلاق وبلبردوش تسير الفرق الثلاثة امام المنصور صفوفاً متوالية فامّا الباياك فيلون ركابه يحفّون به يميناً وشمالاً ويرفع لبعض رماحه اليزنيّة المنصوبة امامه ومنهم صاحب المظلّ المرفوع على راسه كالغمامة يحمله حالة ركوبه اقربهم درجة لقائدهم ابرويز واذا مشى للمسجد لجامع المنصور من جهة قبور الاشراف او للمشتهى على رجله حمله ابرويز بنفسه ثمّ يسير عن يمينهم وشمالهم السلاق

ويسير عن يمين هولاء وشمالهم بلبردروش اهل اللقاقيف وتكّيف من الجميع
صورة تزرع في القلوب الرعب وتسير النجائب فيما بين سماطَيْ هذه الدخلة
مجنوبةً صفّاً صفّاً الى الوية عساكر النار يقودها صنف يدعون السرّاجة ركباناً
وكانت نجائب الخلفاء يقودها الرجالة من الوزغة وهذا اكمل مزيّة وجيش
الاصباحيّة الذي لنظر باىلارباى ينقسم الى كتيبتين عظيمتين يسير احداهما ذات
اليمين والاخرى ذات الشمال امام الركب مرفع اللواء العظيم الابيض المدعوّ
باللواء المنصور علامة على شعار الدولة على راس المنصور يسامت من خلفه
وهنالك الوية كثيرة ذات الوان مختلفة وامامه الطبل العظيم الذي يسمع دويّه
من مسافة بعيدة ومن خلفه الطبول الاخرى معها الغيطات واحدها غيطة
يتولّى النفخ فيها قوم من العجم اساتيذ يتعلّمونها فينفخون فيها فتنفث منها
اصوات والحان لا تحرك الطبع ولا تبعثه على شيء دون الحرب فانّها تشجع
الخيل وتقوّي جاش الخائف حكمة فيلسوفيّة وهنالك مزامير اخرى وجعاب
طوال صفريّة على مقدار النفير تسمّى الطرنبطة ممّا احدثه ايضاً في دولته
وزادت به دولته على غيرها فخماً وضخامةً ويردف خلف هذه الالوية
والالة من خلف امير المؤمنين في موكب عظيم فهذا ترتيب جيش المنصور
باختصار كثير من مناهل الصفا . وذكر بعضهم انّ المظلّة التى وصفناها تكون
فوق راس المنصور هو من محدثات ملوك الدولة والذي اعرفه من كتب
التاريخ انّها كانت من قديم ففى ابن خلكان في ترجمة يعقوب وزير العزيز بن
نزار انّه لمّا توفّي خرج العزيز لجنازته وعليه الحزن وركب بغلته بغير المظلّة
وكانت عادته لا يركب الّا بها . ولعلّ الملوك السعديّين اوّل من استحدثها
بالمغرب والله اعلم وما ذكره الفشتاليّ من توافر جنود المنصور وتكاثر جيوشه
هو كذلك وقد ولعت العامّة في ذلك باخبار واهية وزعموا انّ المنصور خرج
مرّة للرميلة بظاهر مرّاكش ولم يعلم اصحابه بخروجه فحين علموا بخروجه تبعوه
خفافاً وثقالاً فامر بعدّ ما معه هنالك من الجيش فوجد ثمانين الفاً فقال

يا سبحان الله قد خاطرنا بنفوسنا حيث ركبنا في هذا العدد لقلّته ولا يخفى ما في هذا الكلام من الهذيان والزيادة والذي ذكره الشيخ ابو العبّاس احمد افقاي الاندلسىّ في كتابه المسمّى برحلة الشهاب الى لقاء الاحباب ما معناه قال انّ جزيرة الاندلس استردادها من ايدي الكفرة سهل واسترجاعها منهم قريب ولّما دخلت ايّام المنصور مرّاكش وجدت عنده من الخيل نحو ستّة وعشرين الفاً فلو تحرّكت همّته لفتحها لاستولى عليها في الحين انتهى بالمعنى ونقلته من حفظى وكذلك انقال هذا الكتاب كلّها من حفظى والله ولّي التوفيق

ذكر الخبر عن طرف من شجاعته وحزمه

وضبطه وشهامته

كان المنصور رحمه الله شجاعاً بطلاً مقداماً لا يكترث الّا بالشجعان والابطال ولا يصطلى الّا بنار الطعان والنزال وله بصيرة بمكائد الحروب وخدع القتال وقد انشده وزيره ابو الحسن علّى بن منصور الشياظمى في بعض معاركه مع المتوكّل بيتَىْ الكاتب ابي عبد الله محمد بن عيسى فيه

هو الغيث ثمّ البحر في الجود والندا   وليث اذا جدّ الطعان هصور
يفوق السهام عزمه وانبعاثه   ويقصر عنه في الثبات بثير

فاجابه المنصور ببيتَىْ ابي فارس

ونحن اناس لا توسّط عندنا   لنا الصدر دون العالمين او القبر
تهون علينا في المعالي نفوسنا   ومن خطب الحسناء لم يغله المهر

ومن حزمه انّه كان متطلّعاً لاخبار النواحى باحثاً عن الانباء غير متراخ في قراءة ما يرد عليه من رسائل عمّاله ولا يبطئ بالجواب ويقول كلّ شئ يقبل التاخير الاّ مجاوبة العمّال عن رسائلهم وكان الكتّاب لا يفارقون مراكزهم الاّ في اوقات مخصوصة قال الفشتاليّ ولقد كنّا بالباب يوماً يعنى معشر الكتّاب قبل ان يخرج علينا المنصور فورد النذير على الكاتب البليغ ابي عبد الله سيّدي محمّد بن علىّ الفشتاليّ بانّ ولداً له في النزع فلم يملك نفسه ان ذهب لداره فخرج المنصور على اثر ذلك فسال عنه فقيل انّه ذهب لداره فاستشاط له غضباً وبعث وراءه فجيء به مزعجاً وما شككنا في عقوبته فلمّا مثل بين يديه قال له ما ذهب بك فذكر له عذر ولده وانّه اشتدّ به المرض ولم ينجح فيه دواء الاطبّاء فرقّ له وقال له انّ امراض الصبيان لم ينجح فيها الاّ طبّ العجائز ولا كعجائز دارنا فابعث من يسالهنّ ومن حزمه انّه اخترع اشكالاً من الخطّ على عدد حروف المعجم يكتب بها ما يريد الاّ يطلع عليه احد يمزج بها الخطّ المتعارف فيصير الكتاب مغلّقاً اذا سقط او ضاع او وقع في يد عدوّه لم يدر ما فيه ولم يعرف معنى ما اشتمل عليه فكان اذا خرج احد من اولاده او عمّاله ناوله خطّاً من تلك الخطوط يفكّ بها رسائل امير المومنين اليه ويكتب عنوانه كذلك ومن ضبطه انّه تعلّم الخطّ المشرقىّ فكان يكاتب به علماء المشرق كتابة كاحسن ما يوجد في خطّ المشارقة وممّا وقع له في ذلك انّه بعث بطاقة بخطّ يده بالخطّ المشرقىّ لكاتبه ابي عبد الله محمّد بن عيسى يستدعى منه كتاباً فبعثه اليه ابن عيسى الكاتب المذكور صحبة هذين البيتين

سقتنى كاس السرور دهاقا   خطوطٌ اتتنى في مهرق
رات كفّ احمد في المغرب   بحرا فجاءت اليه من المشرق

ذكر هيئته في السفر وحالته فيه

وما يناسب ذلك

قال صاحب زهرة الشماريخ انّ المنصور كان قليل الاسفار وانّما سافر لفاس مرّتين لاغير وكان متفرّغاً للذّاته مكبّا على شهواته ايّام خلافته . وبه يعلم ما شاع على الالسنة انّه يمكث بفاس ستّة اشهر وبمرّاكس مثلها ليس بصحيح والله اعلم وكان المنصور اذا سافر استعدّ غاية الاستعداد واحسن في التهيئة والتعداد قال صاحب النفحة المسكيّة كان له قصر من عود مسمّر بمسامير وحلق ومخاطيف وصفائح مفضّضة على هيئة عظيمة وقد احدق بذلك كلّه سرادق كالسور نسيج كتّان كانّه حديقة بستان او زخرفة بنيان وفي داخلها القباب الملوّنة من حمراء وسوداء وخضراء وبيضاء كانّها ازاهير الرياض قد نقش ذلك احسن النقش وملئ بابهى الفرش وللسرادق الذي هو كالسور ابواب كانّها ابواب مشيدة القصور يدخل منها الى دهاليز وتعاريج ثمّ ينتهى منها الى القصر الذي فيه القباب والقصر كانّه مدينة ينتقل بانتقاله وهو من الابهات الملوكيّة التى لم يوجد مثلها عند الملوك الماضين . وهذا السرادق يسمّى بالسياج وفيه يقول العالم الامام الاكبر مفتى الحضرة ابو مالك عبد الواحد بن احمد الشريف والكاتب الارفع البارع ابو فارس عبد العزيز بن محمّد بن ابراهيم الفشتاليّ قال في مناهل الصفا خرج المنصور لزيارة ضرائح الصلحاء باغمات فتاخّرت وراءه فلحقنى ابو مالك المذكور وانا في اخريات الناس فقال لي

ابا فارس بان الخليط وودّعوا   فقلت   وولّوا وحسن الصبر منّى شيّعوا

فقال   وغرّد حادى البين وانشقّت العصا   فقلت   وكاد فؤادى للنوى يتقطّع

فقال الى الله اشكو فرقة منهم وقد فقلت تجرّعت من كاس النوى ماتجرّعوا
فقال لئن شرّد السلوان عنّي بعدهم فقلت ففى صحبة المنصور انسى اجمع
فقال تدور عليه هالة لقبابه فقلت ومركزها قصر الخلافة يلمع
فقال اساج بها بحر الندا متموّج فقلت ومن افقه شمس الامانة تطلع

وكان المنصور خرج لزيارة رجال اغمات في شارة حسنة فلمّا بلغ اغمات مكث فيه يومين وفي اليوم الثالث خرج لزيارة الامام ابي عبد الله الهزميريّ وعاج على طريق الشيخ سيّدي عبد المجيد ووقف عند الجبّانة الكبرى فدعا ما تيسّر وفرق مالاً على ذوي الحاجات على يد ابي القاسم الشاطبي والفقيه الامين علىّ بن سليمان التاملىّ وكان معه الفقيه القاضى ابو مالك عبد الواحد الحميديّ استقدمه من فاس برسم القراءة معه وكان الحميديّ لوذعيًّا خفيف الروح وفي هذه السفرة صدرت من الحميديّ الابيات التى تباري في معارضتها فقهاء الدولة وشعراؤها وذلك انّ الفقيه الفاضل الكاتب ابا زيد عبد الرحمن بن محمّد بن عبد الله العنابي بعث بكبش سمين وعسل للقاضى الحميديّ تحفة فكتب مداعباً بهذه الابيات

اياكاتب السرّ يا من بدت محاسنه في الورى باهره
هديت اليّ الشفا وصلة فاكرم بها منحة ظاهره
وكبشاً سمينا له كلوة تفوق الكلا نعمة زاهره
فلا زلت تثبت كتب الانام رسوماً لاعدائه قاهره

وقال ابو فارس عبد العزيز بن محمّد الفشتاليّ

ابحر علوم طغت زاخرة وشمس معارفها الباهره

لك العفو فضلاً فقد اصبحت   كتـائب نظـمكم نـائره
وهزت صوارم ابداعهـا   فصلت بهـا صولة قـاهره
بقيت تشنّ بهـا غـارة   لـنشر امثـالك السـائره

وقال ابو عبد الله محمّد بن علىّ الفشتالّي

نسجت ابا مـالك حلّة   بصنعاء افكارك الحاضره
واجريت ماء البديع الى   رياض فكاهتك الساحره
واخفيت قيد المعاني على   مواكب اغراضك الظافره
عيون البيان ولاكنهـا   لغير النُهَى لم تكن ناظره
فخذها بديهة من قدغدت   وجوه فصـاحته سافره

وقال ابو مالك سيّدي عبد الواحد بن احمد الشريف

اشيخ الجمـاعـة يا قطبهـا   ومن في العلا مركز الدائره
شنـنـت بابيـاتكم غـارة   واحييت لي همّـة غـابره
وذكّـرتنى مربعـاً لم تزل   مقيماً به مقـلتى سـاهره
وحرّكت فكري بعلم غدت   بـصدري مراسـمـه داثره
فـهذا جواب لابيـاتـكم   الى ابن بدور العلا السافره
سليل الافاضـل حقًّا ومن   محـاسنه في الورى ظـاهره

وقال الكاتب ابو عبد الله محمّد بن عمر الشاويّ

احيي رسوم القضـا الدائرة   وانسان مقلته السـاهره

ومطلع شمس المعارف من　　مغاربها حكمة ظاهره
وبحر العلوم التى اوجبت　　له العزّ والفخر في الاخره
وقاضى عساكر ملك غدت　　لاخمصه السبع كالسائره
ودانت له الارض طولاً وعرضاً　　فارسل املاكها سائره
الى بابه تبتغى وطئة　　وامناً لسطوته القاهره
كفاك افتخاراً ابا مالك　　حضورك ايّامه الزاهره

وقال ابو علىّ الحسن بن عبد الكريم

اشيخ العلوم التى قد سرت　　بدائع ابياته السائره
طلعت وكنت كنجم الصباح　　وسدت باخلاقك العاطره
اذا ما نويتم طلاب العلا　　فكلّ المعالي لكم سافره
اتتنى بالامس ابياتكم　　رياض المعاني بها زاهره
فاشعاركم ذكر عبد المجيد　　واضحت فصاحته داثره
فلو مدّ في عمر البحتري　　لاعجب من فطنة باهره
علوت وفقت قضاة الورا　　فدم هكذا مركز الدائره

وقال الكاتب ابو عبد الله محمّد بن علىّ الهوزاليّ المعروف بالنابغة

ايا تحفة الدهر يا ناظرة　　وطرفة ايّامه الناضره
وبدر العلوم التى قد نضت　　دجى الجهل انواره الباهره
ومن كرعت في حياض المعاني له　　فطنة بالذكا ساحره
انظمك ام قرقف بَابُلى　　ولفظك ام نفثة الساحره
تعلّل ارواحنا مدعسا　　بارواح روضتك الزاهره

ام دارنا قد سرى موهنا ام ارتاح اخلاقك العاطره
فككتم به من اسار العدا قيودا بارجائها دائره
فلا زلت يا شيخنا يهتدا بنورك في الليلة الساهره

وقال القائد الوزير الفقيه ابو الحسن علىّ بن منصور الشياظمىّ

ايا علم العلم يا ناشره وحامل رايته الظافره
وقاضى القضاة التى فاخرت به الشرق مغربنا الظاهره
وناظم عقد المعاني التى جرت دونها المثل السائره
واجرت بفعل الطلا في النهى كذا بشذا الروضة الزاهره
وظلت تردّد حسن الثنا تروّيه عن نفسك الطاهره
واخلاقك العزّ لا قصرت عن الندر بالدرر الفاخره
وايقظت عمداً عيون البيا ن من كل فتانة ساحره
تشير بمعنى لطيف الى محاسن اخلاقك الباهره
وثنّيت سحر البلاغة في مهارق ظلّت لكم شاكره
رويدك نبّهت سرب المعاني بعيد الكرا فاهتدت حاضره
ونُبهتكم من بليغ بنا حديد الذكا نافذ الباصره
يطبّق منها المفاصل غير هيّابة ذي قرى ظاهره
تصرّف اقلامه بالكلام كما الريح بالمزنة الماطره
ولولا المضاء بلا نبوة لشبّهتها بالظبا الفاتره
فللّه درّك من ماجد محاسنه جمة وافره
ومن سيّد جامع للذكا حلو الشمائل والنادره

ذكر الخبر عن طرف جوده وسماحته وقصد الناس له

من الاصقاع البعيدة

كان المنصور رحمه الله سخيّ النفس جواد الطبع لا يبالي بما يجود به ويعطى عطاء من لا يخاف الفقر قال الفشتاليّ وكان الشيخ علم الاعلام ابو العبّاس احمد بن علىّ المنجور يقول ما عهدنا بذل المئين في الصلات الّا في ايّام الشرفاء ولا عهدنا بذل الالوف الّا في ايّام المنصور وقال في المنتقى انّ المنصور وهب ازيد من الالف كما وقع له مع الكاتب البارع ابي عبد الله محمّد بن عمر الشاويّ المعروف بالجزائريّ وكان قديم الصحبة للمعتصم واغترب معه في بلاد الجزائر مدّةً مديدةً وسنين عديدة فلمّا افضت الخلافة للمنصور سوّغه مغارم مسفيوة بمداشرها مكافاة على الهجرة الّا انّ المنصور استثنى اعشاراً لزيت فكتب له ابن عمر بابيات ليشملها العطاء فاعطاها له ايضاً فكان يبيع بها بالالاف من العين وهذه الابيات التى كتب بها اليه

ابحر الندا خير الملوك سجيّة   وافضل سلطان رقى فوق منبر
لقد سرت في الاسلام احسن سيرة   وخصّصت بالنصر العزيز الموزّر
امولاى لاحظنى بجودك انّنى   فقير نوّال من لدنك موفر
فهذا زمان الزيت قد جاء مقبلا   ولي رغبة فيه بغير تنكّر
فنها اشتعالي في الدجا وتطيّبي   ودهن طعام ثمّ منها تعطّر
لانّي بليد الطبع اشتاق ريحها   ففى الزيت يامولاي مسكى وعنبري

ومن جوده انّه اعطى للشريف الاديب ابي الفضل المعروف بابن العقّاد المكّى

نحو اربعة الاف اوقية دون الخلع والكسى التى كان يخلع عليه ايّام الاقامة ودون الكتب التى منحه وكتب له كتاباً لخاقان ملك الاتراك يولّيه خطّة القضاء باليمن فنفذ ذلك خاقان كما اشتهر وكان ابن العقّاد قدم من مكّة وافداً وقدم بأثره امام الدين الخليليّ من بيت المقدس وقدم رجل اخر من اهل المدينة المشرفة المسمّى الشريف قال في نفح الطيب لمّا اجتمع هولاء الوافدون ببابه قال له الخليليّ يوماً يا امير المؤمنين انّ المساجد الثلاثة التى يشدّ اليها الرحال شدّ اهلها اليك الرحال هذا مكّيّ وذلك مدنيّ وانا مقدّسيّ ثمّ انشد

انّ امير المؤمنين احمد بحر الندا وفضله لا يجحد
فطيبة ومكّة واهلها والمسجد الاقصى بذاك يشهد

قال في المنتقى فلمّا بلغ الى قوله فطيبة ومكّة اشار بيده الى كلّ واحد من صاحبيه الذين معه ولمّا بلغ الى قوله والمسجد الاقصى اشار بيده الى نفسه ثمّ قال نصرك الله لم يتّفق لملك قصدت ايالته فتبسّم لذلك ايّده الله واجزل لهم في العطايا واجراء النفقة عليهم كما هو دابه بكلّ وافد عليه من ايّ بلد كان فهمّته دائماً طالبة للعلو توّاخة للسمو . قال ابو زيد في فوائده امام الدين الخليليّ ابن الفقيه المعمّر ابي عبد الله محمّد بن يوسف البطايحيّ المقدّسيّ الشافعيّ امام مسجد الخليل وهو الذي جال في البلاد ولقى المشايخ بمكّة والمدينة ومصر والشام انتقل للقسطنطنيّة فسكنها مدّة ومنها وفد على المنصور بالمغرب ونزل مرّاكش وتارودانت وتوفّى في بعض مقدماته من تارودانت لمرّاكش بالطريق مقتولاً سنة تسع وتسعين وتسعماية رحمة الله عليه ومن شعره

هو والله عفيف نزه وله عرض مصون ما اثّلم
وخبير بمدارات الورى ومدارات الورى امر مهمّ

وقوله

احقّ بالصفع في الدنيا ثمانية　　لا لوم في واحد منها اذا صفعا
المستخفّ بسلطان له خطر　　وداخل في حديث الاثنين مندفعا
ومتحف بحديث غير سامعه　　وداخل الدار تطفيلا بغير دعا
وطالب الخير ممّن لاخلاق له　　وجالس مجلس عن قدره ارتفعا
وطالب الرفق من اعدائه وكذا　　ضيف تامّر فاحفظها اخى لمعا

اشار بذلك لما قراته في كتاب بستان الادب قال ثمانية ان اهينوا فلا يلوموا الّا انفسهم من اتى مائدة لم يدع اليها والموتمر على صاحب البيت والداخل بين اثنين في حديث لم يدخلاه فيه والمستخفّ بالسلطان والجالس في مجلس ليس له باهل والمقبل بحديثه على من لا يسمعه منه وطالب الرفق من اعدائه وراجى الفضل من اللئام . ومن مفادات امام الدين الخليلىّ ايضاً قال رفع شيخنا مفتى المسلمين بالديار المقدّسيّة شمس الدين محمّد بن ابي اللطف سوالاً نظما وهو

ماذا تقول يا امام عصره　　يا فائقاً بالعلم اهل دهره
انت الذي قد حزت فضلاً وافرا　　وفاح مسك عطره من نشره
هل لبس السروال طه المصطفى　　وهل يسنّ لبسه لستره
ام لا وعجّل بالجواب سيّدي　　بسرعة تحظى بطول اجره

فاجابه رضى الله عنه بما نصّه

من بعد حمد الله تلو شكره　　على جزيل فضله وبرّه
مصلّياً على رسوله الذي　　ارسله بنهيه وامره

اقول انّ المصطفى قد اشترى ذاك ولم يلبسه قط في عمره
كما الشمونيّ حكى ذلك في حاشية الشفا فصن عن نكره
قالوا وما فى الهدى من لباسها فذاك سبق فلمَ لم يدره
ولبسه سنّة ابراهيم لا باس به فالبس لاجل ستره
حرّر هذا ابن ابي اللطف اسمه محمّد معترفاً بفقره
حامداً الله مصلّياً على نبيّه مستغفراً من وزره

وابن العقّاد المذكور هو القائل فى مدح المنصور معارضاً موشّحة ابن سهل وهو هذا قوله

ليت شعري هل اروّى ذا الظما من لمى ذاك الثغير الالعس
وترى عيناي ربّات الحمى لاهيات بقدود ميس
يدخلون السلم في دار اللوى كلح الهجر فؤادي واسر
هدّ من ركن اصطباري والقوى مبدلاً اجفان نومى بالسهر
حين عزّ الوصل عن دار طوى هلّ عيناي بدمع كالمطر
فعساكم ان تجودوا كرما بلقاكم في سواد الحندس
وتداووا قلب صبّ مغرما من جراحات العيون النفس
كلّما جنّ ظلام الغسق هزّني الشوق اليكم شغفا
واعتراني من جفاكم قلقى قد تذكّرت جياداً والصفا
وتناهت لوعتى من حرقى ثمّ زاد الوجد بي التلفا
فانعموا لي ثم جودوا لي بما يطف نيران الجوى ذي القبس
شاعة لي من رضاكم مغنما ومداوي جنّتى مع نفس
كنت قبل اليوم في لهو وتيه مع احبابي بسلع اللعب
ومعى ظبي فاحدى وجنتيه مشرق الشمس واخرى مغرب

فرماني بسهام من يديه ضربَ القلب بقلب متعب
لست أرجو للقاكم سلما غير مدحى للامام الارئس
احمد المحمود حقّاً من سما الشريف بن الشريف الكيس

ومن جوده رحمه الله انّه كان يبعث للسادات البكريّين بمصر محمّد ابن القطب الكبير ابي الحسن البكريّ مكاتبات تشاكل قطع الرياض وتحاكى بسحرها سحر الحدق المراض ومن نظم البكريّ المذكور في بعض رسالاته التى كان يبعث بها لابي العبّاس المنصور ما نصّه

ولمّا نايتم ولم استطع السير لحضرتكم بالقدم
سعيت اليكم برجل الرسول وخاطبتكم بلسان القلم

وذكر صاحب الفوائد انّ هذين البيتين كتب بهما المنصور لملك العجم فاجابه ببيتين وهما

فان زرتم وتفضلتم وشرفتمونا بنقل القدم
فليس بعار ولا منقص دخول الموالي بيوت الخدم

ذكر الخبر عن قراءته وعلومه واستجازته

لمحفوظه ومفهومه

قال ابن القاضى كان المنصور رحمه الله خبيراً بالعلوم متضلّعاً بالفنون من شعر وتاريخ وسير ونحو ولغة وبيان ومنطق وتفسير وحديث وحساب وفرائض

وهندسة وجبر ومقابلة وتعديل السيارة وله رواية في الحديث وقال الفشتاليّ بدا قراءته القران على معلّم اولاد الملوك في الدولتين الاستاذ ابي عبد الله محمد بن يوسف الدرعىّ ثمّ قرا بعده على الفقيه الاصوليّ ابي الربيع سليمان بن ابراهيم ثمّ بدا الرسالة على الفقيه ابي عمران موسى الردانيّ وقراها ايضاً سرداً ودراية على ابي العبّاس المنجور وعلى ابي فارس عبد العزيز بن ابراهيم وقرا ايضاً علم الحساب واخذ ايضاً علم العربيّة على نحويّ زمانه ابي العبّاس احمد القدومىّ صاحب الحواشى على المراديّ واخذ اصول الدين على الامام ابي العبّاس احمد المنجور وسمع عليه مولّفات السنوسىّ وحاشيته على الكبري وشرحه الكبير والصغير على ملخص المقاصد لابن زكريّ وسمع عليه الخزرجيّة مرّتين ومختصر السعد على التلخيص وسمع عليه ايضاً كافية ابن الحاجب في النحو والشمسيّة في المنطق وجمع الجوامع لابن السبكيّ واجازه فى كلّ ما تضمّنته فهرسته حسبما ذلك فى اوّلها واخذ الفقه عن الحميديّ والمنجور واخذ الكتب الخمسة عن وليّ الله سيّدي رضوان بن عبد الله وعن الرجل الصالح سيّدي محمّد بن علىّ عن العلقمىّ عن الامام السيوطىّ وحضر ايضاً عند الامام مفتى المغرب سيّدي شقرون بن هبة الله الوهرانيّ التلمسانيّ فى مجالس عديدة من التفسير والفقه والنحو والكلام واخذ عن الامام الصدر مفتى فاس ابي زكرياء يحيي السراج ورزقه الله من الفهم الثاقب ما لم يكن لغيره حتّى انّه فهم كتاب اقليدس في الهندسة بغير استاذ لعدم وجوده في المغرب فكان كلّ يوم يفكّ شكلاً من اشكاله وله ايضاً بعض معرفة بعلم التعديل والهيئة قال الفشتاليّ ونقلت مقرواته المذكورة من ورقة بخطّه ورايت بخطّ الشيخ القصّار ما صورته وقلت لمّا اجاز سيّدي رضوان بن عبد الله الجنوي امير المومنين السلطان ابا العبّاس المنصور ما نصّه

روى البخاريّ امير المؤمنين   الحسنىّ المنصور ذو الفتح المبين

عن الوليّ سيّدي رضوان   عن سيّدى سفيان السفيان
عن زكرياء عن ابن حجر   عن التنوخيّ عن الحجارى
عن الزبيريّ عن ابي الوقت عن   الداوديّ عن السرخسيّ الفطن
عن الفزريّ عن البخارى   ومسلماً لزكريّا الغمارى
عن زركشيّ عن البيان المسند   عن العساكريّ عن المؤيّد
عن الفراويّ مسند الوجود   من عبد غافر عن الجلودى
عن ابن سفيان الوليّ عن مسلم   ابقاه ربّنا لحوط المسلم

ومن اعتنائه رحمه الله انّه بعث لعلماء مصر يستجيزهم رغبة في اتّصال حبل السند واقتفاء لاحق ذلك الطريق الاسعد وممّن اجازه الامام البكريّ المتقدّم ومن بعض فصول اجازته قوله يمدح كتاب المنصور اليه يثنى عليه بالفصاحة فقال ولقد وصل اليّ المثال العديم المثال المزرى نظامه بعقود اللئال فاذا به السحر الاّ انّه الحلال ولو ادّعى احد انّ من معجزات احمد صلّى الله عليه وسلّم ان يمدّ الله كراماً كاتبين في زمان نجله امير المؤمنين الامام احمد بكتاب كريم على اسلوب قويم يرسله الى محبّ قديم من النبعة والتصميم لم تكذب دعواه فما من خارق في امّته الاّ وهو من معجزاته صلّى الله عليه وسلّم وعلى علاه واما ما شرفني به من طلب الاجازة فالبيت والحديث لم يساوِ وهو فى اوجه هذه الرتبة الرفيعة المنزلة ولاكن ربّ اباً ارسل الى ابنه على يد عبده عطاء فنقله واليه بامره حمله وحيث وقع الامر فامر مولانا حتم وطاعته غنم فمولانا مجاز من هذا العهد بجميع ما يجوز لهذا العبد وعنه روايته بشرطه المعتبر عند اهل الاثر والنظر وكذلك مجاز اهل العصر اجازة عام بعام ليكون ابناء الوقت جميعاً على مائدة فضل مولانا وتحت ظلال ذلك الانعام فانّه هو السبب في تحصيل ذلك المرام وكتب تحريراً في رابع ربيع الثاني عام اثنين وسبعين وتسعماية محمّد بن ابي الحسن الصديقيّ سبط آل الحسن . وكفى المنصور شرفاً مخاطبة

هذا الامام الجليل وشهادته له بشرفه وقد كان سيّدي محمّد البكريّ من اهل الفيض والعرفان قال شيخ شيوخنا ابو سالم في كتابه تحفة الاخلاّء باسناد الاجلاّء نقلت بخطّ الامام ابي العبّاس احمد ادفال السوسانيّ انّ العارف بالله الشيخ زين العابدين محمّد البكريّ تكلّم على نقطة باء البسملة في الفى مجلس ومابة مجلس . توفّي رحمه الله سنة اربع وتسعين وتسعماية قاله ابن القاضى في لقط الفوائد وممّن استجازه المنصور ايضاً من علماء مصر الامام العلاّمة بدر الدين القرافيّ من ذرّيّة الامام ابي جمرة رضى الله عنه فاجازه باجازة عامّة بسط فيها القول وتركناها قصد الاختصار لاكنّه ختمها بابيات حسنة اذكرها هنا دليلاً عليها وهى هذه

اجزت لمن تفضّل واستجازا ... وبادر لاقتنا خير وحازا
وابرز فى سلوك العلم حالا ... به من فضل مولانا يجازا
امام كامل عدل البرايا ... امير المؤمنين حوى فجازا
وذلك بعد تشريفى بامر ... وقصد للاجازة واستجازا
فبادرت امتثالاً قدر وسعى ... ومقتفياً مناهج من اجازا
وقد ابديت حقّاً لا محالا ... به صار الامام به مجازا
بفاتحة وسنّة خير هدى ... وسلسلة لمن حاز امتيازا
بدار الهجرة العليا امام ... لما ابداه من فضل فحازا
وارجو منه يبذل لى دعاه ... بما ارجوه من خير مجازا
بخاتمة تبلّغنى مراما ... بجنّات اراها لي مفازا
واشياخى يبلّغهم رضاه ... ويوصلهم الى خير تجازا

وعلى ما ذكره الفشتاليّ انّه كانت له خبرة بعلم الهيئة فرايت في كتاب الفوائد الجمّة ما صورته انّ المنصور كانت له معرفة بعلم النجوم فنظر مرّة في النجوم

فراى جيوشاً هائلةً افزعته وظنّ انّ ثائراً يثور عليه فتحيّر لذلك واخبر به صاحب سرّه الفقيه الامام الامين ابا الحسن علىّ بن سليمان التاملىّ فقال له ابو الحسن ليس بوقتنا هذا من له الباع المديد في ذلك الفنّ سوى الشيخ الفقيه ابي زيد عبد الرحمن بن عمر البعقيلىّ فامره المنصور ان يكاتبه في ذلك فارسل ابو الحسن لاخيه ابي بكر سليمان يساله عن ذلك وكان ابو بكر يتعلّم على ابي زيد فساله فقال له تلك جيوش الجراد ما لها تعداد فكتب للمنصور بذلك فلم تمض الّا ايّاماً يسيرةً فجاء جراد طبق المغرب وكان المنصور رحمه الله جمّ الفوائد حسن المذاكرة حلو المحاضرة مشاركاً في الفنون كلّها واذا قرئ بين يديه البخاريّ او غيره صدرت منه ابحاث رائقة واعتراضات فائقة لا يمكن التفصّى منها ولا الجواب عنها وكان القضاة ربّما توقّفوا في النوازل الصعبة فيرجعون اليه فيها وكم مرّة ردّ احكام القضاة بعد انبرامها واطلعهم على وجه فسادها وكان محبّاً في العلماء متنافساً في صحبتهم موثراً لمجالستهم لا يفارقهم حضراً ولا سفراً ويحكى انّه سافر مرّة لتارودانت ومعه جماعة من اعيان العلماء كالقاضى الحميديّ والمنجور وغيرهما فخيّم بباب تارودانت وضرب الناس اخبيتهم فمرّ رجل عليه اطمار بالية وهيئة رثّة فوطئ على حبل من حبال خباء القاضى الحميديّ فصاح عليه الحميديّ من هذه البقرة التى خوّضت على خيمتى مستحقراً بالرجل فجاء ذلك الرجل فقال له البقرة هو الذي لا يجيب عن هذه المسائل والقى اليه قرطاساً مكتوباً فيه هذه الابيات الستّة ونصّها

الى علمك العالي مسائل ترتقى … تيقّظ لهنّ يا حميديّ واصدق
فما الحكم فى الاوزاغ هل ساغ اكلها … وما الحكم فى موتى المجانين فانطق
وهل جاز للمسبوق بعد تشهّد … دعاه اذا ما رام اكمال ما بقى
وما وزن ليس لي حبيب واصله … وما جمع قلّة لصاع فحقّق
وما وزنه شمّر ولاتَنِ واتنا … بجمع سواء والمقيّد اطلق

وبيّن لنا ما في اعوذ بربّنا	من ابليس والتخميس فى الكلّ فاتّق

فتوقّف القاضى الحميديّ عن الجواب فرفعت القضيّة للمنصور رحمه الله فاستغربها وقال هذا رجل من اهل البادية قضح قاضى قضاة الحاضرة وامر المنجور فاجاب عنها فقال

جوابك في الاولى اباحة اكلها	لمذهبنا فاجزم بذاك وصدّق
كذا ابن حبيب في الخشاش اباحه	لمحتاجه مثل العقارب فاسبق
وقد قيل فى الاوزاغ يحرم اكلها	وذلك فى الكافى ليوسف فارتق
ومقتذر يحكى المخالف منعه	وانكره الشبيه فافهم ودقّق
ورجّح ما يحكى المخالف بعض من	له العزّ للتحقيق لا للتشرّق
وميّت مجنون جرى خلف حكمه	بعلم كلام لا تكن غير متّق
وتحقيقها انّ الجنون اذا طرا	يصير كموت فصّل الحقّ فاعبق
فآونة بعد البلوغ طروه	وحينا يرى قبل البلوغ فطبّق
وآونة اثر الصلاح وقوعه	وحينا بعصيان الكبيرة يلتق
وحينا يدوم للممات وتارة	يفيق فخذ حكم الجميع ووثّق
ويندب للمسبوق دعوى تشهّد	وفاق امام فى الملاحة فارتق
وليس له فعل كقال واصله	بكسر لياء فاكسر العين ترتق
وجمعك صاع فى القليل باصوع	واصوع بهمز الواو انهج ونمّق
وان شئت فاقلبه ويرجع آصعا	لضابط تصريف فالعلم شوّق
وصاع كعام عينه فرع ضمّة	وتحريكه فتح فزنه وحقّق
ومقصود من فى العوذ من لغاية	فابليس مبدا العوذ عند الموفّق
وجمع سواء فالذى منه جامد	باسوية علم يقاس ففرّق
ومشتقّة وزن الخطايا قياسه	سواءية نقل فبالصرع فانطق

ذكر جملة من تاليفه البهية ولمع

من غرر ابياته الشعريّة

قال الفشتاليّ الّف المنصور عدّة تاليف كلّها حسنة تدلّ على براعته وسعادة قلمه فمن ذلك كتاب السياسة ونصّ خطبته نحمدك اللهمّ على ما انلت من رياسة وعلّمت من سياسة ووهبت من ملك ونظمت من سلك وكففت من اعداء وهديت من اراء ونصلّى على مبلغ انبائك وخاتم انبيائك المويّد باهل ارضك وسمائك من به اقمت على خلقك الحجّة وبلسانه الصادق نهجت لهم في اتباعها المحجّة صلاة تكون منّا كفاء وبمجده السامى وفاء وبعد فلنا حاجة في تكميل انفسنا في قواها البشريّة باستعمالها في حقايق المعلومات العمليّة والنظريّة وعلوم الحكمة العلميّة اولى بنا لما نحن فيه واعون على ما نجلبه لهذا الامر العلويّ الفاطمىّ او نقتفيه فلنصرف اوّلاً عنان القول اليها ولنجلب بالخيل والرجل في ميدان هذه الطروس عليها ومن الله نستمدّ وعلى عونه جلّ وعزّ نعتمد وهو حسبي ونعم الوكيل ولا حول ولا قوّة الاّ بالله العلىّ العظيم الجليل . ومن تاليفه ايضاً كتاب الادعية فيما يقال في العبادات وسائر الحركات والسكنات والمساء والصباح قال الفشتاليّ وكان عازماً على جمع اشعار الشرفاء من اهل البيت وتفرّدها . واﻣّا ما جمع من التقاييد المتفرّقة فكثيرة فمن ذلك حاشية على التفسير تكلّم فيها مع الزمخشاريّ وغيره جمعها قائده ابو الحسن علىّ بن منصور الشياظمىّ وكان المنصور حريصاً على التاليف يامر الفقهاء بالتقييد فامر الفقيه الصدر العلاّمة سيّدي محمّد بن عبدليّ الرجراجيّ ان يجمع بين تقييد الامام المسيلىّ وتقييد السلاويّ عن شيخهما ابن عرفة في التفسير ففعل ذلك وامر الامام المنجور بشرح الفيّة ابن مالك شرحاً يجمع

ما تفرّق في الشروح والحواشي بحيث يغني عن سائر ما قيّد عليها ففعل فجاء في مجلّدين ضخمين وامره بشرح ماخص المقاصد قال الفشتالي وممّا تيّس به تهيّأً وعجباً خزانته عن سائر الخزائن الملوكيّة تآليف الفاضل العلّامة الرّحال ابو جمعة سعيد بن مسعود الماغوسيّ التى منها شرح لاميّة العجم املاه بالمشرق وعليه تغويط علمائه ومنها شرح لاميّة العرب املاه بعضه اوكلّه بالمشرق وهدبه بالمغرب وخدم به المنصور وله شرح على درر السمط في اخبار ابن الابّار . وقال في درّة الحجال في حقّ الماغوسيّ المذكور فقيه اديب له تاليف الى ان قال وله رحلة الى المشرق وادى فريضة الحجّ واخذ هنالك عمّن لقى من اهل مصر والشام والحجاز والقسطنطنية وغيرهم وله فيما اظنّ مشيخة قيّد اسماءهم وما سمع منهم ولد بعد الخمسين في غالب الظنّ وتسعماية وهو من اهل العصر وله خطّ رائق ومشاركة في العلوم وفهم ثاقب . وكانت للمنصور عناية تامّة باقتناء الكتب والتنافس في جمعها من كلّ جهة فجمع من غريب الدفاتر ما لم تكن لمن قبله ولا يتهيّا لمن بعده مثله وجلّ كتبه طالعه كلّاً ووقّف عليه بخطّه ونبّه على الغامض وشرح الغريب وامّا نظمه فالسحر الحلال وارقّ من الماء الزلال لتكامل محاسنه وتكاثر بدائعه وها انا اثبت منه قطعاً واجلو عليك منه لمعاً فمن ذلك قوله في وردة مقلوبة بين يدي محبوبة له وهى اوّل ما قال فاجاد واحسن في المقال

ووردة شفعت لي عند مرتهنى   راقت وقد سحرت بفاتر الحدق
كانّ خضرتها من فوق حمرتها   خال على خدّه من عنبر عبق

وقال ايضا

من عنبر الشحر او مسك دارين   بلى ومنه نسيمات الرياحين
مهفهف ان تثنّى قلت مقتضب   من قضب نعمان او من كبت تبرين

ذنبي اليـه ولا ذنـب محـبّتـه   من اجلهـا بسهام اللحظ يرمين
يا مـا اميلحـة ظلمـاً رضيت به   لو انّه دام مـنـه كانّ يكـفـين
معذّبي مذ حـرمت النـوم بعدكم   فامـنن عليّ بنـوم غير مفتون
وامض على ورد ذاك الخدّ بزق فم   يعـوّض الخـدّ من ورد بنسرين

وقد وقفت على شرح هذه الابيات في نحو كرّاسين اشتمل على ما فيهـا من المحسنـات البديعيّـة والنكت الغريبة والملح الادبيّة ويقـال انّ ذلك الشرح للسيّد الحسين الزيّاتيّ رحمه الله تعالى وقال ايضاً

رقيبي كانّ الارضِ مرءات شخصه   فاين تولّى الـطرف مـنّي يراه
مقيم بوجـه الوصل حتّى كانّما   وصـالي هـلال والسواد صراه

وقال ايضاً

ايا روضة ضمّت عليّ بزهرهـا   ولم يتـلوّ ناظـراى سـواك
ايحي لنفسى من شذاك بقاءها   اذا فتّ طرفى علّ انى يراك

وقال ايضاً

على جدول غطت عليّ بشعرهـا   لئلّا يرى الشمس الرقيبة اطرف
فبتّ ارى في جدولي بدر وجهها   غريقـاً ونقطـة العبير به كلف

وقال ايضاً

وكيف لقلب في هواه مقلب   وانّى له بين الضـلوع مقـام
فيا شادناً مرعى الحشو انت في   الحشا ام بمحل انت فيه دمام

وقال ايضاً وهو من التجنيس المركّب

طرقت حماه والاسود خوادر　　به فتولّى في الظبا وهو بعيد
فعلّمت اساد الثرى كيف تقدم　　وعلّمت غزلان النقا كيف تشرد

وقال ايضاً

تبدّى وزند الشوق يقدحه النوى　　فتوقـد انفـاسى لظـاه وتضرم
فهشّ لتوديعى فاعرضت مشفقـا　　عـلى كبد حـرّ وقـلب يسقـم
ولولا ثواه بالحـشـا لاهنتهـا　　ولاكنّهـا تصبي اليـه فـتكرم
فاعجب لاساد الثرى كيف احجمت　　على انّه ظـبي الكـنـاس يقدم

وقال ايضاً

لمّا نای المحبوب رقّ لي الدجا　　واتى يعلّلنى برعى كواكبـه
. اولى غراب البين ودّك ياحشا　　البين يرمى للصباح كواكب به

وقال ايضاً

انّ يومـاً لنـاظري قد تبدّى　　فـتمـلاّ من حسنـه تكميـلا
قال جـفنى لـصنوه لا تـلاقى　　انّ بينى وبـين لـقيـاك ميـلا

قال في نفح الطيب وقد تبـارى خدّام حضرة المنصور في تخميس إهذين البيتين ومن اشهر ذلك قول الاستاذ الامام الحافظ الاديب البليغ الفصيح ابي العبّاس احمد الزمّوريّ رحمه الله

ورقـيب يردّد اللـحـظ ردّا　　ليس يرضى سوى ازديادي بعدا

ساءه الطرف مد جنا الخد وردا   انّ يوماً لناظري قد تبدّا
فتملّا من حسنه تكميلا
وتصدّى من حسنه في استباق   يمنع الحظّ من جنى واعتناق
انس اللحظ من لحاظ ايتلاف   قال جفنى لصنوه لا تلاق
ان بينى وبين لقياك ميلا

وقال ايضاً في جارية من حظاياه الرفيعة اسمها آمنة

شادن نمّ عليه عرفه   من خلاصى لسهام كامنه
احلال لي قلب خائف   وغزالي بعد خوفي آمنه

وقال ايضاً

لقد اتى صارماً صقيلا   ولم يرث ذلك من بعيد
شديد باس متى يعادى   وشدّة الباس في الحديد

وقد ردّ بها رحمه الله على من قال في ابن الحديد

هذا اتى بارداً ثقيلا   ولم يرث ذلك من بعيد
فهو كما قيل فيه شيء   اشهر ما كان في الحديد

وقال ايضاً في طريق التعمية في اسم سلاف

واحور سنان الجفون كانّما   لحظه من ريق فاه بقرقف
مضى صارماً لا فلّ صارم لحظه   تزايد منه مذ سُلّ تلاه ف

وقال يضاً

هذب الجفون بصحن خدّك سجّلت ولدى الهوى رَكّتهم عيناك
فقضى الهوى جوراً بسكري زوّروا شهدت لهم انّي على مضناك

وقال ايضاً

بستان حسنك ابدعت زهراته ولكم نهيت الحسن فيه فما انتهى
وقوام غصنك بالمسرّة يثني يا حسنه رمانه للمشتهى

وقال ايضاً

افنى بها البستان صنوك روضة يقضى بها لمّا مطلت وعودا
اهو البهار محاجر اواتى بها في وقته كى ما تكون خدودا
فبعثتها مرتادة بنسيمها تثنى من الروض النضير قدودا

وقال ايضاً

لي حبيب ياتي بكلّ غريب هو عندي منكر ومعرّف
لست اشكو الصيرفيّ ونحوى انه لي نمى وفيّ تصرّف
فعله فيّ لازم متعدّ ومزيد مجرّد ومضعّف

وقال ايضاً

تحالفت منه عيناه الى سبب كان اتّفاقهما به على عطبي
محرمه العين تقصيني وتدلّسنى واللحظ يطمعنى فيه ويسخر بي
اشكو نهاى وشوقى وافتراقهما في امره وكلا ذا زاد في تعبي
ان طعت ذاك فمن لي فاشى ارب اوطعت هذا فمن لي فاشى حسب

وقال ايضاً

لا وطرف سلب السيف فقد　　في قوام كغنى الحظى نهد
ووميض لاح لمّا ابتسمت　　فارتنا منه درّا وبرد
ما هلال الافق الاّ حاسدا　　منها حسناً وبهاء وغيد
ولذا عاش قليلاً ناحلا　　كيف لا يفنى نحولاً من حسد

وقد عارض رحمه لله بهذه الابيات ابيات الشيخ الاديب الامام الخليلىّ المتقدّم الذكر وهى قوله

لا وفرع كدجى الليل غسق　　وجبين ضوءه ضوء الفلق
ومحيّا كلف البدر به　　وخدود نورها نور الشفق
ما غزال الخيف الاّ حاسدا　　منه جيداً والتفاتاً وحدق
ثمّ خافت فتولّت شردا　　كيف لا يشرد خوفاً من سرق

وقال ايضاً في حظيته الشهيرة نسيم صاحبة قبّة النسيم مغمياً

يا هلالاً طلوعه بين حجبي　　وغزالاً كناسه بين جنبي
انّ سهماً رميت غادرهما　　لو تناهى ما شك اخر قلبي

وكتب على هذين البيتين بخطّه الشريف ما صورته قولي انّ سهماً تنصيص وغادرهما اسقاط وهو اشارة لاسقاطها من هذا الاسم وقولي وتناهى انتقاد والانتقاد الاشارة الى بعض اجزاء الكلمة ليوخذ الاسم المطلوب كان يذكر الوجه او الصدر او التاج او الراس ويعنى به الحرف الاوّل من الكلمة او القلب والجوف والحشا والخصر ويراد به الوسط والاخر والمنتهى والختام ويقصد به اخر الكلمة فقولي لوتناهى معناه انّه لو اخذ لفظة هم غير مثناة

فبقيت الميم من هما وقولي ما شك اخر قلبي انتقاد ايضاً واردت باخر قلبي الياء ويسمّى ايضاً التعمية وهو ان تذكر الاسم وتريد المسمّى او تذكر المسمّى وتريد الاسم واعلم انّهم لا يشترطون في استخراج التسمية بطريق التعمية حصولها بحركاتها وسكناتها بل اكتفوا بحصول الكلمة من غير ملاحظة لهيئاتها الخاصّة فاذا وقع ذلك في الشعر فيكون عندهم من المحسنات ويسمّى العمل التذييليّ انتهى كلامه على البيتين وقال ايضاً في اسم غزال وهو ما جمع بين تعمية ولغز

املد مطوى الحشا زال ردفه فلا خصر الّا ان تصورته وهما
بنصف اسمه يري القلوب وعكس ما بقى ابدا اذن المحب به صما

وكتب عليهما ما نصّه فقولي املد اردت به بعمل الترادف غصن ومطوى الحشا انتقاد وزال ردفه قضيت به غرضين ازلت به النوى بعمل الاسقاط الباقى من غصن بعد طى الصاد التى بوسطه واثبته بموضعه بعمل الانتقاد واوضحت ذلك بقولي فلا خصر وان كنت لا احتاج اليه لئلّا يكون في البيت شئ خارج عن التعمية . وقال في اسم امنة ايضاً في العمل التذييليّ

من شقاءي قنصته وهو خشف في رضاه عن الملوك ابتذلت
املد منه قد تخلّل خصر وتثّى عن حبّه ما عدلت

وكتب عليهما ما صورته فقولي املد اردت به عمل التشبيه وتخلّل خصر منه انتقاد واردت بالخصر وسط لفظة منه وتخلّله ان يخل السكون الذي على النون وقولي وتثى من التثنية لا من التثنى فتمّ الاسم بحركاته وعدده وهو من عمل التذييليّ وذلك ان ياتي بالكلمة بحركاتها وسكناتها وهو من المحسنات كما سبق . وقال ايضاً في اللباس المسمّى بالمنصوريّة قال ابن القاضى في المنتق

المنصوريّة لبس من ملف لم يكن مستعملاً قبله وهو اوّل من اخترعه واضيف اليه فقيل المنصوريّة فقال فيها وكان لباسه من الملف المسمّى بقلب حجر ما نصّه

وصفوا اشتياقى للحبيب وسرّهم　　قول الحبيب انا انا فيه
قلبي له حجر فقلت مغالطا　　للعاذل الموذي انا انا فيه

وكتب عليهما بخطّه الشريف ما صورته في هذين البيتين عدّة من المحسنات غير التعمية منها جناس التورية التركيبيّة المسمّى عندهم بالملفق وحدّه بان يكون كلّ من الركنين مركّباً من كلمتين وهذا هو الفرق بينه وبين المركّب وقلّ من يفرق بينهما ومنها الانسجام ومنها الاستخدام وعهدي بالفقيه ابي الحسن علىّ بن منصور الشياظمىّ تعرّض الى شرحها بكرّاسة والتعمية في هذين البيتين بالعمل الحسابيّ كثير الّا انّ هذا العمل احسبنى ابا عذرته اذ لم اره لغيري ومادة التعمية انا انا فيه قلبي له حجر فقولي انا انا فيه معناه ان تضرب انا فى ه وقولي فيه نصّ في الضرب ويخرج من هذا مايتان وستّون عدد حروف هيماني وحقّك فيه وقولي قلبي له حجر بعمل القلب يصير رجح فصار المجموع هيماني وحقّك رجح وفيه التورية وهيماني وحقك الخارج من هذا الضرب فيه تهكم بالواشى وهو من المحسنات ايضاً اعنى قوله له وحقّك وتصلح ان تسمّى هذه التعمية بالافتنان لانّ الافتنان عندهم ان يتفنّن الشاعر فياتي بفنّين متضادّين من فنون الشعر في بيت واحد وهذا وقع التضادّ فيه في كلمة واحدة فظاهر انا انا فيه يضادّ هيماني وحقّك رجح الذي يخرج بطريق الحساب فافهمه ويمكن استخدام تعمية اخرى من قولي للحاسد الموذي انا انا فيه . قال في نفح الطيب والاستخدام الذى اشار اليه هو قوله انا فيه اي في هذا الثوب المسمّى بقلب حجر كما دلّت عليه الحكاية واما المعنى الثاني لقوله انا فيه فظاهره . قال الفشتاليّ وقد رفعت الى جلاله العلىّ مرّة رقعة اشكو لفضله

الجليّ بعض مـا اهمّنى من امور دنيـاى فبرز لي توقيعه ايّده الله ببيتين من نظمه الباري

يا كاتبـاً اذا كـتب غرس روضاً ذا فنن
انّ جـوابي للـذي يشكو دناه اردد حزن

قال الفشتاليّ واذا تاملّت هذا التوقيع وجدت بيتيه عامرين بمحاسن جمّة امّا اوّلاً فلدلالتها على شرف القائل فانّ كلّ من له ذوق سليم يفهـم انّ هذه نفس ذي عزّة وسلطـان وهمّة وعلوّ شـان من شانه ان يشكى اليـه وتعرّض قلاص الامال لديه لمـا تدلّ عليه قرينة انّ جوابي للذي يشكو دناه من العظمة والجلالة والعزّ العريف الاصـالة وامّا ثانياً فلمّا افاده قوله له اردد حزن من مواجهة الشاكى بالمواساة والتسلية وهذا هو الشان في الشكوى الى ذي مروءة فكيف بسبط النبوءة وامّـا ثالثاً فلمـا يدلّ عليه مجموع البيت الثاني من كرم قائله لكلّ من يشكو اليه الدنا كائناً من كان يردّ الحزن عليه ودفع الهـمّ عن ساحته بالمرادف الذى هو درهم الملغز فيه وما كفاه ايّده الله ذلك حتّى اكد الوعد بالاداب الدالّة على تحقيق الحصول على الامنية وتمام البغية الهنية وبيّان الرمز الذى رمز له ايّده الله بشعار التورية المركّبة في الاصل انّ قوله اردد يرادف در حكاية لقول العـامّة وحزن يرادف همّ فحصلت التورية المركّبة في درهم برمّته وفي در وهم مفككين وهذا من السحر الحلال ونكتة الدرهم لا يهتدى لصوغها الّا من صاغ الله جوهره النفيس من اطيب المعادن واشرف العناصر ولنقتصر على هذا القدر من بنـات افكار المنصور ومحاسنه في هذا الباب كثيرة فتتبّعها يردّ العقل وهو حسير وفي هذا الباب دليل تمهّد الرجل وتضلّعه بالفنون رحمة الله عليه

ذكر احتفال المنصور بالمولد النبوىّ

واعتنائه بالاعياد على السنن السنّىّ

قال الفشتاليّ كان ترتيبه في الاحتفال بالمولد النبوىّ اذا طلعت طلائع ربيع الاوّل صرّف الرقاع الى الفقراء ارباب الذكر على رسم الصوفيّة من المؤذّنين المتعارين فى الاسحار بالاذان فياتون من كلّ جهة ويحشرون اليه من سائر حواضر المغرب ثمّ يامر الشمّاعين بتطريز الشموع واتقان صنعتها فيتبارى بذلك مهرة الشمّاعين كما يتبارى النحل فى نسيج اشكالها لطفاً وادماجاً فيصوغون انواعاً من الشموع التى تحيّر الناظر ولا تزيل زهورها النواظر فاذا كان ليلة المولد النبوىّ تهيّا لحملها وزفاف كواعبها الحمّالون المحترفون لحمل خدور العرائس عند الزفاف فيتزيّنون ويكون في اجمل شارة واحسن منظر ويجتمع الناس من اطراف المدينة لرءيتها فيمكثون حيث يسكن حرّ الظهيرة وتجنح الشمس للغروب فيخرجون بها على رءوسهم كالعذارى يرفلن في حلل الحسن وهى عدد كثير كالنخيل فيتسابق الناس لرويتها وتمتدّ لها الاعناق وتتبرج ذوات الخدور وتتبعها الاطبال والابواق من اصحاب المعارف والملاهى حتّى تستوي على منصّات معدّات لها بالايوان الشريف فتعطف هنالك فاذا طلع الفجر خرج فصلّى بالناس وقعد على اريكته وعليه حلّة البياض شعار الدولة وامامه تلك الشموع المختلفة الالوان من بيض كالدُمَى وحمر حليت في ملابس ارجوان وخضر سندسيّة واستحضر من انواع الحسك والمباخر ما يدهش الناظر ويبهر الجالس ثمّ يدخل الناس افواجاً على طبقاتهم فاذا استقرّ بهم الجلوس تقدّم الواعظ فسرد جملة من فضائل النبىّ صلّى الله عليه وسلم ومعجزاته وذكر مولده وارضاعه وما وقع في ذلك باختصار فاذا فرغ اندفع

القوم في الاشعار المـولديّات فاذا فرغوا تقدّم اهل الذكر المزمزمون بكلام الششتريّ وكلام غيره مـن الصوفيّـة ويتخلّل ذلك نوبة المنشدين للبيتين فاذا فرغوا من ذلك كلّه قام الشعراء فيتقدّم قاضى الجماعة بلبل منابر الجمع والاعياد قاسم بن علىّ الشاطبيّ فينشد قصيدة يستفتحها بالتغزّل والنسيب فاذا تمّ يتخلّص لمدح النبيّ صلّى الله عليـه وسلّم ثمّ يختم بمدح المنصور والدعاء له ولوليّ عهده فاذا قضى نشيده تقدّم الامـام المفتى ابو مالك عبد الواحد بن احمد الشريف الفلاليّ فينشد قصيدته على ذلك المنوال فاذا فرغ تلاه الوزير ابو الحسن علىّ بن منصور الشيـاظميّ فاذا فـرغ تلاه الكاتب ابو فارس عبد العزيز بن محمّد بن ابراهيم الفشتـاليّ ويليه الكاتب ابو عبد الله محمّد بن علىّ الفشتـاليّ ويليه الاديب ابو عبد الله محمّد بن علىّ الهوزاليّ المعروف بالنـابغـة ويليه الفقيه الاديب ابو الحسن علىّ بن احمد المسفيويّ فاذا طوى بسـاط القصائد نشر خوان الاطعمة والموائد فيبدا بالاعيان على مراتبهـم ثمّ يوذن للمسلمين فيدخلون جملة فاذا انقضت ايّام المولد الشريف برزت صلات الشعراء على اقدارهم هكـذا كان دابه في جميع الموالد ولا يحصى مـا يفرغ فيه من انواع الاحسان على النـاس انتهى باختصـار من مناهل الصفا وقال صاحب النفحة المسكيّة في السفارة التركيّة حضرت المولد الشريف بعد القفول من بلاد الترك قال فاستدعى المنصور النـاس لايوانه السعيد واستدخلهم لقصره البديع المحتوي على قباب عالية وقد مدّ فيها ومهد من فرش الحرير وصفّة النمارق وتدلّت الاستار والكلل والحجال المخوضة بالذهب على كل قبّـة وحناية كان سرير ودار على الحيطان حيطيّات الحرير التى هى كازهار الخمائل ما رائت قط في عهد الاوائل مرفوعة الجـوانب على قواعد واسـاطين من رخام مجزع مطلية الرءوس بالذهب الذائب مفروش جلّها بالمرمر الابيض المخطّط بالسواد يخلّل ذلك ماء عذب فيدخل الناس على طبقاتهم واخذ كلّ منهم مرتبتهم من قضاة وعلماء وصلحاء ووزراء وقوّاد وكتّاب واضيـاف واجناد يخيّل لكلّ واحد

منهم انّه في جنّة النعيم والسلطـان جالس في افخر ملابسه تعلوه الهيبة والوقار وترمقه الاعين والابصار بالتعظيم والاكبار ويجلس من عادته الجلوس ويقف على راس السلطان الوصفان والعلوج وعليهم الاقبية والمناطق المدوّرة المشدودة المذهّبة والحزم المذهّبة ممّا يدهش الناظر وركزت امامهم الشموع واذن لعامّة الناس فدخلوا من اصناف القبائل على اجناسها من الاجناد والطلبة وسكنت بعد حين الجلبة واتى بانواع الطعام في القصاع المالقيّة والبلنسيّة المذهّبة والاواني التركيّة والهنديّة واتى بالطوس والابارق وصبّ الماء على ايدي الناس ونصب مباخر العنبر والعود وابرزت صحائف الفضّة والذهب واغصان الريحان الغضّ فرشّ بها من ماء الورد والزهر ما يبقى منه الاثر وتكلّم المنشدون واحسن لهم الامير ثمّ ختموا المجلس بالدعاء للسلطان واذا كان يوم السابع يكون ترتيب ابدع من الاوّل وهذه كانت سيرته دائماً . وهكـذا سيرته في شهور رمضان عند ختم صحيح البخاريّ وذلك انّه اذا دخل رمضان سرد القاضى واعيان الفقهاء كلّ يوم سفراً من صحيح البخاريّ وهى عندهم مجزاة على خمس وثلاثين سفراً في كلّ يوم سفر الى يوم العيد فاذا كان يوم سـابع العيد ختم فيه البخـاريّ وتهيّا له السلطان احسن تهيئة الّا انّ العادة الجارية عندهم في ذلك انّ القاضى يتولّى السرد بنفسه يسرد نحو الورقتين من اوّل السفر ويتفاوض مع الحاضرين في المسائل ويلقى من ظهر له بحث او توجيه مـا ظهر له ولا يزالون في المـذاكرة فاذا تعلّى النهار ختم المجلس وذهب القـاضى بالسفر فيكمله سرداً بداره ومن الغد يسرد سفراً اخر وهكـذا والسلطـان في جميع ذلك جالس قريب من حسى الحلقة قد عيّن لجلوسه موضع قال الفشتـاليّ وكان يعطى اموالاً جزيلة عند ختم القرءان في رمضـان لذوي الحـاجات ويقيم مهرجاناً عظيماً يوم عاشوراء لختان اولاد الضعفاء وكلّ من ختن منهم اعطيت لهم اذرع من الكتان الحسن وعدد من الدراهم وسهم من اللحم يعمر باقامة هذه السنّة بياض ذلك اليوم ويشمل الاحسان من ذلك ممّا لا تحصى ويعمّ الصنيع اولى الحـاجة فيحتقب

امير المؤمنين ايّده الله من قتوبة هذا اليوم المبارك المشهود بما يثقل الله به موازين اعمال برّه يوم الجزاء الموعود له وقد آن لي ان اذكر طرفاً من القصائد التى كان يمدح بها في الموالد الشريفة تتميماً للغرض قال الامام القاضى ابو القاسم بن علىّ الشاطبىّ

ما بال طيفك لا يزال اماما ... وبمنحنى الاحشا ضربت خياما
ايعيش فيك عواذلي بسهومهم ... واموت فيك صبابة وغراما
وتبيح نهرك سائلاً من ادمعى ... او ليس نهر السائلين حراما
ما ذقت ماء لماك في سنة الكرا ... الا انتهت فكانّ لي احلاما
عرّض اذا حدّثت من باب الحمى ... فحديث قلبى بالاجارع هاما
اروى حديث الرقتين مسلسلا ... عن دمع باكية الغمام سجاما
وتلقّ من حيث النسيم تحية ... اضحى الهوى برداً بها وسلاما
يا حيرة العالمين دعوة ضايق ... للذيذ عيش بالقضا لو داما
فخذوا بجرعاء الحمى قلبى فقد ... الف الاقامة بالحما فاقاما
وخذوا بثاري اهل نجد انّهم ... سلبوا الفؤاد واُدنفوا الاجساما
في كلّ غرب دموع عينى مشرق ... لكواكب فيها اثرن ظلاما
صليت بنار الشوق ثم رنت الى ... انسانها في لجّة قد عاما
وتسلسلت عبراتها شوقاً لمن ... وقفت عليه صلاتنا وسلاما
خير الانام محمّد الهادي الذي ... اردى الضلال وجبّ منه سناما
كنز العوالم سرّ طينة ادم ... ولحفظ ذاك السرّ جاء ختاما
واجلّ ارسال الانام ومن به ... قد لاذ يونس حين خاض ظلاما
وتقاصرت عن فرده اعدادهم ... فلذا تقدّم في الحساب اماما
اسرى الى السبع العلا فاستقبلت ... قدس الملائك وفده اعظاما
في ليلة غصّت باملاك السما ... فتصير خلف ركابه واماما

يا خير من بهر المعاند شانه عجزاً فغصّ بريقه الخساما
اعيا جلالك ان يحيط بوصفه وصف البليغ واخرس الاقلاما
صلّى عليه الله ما زان الحيا روضا ففتّح زهره الاكماما
ما لذّة في غير مدح مخلّص الّا بمدحى من نبيك اماما
خير الورى وامامها المنصور من في ظلّ دولته الانام اقاما
اصفى على الارضين ظلّ مهابة فحمى بها حامى العباد وساما
وسمى على الدنيا عقاب تنوفة فانقضّ يفترس الاسود جهاما
قل للملوك هبوا لمالككم فدى وخذوا لانفسكم لديه ذماما
هذا الذي يحيي البلاد بعدله ويعيدها نشراً وكل ركاما
هذا الذى وعد الالاه بانّه يطوي البلاد ويفتح الاهراما
يا مشبه المهدىّ في ارائه عزماً وفي عزماته اقداما
انت الذى ببنيه ابناء العلا ارسى البلاد ووهّد الاسلاما
فكانّهم من حولك الاشبال في غاب الوشيج تبوّأت اجاما
وامينها المامون هضب سمائها علم اقام على الهضاب سناما
واجلّ مضطلع تخيّره الورى بعد الامام فقدّموه اماما
واتاه احمد عهد امّة احمد فوفي فكان لرعيه المعتاما
لا يعدونّ النصر سيفك انّه سيف يحوط الدين والاسلاما
خذها ينمّ على العبيد مديحها ويفضّ عن مسك الختام ختاما

وقال الامام العالم العلاّمة الفقيه الاديب المحصل النجيب مفتى الحضرة المرّاكشيّة ابو مالك عبد الواحد بن احمد الشريف الفلاليّ رحمه الله تعالى ورضى عنه

ارقت وشاقتنى البروق اللوامع وذكر خليط هيّجته المرابع
مرابع فيهنّ الدوامس والسما تراق من الاشواق فيها المدامع

كانْ لم تكن من قبل قدماً واهلا … اذا السلكَ منظوم وشملى جامع
تذكّرني عهدي الاجارع واللوى … واين اللوى منّى واين الاجارع
سحبنا بها ذيل الصبابة برهة … وجفن الردى عنّا وحاشاك هاجع
وقفت بها بالسدل والليل دامس … انازعها الشكوى بها وتنازع
اسائلها عن جيرة بان حيّهم … وضمّت هواهم بعد ذلك الاضالع
فهل قدّموا نحو العقيق صدورهم … ولاح لهم برق من الجوّ لامع
يخبّر عن دار الرسول وقربها … عراص بها للوحى فاضت ينابع
يا دار بها على الحمى سيّد الورى … وهبّت على الاشراك منها زعازع
عليك صلاة الله يا خير مرسل … ويا خير من تثنى عليه الاصابع
فلولاك هذا الكون ما زال معدما … وانت الذي يرجوه عاص وطائع
لك الفخر في الدارين والموقف الذي … لاهواله كلّ النبيين جازع
فادمهم والكلّ تحت لوائكم … وليس لهم والله غيرك شافع
فجازاك ربّ العرش ما انت اهله … جزاء به يشجى المناوي المخادع
وجازى اماماً قد دعته اليكم … اصول واباء كرام فوارع
سميّك وابن السبط حقّاً ومن له … عوارف في اعناقنا وصنائع
قدم للعلا يا ابن الخلائق مفردا … اليك اشتراؤها وغيرك بائع
ودام وليّ العهد بعدك صارما … يخبّ الى نيل العلا ويسارع
هو الامن المامون من كلّ فتنة … لفيض الندا من راحتيه تدافع
ففيك اقول والنصوص شواهد … احاديث صحّت ليس فيها منازع
بكم راس هذا القرن جدّد ديننا … وفاضت بحور للعلوم دوافع

قال مؤلّفه وما اشار اليه في هذين البيتين من انّه هو المجدّد للدين في راس القرن العاشر نحوه تقدّم في صدر الكتاب عن الشيخ القصّار نظماً والحديث المشار اليه في ذلك هو ما اخرجه .... انّ الله يبعث على راس كلّ قرن

من يجدّد لهذه الامّة امر دينها وحمله بعض العلماء على انّه من السلاطين وقيل من الاولياء وقيل من العلماء وكفى بالشيخ القصّار والامام سيّدي عبد الواحد بن احمد الشريف الفلالي دليلاً على جلالة المنصور والاّ فدين الرجلين يمنعهما من التغالي والافراط في المدح بما لا يصحّ في الممدوح نعم الوصف بالعدل والشجاعة مثلاً متوسّع فيهما بين اهل الشعر وامّا مثل هذا لا يطلقه الاّ لمن علم بصحّة مستنده والله اعلم بحقيقة الحال وانظر كتاب ازهار الرياض في اخبار مناقب القاضى عياض للشيخ الحافظ ابي العبّاس احمد بن محمّد المقّري فقد شفى الغليل في مسالة المجدّد وبسط فيها القول رحمه الله وقال الوزير ابو الحسن علىّ بن منصور الشياظمىّ المرابطىّ ايضا ما نصّه

من بعد اهل قبا واهل كداء   شوقى يزيد ومثل ذلك عزاء
ولي الشفا في قربهم وهم جلا   ما في الخواطر من صدى وصداء
لاكنّه بعد المزار فاين من   تلك المعاهد ساكن الحمراء
بانوا وهاج الشوق ذكر ربوعهم   ذات السنا والرند والصباء
وشذا بهم حادي الركاب فكاد ان   نزع القلوب جسومها بفضاء
يا سعد لو انّ الزمان مساعدى   ويجيب مع ذي البعد بعض النداء
لركبت حرفاً كالهلال مناجزا   للهمز الاّ في المنادي الناءي
ولجبت احياب الفلا وطويتها   طىّ العلا بنجيبة قوداء
تختاض في جوّ الظلام كانّها   سرّ تولّج في ضمير حجاء
وتخال في لجج السراب سفينة   تجري القلاع بها بريح رجاء
فهل انزلنّ بها المحصّب من منى   وازور بعد معاهد الزوراء
فاحطّ عنها الرحل ثمّ مخيّما   في ظلّ احمد بغيتى ومناءي
وامرّغ الخدّين ملتثما ثرا   وطئته رجلا خاتم الانبياء
محى الهدى ماحى الضلالة والردى   بالبيض والخطيئة السمراء

صلّى عليه الله ما سمح السخا — لوماً وما اجلى الدجا ابن ذكاء
وعلى صحابته الكرام والـه — اكرم بهم من سادة فضلاء
واكرم بوارث مجده وعلائه — سبط الرسالة غرّة الابناء
خير الخلافة احمد المنصور من — حاز الكمال وشطر كلّ علاء
الصارم الهنديّ في يمنى الهدى — الكوكب الوقّاد في الظلماء
يا آيها الملك الذي بسيوفه — حاط الهدى وبرايه الوصاء
ذخر الالاه لك الفتوح وصانها — كالزهر في الأكام والاوعاء
لا بدّ من فتح يروقك واضح — كالصبح بذّر في البخار كداء
وستملك الحرم الشريف ويتمي — للوائك المنصور دون مراء
وترى الجهات وقد اتت منقادة — بظبا بنيك السادة النجباء
وتقرّ عينك بالخلافة منهم — وزر البريّة غرّة الامراء
بمحمّد المامون خير مَن ارتقى — درج الكمال ودبّ للعلياء
فرع سيحكى اصله ولقد حكى — بمقاصد قد سدّدت لدماء

وقال الكاتب الاديب ابو فارس عبد العزيز بن محمّد بن ابراهيم الفشتاليّ رحمه الله

هم سلبوني الصبر والصبر من شان — وهم حرّموا من لذّة الغمض اجفان
وهم اخفروا في مهجتى ذمم الهوى — فلم ينته عن سفكها حتى الجان
لئن انزعوا من قهوة البين اكؤسى — فشوقهم اضحى سميري وندمان
وان غـدرتنى بالعداء حمولهم — كفى انّ قلبي جاهداً اثر اظعان
قف العيش واسئل ربعهم ايّة مضوا — أَللجزع ساروا مدلجين ام البان
وهل باكروا بالسفح من جانب اللوى — ملاعب آرام هناك وغزلان
واين انتقلوا هل بهضب تهامة — اناخوا المطايا ام على كثب نعمان

وهل سال في بطن المسيل تشوّقا   نفوس ترامت للحما قبل جثمان
واذ زجروها بالحداء فهل ثنا   ازمّتها الحادي الى شعب بدان
وهل عرسوا بدير عبدون ام سروا   يؤمّ بهم رهبانهم دير نجران
سروا والدجا صبغ المطارف وانثنى   باحداجهم شتّى صفات والوان
وادلج في الاسحار بيض قبابهم   فلحى نجوماً في معارج كثبان
لك الله من ركب يرى الارض خطوة   اذا زمّها بدر نواعم ابدان
ارح بالمطايا قد تمشّى بها الهوى   تمشّى الحميّا في مفاصل نشوان
ويمّم بها الوادي المقدّس بالحما   به الماء صرّا والكلا نبت سعدان
واهدى حلول الحجر منه تحيّة   تفاوح عرفا ذاك الرند والبان
لقد قفحتُ من شيح يثرب نفحة   فهاجت مع الاسحار شوقي واشجان
وفتّت منها الشوق في القرّ منسكة   سحبت بها في ارض داري اروان
واذكرني نجداً وطيب عراره   نسيم الصبا من نحو طيبة حيّان
احنّ الى تلك المعاهد انّها   معاهد راحتي وروحي وريحان
واهفو مع الاشواق للوطن الذي   به صحّ لي انسى الهوىّ وسلوان
واصبو الى اعلام مكّة شيقا   اذا لاح برق من تهامى وتهلان
أُهَيْلَ الحما دينى على الزهر زورة   احثّ بها شوقاً لكم عزمى الوان
متى يشتفى جفنى القريح بنظرة   يزجّ بها في نوركم عين انسان
ومن لي بان يدنو لقاكم تعطّفا   ودهريَ عنّى دائما عطفه ثان
سقى عهدكم بالخيف عهداً تمدّه   سوافح دمع من جفون هتان
وانعم في شطّ العقيق اراكه   بافيائها ظلّ المنى والهوى دان
احىّ ربوعاً بين مروة والصفا   تحيّة مشتاق بها الدهر حيان
ربوعاً بها تتلو الملائكة العلا   افانين وحى بين ذكر وقرءان
واوّل ارض باكرت عرصاتها   ورشّت بطاحها سحائب ايمان
وعرّس فيها للنبوة موكب   هو البحر طامّ فوق هضب وغيطان

وادّى بها الروح الامين رسالة   افادت بها البشرى مدائح عنوان
هنالك فضّ ختمها اشرف الورى   وفخر نزار من معدّ بن عدنان
محمّد خير العالمين باسرها   وسيّد اهل الارض من انس وجان
ومن بشّرت ببعثه قبل كونه   نوامس كهّان واحبار رهبان
ورحمة هذا الكون لولاه ما سمت   سماء ولا غاضت طوامى طوفان
ولا زخرفت من جنّة الخلد اربع   تسبّح فيها ادم حور وولدان
ولا طلعت شمس الهدى عن جنّة   تحمّم من ديجورها ليل كفران
ولا احدقت بالمؤمنين شفاعة   يذود بها عنهم زبانيّ نصران
له معجزات اخرست كلّ جاحد   وسلّت عن المرتاب صارم برهان
له شقّ قرص البدر شقّين وارتوى   بماء همى من كفّه كلّ ظمان
وانطقت الاصنام نطقاً تبرّات   الى الله فيه من زخاريف ميّان
دعى صرحة عجباً فلبّت واقبلت   تجرّ ذيول الزهر ما بين افنان
وضاءت قصور الشام من نوره الذي   على كلّ افق نازل القطر او دان
وقد نهج الانوا بدعوته التى   كست اوجه الغبراء نهجة نسيان
وانّ كتاب الله اعظم اية   بها افتضح الميّان وابتاس الشان
وعدّ على شاوٍ البليغ بيانه   فهيهات منه سجع قيس وسحبان
نبىّ الهدى من اطلع الحقّ انجما   محى نورها اشراق افك وبهتان
لعزّتها ذلّ الاكاسرة الاولى   هم سلبوا تيجانها ال ساسان
واحرز للدين الحنفىّ بالظبا   تراث ملوك الصين من عهد يونان
ونقّع من سمّ النقا السمر قيصرا   فجرّعه منه مجاجة ثعبان
واضحت ربوع الشرك والكفر بلقعا   يناغى الصدا فيهنّ هاتف شيطان
واصبحت السمحا تروق نضارة   ووجه الهدى بادى الصباحة لدّان
ايا خير اهل الارض بيتاً ومحتدا   واكرم كلّ الخلق عجم وعربان
فمن للقوافي ان تحيط بوصفكم   ولو ساجلت سبقاً مدائح حسّان

اليك بعثناهـا امـاني اجـذبت لتسقى بمزن مـن إياديك هتّـان
اجرني اذا ابدى الحساب جرائمي واثقـلـت الاوزان كفّـة مـيزان
فانت الذي لولا رسـائـل عزّه لمـا فتحت ابواب عفو وغفـران
عليك سلام الله مـا هبّت الصبـا وماست على كثبانهـا ملد قضبان
وحمّـل في جيب الجنوب تحيّـة يفـوح بمسراهـا شـذا كلّ تربان
الى العمرَينْ صـاحبيك كليهمـا وتلوهما في الفضل صهرك عثمان
وحيّ عـليـاً عرفـهـا واريحهـا ووالى على سبطيك اوفر رضوان
اليـك رسول الله صمّمت عزمـة اذا ازمعت فالشمل والغرب سيّان
وخاطبت منّي القـلب وهو مقلّب على جمرة الاشواق فيك فلبّان
فياليت شعري هل ازمّ قـلائصي الـيـك بدار او اقـلقـل كيزان
واطوى اديم الارض نحوك راحلا نواصي المهاري في صحاصح قيعـان
يدنّحهـا فـرط الحنين الى الحمـا اذا غـرد الحـادي بهنّ وغنّـان
وهل تمحوَنْ عنّي خطايا اقترفتهـا خطى لي في تلك البقاع واوطـان
ومـا ذا عسى يثنى عنـاني وانّ لي بآلك جاهـاً صفـوة العزّ اوطان
اذا قرّ عن زوارك البـاس والغنى فجود ابنـك المنصور احمد اغنـان
عمادي الذي اوطا السماكين اخمصا واوفى عـلى السبع الطبـاق فادنان
متوّج امـلاك الزمـان وان سطـا احلّ السيوف في معـاقد تيجـان
وقار اسود الغـاب بالصيد مثلهـا اذا اضطّرب الخطاء من فوق خزران
هِـزَبْر اذا زار البـلاد زءيره تضـاءل في اجامهـا اسد خفّـان
وان اطلعت غيم الغشـام جيوشـه وارزم في مركـوبه رعـد نيران
صبين عـلى ارض العداة صواعقـا اشلن عليهم بحر خسف ورجفان
كتـائب لوعـلون رضوى لصدّعت صفـاه الجياد الجرد تعدو بعقبان
عديد الحصـا من كلّ اروع معـلم وكلّ كـمى بـالردينيّ طـعّـان
اذا جنّ ليل الحرب منهم صلى العدا هدتهم الى اوداجها شهب خرصان

من اللاءى جرّعن العدا غصص الردا — وعفّرن في وجه الثرا وجه بستيان
وفتّحن اقطار البلاد فاصبحت — تودّى الخراج الجزل املاك سودان
امام البرايا من عليّ نجاره — ومن عترة سادوا الورى ال زيدان
دعائم ايمان واركان سودد — ذوو همم قد عرّست فوق كيوان
هم العلويّون الذين وجوههم — بدور اذا ما حلّكت شهب ازمان
وهم اهل بيت شيّد الله سمكه — على هضبة العلياء ثابت اركان
وفيهم فشا الذكر الحكيم وصرّحت — بفضلهم ايات ذكر وفرقان
فروع ابن عمّ المصطفى ووصيّه — فناهيك من فخرين قرب وقربان
ودوحة مجد معشب الروض بالعلا — يجود باموال الرسالة ريّان
بمجدهم الاعلى الصريح تشرّفت — معدّ على العرباء عاد وقحطان
اولائك فخرى ان فخرت على الورى — ونافس بيتى في الولا بيت سلمان
اذا اقتسم المدّاح فضل فخارهم — فقسمى بالمنصور ظاهر رجحان
امام له في جبهة الدهر مبسم — ومن عزّه في مفرق الملك تاجان
سما فوق هامات النجوم بهمّة — يحوم بها فوق السماوات نسران
واطلع في افق المعالي خلافة — عليها وشاح من علاه وسمطان
اذا ما احتبى فوق الاسرّة وارتدى — على كبرياء الملك نخوة سلطان
توسّمت لقمان الحجا وهُو ناطق — وشاهدت كسرى العدل في صدر ايوان
وان هزّه حرّ الثناء تدفّقت — انامله عرفاً تدفّق خلجان
ايا ناظر الاسلام شم بارق المنا — وباكر لروض في درى المجد قينان
قضى الله في علياك ان تملك الدنيا — وتفتحها ما بين سوس وسودان
وانّك تطوي الارض غير مدافع — فمن ارض سودان الى ارض بغدان
وتملاها عدلاً يدقّ لواؤه — على الحرمين او على راس غمدان
فكم هنات ارض العراق بك العلا — ووافت بك البشرى لاطرف عمان
فلو شارفت شرق البلاد سيوفكم — اتاك استلابا تاج كسرى وخاقان

ولو نشر الامـلاك دهرك اصبحت		عيالاً على عليـاء ابنـاء مروان
وشـايعك السفّاح يقتـاد طائعـا		برايتـه السوداء ارض خراسـان
فـا المجد الاّ مـا رفعت سمـاكه		على العمد السمر الطوال ومرّان
وهاتيك ابكار القـوافى جلوتهـا		يغـار لها الحور في دار رضوان
اتتك امـير المـومنيـن كانّهـا		لطـائم مسك او خمـائل بستان
تعـاظمن حسنـا ان يقـال شبيهها		فـرائد درّ او قـلائد عقيـان
فلا زلت للدنيـا تحوط جهـاتهـا		وللـدين تحميـه بملك سليمان
ولا زلت بالنصر الـعزيز مـوزّرا		تقـاد لك الاملاك في زيّ عبدان

قال في نفح الطيب اخبرني ناظمها انّه اراد بقوله ونافس بيتى في الولا بيت سلمان الذي منها لسان الدين ابن الخطيب اشارة الى ولاء الكتابة والخلافة كما كان لسان الدين رحمه الله كذلك وفيه مع ذلك تورية بسلمان الفـارسىّ رضى الله عنه وهذه القصيدة على طولها من غرر القصائد ولذلك لم يذكر في المنتقى من الامداح المنصوريّة غيرهـا وقد مدحها في نفح الطيب واثنى عليها جدًّا وتتبّع ما قيل في هذا الاحتفال واقامة هذا المولد العديم المثال من الامداح يفضى الى الطول وفي هذا القدر كفاية والله الموفّق

ذكر الخبر عن سيرة المنصور

وعيون من انباء سياسته

كان المنصور رحمه الله حسن السياسة حازماً يقظاناً مشاوراً في قوام الامور وقد اتّخذ يوم الاربعاء للمشاورة وسمّاه يوم الديوان تجتمع فيه وجوه الدولة واعيانها ويتطارحون فيه وجوه الراي فيما ينوب من جلائل الامور وعظائم

النوازل وهناك تظهر شكاية من لم يجد سبيلاً للوصول للامير وكان المنصور
على ما هو عليه من ضخامة الملك وسعة الخراج يوظّف على الرعيّة اموالاً
طايلة يلزمهم باداءها وزاد الامر على ما كان عليه الحال في عهد ابيه حسبما
سلف ذلك مستوفياً في ترجمة ابيه وكانت الرعيّة تشتكى منه بذلك ونالها
اجحاف منه ومن عمّاله وكان غير متوقّف في الدماء ولا هيّاب للوقيعة في ذلك
وتتبّع ما وقع في ذلك يناقض غرضنا في هذا الكتاب من الاغضاء عن العورات
والستر على الفضائح وقد أَلْمَعْنَا لك بما يكون دالاًّ على ما وراء وذكر ابو زيد في
الفوائد ما صورته عدى محمّد الكبير خال المنصور على رجل بدرعة في ضيعة له
فشكاه للمنصور فقال له كم تساوي هذه الضيعة قال سبعماية اوقيّة قال له خذها
وقل لخالي الموعد بيني وبينك الموقف الذي لا اكون انا فيه سلطاناً ولا انت
خال السلطان فرجع صاحب الضيعة حتّى ادّى له كلامه فامسك راسه بيده ساعة
ثمّ قال له الحق ضيعتك وغرم له كلّ ما اكل منها انتهى بنصّه ويحكى انّ الفقيه قاضى
الجماعة بفاس ابا مالك عبد الواحد الحميدي رحمه الله مرّ ذات يوم مع فقهاء
فاس واعيانها لمرّاكش بقصد العيد مع المنصور كما هى العادة فمرّوا في طريقهم
على سلسلة فيها رجال ونساء وفيهم امراة اخذها الطلق وهى في كرب المخاض
فراوا من ذلك امراً يحزن رائيه ويهمّ ناظره فبقى ذلك في خاطر القاضى فلمّا
جلس مع المنصور القى له ذلك واظهر منه الشكاية فسكت عن جوابه المنصور
وهجره على ذلك ايّاماً فلمّا فهم القاضى غضب المنصور تلطّف له في القول
واظهر التوبة ممّا صدر منه وعدّه بادرة فقال له المنصور لولا ما رايتَ ما امكنك
ان تجيء مع اصحابك عشرة ايّام في امنٍ ودعة فانّ اهل الغرب مجانين مارستانهم
هى المحن من السلاسل والاغلال وكان للقاضى المذكور ادلال على المنصور
لانّه شيخه فكان المنصور يتحمّل منه لمكان الشيخوخة ولقد وفد عليه مرّة
مع الطلبة في بعض المواسم فلمّا انصرفوا من الحضرة جمعتهم الطريق بارباب
الموسقى واصحاب الاغاني من اهل فاس وقد كانوا وفدوا ايضاً معهم على سبيل

العادة فاخرج بعضهم شبابة من الابريز مرصّعة اعطاها له المنصور وبعضهم قال اعطاني كذا وقال الاخر اجازني بكذا ممّا لم يعط مثله للقاضى وشيعته من الطلبة فقال القاضى ان بلغت فاساً لاردّنّ اولادي لصنعة الموسقى فانّ صنعة العلم كاسدة ولولا انّ الموسقى هو العلم العزيز ما رجعنا مخفّفين ورجع الآليّ بشبابة الابريز فنقل كلامه هذا للمنصور فلدعه عليه من الملام بيسير وحكى عن بعض الطلبة انّه كان يوماً بين يدي المنصور فانشد الطالب المذكور البيتين المشهورين

زمانــا كاهله   واهله كما ترى

وخفض زمانا عند الانشاد للبيتين فقال له المنصور كيف خفضت الزمان فقال له الطالب والله لاخفضنّه كما خفضنى فاعجب ذلك المنصور وعدّه من حسن الاعتذار وذكر انّ بعض عمّال المنصور عدى على امراة من دكّالة فاخذ لها مالاً فقدمت المراة لمرّاكش لتشكو له حيف عامله فلمّا شكت عليه لم يشكها ولا كشف ظلامتها فخرجت لاولادها وقالت لهم انصرفوا فانّي كنت اظنّ انّ راس العين صافية والان حيث وجدتها مكدّرة منها تكدّرت مصارفها واخبار المنصور في هذا المعنى كثيرة

ذكر ما انشاه المنصور من المئاثر وما وقع في ايّامه
من الاحداث والكوائن

قال في مناهل الصفا للمنصور مصانع اخترعها ومئاثر خلّفها منها المعقلان اللذان انشـاهما بفاس احدهما خارج باب الحيسة والاخر قبـالة باب الفتوح وهذان المعقلان يعرفان عند العامّة بالبساتين احدهما بستيون وهما من الاتقان

بحيث لا يعرف قدرهما الاّ من وقف عليهما ومن ذلك الحصنان اللذان بناهما بثغر العرائش احدهما يسمّى حصن الفتح وهما ايضاً في نهاية الوثاق والحسن ومن ذلك معاصر السكّر فانّه احدثها بمرّاكش وبلاد حاحة وبلاد شفشاوة قال الفشتالي وكان ابتدا ذلك والده ابو عبد الله محمّد الشيخ المهديّ فكثر السكّر في ايّامه بالبلاد المغربيّة حتّى لم تكن له قيمة وقد تقدّم انّه اشترى الرخام من عند النصارى بالسكّر وذكر في المنتقى المقصور انّ المنصور في سنة ستّ وتسعين وتسعماية بعث الخصّة العظيمة لجامع القرويّين مع كرسىّ من المرمر توضع عليه وزنهما معاً ماية قنطار وهذه الخصّة هى التى تحت منار الجامع المذكور وقال ابن المقاضى مؤلّف المنتقى فيما ينقش برقبتها

امام دين الهدى المنصور شيّدني بحر المكارم من ابناء عدنان
حزت المفاخر بالمنصور اجمعها ومن علاء مقام المجد ارسان
من جاء يشكو الظما يوماً وقبّلني اغناه ما قد همى من صوب اجفان
لاتنكرنّ وجود الدمع من فرح فالعين تدمع من افراط سلوان
واشرب هنيئاً من السلسال لاحرج معين دمع جرى من فيض خلجان
فخر السلاطين من ابناء فاطمة من صيته شاع في اطراف عمان
وقد جرت مقلتي حكّت سحائبها كفّ الخليفة من ابناء زيدان
لا زال للدين والدنيا يسوسهما ما هيّجت عاشقاً ورق بافنان
انشاني زمن التاريخ وافقه للدين والاجر بحر الجود سوّان

ومن علم الهندسة فائدة جيّدة وهى ان قيل بايّ شئ يتوصّل الى معرفة وزن هذه الخصّة مع كرسيّها وانّ فيهما ماية قنطار مع انّ الوزن لا يمكن في ذلك غالباً فالجواب انّ كيفيّة التوصّل لذلك ان توضع الخصّة في افلوكة او سفينة مثلاً ويرشم على الموضع الذي بلغه الماء من جرم تلك الافلوكة او السفينة

حيث وضعت فيها الخصّة مثلا ثم تخرج الخصّة وتملا السفينة او الافلوكة بحجارة او بتراب او رمل حتى توضع في الماء ويبلغ المـاء موضع الرشم فتخرج تلك الحجارة او التراب اوالرمل ويوزن شيأً فشيأً فيتوصل بذلك الى معرفة مقدار وزن الشيء الثقيل هكذا ذكره ابن القـاضى في جذوة الاقتباس اظنّه حيث تكلّم على صهريج الرخام الذي بالمدرسة المصباحيّة ورايت بها بخطّ شيخ شيوخنا العلّامة المحقّق ابي زيد سيّدي عبد الرحمن بن عبد القادر الفاسيّ رحمه الله ما معناه هذا اذا كان ما وضع في السفينة او الافلوكة مثلاً شيأً ثقيلاً كالحجارة مثلاً واما لو وضع فيها شيء خفيف كالشعر او الصوف فلا يتوصّل الى المقصود بذلك والله اعـلم وفي عام سبعة وثمـانين وتسعمـاية وقع غلاء عظيم حتى عرّف ذلك العام بعام البقول ووقع سعال عظيم اصاب الناس عامّة في بعض فصول ذلك العام فلا يزال الانسان يسعل الى ان تقبض روحه ولهذا سمّى العام عام الكيحة وفي ايّام ابي مروان عبد المالك ظهر الكوكب ذو الذنب الكبير في برج العقرب وبقى يسيراً ثم ذهب وظهر بعده كوكب اخر ذو ذنب اصغر من الاوّل وظهر في ايام السلطان ابي محمّد عبد الله الغالب في السماء نجمة كبيرة لم تكن معهودة ثم ظهرت في ايّام ولده محمّد بن عبد الله حمرة في الجوّ بناحية شرقيّة تبعتها في الارض الاجناد التى جاء بها ابو مروان من الجزائر كما انّه وقع اثر ظهور ذي الذنب جيوش النصارى التى جرّهـا محمّد بن عبد الله لوادي المخازن وفي ثاني ذي القعدة عام سبعة وتسعين وتسعماية اخلا النصارى دمّرهم الله اصيلا وحملهم على ذلك الرعب والخوف من المنصور ففـرّوا بانفسهم واولادهم وحمل ما خفّ من اموالهم وفي ذلك يقول ابو العبّاس احمد بن القاضىّ رحمه الله

يا ايّهـا المنصـور ابشر بالعـلا　　　فالله بلّغ في العـدا المامـولا
انصـاركم سيفاً لحتف عـداته　　　وبكُمْ غدا سيف الردا مفلولا

وهزمتم الشرك المتين بعزّكم من غير سيف قد يرى مسلولا
واذبت اكباد الخبيث بهمّة وفتحتم دار العدا اصيلا
اكرم به من مالك بل صالح اضحى لبارود العداة خليلا
لا زال في افق العلا شمساً وفي عين العلاء يشاكل التكحيلا

واشار بقوله الى بارود العداة خليلا لما عمله النصارى لمّا ارادوا الخروج من اصيلا حفروا تحت قصبتها حفيراً وملئوه بارودًا واوقدوا فتيلة تبلغه عند مقدار دخول المسلمين فنجاهم الله من الوبال وكفى الله المؤمنين القتال وفي عام واحد والف اتى بالفيلة من بلاد السودان للمنصور وكان يوم دخولها لمرّاكش يوماً مشهوداً برز فيه كل من في المدينة لرؤيتها من رجال ونساء وصبية وشيوخ ثمّ في رمضان عام سبعة والف حملت لفاس ايضاً قال بعضهم وبسبب دخول هذه الفيلة للمغرب ظهرت هذه العشبة الخبيثة المسمّاة تبغة لانّ السودان الذين قدموا يسوقون الفيلة قدموا بها يشربونها ويزعمون انّ فيها منافع فشاعت عنهم في درعة ومرّاكش وغيرهما من بقاع المغرب وتعارضت فيها فتاوي العلماء رضوان الله عليهم من لدن ظهورها فمن قائل بالتحريم ومن قائل بالتحليل ومتوقف والعلم فيها عند الله تعالى وفي عام ثلاثة وتسعين ثار رجل يقال له الحاجّ قرقوش بجبال غمارة والهبط وتسمّى بامير المؤمنين وكان في بدء امره حائكاً فتلبّس بالزهد والصلاح فاخذ وقتل وحمل راسه لمرّاكش وفي ذي القعدة من عام ستّة وتسعين ارتحل المنصور فبينما هو في الطريق اذ وافته البشرى بالفتك بنصارى سبتة وانّ زعيم الفئة الجهاديّة احمد النقسيس كمن لهم مع جماعة من الفرسان في موضع فخرج النصارى باولادهم وحشمهم وحالوا بينهم وبين سبتة وكادوا يفتحون سبتة وانشد له في ذلك الكاتب الارفع البليغ ابو عبد الله محمّد بن علىّ الفشتالي بيتين رجز له منهما الفال باستيلائه

هذه سبتة تزفّ عروسها نحو ناديك في شباب وشيب
وهي بشرى وانت كفؤ اللواتي كلّفت بعدها بفتح قريب

وفي جمادى الاخيرة من عام تسعة والف كان سيل عظيم بفاس ثمّ في شعبان من السنة كان سيل اعظم من الاوّل هدمت به الدور وتهدّم سدّ الوادي بفاس على وثاقه واحكامه وهذا السدّ هو الذي انشاه احمد الوطّاسيّ ولمّا فرغ من بنائه قال الامام سيّدي علىّ ابن هارون

لقد سدّد الله راى العباد وابطل في السدّ راي الجهول
وقرّب ما رامه من بعاد بمولاي احمد مدحى يطول
فطرداً وعكساً لساني ينادي عقول الملوك ملوك العقول

وقال فيه ايضاً الشيخ الامام ابو زكرياء سيّدي يحيي بن السراج ما نصّه

الا سدّد الله راى الذي بتسديده سدّ سدّاً حصينا
وخلّد في عزّة ملكه ووالاه فتحاً ونصراً مبينا
امام الهدى احمد المرتضى مبيد العدا عدّة المسلمينا

وقال فيه ايضاً الشيخ الامام ابو مالك عبد الواحد بن احمد الونشريسيّ رحمه الله

ايا اهل فاس سدّد الله سدّكم براي ابي العبّاس حامى حمى فاس
واحيا به أشجاركم وثماركم على رغم قوم منكرين من الناس
فدام ودام السعد يخدم سعده وفاز من الشكر الجميل باجناس

قال شيخ مشايخ شيوخنا الفقيه العالم سيّدي محمّد بن سعيد المرغيثيّ في فهرسته

عند قوله تعالى ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين ما نصّه فائدة عجيبة من حكاية غريبة فيها موعظة كان رجل بمراكش يقال له علىّ الشمال في مدّة السلطان ابي العبّاس احمد المنصور فدخل يوماً من ايّام الله فالتفت الى سريره فراى غلاماً اسود فوق فراشه راقداً فصاح به وطلب سيفاً ليقتله فقال له الغلام امهل على نفسك فانك لا تقدر علىّ بشيء فقال له لِمَ قال انا شيطان سلطت عليك قال ولِمَ سلطت علىّ قال ويحك الم تسمع قوله تعالى ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين قال الرجل نعم صدق الله العظيم ثمّ قال اعوذ بالله من الشيطان الرجيم الحمد لله ربّ العالمين واستمرّ يقرا والشيطان يضعف ويذوب حتّى غاب فصار الرجل يختم القرءان كلّ يوم ختمة وصاحت حاله والحمد لله

ذكر مشاهير كتّابه ووزرائه

وولاة مظالمه وقضاته

امّا كتّابه فكثيرون ومن اشهرهم ابو فارس عبد العزيز بن ابراهيم الفشتالي قال في درّة الحجال في حقّه وزير القلم الاعلى ابو فارس عبد العزيز الصنهاجىّ ففيه اديب ناظم ناثر وهو متولّي تاريخ الدولة المنصوريّة التاريخ المذكور في مجلّدات اشتمل على تاريخ دولة ساداتنا الاشراف من اوّلها الى وقته على وقائعها ومغازيها وحوادثها وغير ذلك وعلى محاسن ابي العبّاس المنصور مولاى احمد الذهبيّ رحمه الله والّف مدد الجيش اي جيش التوشيح لابن الخطيب السلمانيّ والّف مقدّمة في ترتيب ديوان المتنبّي على حروف المعجم وله من النظم الرائق كثير وكان رحمه الله واسع الايثار علىّ الهمّة متين الحرمة فصيح القلم زكّى الشيم ذكّى البلاغة والبراعة فارس الدواوين والبراعة اخذ عن جماعة

كابي العبّاس المنجور وابي العبّـاس الزمّـوريّ وابي مالك عبد الواحد الحميديّ وغيرهم من علماء الوقت ولد سنة ستّ وخمسين وتسعماية . وذكر صـاحب الاعلام انّ من تاليفه شرح مقصورة المكوديّ رحمه الله وقال في نفح الطيب وكان سلطان المغرب المنصور يقول انّ الفشتاليّ نفتخر به على ملوك الارض نباري به لسان الدين ابن الخطيب · وممّا وقع له مع المنصور انّه كتب له يشكو له بعض ما اهمّه من دنياه فوقّع له المنصور من نظمه ببيتين بخطّه وهما

ياكاتبـاً اذا كتب غرّس روضاً ذا فنن
انّ جـوابي للـذي يشكو دناه اردد حزن

يعنى درهم هكذا وجدت هذين البيتين في بعض مسوداتي ولا ادري من اين نقلتهما وما احسن ما قال ابو علىّ الحسن المسفيويّ المرّاكشىّ ممّـا نقش في بعض مبانى الكاتب ابي فارس عبد العزيز المذكور وذكرها في نفح الطيب

اجل المعـالي من قداح سرور وادر كئوس الانس دون شرور
خلعت عـلى عطف البهاء محاسنى فكستـه في الافاق ثوب حبور
وتنـاشق الوشّى المفرّق حلّتى نشق الشذور على نحور الحور
ساق القصور قصورها عن رتبة لي بالهنـا الممدود والمقـصور
في المبتى المـرّاكشىّ وافقـه ازري عـلى الزوراء والخـابور
اعلى مقامى البارع الاسمى الذي قـد حاز سبق النظم والمنثور
فـاذا اقـلّ بنـانه اقـلامـه بعثت عقود السحر بين سطور
عبد العزيز اخو الجلالة كاتب سرّ الخـليفـة احـمد المنصور
لا زال في يمن وامن ما شدت ورق بروض بالـندا محضور

وقد ذكر في نفح الطيب مراسلة كتب بها اليه فراجعها وكانت وفاته رحمه الله

سنة اثنتين وثلاثين والف حسبما ذكره صاحبنا في كتاب الاعلام والى تاريخ وفاته اشار الاديب الكاتب ابو عبد الله محمد بن احمد المكلاتي لاميّة في الوفيات فقال

يد النثر امست وهى شلّاء صاحبا　　به جيد هذا الدهر غير معطّل

ومنهم ابو عبد الله محمّد بن احمد بن عيسى وهو مؤلّف كتاب الممدود والمقصور من سنى السلطان ابي العبّاس المنصور ومن شعره

اذا الدهر اعطاك منه المنى　　فدعه فذاك العطا لايدوم
ولا تامنن عدله في الورى　　فما الدهر الّا كقاضى سدوم

ومنه ايضاً

اذا نلت من ملك بلغة　　فكن بالذي نلت خير قنوع
ولا تامنن عدله في الورى　　فانّ النزول بقدر الطلوع

ومنهم الكاتب ابو عبد الله محّمد بن عمر الشاويّ وكان اديباً وهو القائل في هجو العدول

انّ العدول الذي جاء الزمان بهم　　عن العدالة والتوفيق قد عدلوا
احداث سنّ وأَلْبَابُ كسنّهم　　تالله لو شهدوا في الكلب ما قبلوا

وله ايضاً في مدح المنصور

فخر الخلائف انّ عقدك واثق　　بالنجح من علياكم ومحقّق
فنوالكم عمّ البسيطة كلّها　　لم يبق معْه في البريّة مملق

فالغرب يرفل في ثياب جمالكم   وجلالكم يرتجّ منه المشرق
امطر عليّ سحاب جودك ثروة   وانظر اليّ برحمة لا اغرق

ومنهم الكاتب البليغ ابو عبد الله محمّد بن عليّ الوجديّ كان من صدور الطلبة ومن قطوف ازهار الادب وبرع في الانشاء وقد رايت رسالة حلاه فيها ابو فارس عبد العزيز الفشتاليّ بما يدلّ على علو همّته وسمو طبقته ومن شعره جواباً عن لغز الفقيه ابي زيد عبد الرحمن بن ابراهيم المستراءيّ وهو

احاجى فاضلاً حبراً نجيبا   ليعرب عن ضمائرنا بفهم
فما اثنان استطالا واستداما   وقد قسما الزمان بدون ضيم
وخلّ زاد لي بعد امتلاء   ويقسم ان يواصل ايّ سقم
وضيف جاءني من غير ارض   فناولناه شاة دون عظم

ونصّ الجواب المذكور

فدتك النفس مولود اتاكم   وتلك الشاة فاعلم ثدى امّ
وذاك الخلّ ظاهي وجه حب   وحسن سمائه يجلى بوهم
والاثنان اللذان قد استطالا   نهار كان منه بديل يوم
وليل مثل عرض الارض طولا   على انّي عدمت فيه نوم
فدونك سيّدى حلّ الاحاجى   وعش ما دام قطر السحب يهم

ومن شعره ايضاً

وعشيّة قصرت بوصل حبيب   ياليتها سمحت بترك غروب
وكذاك اوقات السرور قصيرة   مذ كانت اللقيا بغير رقيب

ومن خطّ ابن القاضى رحمه الله مـا صورته انشدني بمرّاكش ابو عبد الله الوجديّ لنفسه في ربيع الثاني عام ستّة والف

لبس الصفرة كى يزهو بها شادن من جنّة الخلد نفر
خلته من حسنه لمّـا بدى هالة المسجد وسطها القمر

وانشدني لنفسه ايضاً

وصفراء كالشمس المنيرة نورها لها في خدود الشاربين مطالع
اذا لمعت في الكاس قال مديرها ابدر بدا من جانب الغور لامع

توفّى رحمه الله سنة ثلاث وثلاثين والف ذكره في الاعلام ومنهم الاديب البليغ الكاتب ابو الحسن على بن احمد الشامىّ واولاد الشامىّ ينتمون للخزرج ولهم مصـاهرة مع المنصور وكان ابو الحسن فقيهاً مشـاركاً وله نظم رائق ذكر منه المقّريّ في كتابه فتح المتعال في مدح النعال جملة وافرة توفّى عام اثنين وثلاثين والف ذكره ايضاً في الاعلام ومنهم الكاتب الشهير الصدر ابو عبد الله محمّد بن علىّ الفشتاليّ وهو صاحب الوفيات نظماً على روى اللام وله شعر حسن ذكرنا منه نيما سلف جملة وممّن يعدّ في الكتّـاب وان كان قدره اعلا من الكتابة الفقيه الاديب الاوحد الاريب ابو عبد الله محمّد بن يعقوب من ايث يوسى قبيلة من البربر بسوس وكان صدر الادباء في وقته بمرّاكش وغيرها بحيث كان الكتّاب يرجعون اليه في عويص المكاتبات ويترافعون اليه في حلّ المشكلات والمهمّات وحسبك انّ الامام ابا العبّاس احمد بابا السودانيّ نقل عنه في كفاية المحتاج ووصفه بالثقة الناقد وقال فيه انّي لم الف بالمغرب اثبت ولا اصدق ولا اعرف بطرق العلم منه . ولابن يعقوب هذا في فهرسته شعر حسن ومن نظمه في البهائم التى تدخل الجنّة

وكبش الذبيح ثمّ هدهد ذو النبا حمار عزيز ثمّ ناقة صالح
وعجل الخليل ثمّ ناقة احمد كذا كلب اهل الكهف افضل نابح
وصفراء موسى لونها سرّ ناظر ونملة قالت وهى انصح ناصح
تحلّ جناناً ثمّ سابح يونس مقاتلهم يروى اذا ذو النصائح

ومن شعره قوله

ابيت كانّ في العيون مراودا سميراً ولا تحلو لدىّ المراقد
اهيم بامر لو وجدت مساعدا اذا عظم المطلوب قلّ المساعد

وعارضه ابو العبّاس احمد بن القاضى فقال

وقائلة ما لا ارى لك ناصرا وانت غريب في الانام مباعد
فقلت لها من المعالي مطالبي اذا عظم المطلوب قلّ المساعد

وبالجملة فكتّاب المنصور لا يستوفيهم الحصر وفي هذا القدر الذي ذكرناه كفاية والله الموفق وامّا وزراؤه فذكر في شرح درّة السلوك منهم عبد العزيز بن سعيد المزوار المعروف بولد مولات الناس وقال في درّة الحجال في حقّه مانصّه عبد العزيز بن منصور الوزكيتيّ صاحب احمد الذهبيّ رحمهما الله يعرف بالقائد عزّوز صاحب جبل درن من ولد مسعود بن واركاس قائد الناصر الموحّديّ بغزوة العقاب من بلاد الاندلس عرف بجدّه المذكور صاحب روض القرطاس ولعبد العزيز هذا همّة في المعالي وجمع الكتب العلميّة ويقال انّه كان عنده من الدفاتر خمسون الف مجلّد ولد رحمه الله بتارودانت سنة ستّ وخمسين وتسعماية وبيتهم بجبل درن بيت عظيم معتبر . ومنهم مولود مولاه والناصر بن علىّ بن شقرا وذكر صاحب الفوائد قال كان في الدولة المنصوريّة

شاعر يسمّى الدايم وكان هجّاء مدّاحاً فمن مدحه في القائد ابراهيم السفيانيّ قوله

له في ظـلام الليـل وقفـة راهب   وعند اصطلاء الحرب حرمة ماجد

وقال في الشرطيّ وهو محمّد بن محمّد بن الحسن المعروف بالمسمار

كم من سيوف مضت سلّ الزمان بها   اطـامع بعدهـا في الخلد مسمـار

وقال في القائد مومن بن ملوك العلج

فان كان كلّ المـومنين كمومن   فلا حملت في المؤمنين الحوامل

وامّا ولاة مظالمه فقال ابن القاضى ايضاً منهم ابو الحسن علىّ بن سليمان التاملىّ ابن ابن اخى الفقيه المعظّم الحسن بن عثمان وقد وصفه الفقيـه سيّدي عبد الرحمن التلمسانيّ ثمّ الردانيّ في بعض اسئلته بالامين الناصح والفقيه الصالح وقد تقدّم مـا وصفه به المنجور في ترجمة عمّ الفقيه المتقدّم وكان وليّ المظالم للسلطان ابي محمّد عبد الله الغالب بالله كما سلف وهو اوّل من قطن بالمواسين من اهل بيته وفيهم يقول الفقيه الاديب اللوذعيّ الاريب سليمان بن ابراهيم بن سليمان

بالله ان وطئت مرّاكشـا قدمك   وجُزْت يوماً على تلك البساتين
الّا تقدّم امراً قـد هممت به   حتّى تحكّى سكّان المـواسين

وامّا قضاته فبمرّاكش الفقيه القاضى ابو القاسم بن علىّ الشاطبيّ ولى القضـاء مدّة طويلة وله يقول الفقيـه الاديب النـاثر الناظم ابو فارس عبد العزيز بن محمّد الفشتاليّ

تولّى القـضـاء بمرّاكـش   فقيـه لـه همّـة عـاليـة

يواسى القريب ويعطى البعيد　　ويسرد احكامه الماضية
ولا عيب فيه سوى انّه　　تغلّبه امة جارية
وتحكم فيه فهو لها　　مطيع وهى له عاصية
سانشده قول من قد مضى　　لانّ القوافي له داعية
فيا ليته لم يكن قاضيا　　ويا ليتها كانت القاضية

فاجابه ابو القاسم بقوله

اعبد العزيز القبيح الصفات　　تعرّضت ويحك للمهلكات
اتطمع يا ندل في خطّتى　　وانت جهول بحكم الصلات
اما تذكرنّ زماناً مضى　　وانت وعرسك عند الرمات
فطوراً تقود وطوراً تجول　　عليهم باستك ماض وات
فكن كابيك اللئم الذي　　يواسى العصاة ويقصى العفات
ولا تتعرّض الى خطّتى　　فانّ لساني يشقّ الحصات

توفّى الشاطبيّ رحمه الله عام اثنين والف وتولّى القضاء بعده ابو عبد الله محمّد بن عبد الله الرجرجي المعروف ببو عبدلي وكان من صدور علماء وقته جادل علماء فاس فحجّهم توفّى رحمه الله عام اثنين وعشرين والف وفي تاريخ وفاته يقول ابو عبد الله المكلاتيّ في لاميّته

واّما ابن عبد الله قلّ شبيهه　　فيا لك من قاض زكىّ معدّل

وكان قاضيه بفاس الفقيه العالم الصدر ابو مالك عبد الواحد بن احمد الحميديّ وكان فقيهاً عارفاً بمختصر خليل دأوباً على تدريسه مع المشاركة في غيره من العلوم وكان اوّل ولايته للقضاء في ايّام السلطان ابي محمّد عبد الله الغالب بالله

عام سبعين وتسعماية وكان السلطان المعتصم نقم مرّة عليه شيا فسجنه مدّة فبعث باولاده للشيخ سيّدي رضوان يطلب منه ان يشفع له عند السلطان المعتصم فكتب له سيّدي رضوان بخطّ يده يحضّه على الاستشفاع بالنبيّ صلّى الله عليه وسلّم والاستمساك بحبله الاعصم لانّه باب الله الاعظم ببيتين وهما هذين كما ترى

ما للنوازل والخطوب تنبّهوا　　الّا الزعيم ومن يقول انا لها
فالْوِ العنان ببابه مستشفعا　　وات البيوت اخي من ابوابها

فقبل القاضي اشارته وتوجّه الى ربّه بكلمته فاتاه الفرج في الحين ولسيّدي رضوان ايضاً في هذا المعنى

واذا الكريم سالته بحبيبه　　حاشى وكلّا ان يخيّب سائلا
ومَن الكريم سواك ربّ العالمين　　ومَن الحبيب سوى من اصبح كاملا
وهو النبيّ محمّد اكرم به　　ساد الانام اواخرا واوائلا

وقال ابن القاضي في جذوة الاقتباس حسبما قراته بخطّه الّا انّه شطّب عليه بالحمرة ما نصّه عبد الواحد بن احمد الحميديّ الفقيه القاضي بمدينة فاس كان حافظاً لمذهب ملك الّا انّه نبذ الشريعة المحمّديّة وراء ظهره وكان يحكم بموافقة شهوته مع علمه بالفقه ولا يبالي بما فعل فيها حتّى اكتسب هو ومن والاه اموالاً جليلة لا حصر لها ولمّا توفّى قال فيه صاحبنا الوزير عبد الرحمن بن ابراهيم المستراءيّ

تولّي الحميديّ واحزابه　　وايّام دولته الغاوية
ومات وخفّت موازنه　　وصار الى امّه الهاوية

وكان القاضى الحميديّ المذكور اديباً شاعراً جيّداً ومن شعره قوله

مـا لم يكن للعلم عند فنائه   راج فانّ بقـاءه كفنـائه
بالعلم يحيي المرء طول حياته   فاذا انقضت احياه حسن ثنائه

وقال ايضاً في طالب كان يعرف بعثمان الدبذوبيّ وكان كثير الجدال مـا نصّه

وصوت عثمان لدى المجالس   كصوت بلبال من العتارس
ليس له فهم ولا له نظر   جزاؤه الضرب باذناب البقر

وقال ايضاً في طالب اخر يعرف بالحمام وقد سرقت ثيابه من الحمّام مـا نصّه

فلو رايت مشية الحمام   خرج عرياناً من الحمّام
بصلعة بيضاء كالثغـامه   يشبه في مشيته اسـامه

توفّى رحمه الله عام ثلاثه والف كانت بينه وبين المنجور منافسة حتّى انّ السلطان المنصور قدّم المنجور مرّة للصلاة فلمّا اراد المنجور ان يدخل المحراب منعه الحميديّ فقال له السلطان دعه فقد قدّمه علمه فقال الحميديّ ان قدّمه علمه فقد اخّره نسبه والله يسامح الجميع بمنّه وامّا قاضيه بتينبكت من بلاد السودان فالقاضى ابو جعفر عمر بن العاقب الصنهاجيّ وهو قاضى الجماعة ببلاد السودان وماوالاها

ذكر الخبر عن وليّ عهد المنصور وهو ولده ابو عبد الله

مولانا المامون المعروف بالشيخ

كان ابو عبد الله محمّد الشيخ المامون وليّ العهد كما تقدّم وكان خليفة لابيه على فاس وما والاها من عمالاتها المغربيّة كثيراً من حياة ابيه وكان للمنصور اعتناء

تامّ به واهتمام عامّ بشانه حتّى قيل انّ المنصور لا يختم على ربيعة من المال الّا قال جعل الله فتحها على يد الشيخ رجاء أن يقوم بالامر بعده ويسوس الرعية مثله فلم يساعده القدر المحتوم السابق المرسوم كما قيل

ما كلّ ما يتمنّى المرء يدركه   تجري الرياح بما لا تشتهى السفن

وقد وقفت على رسالة كتب بها المنصور ونصّها من عبد الله سبحانه المجاهد في سبيل الله امير المؤمنين ابي العبّاس المنصور بالله ابن امير المؤمنين ابي عبد الله محمّد الشيخ المهديّ الشريف الحسنيّ ايّد الله بعزيز نصره اوامره وظفر بيمينه ومنّه عساكره الى ولدنا وليّ عهدنا الامير الاجلّ الاعزّ الافضل بابا الشيخ وصل الله كمالكم وسنا من خير الدارين امالكم سلام عليكم ورحمة الله وبركاته امّا بعد فكتابنا هذا اليكم من حضرة مرّاكش حاطها الله ولا جدير الا ما عدّده مولانا من الخير لله الحمد وله المنّة هذا والذي اوجبه اليكم اسعدكم الله وكلاكم انّه بلغنا انكم قد استخدمتم هناكم جماعة من اولاد طلحة كاولاد اخى علىّ بن محمّد واخى محمّد بن ملوك وغير هولاء وانّك قد فرضت عليهم في اعطياتهم نحو خمسة الاف والى هذا ايّ مصلحة ظهرت لك في استخدام هولاء القوم حتّى تتحمّل كلفة فرض هذه الفروض بل ما في ذلك الّا الفساد البيّن لانّ الذي فرضتم لا يفى به المغرب ولا يقوم بكم شيء ومسالة هولاء اولاد طلحة ان كنت رايت استخدامنا لهم واردت تقليدنا في ذلك واقتفاء سيرتنا فيه فاعلم انّ بيننا وبينكم فرقاً من وجوه منها انّ مدينة مرّاكش ليست كمدينة فاس وانّ خدمتهم هنا لبعدهم عن بلادهم ليست كخدمتهم هناك وايضاً هولاء الناس انا اعرفهم وكنت في بلادهم وهذه الخدمة كانوا يطلبونها منّى وانا هنالك فواعدتهم بها اذ لا يمكنى وانا في بلادهم الّا مساعفتهم فلمّا جاءوا اليوم وطلبوني بالوعد لم

يتمكّن لي الّا الوفاء لهم به وعليه شرطنا عليهم مرّاكش وسُكّناها وعلى هذا الشرط المذكور استخدمنا منهم من استخدمناه مع هذه الوجوه والاعتبارات كلّها فقد ندمت والله على استخدامهم غاية الندامة وانا في ذلك على خطا اذ كان الاولى ان نكون حاستنهم وتركتهم من الخدمة وامّا انت ففى مندوحة من هذاكلّه لانّه لا وعد لك سابق لهم حتّى يلزمك الوفاء به ويمكنك ان تخليهم من اذننا ومشورتنا فنكفيهم عنك بالشرط الذي شرطنا عليهم من الخدمة هنا بمرّاكش وسكناها وعلى هذا الشرط استخدمنا منهم من استخدمنا والى هذا فالذي نؤكّد به عليك ان تنقضهم من الخدمة ولا تستخدم منهم ولو فارساً واحداً اصلاً ومن الذين ذكرنا لك ومن غيرهم كافّة من اولاد طلحة وامرناك ان تنصّل منهم وتقول لهم انّ لسلطان منعنى من استخدامكم هنا وتقرا عليهم كتابنا الواصل ليكم صحبة هذا لتتفادي منهم ولكن الجفاء مع هذاكلّه لا تظهره لهم بل تحسن اللقاء بهم وتواليهم باظهار البشر والقبول وباب الطمع تسدّه دونهم والذي شقّ علينا اعظم من هذا كلّه واستنكرناه ولم نجد صبراً عليه هو ما وجدناه قد اطلع عليه اولاد طلحة علىّ بن محمد وغيره من اخوانهم في اخباركم والفيناهم قد توصّلوا من ذلك الى ما لم يتوصّل اليه والله احد من كبار خدّامكم اهل بلادنا وخواصّ اهل بساطنا لانّ اهل بلادنا احياء ما لهم بحث الّا في مصالح انفسهم وهولاء انّما يحثون على القوّة وعورة المملكة فاذا بكم تستخدمونهم بطانة واصدقاء وتطالعونهم على اموركم واحوالكم مع انّ القوم ما زالوا ببلاد العدوّ وبين اظهره وانّما الذي يطالعونه نحتاج نقطع ونجزم فانّ الترك قد اطلعوا عليه حتّى كانّهم شاهدوه ووقفوا عليه بانفسهم وايضاً لو كانوا اصدقاء ولا يريدون بها الّا الخير فالقوم عرب لا يحافظون على ما يطالعون ولا يفهمون ما يحسن اخفاؤه ولا ابداؤه ولا يتمالكون من انفسهم قولاً ولا نطقاً وبالجملة فقد احرقتنا هذه المسالة وتفطّرت لها اكبادنا وصارت قلوبنا منها مطعونة وهل ما عندكم علم بانّ الناس كانوا يحافظون في

اقلّ الامور ان يطلع عليها الاجانب وان كانوا احبّ من كلّ حبيب واقرب من كلّ قريب وما عندكم علم انّ اخانا بابا منصور كان عرض له غرض ضعيف جدّاً اراد ان يطلبه لاخينا بابا عبد الله وحضر في المجلس منصور بن المزوار ولم يُرِدْ بابا منصور لفطنته ان يذكر ذلك حتّى يشاور فيه من بازائه لئلاّ يكون في ذكر ذلك بمحضره عيب فشاور فيه القائد دحّ بن فرج كان بازائه فقال له هذا الرجل برّانيّ فلا تطلب شيـاً قدّامه على انّ منصور بن المزوار هذا كان مع اسلافنا من اقرب ما اليهم من خواصّ الخدّام اهل بساطنا محبّة وقرباً لانّه كان سلف له معهم حرمة عظيمة فقد كان عدواًّ للترك وبينه وبينهم ارواح كثيرة وحضر مع اخينا بابا حمّ الحران جميع ما كان في تلك البلاد من الوقائع العظام وغيرها ايّام استيلائه على المغرب الاوسط ثمّ مع بابا عبد القادر كذلك وشرب معهم الحلوة والمرّة ولمّا جاء من تلمسان جاء باولاد منها راجلاً كما جاء منها بابا عبد الله باولاده وكما جاء منهم خدّامنا اهل هذه البلاد وما زال على الخدمة والوفاء وحسن العهد حتّى حصلت له حرمة عظيمة مع اسلافنا وناهيك بمن بلغ الى ان قلّدوه تازى ثمّ بلاد الفحص التى لا تعطى كلتاهما الاّ لاقرب الخدّام الموثوق بمحبّتهم وقربهم وخدمتهم ومع بلوغه الى هذا المبلغ كلّه محبّة وصداقة وهجرة وانقطاعاً حتّى انّه في دخول رءيس الترك لفاس رحل باولاده الى هنا مع السلطان كما فعل اهل هذه البلدة وحين دخلنا نحن ايضاً من جهة الشرق لفاس رحلوا ايضاً مع صاحب الجبل لمرّاكش ولا يعدوا انفسهم من هذا الجانب ابداً في الحديث ثمّ انّ الناس استعاروا ان يطلبوا اقلّ المسائل بمحضره وقالوا انّه برّانيّ فضلاً عن هولاء الذين لم يزالوا الى اليوم في بلاد العدوّ يباكرونه ويراوحونه فاذا بكم تنزلون معهم الى ان تطالعوهم على اموركم ويتوصّلون الى المعرفة باحوالكم فما تمالكنا لهذه المسالة ومن جملة الامور التى غاظتنا وقلنا كيف يتوصّل الرجل البراني الى امثال هذه فانّ على بن محمّد كان يتكلّم يوماً معنا واخذ يثنى عليكم في نجدتكم وصبركم عند الشدّة

وسخائكم عند الحاجة ثمّ قال الاّ انّ الخيل ليست عنده لا في الحركة الاولى ولا في الثانية لانّ القبائل اهل الخيل امتنعوا من الحركة معه وهى التى غاظتنى وقلت كيف يتوصّل الرجل البرّانيّ الى امثال هذه حتّى انا ما وجدنا الاّ الردّ عليه وعكس ما عرفنا انّهم اعتقدوه وقلنا لهم نسبة التقصير اليكم ولا اعتقادهم خلو البلاد من الخيل لانّنا فهمنا منهم ذلك ولهذا اجبته وقلت له انّ ولدنا لم يعط لهم شيأً واعطى لمن لا يستحقّ من ضعفاء القوّاد المعروفين باكل المال من غير مصلحة وعدم المخازنيّة ولو اعطى لتلك القبائل لحصرها عليه لانّ اولاد مطاع عندهم من الخيل نحو الثلاثة الاف وعند اولاد ابي عزيز نحو الالف والنصف وعند العزفي وعند اولاد عمران وعند عبدة وعند الشياظمة وعند اولاد ابي راس وعند احمر وعند المنابهة اهل سايس وعند المنابهة اصحاب عمر بن محمّد بن عبّ وجعلت اعدّ له قبائل اهل سوس وقبائل مرّاكش واحصى له خيلهم بما ابهته وقلت له لو انصفهم لحرّك منهم ستة عشر الفاً واكثر ويكون قد ملا بهم تلك البلاد وسال عليها منهم سيل عرم لا في الحركة الاولى ولا في الثانية ولو وجّه اليهم المحرّكين والرماة لتوجّه لهم ايضاً بما لا طاقة لهم به منهم ولا خلاص والى هذا فانّا نوصيكم وندبكم الى المحافظة من اولائك الناس ومن رفع الحجاب لهم عن اموركم والاطلاع على احوالكم وعدم الغفلة عن مثل هذا واعلم ان من جملة ما بلغنا ايضاً انّ الخلط كلّهم رجعوا رماة على يد مصطفى مع حديث عهدهم بالفساد والخلاف وكنّا انتشبنا معهم بالعودات فاذا بهم اليوم بالمدافع وعدّة النار وهل هذا ممّا يجوز عليكم حتّى تسمحوا فيه مع انّ هذه المسائل ليست بغائبة عنكم حتّى تسمعها بالسماع فقط ولا طويلة العهد حتّى تنساها بل بالامس شاهدت وباشرت ورايت فما الذي انساك فعلهم وما زال جرحهم الان لم يبر لانّ خروج القائد مومن الخارج الان ما كان الاّ اليهم والان نوكّد عليك ان تنقضهم من الخدمة ولا تسمع لمصطفى ولا لغيره في هذه المسالة وقد سمعت ايضاً ان قوّاد الفساد

الذين عندكم من اولاد حسين قد صارت حلّتهم من باب الخميس الى دار الدبيغ وكانّكم نسيتم ايضاً عمل اولاد حسين بالامس دون بعد من النهب وما اضرموا من نار الفساد والعبث في البلاد حتّى ينزلوا تلك المنازل والى هذا فساعة وصوله اليك تقبض على قياد الفساد هولاء خصوصاً احمد بن عبد الحقّ من اولاد يحيي بن غانم الذي كان ابوه حاجباً عند المرينيّ فهو اصل الفساد ثمّ لا تترك لقبائلهم جناحاً واحداً وتزيد للقائد مؤمن بن ملوك الف رام ليستوفى بكم الغرض في هولاء وامثالهم من كلّ ما قاوموه به لانّ بقاء الرماة هنالك ما فيه الّا الاشتغال بالفساد بالمدينة فتحتاج ان تتولّاهم بالقتل كلّ يوم باطلاً فكان خروجهم اذّاك دفعاً لمضرّتهم وجلباً للمصالح بهم اولى وحتّى الكاتب اللائق بامثالكم ورسائلكم لم يكن عندكم الان فانّ كتبكم تاتي بخطّ سالم وهو غير عارف بالانشاء وتارة بخطّ الكرنيّ وهو جاهل مع انّك كنت خليفتنا ووليّ عهدنا فانت بصدد ان يكتب لك كلّ احد امّا صاحب الجزائر وامّا صاحب تونس وحتّى صاحب الترك وصاحب النصارى وكلّ من يكتب لنا من ملوك الارض بصدد ان يكتب لك فتحتاج حينئذ الى من يحسن الجواب عنك لكلّ من يكتب اليك ويكون ايضاً ممّن يوثق به في المحافظة على اسراركم والى هذا فلا بدّ من تعيين قائد المحلّة وحاجب وكاتب سرّك واصحاب مشورتك وصاحب المظالم كما هو عندنا سيّدي علىّ بن سليمان واعلم انّ ممّا نحتاج ان ننبهك اليه مسالة القياد الذين يريدون ان يحملوك اثقال اولادهم مثل ما فعلت في اولاد القائد بركة واخوته الذين استخدمتهم وعملت لهم خمساية اوقية فنوكّد عليك الّا تستخدم منهم احداً فما اعطينا له سلا الّا ليرفع فيها اولاده واخوته وكذلك الحكم في امثاله من كلّ ما اعطيناه عملاً وقلدناه القيادة ومن جملة من نحذرك من استخدامه في الرماة اهل الجبال من اهل الصحفة والدينار فلا تستخدم منهم احداً والّا فاعلموا انّكم ما اردتم ان يعطوا لكم حينئذ ولا ان يغرموا لكم بعد شيأً واذا اردتم الخدمة فما هم اهل هذه البلاد مثل اهل

سوس واهل درعة واهل مرّاكش فكلّ ما تستخدمون من هولاء فلا عليكم واذا لم يكن هولاء وكان ولا بدّ من غيرهم فمن اهل فاس سكّان الحاضرة وامّا من عداهم فلا على انّ الرماة اهل سوس ها هى هنا عندنا كثيرة فكلّما تريد منهم عرّفنا به نبعثهم ونضيفهم الى خدمتك ونوكّد عليك ان تكاتبنا بجواب هذه الامور كلّها فصلاً فصلاً مع المملوك الحامل لهذا الكتاب ان شاء الله ولا بدّ وهذا موجبه اليكم والله يحرس بمنه علاكم والسلام وفي مهلّ جمادي الاولى من عام احد عشر والف

ذكر الخبر عن سفر المنصور من مرّاكش لفاس

حرّسها الله وسبب ذلك

تقدّم انّ الشيخ المامون بن المنصور كان خليفة لابيه على فاس الّا انّه اساء السيرة واضرّ بالرعية وكان فسيقاً خبيث الطوية مولعاً بالعبث بالصبيان مدمناً للخمور سفّاكاً للدماء غير مكترث بامور الدين من الصلاة وشرائطها ولمّا ظهر فساده وتبيّن للناس عواره نهاه القائد ابراهيم السفيانيّ وزير ابيه عن سوء فعله فلم ينته واستمرّ على قبحه فاعاد عليه فلمّا اكثر عليه من التقريع والتوبيخ سقاه السمّ فكان فيه حتف ابراهيم وكان ممّا انكر عليه انّه قبض على كاتب ابيه ابي عبد الله محمّد بن عيسى المتقدّم الذكر ووظّف عليه مالاً وبزّه ذخائره واخذ ماله حتّى كان ممّا اخذ فيه ثمانين حسكة مذهّبة ومائة تخت من الملف المختلف الالوان فلمّا كثرت قبائحه وتردّدت الشكاية به لابيه كتب له ان ينكف عن غيّه وينزجر عن خبثه وسوء رايه فما زاده التحذير الّا اغراء فلمّا راى المنصور انّه لم يكترث بامره ولم يزدجر عن جنايته وشرهه عزم على التوجّه لفاس بقصد ان يمكر به ويودّبه بما يكون رادعاً له فسمع الشيخ بذلك فجمع

عسكره وهيّا جنده ودفع المرتب لاصحابه وعدّد جيشه فكان فيما قيل اثنين وعشرين الفاً كلّهم بكساوي الملف والحرير على احسن شارة واكمل زيّ وعزم ان بلغه مخرج ابيه من مرّاكش ان يتوجّه في اصحابه الى تلمسان ويستجير بالاتراك فلمّا بلغ المنصور ما عزم عليه الشيخ من الذهاب الى تلمسان تخلّف عن الخروج من مرّاكش فصار يلاطفه ويامره الّا يفعل وولّاه سجلماسة ودرعة وتخلّى به عن خراجهما وقال له قد سوغتكه ولا اطالبك به ومراده بذلك كلّه ان تسكن نفرته ويرجع اليه عقله فاظهر الشيخ امتثال الامر وخرج يوماً مارّاً لسجلماسة فما انفصل عن فاس بشيء يسير حتّى رجع لها وعاد لما كان عاكفاً عليه فبعث المنصور اعيان مرّاكش وعلماءها فنصحوه ووعظوه وخوّفوه سخط والده وحذّروه من العقوق ولم يالوا جهداً في النصيحة له فوجدوه مشغول القلب عن نصائحهم معمور الذهن بخلاف قولهم الّا انه اظهر الرجوع عمّا كان عازماً عليه من النفار من ابيه وقصر في الظاهر عن قبائحه فرجع الاعيان والعلماء للمنصور لمرّاكش وقالوا له انّه تاب وحسنت حالته واطمانّت نفسه وانّه وافق عند الامر والنهى فلم يطمئن المنصور لقولهم وقال لهم لعلّ هذا اصلاح للشحناء وكذب لاصلاح الخاطر ثمّ لم يلبث المنصور ان يبعث لولده زيدان وكان خليفة بتادلا يامره ان يرسلماية من الفرسان على طريق تاقبالت وكلّ من وجدوه قاصداً للغرب من ناحية مرّاكش يردّوه وارسل مولاه مسعوداً لدوران يقف على طريق سلا ويفعل مثل ذلك وخلّف ولده ابا فارس على مرّاكش وخرج حينئذ المنصور من مرّاكش في اثنى عشر الف من الخيل وكان خروجه في اوائل جمادي الاولى عام احد عشر والف وجدّ السير فلم تمض الّا ايّام قلائل حتّى نزل بالداروج موضع قريب من مكناس وفاس والشيخ في جميع ذلك لا شعور له بخروج ابيه ولا بما هو عليه فبعث يوماً عيونه يرصدون له من قدم من مرّاكش ويكشفون له عن الخبر فما راعهم الّا الاباطح سائلة باعنّة الجياد وافواه الشعاب تقذف الجيوش

من بطون الاودية لانّهم قد عميت عليهم الانباء بقطع المنصور للسابلة فرجعوا للشيخ مسرعين والرعب يفتّ في اعضائهم ويطفى لدبرة عزائمهم فقصّوا عليه ما دهمهم واخبروه بما راوا فعلم انّه محاط به فلم يمكنه الاّ الفرار فركب من حينه وهرب لزاوية الوليّ الصالح ابي الشتاء ببلاد فشتالة قرب نهر ورغة وكان سيّدي ابو الشتاء قد توفّى قبل ذلك بما يقرب من خمسة عشر سنة لانّ وفاته كانت سنة سبع وتسعين وتسعماية كما في المرءات بالموحّدة في الاول والمثناة في الثانيين فنزل بالزاوية ومعه بطانته واصحاب دخلته من الاحداث واتباع السوء فبلغ خبره للمنصور فوجّه له الباشا جودر والقائد منصور النبيليّ وحلف لهما باغلظ الايمان ان لم ياتيا به ليمكرنّ بهما ويجعلهما عبرة فذهبا اليه فامتنع من الدخول في يدهما وانعزل باصحابه حتّى تراموا بالنبل وناوشهم القتال فقبضوا عليه في حكاية طويلة فامر به المنصور ان يسجن بمكناس فسجن بها ودخل المنصور لدار الملك من فاس الجديد وشكر الله على ما اولاه من الظفر به والنصر عليه من غير اراقة دم وتصدّق لذلك باموال عظيمة ثمّ ان امّ الشيخ الخيزران بعثت الى اعيان مرّاكش الذين قدموا مع المنصور ترغبهم ان يستشفعوا لولدها عند ابيه ويعتذروا عنه بما يزيل ما في خاطره عليه فتقدموا للمنصور ورغبوه وطلبوا منه السماحة له والتجاوز عنه وقالوا له انّ الشيخ تاب لله عمّا كان عازماً عليه وانّه ندم على ما فرط وصلحت حاله فقال لهم المنصور اذهبوا لمكناس واختبروا امره كائناً ما كان وانظروا هل رجع عن اباطيله وتنصّل من اضاليله ام لا فلمّا اتوه وجدوه اخبث ممّا تركوه وعاينوا منه من القبائح ما يقصر عن وصفها اللسان فلمّا جلسوا معه في محبسه لم يسالهم عن شيء الاّ عن اصحاب بطانته وقرناء السوء من اهل غيّه وخلالته ولم يظهر الاسف الاّ على تلك العصابة وراهم اهل الاصابة وكان من الاعيان الذين وجّههم المنصور لذلك اوّلاً واخراً اولاد سيّدي ابي عمر القسطليّ واولاد سيّدي عبد الله بن ساسى واولاد سيدي يحي بن بكّار وغيرهم فلمّا رجعوا من مكناسة

الى المنصور سالهم عن الخبر فنافق بعضهم وقالوا وجدناه تائباً نادماً على ما صدر منه وتكلّم اولاد عبد الله بن ساسي وقال بعضهم والله لا داهنت في حقّ الله ولا واجهت امير المؤمنين بالخديعة وقال له انّ ولدك والله لا تاذن لك ان تؤمّره على شي ولا تحكّمه على عيال الله سبحانه فانا وجدناه خبيث الطوية قبيح السريرة والنيّة لم يندم على ما فرط ولا تاب عن فعل وشطط فسكت الحاضرون ولم يتكلّم احد فقال لهم المنصور افتوني في امر هذا الولد فلم يجبه احد الّا باشته السيّد عبد العزيز بن سعيد الوزكيتيّ فانّه قال الراى ان تقتله فانّه لا يجبر امره ولا يرجى صلاحه وخيره وقد رايت ما صنع فلم يعجب المنصور ذلك وقال كيف اقتل ولدي فبعث بالتضييق على الشيخ والزيادة في الحبس عليه وخرج المنصور فنزل بمحلّته بظهر الزاوية قاصداً لمرّاكش واستخلف ولده زيدان على فاس ومن هنالك كتب المنصور رسالة لولده خليفته على مرّاكش ابي فارس يعلمه بما وقع في ذلك ونصّها من اوّلها الى اخرها : الى ولدنا الاجل الارضى الافضل المرتضى الامجد الاسمى الاسعد الاسنى بابا ابي فارس وصل الله كمالكم وسنّى بمنّه امالكم سلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد فكتابنا هذا اليكم اسعدكم الله من محلّتنا السعيدة بالمستقى ولا ناشىء الّا ما جرت به الاقدار وحكم به الفاعل المختار ويحاً به من عجائب الدهر الليل والنهار وهو قضية اخيكم التى ثارت اليّ بها صروف الدهر من مكمني وطلعت على مأمني الّا ان الله تعالى بصنعه الجميل كفانا اوّلاً ثمّ شفانا اخراً له الحمد دائب وله الشكر واجب وشرح ذلك اسعدكم الله ووقاكم السوء كان انتهى في معالجة امره الذي تجاوزنا في وجه الخير اليه حدّ الاستقصاء واتينا في محاولة استصلاحه من احوال السياسة المرجوة النجح ما لا يحصى الى ما كنّا سوّغناه من ولاية سجلماسة بخراجها وخراج درعة وابحنا له التوجّه اليها بجملته وجمعه رجاء ان تسكن بالانتباذ اليها نفرته وتطمئن نفسه ويثوب اليه قلبه الطائر ويراجعه انسه النافر فاظهر اوّلاً التوجّه اليها ونهض مرتحلاً عن فاس موريّاً

شان القدوم عليها ثمّ بدا له في الحين وكرّ راجعاً لفاس ورجونا ان يكون قد ذهب عنه النفار والشماس وآب لنفسه السكون والاستيناس فاذا به في رجوعه قد انطوى على خلاف ما اظهر وابدى غير ما اضمر فما كان الاّ ان وصله خبر نزولنا بالداروج فلم يتمالك ان اقلع ليلة الخميس خامس عشر شهر تاريخه اقلاعاً ازعجه من الدعر فريداً وطارت به النفرة الى ان حلّ بزاوية ابي الشتاء وحيداً فتلاصق به رماته الانكشارية ومتفرّقة سماسرة الفتن وطلائع الشوم والمحن جمع عظيم وعدد كثير بريم فبادرت حينئذ تجهيز جودر باشا من غير اغفال في خمسماية صبايحية ومعه القائد مؤمن بن ملوك في خمسماية فارس ثمّ اردفناهما ببعوث اخر تتثال اليه وتتاثلت عليه تناهز الالفين من رماة بابا زيدان حفظه الله فاذا هو قد احدقت به من كلّ الجهات وملكوا عليه الفجاج والثنيات ونحن مع ذلك خلال هذه الاحوال لم نهمل مقابلة نفرته بالتسكين وما يخشى من احواله بالتلقين بارسال المرابطين بمواثيق تهنّيه وعهود تونّسه وتقرّب امانيه رجاء ان ينوب اليه نائب الاستبصار ويخطر له خاطر اقلاع عمّا هو عليه واقصار وقرناء السوء المتلاحقون به من جيشه يقدحون للشرّ ناراً ويزيّنوا له عقوقاً ونفاراً فدهمتهم بعد ذلك عساكرنا المظفّرة بالله في مصافهم دونه ودارت بين الفريقين حرب عظيم فخدمت النار من وقت الظهر الى اوان العصر فاظهر الله فئة الحقّ على فئة الباطل وقضى بما جرى به القضا المحتوم الحاكم العدل وكتبناه اليكم وقد حصل في القصبة كما سبق به القضاء والقدر واجبر بمكان الاحتياط عليه بمكناسة الزيتون فكانت مشيئة الله في ذلك من احدى العجائب والعبر وعرّفناكم اسعدكم الله لتشعروا صنع الله في هذه الداهية التى فجات بها الايّام ودهمت والمفاجاة التى اعتكرت وادهمت وتقدروا ما صنع الله في ذلك من حسن العاقبة حقّ قدره ونشكره فهو الجدير بحسن حمد كلّ انسان وشكره ونسال الله تعالى ان يجعلنا في حيز الكفاية وجانب الوقاية حتّى لا نساؤا بقريب مامون ولا ببعيد مظنون وفي ليلة الثلاثاء موفى

عشرين من جمادي الاولى عام احد عشر والف ووقفت على رسالة كتب بها المنصور اليه ايضاً في فاس مجيبـاً له عمّا كتب به اليه في شان الوباء لمّا ظهر بمرّاكش صانها الله هل يفرّ منه ام لا ونصّهـا من عبد الله تعالى المجاهد في سبيل الله الخليفة الامام امير المؤمنين ابي العبّاس احمد المنصـور بالله ابن امير المـؤمنين ابي عبد الله محمّد الشيخ المهـدي ابن امير المـؤمنين ابي عبـد الله محمّـد الشيخ القـايم بامر الله الشريف الحسنىّ ايّد الله بعزيز نصره اوامره وظفّر عساكره واسعد بمنّه موارده ومصادره الى ولدنا الاجلّ الاعزّ الافضل الابرّ الارضى الاكمل الاسعد الامجد الاحفل بابا ابي فارس وصل الله عنايتكم ووالى بمنّـه رعايتكـم سلام عليكم ورحمة الله وبركاته امّا بعد فكتابنا هذا اليكم من حضرتنا العلية بالله المرينيّة البيضاء حاطهـا الله عن الخير والعافيـة ونعم الله تعالى المتوالية لله الحمد وله المنّة وانّه اتّصل بعليّ مقامنا كتابكم الاعزّ عشية يوم الثلاثاء فكتبنا لكم صبيحة يوم الاربعاء ولولا انّه وصل يوم الديوان هذا ما كنّا نؤخّر كتب الجواب على ساعة وصوله في اليوم بنفسه حرصاً منّا بذلك على المبادرة بوصوله اليكم في الحين والى هذا اسعدكم الله اوّل ما تبادرون به قبل كلّ شئ هو خروجكم اذ لاح لكم شئ من علامـات الوباء ولو اقلّ القليل حتّى بشخص واحد ويبقى في القصبة وصيفنا مسعود والقائد محمّد بن موسى بن ابي بكر واترك ماية رام تتقوّى بها من رماتكم مع اصحاب السقيف وتوكّلوا على الله وتخرجوا بسلامة ثمّ لا تعملوا كعملنا في الاقتصار على الرحلية والتغلب بها بل لاتزيدوا اذا خرجتم على المقـام اكثر من يومين ثمّ اطووا المراحل الى ان تنزلوا سلا وتدخلوا بها دخول هناء وعافية ان شاء الله تعالى وهناك يكون لقاؤنا بكم لقاء يمن وسعادة ان شاء الله ثمّ لا تغفلوا عن استعمال الترياق اسعدكم الله فالزموه اذا استشعرتم منه بحرارة وتخوفتموهـا فاستعملوا الوصف من الوزن المعروف منه ولا تهملوا استعماله وامّا ولدنا حفظه الله لمّا كان من سنّ الشيبيّة فحيث يمنعه الحـال من المداومة على الترياق فهـا هى

الشربة المعروفة النافعة لذلك قد تركناها كثيرة هنالك عند التونسيّ فيكون يستعملها هو والابناء الصغار المحفوظون بالله حتّى اذا احسّ ببرد المعدة من اجلها تعطوه الترياق المرّة والمرّتين على قدر الحاجة فيعود اليها والله تعالى بفضله وبحرمة صفوة خلقه خير البشر سيدنا محمّد صلّى الله عليه وسلّم يتولّى حمايتكم ويسبل عليكم من جميل كلاءته ورعايته حصناً منيعاً ويعافى البلاد والعباد بمنّه وفضله والسلعة اسعدكم الله تبادرون بارسالها الينا وكذلك القائد مسعود النبيليّ تعزمون بارساله حيث امرناه بالقيام به من خندق الوادي في سوس وطريق تجظشت اسعدكم الله ساقط ارضنا ان امرها يتمّ وقبل عقلنا الكريم انّ اهل درن يحدّثون بسببها ولكن هذا سبب يكون حجّة عليهم ان شاء الله وانتم تحاولون اسعدكم الله على ان يكون سلوك الناس على طريق بوبيارن على العادة وان تجهدوا في ان تكون ان شاء الله سابلة اولائكم اعنى اهل طريق تجظشت ينهكث عنهم حتّى نصل بخير وعافية لتلك البلاد ان شاء الله تعالى ومسالة ابيي التى كتبت لك من خندق الوادي على الزرع وانهم ما عندهم ما يكفيهم منه سوى شهر فلقد كنّا كتبنا لكم اسعدكم الله على حمل الزرع اليهم على البحر فان كان قد تيسّر ذلك فيكون قد بلغ اليهم وان لم يكن ذلك قد تيسّر فلتامر ابيي هذا بالتدبير على الزرع ولو بالشراء والزموه عهدته وشدّوا عليه في امره وخالنا القائد احمد بن محمّد الذي استاذنكم على الخروج عن ذلك المرض من الحضرة المحمّدية فاذا تفاحش فلا عليه في الخروج ويلتحق باهل تلك المحلّة بخندق الوادي ويترك في القصبة الاندلس مع قائدهم ومسالة مومن بن منصور هكسيمة الذي ذكرتم اسعدكم الله ان مومناً المذكور قد تناقل بذمّتنا بسبب مرض الم به حتّى جاء به شاوش وان اخاه ذلكم المفسود بعث اليه ليلتقى معه بتامصلوحت فعلى بركة الله تعالى والحاضر بصير وهذا موجبه اليكم والله يصل بمنّه رعايتكم والسلام وفي يوم الاربعاء الرابع عشر من ربيع الاوّل المعظّم عام احد عشر والف وبعد ان كتبنا لكم هذا بلغنا كتابكم ونحن نجيبكم

على كلّ ما تحتاجون الى الجواب عنه والبراءة التى ترد عليكم من سوس من عند الحاكم او من عند ولد خالكم او من عند غيرهما لا تقراها ولا تدخلها داراً بل تعطيها لكاتبكم هو الذي يتولّى قراءتها ويعرفكم مضمنها ولاجل ان الكاتب يدخل عليكم ويلابس مقامكم فلا يفتحهـا الّا بعد ادخالهـا في خلّ ثقيف وتنشر فتيبّس وحينئذ يقراها ويعرفكم مضمنها اذ ليس ياتيكم من سوس والله سبحانه وتعالى اعلم بموجب الكتمان عن مثل كتابكم وقد طالعنـا كتاب ولد خالكم احمد بن محمّد الصغير وصحّ عندنا من بحر كلامه ما ذكرتم عنه من انّه كثّر خبر الوباء ليجد ذريعة للخروج من سوس والذي تامرونه به انكم تحذرونه من القدوم عليكم لمرّاكش وان ذلك لا يرضينا منه وكيف يروم الخروج من موضع عيّنّاه له من غير امرنا لاسيّما مع غيبتنـا عن البلد وانّه ان فعل ذلك لا محالة تسقط منزلته عندنا ثمّ لايعود اليها ابداً الّا ان تفاحش المرض بتلكم الناحية فلا عليه في الخروج والتنقّل قرب البلدان يلتحق بمحلّة اصحابه الذين بخندق الوادي وامّا ما ذكرتم عن محمّد بن عبد الرحمن الورديّ فقد طالعنـا الجريدة التى جرّد لكم وتصفّحناها وراينا انّ جلّ ما يطلبه بها لا يمكن مع غيبتنا والذي نامركم به في مسالته انّكم تحـاولون في ردّه لموضعه كانّه بذلك الموضع اليق من اخيه بكثير وكلّ ما يمكنكم من اغراضه المسطرّة بجريدته ان تقضوه فاقضوه له وما لا يمكنكم عدوه به عند قدمنـا ان شاء الله وامّا امر اخى احمد بن الحسن الذي عيّنّاه بحيـاته درعة وذكرتم انّه غير لاحق بهـا وانّكم استصغرتموه عن تلك العمالة فلا شكّ انّه كما ذكرتم لكن انّما وقع الاختيار عليه لامرين الاوّل الذمّة لانّه بماله فلا يخشى ان شاء الله على مالنا الثاني ان خراج درعة سهل معلوم ولعلّه يكره هذه الولاية ويحبّ الجلوس بداره ويغرى من يتكلّم فيه عندكم فان كان من ذكره عندكم مثل مسعود اوتاديّ فاتهمهم وقد طالعنا جريدتكم وانّكم وجّهتم مع زرع المعـاصير ماية رام وهذا الذي ذكرتم ما نعلم انا كتبنـا لكم عليه قط وانّما كتبنا لكم على الزرع تحملونه في البحربذمّة المحلّة التى هنـالك

بخندق الوادي فان كان هو هذا فنحن اردناه للمحلّة وان كان غيره فعرفنا بقضيته
فان زرع المعاصير انّما يلزم اليهود والنصارى وفيها ايضاً ما اخبركم به احمد بن محمّد
بن موسى بخبر ما سقط من القنطرة وانّكم عنفتموه على عدم المبادرة وقد اشكل
علينا الامر كونكم لم تعرفوا مقامنا بالساقط هل هو من القديم او من هذا
الاصلاح الذي امرنا به فعرّفنا لنكون على بصيرة من ذلك وفيها ايضاً مسالة
اولاد طلحة فدبّروا عليهم اماما عند ايسى او غيره حتّى لا يرجعوا الينا
شاكين وولد ابراهيم بن الحدّاد الى الان لم يصل وزمام الاسارى وصل واما
الدرقة التى ذكرتم بها المعتلية المعدّة لها عند صاحب بيت ثيابنا فوجّه ليوسف
العبدي حتّى تكلمه ومره يخرجها من عندها وركّبها في موضعها ولا تركب التى
عندكم بل امسكوها لانفسكم واعلم انّي تركت عند اولائك المعلّمين اعنى بركاض
السلاتى برسم ابنتنا العزيزة طاهرة صانها الله وكلاها وحيث فرغوا من الدرقة
اجمعهم عليهم كى نجد ذلك طالعاً ان شاء الله فانا قد امرنا بنسج دراريع تلك
السلاتي هنا والمراد ان نجد السلاتي قد فرغ منهم ان شاء الله وقصر الخيل مع
الحمّام حرض المعلّمين على المبادرة باشتغالهما وحاول ان يسقفوا تلك البلاط
الذي يوالي سور القصبة من قصر الخيل والقبّة التى فيها لنجدوه كاملاً ان شاء
الله عند قدومنا عليكم حتّى سواري الرخام ركّبوهم في تلك الجهة اذا سقفتم
ولاتزالوا تعرفونا بما تزايد من الاشغال في الموضعين المذكورين واوصيكم اعزكم
الله ان تتفقدوا فرسنا الاحمر الصغير ولا تتركوهم يعطونه الفصيل لئلّا يكثر
لحمه ويزاد المه بل انظر له من يركبه كل يوم بل لا ينزع السرج بالكلّيّة عن
ظهره بياض النهار كلّه واعطوه لصاحب المسرّة يركبه في ذهابه وايابه للمسرّة او
لداره واوصوه الّا يركبه غيره وان لا ينزل عن ظهره النهار كلّه واوصيكم
ايضاً اذا ظهر المرض بتلك البلاد وخرجتم خروج خير وسلامة بحول الله
وقوّته الّا تتركوا وراءكم ابنة عمّكم والدة ولدنا العزيز بنت عبد المالك حفظه
الله وامر يوسف العبديّ ان يخرج لك من عند صاحب بيت الثياب القدر

المحتاج من الترياق الجديد الذي كان بقبّة المشور ودخل على ايديكم لدارنا السعيدة واستدعوا امّ المان قهرمانية الدار واعطه لهما برسم دارنا وامرها ان تعطيه لهنّ في كلّ رابع من اليوم الذي ياكلونه فيه وهى ايضاً تاكل منه والعبديّ يوسف ياكل ايضاً منه وحتّى صاحب السقيف اعطوه منه اعنى مسعود بن مبارك والله سبحانه يرعاكم ويتولّي حفظكم انتم واولادكم وقد استودعناكم الله الذي لا يضيع ودائعه وانتم في امان الله وحفظه والله تعالى خليفتى عليكم انتم في يمين الرحمن وكلتا يديه يمين والسلام الاتمّ معاد عليكم ورحمة الله وبركاته ونسلّم على ولدنا الاعزّ الارضى بابا عبد المالك وعلى ابنتنا المرضيّة سيدة الملوك ونحن في غاية الا شتياق والتوحّش اليكم جمع الله الشمل بكم امين بحرمة سيّدنا محمّد صلّى الله عليه وسلّم وآله خير آل

ذكر الخبر عن وفاة المنصور

رحمه الله وكيفيّتها

كان ابتداء مرض المنصور رحمه الله بمحلّته في ظهر الزاوية موضع بظاهر فاس الجديد قريب منه يوم الاربعاء الحادي عشر من ربيع النبويّ الانور المبارك من عام اثنى عشر والف فدخل في محلّته راجعاً الى فاس الجديد والتزم الفراش الى يوم الاثنين الموالي لتاريخه فتوفّى رحمه الله ودفن يوم الاثنين عند صلاة العصر وكانت وفاته بالوباء قال الشيخ سيّدي عبد الرحمن بن يعقوب السملاليّ في شرحه لجامع شامل بهرام كان بالمغرب وباء استطال وطال من عام سبعة والف الى عام ستّة عشر والف وعمّ سهل المغرب وجباله حتّى افنى اكثر الناس ومات جمع من الا عيان وبه مات السلطان ابو العبّاس احمد المنصور عام اثنى عشر والف ونحو هذا ذكر صاحب الفوائد وغيره وبه يعلم ان ما

شاع على الالسنة من انّ المنصور سمّه ولده زيدان باشارة من امّه الشبانية في باكورة اوّل ظهوره وقطع عنه الاطبّاء الى ان هلك وانّ المنصور لمّا احسّ بذلك قال له استعجلتها يا زيدان لا هنّاك الله فيها او كلاماً هذا معناه قالوا وبسبب ذلك لم تنصر لزيدان راية فانّه هزم في زهاء سبع وعشرين معركة لا اصل له وهو كذب محض لانّ المنصور طعن بالوباء ولم يذكر احد ممّن يوثق به ذلك بل انّما شاع ذلك على السنة العامّة واضرابها من الطلبة ولمّا توفّى المنصور رحمه الله ودفن بعد صلاة العصر من يوم الاثنين بفاس العليا ونقل بعد ذلك لمرّاكش فدفن بها في قبور الاشراف وقبره شهير هنالك عليه بناء جميل وممّا نقش في رخامة على قبره هذه الابيات

هذا ضريح من غدت — به المعالي تفتخر
احمد منصور اللوا — لكلّ مجد مبتكر
يا رحمة الله اسرعى — بكلّ نهر تستمر
وباكر الرمس بها — انّ رضاه منهمر
وطيّبي ثراه من — ندّ كذكره العطر
وافق تاريخ الوفا — ة دون تقييد ذكر
مقعد صدق داره — عند مليك مقتدر

ورايت في بعض المقيّدات ان بعضهم راى المنصور في المنام بعد وفاته فساله ما فعل الله بك فاجابه بهذين البيتين ولم يذكرهما فقال صاحب كتاب الاصليت كنّا نسمع انّ السلطان المنصور اذا خرج من مرّاكش قاصداً مدينة فاس فانّه لا يرجع لمرّاكش وشاع هذا الخبر في الناس وذاع فكان الامر كذلك ثمّ لا ادري من اين للناس بذلك هل انطقهم الله به واجراه على السنتهم او عن علم تلقّوه عن اربابه وكانّه الاشبه والله اعلم قال ومن هنا ما ذكر بعضهم ايضاً

لكن بعد الوقوع والنزول ان دخول راية السلطان ابي العبّاس في حياته للسودان واستيلائه على سلطانها سكية في دار امارته كاغوا مع تينبكت باعمالها كلّ ذلك من امارات قرب خروج الامام الفاطمىّ المهديّ وكذلك الوباء في بعض هذه الاعوام وكثرة الهرج والغلاء في سائر البلاد حتّى الان وبقى من امارات خروجه فيما نسمع فتح وهران امّا على يده او عن اذنه فيما يقوله من لا علم عنده بحقيقة الامر وبمثل هذا الاساطير قد يفتن الغرير وليس الخبر كالمعاينة عند البصير ونعوذ بالله من اخذ فاس كما يقوله بعض الاخباريّين من الناس وقد ادهش الاسلام اختلاف الملوك من بنى احمد المنصور لانّهم قالوا ذلك من كبائر الاعلام وامارير التمام والتخمين مردود وعلم الحقيقة مفقود والباب مسدود والمفتاح غير موجود والامر المحتوم المعهود للملك الحقّ المعبود

ذكر الخبر عن تنازع اولاد السلطان ابي العبّاس المنصور

على الملك وما وقع بينهم في ذلك من التهالك والهلك

لمّا توفّى المنصور رحمه الله وفرغ من دفنه اجتمع اعيان فاس وكبراؤها واهل العقد والحلّ فيها على بيعة ولده زيدان وقالوا ان المنصور خلّفه في حياته ومات في حجره وممّن تصدّر لذلك قاضى الجماعة ابو القاسم بن ابي النعيم الغسانيّ بفاس والفقيه ابو الحسن علىّ بن عمران السلاسىّ والاستاذ سيّدي محمد الشاوي والشيخ النظّار ابو عبد الله محمّد بن قاسم القصّار ويحكى انّ القاضى المذكور قام في الناس خطيباً وقال امّا بعد السلام عليكم فانّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لما مات اجتمع الناس على ابي بكر الصديق رضى الله عنه ونحن كذلك نفعل فقد مات مولانا احمد رحمه الله وهذا ولده مولانا زيدان هو اولى بالملك من اخوته فنبايعه فبايعوه الحاضرون وكانت مبايعته يوم الاثنين السادس عشر من ربيع

الاوّل النبويّ سنة اثنتى عشر والف ثمّ كتب اهل فاس لاهل مرّاكش بالمبايعة لزيدان فامتنعوا منها وبايعوا ابا فارس بمرّاكش يوم الجمعة الموالي للتاريخ المذكور واسمه عبد الله وكنيته ابو فارس ويلقّب من الا لقاب السلطانية الواثق بالله وكان عظيم البطن اكولاً مصاباً بمسّ الجنّ ويقال انّه لذلك ابتنى المسجد الجامع بجوار ضريح الشيخ العارف بالله ابي العبّاس السبتيّ وشيّد بناءه وشحن الخزانة التى بقبلة الجامع المذكور بنفائس الدفاتر وتحف الكتب كلّ ذلك رجاءً ان تعود عليه بركة ذلك الوليّ بالبرء من تلك العلّة وتقدّم انّ امّه اسمها الجوهر ويقال الخيزران وذكر في المنتقى ابياتاً من انشاء الكاتب عبد القادر بن احمد بن بالقاسم الفشتاليّ ممّا كتب تطريزاً على نجاد الواثق بالله مولاي ابي فارس المذكور وهى هذه بنصّها

اتيه وازري بكلّ نجاد   يروق على حلّة اللابس
اذا كنت يوم الوغى محملاَ   بعضب حكى شعلة القابس
على عاتق الملك المرتضىّ   سليل الوصىّ ابي فارس

وبعد امتناع اهل مرّاكش من بيعة زيدان ووقوع بيعتهم لابي فارس كثر في ذلك القيل والقال حتى صدرت فتوى من قاضى فاس ومفتيها تصريحاً بحديث اذا بويع الخليفتين فاقتلوا الاخر منهما وكان زيدان لمّا توفّى ابوه كتم موته وبعث من يقبض له اخاه الشيخ المسجون بمكناسة فمنعه من ذلك الباشا جودر وحمل الشيخ موثوقاً الى مرّاكش فدفعه لاخيه ابي فارس شقيقه فلم يزل مسجوناً عنده هكذا ذكر بعضهم وقال في شرح زهرة الشماريخ في علم التاريخ انّ زيدان لمّا اشتغل بدفن والده تحيّل القائد احمد بن منصود العلج فذهب بنصف المحلّة وخرج قاصداً مرّاكش وسرّح الشيخ من اعتقاله وذهب به الى اخيه ابي فارس فسجنه فلم يزل مسجوناً عنده الى ان بعث الباشا جودر لمقاتلة

زيدان لفاس فلمّا بلغ زيدان وادي امّ الربيع سرّح الشيخ من سجنه وقال له ولاصحابه جدّوا السير الليلة حتّى تصبحوا محلّة جودر بامّ الربيع وكان ابو فارس جهز جيشاً لمقاتلة زيدان وامّر عليه ولده عبد المالك مع الباشا جودر فقيل له انّ اخاك زيدان رجل شجاع عالم بمكائد الحروب وخدائعها وانّ ولدك عبد المالك لا يقدر على مقاومته فلو سرّحت اخاك الشيخ لكان اوثق للامر لانّ اهل الغرب يميلون له ولا يقاتلونه لانّه كان الخليفة عندهم فاطلقه ابو الفارس من ثقاف السجن وتعاهد معه على النصيحة والطاعة وعدم شقّ العصا عليه وبعثه في ستماية من جيش المتفرّقة الذين كان المنصور جمعهم ليبعث منهم الى كاغوا من عمالة السودان فلمّا بلغ الشيخ لمحلّة عبد المالك وعلم الناس به هرعوا اليه واظهروا الفرح به وكانت الملاقاة بينه وبين زيدان في موضع يقال له مواتة من وادي امّ الربيع فانهزم زيدان وخدله اكثر جيشه ورجعوا مع الشيخ وكرّ زيدان منقلباً الى فاس وكان ابو فارس اوصى اصحابه بالقبض على الشيخ ان وقعت الهزيمة على زيدان فلمّا وقعت الهزيمة على زيدان انعزل الشيخ بمن تبعه من اهل الغرب فلم يقدر له احد من اصحاب ابي فارس على شئ ثمّ توجّه الشيخ الى فاس متبعاً اثر زيدان فلمّا بلغ زيدان فاساً وراود اهلها في الحصار والدفع امتنعوا عليه وجاهروا بنصر الشيخ واعلنوا ببيعته والاذعان له فخرج زيدان عنهم بحشمه واثقاله فتبعه جيش عظيم من اصحاب ابي فارس فلم يقدروا له على شئ وذهب زيدان قاصداً الى تلمسان حتّى وصل وجدة اقام بها مدة ثمّ رجع لسجلماسة ثمّ لدرعة ثمّ للسوس ودخل الشيخ لفاس وتلقّاه اهلها ذكوراً واناثاً واظهروا الفرح لقدومه فدعى لنفسه واستبدّ بالملك وامر جيش اهل مرّاكش ان ينقلبوا الى بلادهم فذهبوا وكان الشيخ لمّا تمّ له غرضه من الاستبداد بالخلافة والانفراد بالسلطنة دعا بالشيخين الفقيهين قاضى الجماعة بفاس ابي القاسم بن ابي النعيم ومفتيها ابي عبد الله محمّد بن قاسم القصّار فلامهما على مبايعة زيدان وقولهما فيه وفي اخيه ابي فارس انّ اولاد الاماء لا يتقدّمون على

اولاد الحرائر وكان ابو فارس والشيخ ولديْ امة اسمها الخيزران ويقال الجوهر وزيدان امّه حرّة شبّانيّة وعزم ان يمكر بهما ثمّ بعث بهما مع جيش مرّاكش الى اخيه ابي فارس لينظر فيهما برايه فامّا الشيخ القصّار فتوفّى رحمه الله في الطريق على مقربة من مرّاكش فدفن بقبّة القاضى عياض وذلك اواسط اثنى عشر والف وامّا القاضى ابو القاسم بن ابي النعيم فاجتمع بابي فارس فصفح عنه وقبل عذره وردّه مكرماً الى فاس هكذا ذكر بعضهم وقيل انّ الذي بعث للشيخ القصّار هو زيدان على وجه يخالف هذا والله اعلم ثمّ انّ الشيخ اشتغل بالقياد من اصحاب ابيه فنهب ذخائرهم واستصفى اموالهم وعذّب من اخفى شياً من ذلك ودعى بالتجّار فاستسلف منهم واظهر من الظلم وسوء السيرة وخبث السريرة ما هو شهير به ثمّ انّه جهّز جيشاً لقتال شقيقه ابي فارس بمرّاكش وكان عدد الجيش نحواً من ثلاثة الاف وامّر عليه ولده عبد الله فسار بجيشه فوجد ابا فارس بمحلّته بموضع يقال له اكليم ويقال في مرس الرماد فوقعت الملاقاة بينهما واقتتلا قتالاً شديداً كانت الهزيمة فيه على ابي فارس وقتل من اصحابه نحو المائة ونهبت محلّته وفرّ هو بنفسه الى مسفيوة ودخل عبد الله بن الشيخ مرّاكش فاباحها نهباً لجيشه فنهبت ديارها واستبيحت محارمها واشتغل هو بالفساد ومن يشابه اباه فما ظلم حتّى يحكى انّه زنى بجواري جدّه المنصور واستمتع بحظاياه واكل رمضان وشرب الخمر فيه جهاراً وعكف على اللذّات والقى جلباب الحياء عن وجهه وكان ذلك كلّه في العشرين من شعبان عام خمسة عشر والف ثمّ انّ زيدان كان لمّا هرب من فاس حسبما بيّنّاه قبل قصد تلمسان فلم يزل مقيماً بها وكان بعث الى ترك الجزائر ليستعين بهم على اخوته فابطئوا عليه وطال عليه انتظارهم فلمّا يئس منهم توجّه الى سجلماسة فدخلها من غير قتال ولا محاربة ثمّ انتقل منها الى درعة ومن درعة انتقل الى سوس كما سلف فكتب اليه اهل مرّاكش ان ياتيهم ولو وحده فتوجّه اليهم فقدم عليهم ليلاً فلم يفجأ عبد الله بن الشيخ الا

نداء اهل مرّاكش بنصر زيدان وتحزّب اهل مرّاكش مع زيدان وقتلوا قائد الشيخ وهو عبد الله اعراص وخرج عبد الله بن الشيخ بجيوشه فحاصرهم اهل مرّاكش بين اسوار الاجنّة فقتل بموضع يعرف بجنان بكّار من اصحاب عبد الله بن الشيخ نحو الخمسة الاف وخمساية وامر زيدان بقتل من تخلّف عن عبد الله من جيوشه فقتل من وجد من جيوش اهل فاس بمرّاكش ثمّ انّ عبد الله ذهب مهزوماً ولمّا دخل على ابيه الشيخ مفلول العساكر مهزوم الجموع غاظه ذلك واحزنه ما راى فرام ان يهيّء عسكراً اخر ويجدّد جمعاً ثانياً فلم يجد لذلك طاقة لفراغ يده من الاموال وقلّة ذخائره واستحي ان يستسلف من التجّار لانّه كان تسلّف منهم فلم يردّ لهم ما تسلّف منهم فلمّا راى ذلك قلب لقياده ظهر المحن وعكس لهم القضية فنهب اموالهم واستسلب ذخائرهم وصار يفرّقها على التجّار فجمع في ذلك اموالاً عريضة وفرّقها على الجيش وتهيّا عبد الله للمسير لمرّاكش وكان اهل فاس قد غضبوا لما قتل منهم بمرّاكش ما قتل ونادوا باخذ ثارهم حتّى انّ بعضهم خرج مع عبد الله بن الشيخ من غير اخذ راتب ولا جامكية فخرج عبد الله بن الشيخ من فاس بجموع عديدة وجيوش حافلة مديدة ولمّا بلغ خبره زيدان وهو بمرّاكش بعث للقائد الباشا مصطفى في جيوش كثيرة من اهل مرّاكش ونواحيها فالتقى الجمعان بموضع يقال له وادي تفلفلت على طريق سلا فكان بينهما قتال عظيم وقعت الهزيمة على مصطفى فقتل من جيوش مرّاكش نحو التسعة الاف وبعث الشيخ جماعة من عدول فاس لموضع المعركة حتّى احصوا القتلى ثمّ توجّه عبد الله لمرّاكش فخرج له اهلها في نحو ستّة وثلاثين الف مقاتل فالتقى الجمعان ايضاً بموضع يقال له راس العين فانهزم اهل مرّاكش وفرّ زيدان منها الى المعاقل المنيعة والجبال الشامخة ودخل عبد الله لمرّاكش ايضاً ولمّا دخل عبد الله مرّاكش فعل في المدينة اعظم من فعلته الاولى وهرب شرذمة من اهل مرّاكش الى جبل جيلز واجتمع هنالك منهم عصابة من اهل الحمية والنجدة والنفوسيّة فلمّا

اجتمع منهم من ذكر اجمعوا رايهم على ان يقدّموا للخلافة عليهم مولاي محمّد ابن مولاي عبد المومن ابن السلطان مولاي محمّد الشيخ المهديّ وكان رجلاً ديّناً خيراً صيّناً وقوراً مهاباً فبايعه اهل مرّاكش هنالك فخرج عبد الله بن الشيخ الى مقاتلتهم بجبل جيلز واخذ اميرهم المذكور فلمّا التقى الجمعان وقعت الهزيمة على عبد الله وولّى اصحابه الادبار فخرج من مرّاكش مهزوماً واستولى محمّد بن عبد المومن على المدينة وصفح عن الذين تخلّفوا من اهل الغرب من جيش عبد الله واعطى الراتب فلم يعجب ذلك اهل مرّاكش وعنفوا عليه استيفاءه عليهم وكانوا نحو الالف ونصف فكتبوا سرّا الى زيدان فاتاهما وخيّم نازلاً على المدينة فخرج محمّد بن عبد المومن الى لقائه فالتقيا وكان بينهما حرب شديد هزم فيه ابن عبد المومن ودخل زيدان الى مرّاكش وصفح ايضاً عن الفئة المختلفة عن عبد الله بن الشيخ وذكر في شرح زهرة الشماريخ انّ هذا الثائر المبايع بجبل جيلز اسمه ابو حسّون من اولاد السلطان ابي العبّاس احمد الاعرج المتقدّم الذكر قال وكان بعث مصطفى وخرّجوه من مرّاكش في شعبان عام ستّة عشر والف قال وكانت الهزيمة على عبد الله بن الشيخ سادس شوال من السنة فخرج هارباً وترك محلّته وانفاضه وعدّته وجلّ الجيش وخرج على طريق تامسنا وامتحن اصحابه في ذهابهم حتّى كان مدّ القمح عندهم بثلاثين اوقية والخبزة من نصف رطل بربع مثقال ولم يزل اصحابه ينهبون ما يمرّون عليه من اهل الخيام واهل العمود ويسبون البنات وكان وصولهم لفاس في الرابع والعشرين من شوال السنة ثمّ في اخر ذي الحجّة من السنّة حرك عبد الله ايضاً قاصداً لمرّاكش فالتقى الجمعان بوادي بوركّراك فهزم عبد الله وفرّ في رهط قليل من اصحابه وترك محلّته فعفى زيدان عن الناس وكان ذلك في شوال عام سبعة عشر والف ثمّ بعث زيدان الباشا مصطفى امامه لفاس فبلغها ونزل عليها فخيّم بظهر الزاوية ووجد لاصحابه زروعاً كثيرة ففرّقها مصطفى في اصحابه ثمّ ارتحل مصطفى ينوي القبض على الشيخ وولده

عبد الله وابي فارس وولده عبد المالك اذ كانوا كلّهم بالقصر الكبير فلمّا بلغ الشيخ خبره ركب البحر من العرائش مع قوّاده ووالدته فقبض مصطفى على من وجد بالقصر الكبير من اصحابهم وفرّ عبد الله وابو فارس فنزلا بموضع يقال له سطح بنى وارثين فبلغ خبرهما زيدان فقدم ونزل قبالتهما بموضع يقال له اروارارت ففرّ الجيش عنهما الى زيدان وهرب عبد الله وابو فارس حتّى وصلا لدار ابن مشعل فلم يزالا بها الى ان رحل زيدان لمرّاكش بسبب ما بلغه من ثوران بعض القيّام هنالك فقدم حينئذ عبد الله وابو فارس من دار ابن مشعل قاصدين فاس فخرج مصطفى لمقاتلتهما فتقاتلا قتالاً طويلاً فعثر به فرسه وسقط عنه فاخذ وقتل ومات معه ما لا يحصى من الناس واخذت محلّته باسرها ووقع النهب حتّى انتهبت من البقر التى للبانة نحو الستّة الاف فدخل عبد الله مدينة فاس مع عمّه ابي فارس وكان ذلك كلّه سابع ربيع الثاني عام ثمانية عشر والف

ذكر الخبر عن مقتل ابي فارس

وبقية من اخباره

كان ابو فارس لمّا هزمه زيدان اوّلاً فرّ الى السوس فاقام به عند صاحب ابيه عبد العزيز بن سعيد ثمّ لمّا بالغ زيدان في طلبه فرّ الى اخيه الشيخ فلم يزل مع ابنه عبد الله بن الشيخ الى ان قتل عبد الله مصطفى ودخل مدينة فاس واستولى عليها كما ذكرناه قبل آنفاً فاتّفق راى قوّاد الشراقة على قتل عبد الله وتولية عمّه ابي فارس فبلغ ذلك عبد الله فدخل على عمّه ابي فارس ليلاً مع حاجبه حمّ بن عمر فوجده على سجّادة وجواريه حوله فاخرجهن وامر بعمّه فخنق وهو يضرب برجليه الى ان مات وذلك في جمادي الاولى

سنة ثمان عشرة والف فاسف الناس عليه لانّه كان يردّه عن كثير من القبايح وينهاه عن فعل المناكر ولا يرضى منه افعاله الخبيثة والحول والقوّة بالله والامر الى الله

ذكر الخبر عن السلطان الشيخ بن المنصور

وما وقع الى حين خلعته وقتله

كان من خبر الشيخ ما انتهى ذكرنا له قبل وانّه هرب الى العرائش ومنها توجّه الى العدوة من ارض العدوّ مستصرخاً بطاغية الروم دمّره الله فابى ان يمدّه فراوده على ان يترك عنده اولاده وحشمه رهناً ويعينه بالمال والرجال فلم يكترث به الى ان شرط عليه ان يخلى العرائش من المسلمين ويملّكها للنصارى فقبل الشيخ ذلك والتزمه وخرج حتّى نزل حجر بادس وذلك في ذي الحجّة عام ثمانية عشر والف فاقام بها مدّة وكان الشيخ لمّا خرج في حجر بادس ونزل بلاد الريف ذهب علماء فاس واعيانها كالفقيه القاضى ابي القاسم بن ابي النعيم والشريف الوجيه المنيف النزيه ابي اسحاق ابراهيم السقلىّ الحسنىّ وغيرهما لملاقاته وتهنيته بالقدوم فلمّا بلغوه فرح بهم وامر قبطان النصارى ان يضرب بانفاضه ارهاباً واظهاراً لقوّة النصارى الذين استصرخ بهم فضربها حتّى اصطكت الاذان وارتجّت الجبال ونزل القبطان من السفينة للسلام على الاعيان فلمّا راوه مقبلاً امرهم الشيخ بالقيام له فقاموا له اجمعون وجازوه خيراً على ما فعل بالشيخ من الاحسان والنصرة وسلّم هو عليهم بنزع قلنسوته كعادة النصارى وانكر الناس على اولائك الاعيان قيامهم للكافر وضربوا بعصا الذلّ والهوان من الملك الديان حتّى انّهم في رجوعهم لفاس تعرّض لهم عرب الحياينة فسلبوهم واخذوا ما معهم وجرّدوهم من ملابسهم جميعاً ما عدى

القاضى ابي القاسم بن ابي النعيم فانّه عرف بزيّ القضاء فاحترموه ثمّ انّ الشيخ انتقل لقصر عبد الكريم فاقام به مدّة وراود روساءه وقوّاد جيشه ان يقفوا معه في تمكين العرائش للنصارى ليفى له الطاغية بما وعده من النصرة بالمال والرجال فامتنع الناس من اسعافه على ذلك ولم يوافقه على غرضه احد الاّ قائده الجرني فانّه ساعده على ذلك فبعثه الشيخ لها وامره ان يخليها ولا يدع احداً بها من المسلمين فذهب الجرني فكلّم اهلها في ذلك فامتنعوا من الجلاء عنها فقتل منهم عدّة وخرج منها الباقون تخفّق على رؤسهم الوية الذلّ والصغار وهم يبكون ولمّا خرج منها المسلمون اقام بها القائد الجرني الى ان احتلّ بها النصارى وذلك في رابع رمضان المعظّم عام تسعة عشر والف ووقع في قلوب المسلمين من الامتعاض من اخذ العرائش امر عظيم وانكروا ذلك اشدّ الانكار وقام الشريف احمد ادريس الحسنىّ ودار على مجالس العلم ونادى بالجهاد والخروج لاغاثة المسلمين بالعرائش فانضاف له اقوام وعزموا على التوجّه لذلك فبعث في عضدهم قائده حمّ المعروف بابي دبيرة وصرّف وجوههم عمّا قصدوه في حكاية طويلة وكان الشيخ لمّا خاف من الفضيحة وانكار العامّة والخاصّة عليه اعطاؤه العرائش بلاد الاسلام للكفّار احتال على ذلك بان كتب سؤالاً لعلماء فاس وغيرها يذكر لهم فيه انّه لمّا وغل ببلاد العدوّ الكافر واقتحمها كرهاً باولاده وحشمه منعه النصارى من الخروج من بلادهم بعد ان دخلها حتّى يعطيهم بلاد العرائش وانّه ما تركوه خرج بنفسه حتّى ترك عندهم اولاده رهناً حتّى يمكّنهم ممّا ارادوه فهل يجوز ان يفدي اولاده من ايديهم باعطائها لهم ام لا فاجابوه بان فداء المسلمين سيّما اولاد امير المؤمنين سيّما اولاد سيّد المرسلين وخاتم النبيّين سيّدنا ومولانا محمّد صلّى الله عليه وسلّم من يد العدوّ الكافر باعطاء بلد من بلاد المسلمين للعدوّ جائز وانّا موافقون على ذلك . ووقع هذا الاستفتاء بعد ان وقع الاعطاء وما اجاب به من اجاب من العلماء عن ذلك الاّ خوفاً على نفسه وقد هرب جماعة من الفتوى كالامام

ابي عبد الله محمّد الجنان صاحب الطرر الشهيرة على المختصر وكالامام ابي العبّاس احمد المقّريّ مؤلّف نفح الطيب فاختفيا مدّة مديدة استبراءً لدينهما حتّى صدرت الفتوى من غيرهما وبسبب هذا الفتوى ايضاً هرب جماعة من علماء فاس للبوادي كالامام سيّدي الحسن الزياتيّ شارح الجمل والامام الحافظ ابي العبّاس احمد بن يوسف الفاسيّ وغيرهما والحول والقوّة بالله ثمّ انّ الشيخ نزل بالفحص واجتمع عليه الناس من اهل الدعارة والفساد والعتو والعناد فعتى في البلاد على عادته ورحل لتطاون فاخذها وخرج منها المقدّم احمد النقسيس هارباً ولم يزل يجول في بلاد الفحص الى ان تمالا اشياخ الفحص على قتله لما راوا من انحلال عقده ورقّة ديانته وتمليكه بلاد الاسلام للكفار فقتله المقدّم محمّد ابو الليف غدراً بمحلّته بموضع يعرف بفجّ الفرس وبقى مطروحاً مكشوف العورة ايّاماً حتّى خرج جماعة من تطاون فحملوه ودفنوه مع من قتل من اصحابه كالدبيريين وبعض اولاده خارج تطاون الى ان حملا لفاس الجديد مع امّه فدفنا به وكان قتله خامس رجب سنة اثنتين وعشرين والف ويقال انّ قتله كان باشارة الثائر ابي العباس احمد بن عبد الله المعروف بابي محلى وانّه كتب للمقدّم احمد النقسيس والمقدّم محمّد ابي الليف يحضّهما على قتله فقتلوه وانتهبوا ماله وكان له مال معتبر ومن جملة ما نهب له نحو مدّين من الياقوت وباقى ماله وسق سفينة تركه بطنجة فاستولى عليه النصارى لما قتل بجرى القدر المحتوم وكان الشيخ عفا الله عنّا وعنه له مشاركة في العلوم ويد في مبادي الطلب اخذ عن اشياخ الحضرتين ومن شعره ما رايت بخطّ بعض الافاضل مغزوّاً اليه لغز في قول ابن مالك في الالفيّة ينصب تمييزاً

اسائل قرّاء الخلاصة كلّهم عن امر غريب قد بدا لي اذا قرى
على الحال وهو اسم بدا لي نصبه الا فهو تمييز فذا اعجب الامر

ومن كتّابه الاديب الفقيه المشارك المتفنّن ابو العبّاس احمد بن محمّد ابن القاضى

محمد الغرديس التغلّبي وكان من الاجادة والتبريز في صناعة الانشاء قال الشيخ سيّدي العربيّ الفاسىّ في شرحه لدلائل الخيرات عند قوله كان لي جار نسّاخ ما نصّه وقد كان الشيخ الكاتب الرايس ابو العبّاس احمد بن محمّد الغرديس شيخ كتّاب الانشاء بحضرة فاس امّنها الله استعار منّى كتاب الانباء في شرح الاسماء للاقليشىّ ثمّ مرض مرض موته فعدته فوجدت الكتاب عند راسه ومعه كراريس منسوخة واخرى معدّة للنسخ فقال لي اذا وجدت راحة كتبت منه ما قدرت عليه فاذا غلبنى ما بي امسكت فقلت ولمَ تكلّف نفسك بذلك فقال لي انّي عصيت الله بهذه الاصابع ما لا احصيه فرجوت ان يكون ما اعانيه على هذه الحالة من نسخ هذا الكتاب خاتمة لعملى بها وكفارة لذلك قال فكمل الله قصده وتمّ الكتاب وتوفّى رحمه الله من مرضه ذلك وقد طال به من عام تسعة عشر الى عام عشرين والف وعلى كلّ حال فالنسخ من الحرف المهمّات والاشغال العلميّات . وله يقول الشاعر

تمتّعت يا غرديس والدهر راقد ... وانت بفاس وابن جبّور واجد
لسعدك راحت خيزران لقبرها ... مصائب قوم عند قوم فوائد

ذكر الخبر عن اوّليّة الثائر الفقيه القائم ابي العبّاس احمد بن عبد الله المعروف بأَبي مَحَلِّي وما كان من امره وانتهائه بقتله

قال هو في كتابه اصليت الخريت في قطع بعلوم العفريت كانت ولادتي بسجلماسة عام سبعة بموحّدة وستّين وتسعماية والذي تلقّيته من ابى وكافة عمومتى انّ اولاد ابي محلى من ذرّيّة السيّد العبّاس بن عبد المطّلب رضى الله عنه وذكر لي بعض قوّاد ابي العبّاس المنصور انّ بعض خواصّ المنصور ذكر له

انّ بيده كتاباً في الانساب نصّ فيه على ذلك وقد لقيت طالباً لا اتهمه بالكذب كما لا ابريه من الغلط ذكر لي انّه كان بيده كتاب في الانساب نقل فيه ان قبيلتنا اولاد ابى محلى منسوبة فيه الى عبد الله ابن جعفر وانهم خرجوا من مكناسة لسجلماسة بقصد تعليم الناس الدين والعلم ولهم اخوة بناحية تلمسان يقال لهم مكناسة فسالته الكتاب فقال لي انّه احترق في منزله وما كذبته ولكن خفت عليه من الغلط في عبد الله بن جعفر بابي جعفر المنصور العبّاسىّ وقد قال لي استاذي وهو ابو العبّاس سيّدي احمد بن ابي القاسم الصومعىّ التادليّ قد طالعت مختصر الذيل لابن السمعانيّ عام واحد وثمانين وانّه راه بمرّاكش فذكر فيه في اولاد ابي محلى وجهين امّا مغراوة وامّا لمتونة وقد يقال يمكن الجمع بينهما لانّ مغراوة قالوا اصلهم من قيس غيلان وقيس من مضر وهم العرب العاربة اي القديمة قال وامّا جدّنا الاشهر المكنّى بابي مُحَلّى بفتح الميم والحاء واللام المكسورة المشدّدة بعدها ياء تحتيّة ساكنة مع كبير شهرته لا علم لي بسبب تكنيته بذلك ولا بتفاصيل احواله وعن ذلك كلّه كان يحثى الحثيث كما كتبت فيه كما مرّ لنسّابة وقته الشيخ التادليّ رحمه الله قال وبخطّة القضاء اشتهر نسبنا في بلادنا فنعرف باولاد القاضى وزاويتنا بزاوية القاضى ولم تزل بقية العلم في دورنا وخصوصاً دار ابي في اخوتي وبنيه فلمّا نشات في حجر والدي بذل مجهوده في تعليمى وقد رات امّى وهى حامل بي وليّاً من اولياء الله تعالي احد شيوخ التربية ببلدنا وهو سيّدي علىّ بن عبد الله قد سقاها قدحاً من لبن وارجو الله سبحانه وتعالى صدق تاويلها بالعلم والدين وحقّ اليقين وكان خروجى لطلب العلم بفاس في حدود سنه ثمانين وتسعماية وانا يومئذ مراهق او بالغ لا همّة لي الّا في العلم ولا شغل لي الّا بالحفظ والفهم فاقمت بفاس كذلك اربع سنين او خمساً الى ان جاء النصارى لوادي المخازن كما ذكرنا قبل فدهش الناس واستشرتُ من الطلبة اخاً صالحاً فدلّنى على الخروج للبادية حتّى يجلى نهار الامن والعافية فخرجت الى بادية العسل والسمن وهى اجذيحرة

فحفظت فيها الرسالة وقد كنت ما حصلت بفاس الّا نحواً ولا نزعت من بيره الّا دلواً ثمّ رجعت لفاس بعد ان زال الدهش بولاية المنصور وهزيمة النصارى والنحو صنعتى وفى الفقه رغبتى احاوله حفظاً واقدمه لفظاً وقد كنت في الخرجة الاولى للبادية زرت قبر الشيخ المستجاب عنده الدعاء ابي يعزى فطلبت الله عنده ان اكون من الراسخين في العلوم باسرها وتوبة منّى يتقلّبها فما دار علىّ حول الّا وانا بزاوية الشيخ سيّدي محمّد بن مبارك الزعريّ لا عن قصد لكوني اذّاك مولعاً بالعلم وطريق الفقر لا تخطر ببالي لانّ المعتمد يومئذ في الفقراء خلاف الظنّ فكنت اشدّ الناس حذراً منهم الى ان انكشف الستر وانحسر فرايت ما رايت الى ان وعيت فصاحبت شيخى الذي لولا هو من فضل الله لهلكت ولولا هدايته باذن الله لضللت وكيف لا وهو الذي انقذني الله به من بحر هواي المضلّ ودلّنى به عليه برحمته في اصحاب الصراط السوي ابيعبد الله سيدي محمّد بن مبارك الزعري القبيل الجراري السبيل وفي القرون عاشري الجيل وهو رضى الله عنه من قبيلة عرب بالمغرب يقال لهم زُعَيْر بصيغة التصغير والنسب اليه على التكبير وقد سمعت من شيخ مسنّ في القبيلة المذكورة يذكر انّ سبب تسمية جدّهم بزُعَيْر انّه كان يحرث على جمل وفرس معاً فقال للاوّل في زجره زع لانّها كلمة تساق بها الابل وقال للثاني وهو الفرس ري بكسر الراء كما انّ زع بفتح الزاى لانّها كلمة تساق بها الخيل وتزجر فلمّا نطق بهما معاً لقّب بهما ثمّ غلب على السنة العامة اليوم تصغير زعير قال الشيخ المذكور وكان اسم الزعريّ قبل ذلك سليمان ثمّ غلب لقبه على اسمه وزعم مع ذلك انّه اخو بربش واشبان تنسب لكلّ واحد منهم الى الان قبائل شتى من عرب سوس بالمغرب الاقصى فبقيت في صحبة شيخى المذكور نحواً من ثمانية عشر عاماً وما فارقته بالمرسوم الّا عن امره اذ هو الذي وجّهنى لبلاد سجلماسة من غير اختيار قائلاً لي انّ صلاحهم فيك ثمّ ناولنى عصاه وبرنسه ونعله من غير طلب منّى لشىء من ذلك وجعل في راسى قلنسوة كالخرقة بيده اليمنى عند الوداع فلمّا استوطنت

بلدي عن امره زرته منها نحواً من اثنى عشر مرّة وفي الاخيرة منهـا عند مقفلى من الحجّة الاولى التى في حياته السعيدة وذلك عام اثنين بعد الالف دعا لي بقوله بلاك الله اكثر ممّا بلاني فتاوّلته باقبال الخلق عليّ كما تري وقد صاح عندها صيحة عظيمة وما كانت من عادته ومـا رايت منه مثلها منذ صحبته لطمانينته ولمّـا توفّى ايّده الله وقدّسه بقيت نحواً من ثلاث سنين عاطلاً ثمّ تجلّى التجريد بنور لطائفه الموعود بها فله الحمد على ما اسدى وله الشكر فيما اهدى ثمّ ذكر بقية اشيـاخه كالمنجور وسيّدي احمد بابا السودانيّ وغيرهم ممّن يطول بنا تتبّعه قال ثمّ كملت الفـائدة بعد المقفل من الحجّ فلمّا اظلّنى شهر رجب من عام واحد او اثنين والف اجتمعت بالالف الصديق الثقفى ابي يحيي الفاسيّ وكذلك البدخشى من بخـارى على نخبة ابن حجر ثمّ رجعت لزيارة الديار المغربيّة الى وادي الساورة ثمّ تحوّلت بجميع عيالي للوادي المذكور هذه ملخصة اوّليّته رحمه الله من كتابه المذكور وهو كتاب مفيد وقفت عليه في مجلّد ومنه انتقينا هذه العجالة والله وليّ التوفيق والهادي لِأَقْوَم طريق

ذكر الخبر عن استحالة دلوه غرفاً

وملئه الدنيا عياطاً شرقاً وغرباً

قال الشيـخ الفقيه ابو العبّاس احمد التواتيّ رحمه الله في رسالته التى سمّاها مقام التجلّى والتخلّى من صحبة الشيـخ ابي مَحَلّى وهى رسالة طويلة مسجعة وقفت عليها بخطّ مؤلّفها ما نصّه كان الفقيه ابو العبّاس احمد بن عبد الله ابو محلى في اوّل امره فقيهاً صرفاً ثمّ انّه انتحى طريق التصوّف مدّة حتّى وقع على بعض الاحوال الربّانيّة ولاحت عليه مخائل الولاية الرحمانيّة فانحشر الناس لزيارته افواجاً وقصدوه فرادى وازواجاً وبعد في البلاد صيته وكثرت اتباعه قال

فلمّـا سمعت بذلك ذهبت اليه وجلست عنده مدّة الى ان وجدته يشير الى نفسه بانّه المهديّ المعلوم المبشر به في صحيح الاحاديث فتركته وراء ونبذته بالعراء . وذكر ابو عليّ اليوسيّ في المحاضرات انّ ابا العبّاس احمد ابا محلى كان ذات يوم عند استاذه ابن المبـارك قبل ذلك فورد عليه وارد حال فتحرّك وجعل يقول انا سلطان انا سلطان فقال له الاستاذ يا احمد هب انّك سلطان انّك لن تخرق الارض ولن تبلغ الجبـال طولاً وفي يوم اخر وقع للفقراء سماع فتحرّك وجعل يقول انا سلطان فتحرّك فقير اخر في ناحية وجعل يقول ثلاث سنين غير ربع فكان الامر كذلك . ويذكر انّه لمّاطاف بالبيت في وجهته الحجازيّة سمع وهو يقول يا ربّ انت قلت وقولك الحقّ وتلك الايّام نداولها بين الناس فاجعل لي يا ربّ دولة بينهم ولم يسال حسن العـاقبة فرزق الدولة فآل به الحال الى ما ابرمته الاقدار وكان فقيهاً جليلاً له قلم بليغ ونفس عالية وله تآليف منها الوضاح والقسطـاس والاصليت ومنجنيق والصخور في الردّ على اهل الفجور رايته بخطّه وجواب الخرّوبيّ على رسالته الشهيرة لابي عمر المرّاكشيّ وغير ذلك وله شعر وسط وسوّلت له نفسه انّه يقدر على القيام بوظيفة تغيير المنكر فاصيبت مقاتله من ذلك وهو لايدري وقال شيخ شيوخنا ابو عليّ اليوسيّ رحمه الله في المحاضرات له كان ابو محلى المذكور مصاحباً لابن المبارك التاستاوتيّ في الطريق حتّى حصل له منها نصيب من الذوق والّف فيها كتبـاً تدلّ على ذلك ثمّ نزغت به هذه النزغة فحدّثوا عنه انّه في اوّل امره معاشراً لابن ابي بكر الدلاءيّ وكان البلد اذّاك قد كثرت فيه المناكر وشاعت وفشا المنكر في الوقت فقال احمد بن عبد الله لابن ابي بكر ذات ليلة هل لك في ان تخرج غداً الى النـاس فنامر بالمعروف وننهى عن المنكر ونكون قد قدمنـا بوظيفة تغيير المنكرات فانّها قد شاعت وفشت فابي عليه ابن ابي بكر ولم يساعفه لما راى من تعذّر ذلك لفساد الوقت وتفـاقم الشرّ وقال له انّ شروط تغيير المنكر لم تتوفّر فلمّا اصبحا خرجا فامّا ابن ابي بكر فانطلق ذاهباً الى ناحية النهر

يغسل ثيابه وازال شعثه بالحلق وعمر اوقاته باوراده وادّى صلواته في اوقاتها واما ابن ابي محلى فتقدّم لما همّ به من الحسبة فوقع في شرّ وخصام وافضى به الحال واداه الى اخراج الصلاة عن الوقت ولم يحصل على طائل فلمّا رجعا بعد المغرب الى ماواهما واجتمعا بالليل قال له ابن ابي بكر امّا انا فقد قضيت مآربي وحفظت واديت صلاتي في وقتها وانقلبت في سلامة وعافية وصفاء ومن اتى منكراً فالله حسيبه او نحو هذا من الكلام وامّا انت فانظر ما الذي وقعت فيه ثمّ لم ينته عن ذلك ولم يلبث الى ان ذهب الى بلاد وادي الساورة من بلاد القبلة ودعا لنفسه واظهر انّه ما حمله على ذلك الّا كثرة المناكر وتفاقم البدع ولم يقتصر على ذلك وادّعى انه المهديّ المنتظر وانّه بصدد الجهاد فاستخفّ قلوب العوام فتبعوه وكان رحمه الله يكاتب رؤساء القبائل وعظماء البلدان يامرهم بالمعروف ويحضّهم على الاستمساك بالسنّة ويشيع انّه الفاطميّ وانّ من تبعه فهو الفائز ومن تخلّف عنه فهو موبق وربّما كان يقول لاصحابه محرضاً لهم على نصرته انتم افضل من اصحاب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم لانّكم قمتم بنصر الحقّ في زمن الباطل وهم قاموا به في زمان الحقّ او نحو هذا من زخاريف كلامه والى هذا اشار الفقيه ابو زكرياء يحي بن عبد الله بن سعيد بن عبد المنعم الحاحيّ في بعض قصائده معرضاً بابي محلى المذكور ومحذراً من حاله فقال

يا امّة المصطفى الهادي اليس لكم ... فيمن مضى اسوة من سائر العلما
اتحسبون بانّ الله يترككم ... سدى وخلقكم قد تعلمون لما
ناشدتكم بالذي في العرض يجمعكم ... اما فطنتم ومالاه كمن علما
بانّ مغربكم قد عمّه سخط ... من المهيمن يالله معتصما
ان قيل للناس ان الهرج يوبقكم ... قالوا الفقيه فلان قبلنا حرما
لو لم يكن جازماً افتى الامام به ... ولا اتاه الاجلّ ابن الذي هدما
ومن يقل قال خير الخلق قيل له ... ها صاحب الوقت يكفينا الذي علما

ونحن افضل من صحب الرسول لنا اجريضاً عفّ في اجبارنا نظما
وزخرفوا نزهات الحال فانفعلت له قلوب عوام رشدها عدما

وقد وقعت بينه وبين يحي بن عبد الله هذا مراسلات ومهاجات نظماً ونثراً كقوله

ايحي الخسيس النذل مالك تدعى قصوراً شعاراً للفحول الاوائل
كدعواك من بيت النبوّة نسبة وانت دنيّ من اخسّ القبائل
ووجهك وجه القرد اقبح ما يرا وراسك راس الديك بين المزابل
وشدّك تعمياً كراس عجوزة من الروم اقعدت لغسل المنادل

ويزعمون انّ يحي كان معاشراً لابن ابي محلى في زمن الطلب بالمدرسة بفاس وللعاقبة فيما وقع بينهما من الامور السخريّة ما انزه كتابي هذا عن تسطيره والله يسامح الجميع بمنّه

ذكر الخبر عن دخوله سجلماسة ودرعة ومرّاكش

وما وقع في ذلك كلّه

كان ابو محلى رحمه الله لمّا كثرت جموعه واتباعه وتعدّدت اشياعه وانثال الناس لزيارته صرخ فيهم بوجوب القيام بتغيير المنكر التى شاعت في الناس وذاعت وجعل يقول انّ اولاد المنصور قد تهالكوا في طلب الملك حتّى فنى الناس فيما بينهم وانتهبت الاموال وانتهكت المحارم فيجب الضرب على ايديهم وكسر شوكتهم ولمّا بلغه ما فعل الشيخ ابن المنصور من اجلاء المسلمين عن العرائش واخلائها منهم وبيعها للعدوّ الكافر استشاط غضباً واظهر انّه غضب

لدين الله واهله لا حمية وتعصّباً فخرج الى سجلماسة يوماً بقصد اخذها وكان خليفة زيدان عليها رجل يسمّى الحاجّ المير فخرج عامل زيدان المذكور لمصادمته وهو في نحو اربعة الاف وابو محلى في نحو اربعماية مقاتل فلمّا تراءا الجمعان كان الدائرة على جيش عامل زيدان واشاع الناس انّ الرصاص يقع على اصحاب ابي محلى بارداً لا يضرّهم فسكنت هيبته في القلوب وتحرّك له ناموس عظيم ولمّا دخل سجلماسة اظهر العدل وغيّر المناكر وقدمت عليه وفود اهل تلمسان والراشديّة يهنّونه بالفتح والظفر وفيهم الفقيه العلّامة سيّدي سعيد قدورة الجزائريّ صاحب الشرح على السلم وهو من تلامذة ابي محلى كما ذكره في كتاب الاصليت ولمّا بلغت الهزيمة زيدان ووصله الفلّ جهّز جيشاً عظيماً فبعث به وامّر عليه اخاه عبد الله بن المنصور المعروف بالزبدة فسمع به ابو محلى فسار لدرعة فوافاه هنالك عبد الله فوقعت الهزيمة عليه وقتل من اصحابه نحو الثلاثة الاف فقوى عند ذلك امر ابي محلى واشتدّت شوكته وجمع بين سجلماسة ودرعة وكان القائد يونس الايسىّ هرب من زيدان لامر نقمه عليه وقصد الى ابي محلى وجاء معه يطلعه على عورات زيدان ويخفّف عليه امره فما زال به الى ان توجّه به الى مرّاكش ففرّ منها زيدان لثغر اسفى وهمّ بالهرب والعبور الى العدوة ولمّا دخل ابو محلى قصر الخلافة من مرّاكش فعل فيه كيف شاء وتزايد له ولد هنالك فسمّاه زيدان ويقال انّه تزوّج امّ زيدان وبنى بها ودبّت في راسه نشوة الملك ونسى ما بنى عليه امره من التقوى والنسك وفي المحاضرات للشيخ اليوسىّ رحمه الله ما صورته لمّا دخل ابو محلى مرّاكش ذهب اليه اخوانه من الفقراء برسم زيارته وتهنيته فلمّا كانوا بين يديه اخذوا يهنّونه ويفرحون به بما حاز من الملك وفيهم رجل ساكت فقال له ابو محلى ما لك لا تتكلّم والحّ عليه في الكلام فقال له الرجل انت اليوم سلطان فان امنتنى على ان اقول الحقّ قلته فقال له انت آمن فقال له انّ الكورة التى يلعب بها يتبعها المّاية والمايتان واكثر واقلّ من خلفها ويكثر الصياح والضجيج والهول

وينكسر بعض الناس ويجرحون وقد يموتون ولا يبالون واذا فتّشت فلم يوجد فيها الّا شراويط اي خرق بالية ملفوفة فلمّا سمع ابو محلى هذا المثال وفهمه بكى وقال رمنا ان نجبر الدين فاتلفناه .

ذكر الخبر عن استصراخ زيدان بيحي بن عبد الله

ومقتل ابي محلى وما وقع في ذلك

ولمّا راى زيدان ما راى وتحقّق فشل ريحه وضعفه عن مقاومة ابي محلى كتب للفقيه ابي زكرياء يحيي بن عبد الله بن سعيد بن عبد المنعم الحاحيّ ثمّ الداوديّ مستغيثاً به ومستصرخاً وكان يحيي بزاوية ابيه من جبل درن وله شهرة عظيمة في الصقع السوسيّ واتباع فبعث له زيدان مستنجداً ومستصرخاً وقال له انّ بيعتى في اعناقكم وانا بين اظهركم فيجب عليكم ان تدبّوا عنى وتقاتلوا معى من ناوانيّ فلبّى ابو زكرياء نداءه واغاثه فحشد الجيوش من كلّ فوج وجمع الجموع من كلّ صوب وخرج يريد مرّاكش في ثامن رمضان عام اثنين وعشرين والف ولمّا بلغ يحيي فم تانوت موضع على مرحلتين من مرّاكش كتب له ابو محلى بما نصّه بسم الله الرحمن الرحيم من احمد بن عبد الله الى يحيي بن عبد الله بلغنى بانّك جندت وبندت وفي تانوت نزلت اهبط للوطا لينكشف بينى وبينك الغطا فالذئب ختّال والاسد صوّال ولا تستقيم الايام الّا بضرب القنا وقطع الحسام والسلام فاجابه بما نصّه بسم الله الرحمن الرحيم من يحيي بن عبد الله الى احمد بن عبد الله امّا بعد فليست الايّام لا لي ولا لك انّما هى للملك العلّام وقد اتيتك باهل البنادق والاضرار من شبّانة ومن انتمى اليهم من بنى جرار واهل الشرور والبؤس من هشتوكة الى بنى كنسوس فالوعد بينى وبينك جيلز هنالك ينتقم الله من الظالم ويعزّ العزيز والسلام ثمّ زحف

يحي لمرّاكش بجنوده الى ان نزل قرب جيلز جبل يطلّ على مرّاكش فخرج اليه احمد بن عبد الله بجنوده فوقعت المعركة بينهما هنالك فكانت اوّل رصاصة في نحر ابي محلّى فمات مكانه وفرّت جموعه ونهبت محلّته وقطع راسه وعلّق على سور المدينة فبقى معلقاً مع رؤوس جماعة من اصحابه نحو اثنتى عشرة سنة وحملت جثّته فدفنت بروضة الوليّ الشهير ابيّ العباس السبتيّ تحت المكتب المعلّق هنالك على المسجد الجامع وقد رمز قيام ابي محلّى ووفاته الشيخ الفقيه الصدر ابو العبّاس احمد المريدي المرّاكشيّ رحمه الله فقال قام طيشاً ومات كبشاً ولا يخفى ما فيه بعد افادة التاريخ من حسن التمليح وبديع التورية وزعم اصحابه انّه لم يمت ولكن تغيّب وحدّثني بعض من اثق به انّ اهل وادي الساورة الى الان منهم من هو على هذا الاعتقاد والحول والقوّة بالله ولمّا قتل ابو محلّى دخل يحي مرّاكش واستقرّ بدار الخلافة منها والقى بها عصا تسياره ورام ان يتّخذها دار قرار كتب له في ذلك زيدان وهو يقول له ان كنت انّما جئت لنصرتي وكفّ يد ذلك الثائر عنّي فقد ابلغت المراد وشفيت الفؤاد وان كنت رمت ان تجرّ النار لقرصك وتجعل الملك من قنصك فاقرّ الله عينيك به فتجهّز يحي للرجوع لوطنه واظهر العفّة عن الملك وانّه انّما جاء ليدافع عن الملك الذي بيعته في عنقه وانقلب لبلاده ورجع زيدان لمرّاكش وقد قيل انّ يحي رام الملك وانّ اجناده من البربر لم يساعدوه على ذلك في قضيّة طويلة والله وليّ التوفيق بمنّه وكرمه

ذكر الخبر عن بقيّة احوال يحي بن عبد الله

وشيء من التعريف به وما يناسب ذلك

هو يحي بن عبد الله بن سعيد بن عبد المنعم الداوديّ المنّانيّ الحاحيّ وكان جدّه سعيد رحمه الله واحد وقته علماً وديناً وهو الذي احيا السنّة بسوس

وانتعش به الاسلام فيه وقال فيه سيّدي احمد بن موسى السملالّي ما ولد النساء قبله ولا بعده مثله واجمع الناس على جلالته وديانته وكان من اهل العناية قال لفقرائه يوماً اتعرفون ما يعنى بكم شيخكم يوم القيامة قالوا لا فقال لهم يحضر لكم عند الميزان فمن فضلت له منكم فضلة ياخذها فيردّها على من احتاج اليها من اخوانه حتّى اذا لم يبق الّا من قصر به اعماله فيقف لكم عند الصراط حتّى تجوزوا عن آخركم وكراماته اكثر من ان تحصى اخذ عن التّباع وتوفّى سنة ثلاث وخمسين وتسعماية ولّما مات جلس ولده سيّدي عبد الله في مكان ابيه وجرى على نهجه وسبيله بل كان بعض الناس يفضله على ابيه وكان رحمه الله عالماً عاملاً خاشعاً صالحاً ناصحاً كان يقول ما عقات على مخالفة لله تعالى ارتكبتها ولا اذيت حيواناً ولا نملة قال في بذل المناصحة لم ار احداً ولا سمعت باحد من المنتسبين يهتمّ بدين اصحابه وتعليمهم مثله حتّى كان يعيّن للحرّاثين للزاوية من يقوم لهم بوظيفة الماء اذا حان وقت الصلاة فياتيهم بماء وسطل ونار الى محلّ الحرث فيسخن لهم الماء ويتوضّئون واحداً بعد واحد ويصلّون جماعة ووضع تاليفاً في اهوال الاخرة يقراه على الزيارة بالعربيّة والعجميّة وكان لا يصل اليه احد الّا في الليل وما برز لاحدهم بالنهار قط الّا مرةً واحدةً ويذكر انّ شيخه سيّدي احمد بن موسى اوصاه بذلك وكراماته رحمه الله كثيرة ولعلّنا نلّم بشئ منها في غير هذا الكتاب واخذ عن سيّدي احمد بن موسى وعن سيّدي عبد الله الهبطي وهو معتمده في الطريق وعن محمّد بن ابراهيم التمنارتي وعن الزقاق والونشريسيّ وغيرهم وتوفّى عام اثنى عشر والف ودفن برداعة من جبل درن حيث كانت زاويته بموافقة السلطان الغالب بالله عليها وقد كان سعى به للمنصور لّما كثرت اتباعه واشتهر امره وخوّفوه منه فبعث له قائده منصور بن عبد الرحمن العلج ليقبضه فانجاه الله منه ولّما مات جلس ولده يحيي هذا موضعه ونهج سبيله وكان يحيي فقيهاً مشاركاً رحل لفاس واخذ عن اشياخها كالمنجور وغيره وعن الوليّ العارف

بالله العالم الشهير سيّدي احمد بن محمّد المعروف بادبال السوسانيّ دفين درعة وهو معتمده اخذ عنه كثيراً من الفنون واجازه في علم الحديث اجازة عامّة قال صاحب الفوائد الجمّة كان يحيي مشاركاً في الفنون من حديث وفقه ونحو وتصريف وتصوّف حدّثني انّه راى ابا هريرة رضى الله تعالى عنه في النوم وهو ادم اللون ربعة شديد الحمرة فقلت له ما اسمك قال عبد الرحمن بن صخر او عبد الله بن صخر الدوسىّ الذي سمعتم به فقلت احضرت انشقاق القمر فقال لم احضره ولكنّه صحيح فطلبت الدعاء منه ووضعت يده على وجهى تبرّكاً بها فبعد ان فقت من نومى فبحثت عن اسلامه فوجدته تاخّر عن انشقاق القمر قال وانشدني لنفسه

يا ابا زيد ليس مثلي يسمو   عن حديث يرويه مثلك عنه
انت ضيف الدنيا فخفّف عيوبا   من قراها واخش الردى من لدنه

وكان يحيي شاعراً محسناً وله قصيدة لاميّة في التهنية غالبها مجنسة وشرحها في نحو كرّاسة وسمّاه الرشفة الهنية من رسالة التهنية وله نظم في الشهداء على بحر الرجز وحدّثني صاحبنا القاضى ابو زيد السجتانيّ انّه وقف على تاليف كبير مشتمل على ما وقع بين يحيي وابي محلّى من القصائد في غرض الهجاء وغيره قال واسم هذا الكتاب التجلّى فيما وقع بين يحيي وابي محلّى وكانت ليحيي شهرة عظيمة بالصلاح واتباع كثيرة كوالده وجدّه وتوجّهت لزيارته الامم وركبت لها النجائب الّا انّه وقع له قريب ممّا وقع لابي محلّى فتصدّر لامور الملك ودخل في احوال السلطنة فتكدّر مشربه وانكسف بدره ولم يشعر انّ ذلك من مكائد ابليس اللعين ومن دقائق مكائده وقد قال بعض العلماء انّ الرياسة اذا سكنت قلب الانسان لا تقصر به عن ذهاب راسه ولذلك قال صاحب الفوائد في حقّه بعد ما تقدّم ما صورته قام بجمع الكلمة والنظر في مصالح الامّة واستمرّ به علاج ذلك الى ان توفّى ولم يتمّ له امراً . وكان لمّا

رجع لسوس بدا له في طلب الملك وجمع الكلمة لما راى من افتراقها في حواضر المغرب وبواديه وذهب لتارودانت فتغلّب عليها وملكها ووقعت بينه وبين ابي الحسن علىّ حفيد الوليّ الصالح سيّدي احمد بن موسى السملاليّ وقائع تشيب النواصي ومعاريك يهرم لها الرضيع ولم يزل مصمّاً على طلب جمع الكلمة الى ان توفّى رحمه الله ليلة الخميس السادس من جمادى الثانية من عام خمسة وثلاثين والف بقصبة تارودانت وحمل من الغد لرباط والده وجدّه فدفن بجنبه وكان يراسل زيدان وينصحه ويجير منه من استجار به وكان زيدان يتحمّل من ذلك امراً عظيماً وقد وقفت على رسالة ليحي بعث بها لزيدان من نمط ما ذكرناه وهذا نصّها من يحي بن عبد الله بن سعيد بن عبد المنعم كان الله له بجميل لطفه دائماً امين اللهمّ انّا نحمدك على كلّ حال ونشكرك يا وليّ المؤمنين على دفع الاواء والمحال ونصلّى ونسلّم على صفيك افضل من شدّت له الرحال نستوهبك يا مولانا جميل لطفك وجزيل فضلك في المقام والترحال عائذين بوجهك الكريم من مواخذتنا بسوء اعمالنا يا شديد المحال هذا وسلام الله الاتمّ ورضوانه الاعمّ ورحمة الله تعالى وبركاته على الهمام العالي المقام المولويّ الامام العلويّ كيف انتم وكيف حالكم واحوالكم مع الزمان الذي شمر عن ساقه لسلب الاديان والحّ في اقتضائها بهواه على كلّ مديان فانا لله ولا قوّة الّا بالله وهو حسبنا ونعم الوكيل وبعد فالباعث به اليكم في هذه البطاقة امور ثلاثة مدارها على قوله صلّى الله عليه وسلّم الدين النصيحة فقيل لمن يا رسول الله فقال لله ولرسوله ولخاصّة المسلمين ولعامّتهم امّا الاوّل فبيان سبب الركون اليكم والى جانبكم الثاني الحامل على دفع مناويكم الثالث ملازمة نصحكم وتذكركم والضجر ممّا يصدّ من اعوانكم للرعية امّا الامر الاوّل فله اسباب كثيرة منها مراعاة الجناب النبويّ الكريم في اهل بيته ورضى الله عن ابي بكر الصدّيق القائل ارقبوا محمّداً في اهل بيته والقائل لَقرابة رسول الله صلّى الله عليه وسلم احبّ الىّ من اصل قرابتى

يا اهل بيت رسول الله حبّكم   فرض من الله في القرءان انزله
يكفيكمُ من عظيم المجد انّكم   من لم يصلّ عليكم لا صلاة له

ومنها النصح لخاصّة المسلمين الذي هو الدعاء بالهداية لهم وردّ القلوب النافرة اليهم ونصحهم بقدر الامكان مشافهة ومراسلة وقد بذلنا الجهد في الجميع اخلص الله القصد في الجميع وامّا الامر الثاني فلمّا جرى القدر بتغلّب ذلك الانسان المسلّط على الرقاب والحريم والاموال وادخل بتاويلاته البعيدة عن الصواب ما ليس في المذهب وتعدّى ضروب الولاة الى سائر الرعية فاضلها ومفضولها ومدّ مع ذلك يد الوعيد المذكور بالايمان الينا في الانفس والاموال فناشدناه كما تقرّر في فتاوي الايمّة رضى الله عنهم حيث توفّرت فيه فصول هذا الصدر كلّه يشاهد العيان وكان الامر كما قدّر ولله الامر من قبل ومن بعد وامّا الامر الثالث فالكتاب والسنّة والاجماع امّا الكتاب فسورة العصر قائمة بالبرهان في كلّ اوان وعصر وقد قال تعالى في قضية كليمه ربّ بما انعمت على فلن اكون ظهيراً للمجرمين وقد استشهد به بعض العلماء في برى قلم الكاتب للامراء المتقدّمين وحسبنا الله ونعم الوكيل وقوله جلّ من قائل وتعاونوا على البرّ والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان وامّا السنّة فالحديث الاوّل قوله المعاون شريك وقوله من راى منكم منكراً فليغيّره بيده فان لم يقدر فبلسانه فان لم يقدر فبقلبه وذلك اضعف الايمان وقد كنّا مقتصرين على التغيير باللسان والقلم لكون التغير العمليّ اليكم حتّى جذبتمونا اليه وذللتمونا بارتكاب اصعب مرام عليه وقوله من اعان على قتل مسلم ولو بشطر كلمة جاء يوم القيامة مكتوب بين عينيه آيس من رحمة الله وقد قال المواق في شرحه على المختصر من اعان على عزل انسان وتولية غيره ولم يامن سفك دم مسلم فهو شريك في دمه ان سفك ثمّ اتى بالحديث المتقدّم استعظاماً لذلك الامر الفضيع فانّا لله وانّا اليه راجعون على انا انخدعنا بالله حتّى نامن بالقطع لسفك الدماء

اذّاك حيث كتبت لنا مراراً وامنت وارسلت وكنت اتخوّف من هذا الواقع بازمّور واسفى ومرّاكش والغرب ولذلك كنت الحت عليكم في تقرير العهد حتّى اتاني القائد عبد الصادق بمصحف ذكر انّه لسلطان تلمسان في جرم صغير وقال لي امرني السلطان ان احلف لك فيه نيابة عنه على بقائه على العهد فيما بينك وبينه بتامين كلّ من امّنته وامضاء كلّ ما رايته صلاحاً لامّته صلّى الله عليه وسلّم ثمّ لم اكتف حتّى اتى القاضى فكتبت لي ما رايت فيه الصلاح امضيته وانّك امّنت كلّ من امّنته ثمّ بعد استقرارك في دارك كتبت لي كتاباً بانّك باق على ما تعاهدنا عليه معك وانّ الامور كلّها على معيار الشرع فما راعنى الّا وقد اخفرت في ذمّة الله واماني الذي عقدته للناس فمن مأسور ومقيد ومطلوب بمال ومطرود عن بلدة آلٍ واخبار اخر ترد علينا من جهة السواحل انّ الناس تباع فيها للعدوّ دمّره الله ولم تر من اهتبل بذلك ممّن قلدتموه امور الثغور فلم ندر هل بلغك خبر ذلك فتسقط عنّا ملامة الشرع ام لم يبلغك فاعلمنا لله تعالى لتطمئن قلوبنا فانّي كاتبتك في ذلك فلم ار جواباً فقضيت والله من الامر عجباً فان عددت ما منّ الله به عليك ورجوعك الى دار والدك واجتماعك بسرير ملكك آمناً من قبل النعم بما تقيّد به في كريم علمك وان رايته بنظر اخر فان لله ما في السماوات وما في الارض وامّا الاجماع فلم نر من العلماء من نهى عن نصيحة خاصّة المسلمين وتنبيهم على ما يصلح بهم وبالرعية بل عدّوه من الدين للحديث الاوّل وغيره وامّا ما استشعرناه من امتعاضكم من عدم الانة القول في مكاتبتنا لكم فما خاطبناكم قط رعياً لذلك ولو بنصف ما خاطب الايمّة الاوّل به اهل زمانهم اتّكالاً على مطالعتكم لكتبهم وعلمكم بما لا نعلمه بذلك ولم تروه ويكفيكم نصح الفضيل بن عياض وسفيان الثوري وامامنا مالك رضى الله عنهم لمعاصريهم من الولاة وفيهم من بكى وانتفع ومن غشى عليه وتوجّع ومن ندم واسترجع الى غير ما ذكر على اختلاف الاعصار وتنوّع الدول فبذلك اقتدينا وبما كان عليه اشياخنا واسلافنا لكم

ولاسلافكم كالفقيه شيخ والدنا رحمه الله سيّدي عبد الله الهبطيّ لجدّكم المرحوم بكرم الله تعالى فطمعت نجح النصح دنيا واخرة فهذا اصل قضيتنا معكم وهلمّ جرّا والذكرى تنفع المؤمنين على كلّ حال والحمد لله والصلاة والسلام على سيّدنا محمّد صلّى الله عليه وسلّم وآله خير آل وبتاريخ اواخر ربيع النبويّ الشريف وكتب عن اذنه رضى الله تعالى عنه عبد ربّه محمّد بن الحسن بن بلقاسم لطف الله به والحمد لله ربّ العالمين فاجابه زيدان بما نصّه بسم الله الرحمن الرحيم وصلّى الله على سيّدنا محمّد وآله وصحبه وسلّم تسليماً كثيراً من عبد الله تعالى المقترف المعترف زيدان بن احمد بن محمّد بن محمّد بن عبد الرحمن الى السيّد ابي زكرياء يحيي ابن السيّد عبد الله بن السيّد سعيد بن عبد المنعم اعاننا الله تعالى واياكم على اتباع الحقّ ونعوذ بالله من شرور انفسنا ومن سيئات اعمالنا سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته وبعد فقد ورد علينا كتابكم ففضنا ختامه ووقفنا على سائر فصوله ثمّ انّنا ان جاوبناكم على ما يقتضيه المقام الخطابي ربما غيّركم ذلك وادى الى المباغضة والمشاحنة ويحكى عن عثمان رضى الله عنه انه بعث لعليّ كرّم الله وجهه واحضره عنده والقى عليه ما كان يجد من اولاد الصحابة الذين عصوصبوا باهل الردّة الذي كان رجوعهم الى الاسلام على يد الصدّيق وهو في ذلك لا يجيبه فقال له عثمان ما اسكتك فقال له يا امير المؤمنين ان تكلّمت ما اقول الّا ما تكره وان سكتّ فليس لك عندي الّا ما تحبّ ولكن لمّا لم اجد بدّاً من الجواب ارى ان اقدّم لك مقدّمة قبل الجواب وذلك انّ الحجّاج لمّا ولّاه عبد الملك بن مروان العراق وكان من سيرته ما يغنى اشتهاره عن تسطيره هنا فتاوّل ابن الاشعث الخروج عليه وتابعه على ذلك جماعة من التابعين كسعيد بن جبير وامثاله من اولاد الصحابة ولمّا قوى عزمهم على ذلك استدعوا الحسن البصريّ رضى الله عنه فقال لا افعل فانّي اري الحجّاج عقوبة من الله فنفزع إلى الدعاء اولى قال بعض فضلاء العجم يؤخذ من هذا انّ الخروج على السلطان من الكبائر وجواز المقام معه تحت ولاية الظلم والجور وقد علمت

ما كان من امر عبد الرحمن بن الاشعث وسعيد وامثالهما وقضية اهل الحرة لمّا اوقع بهم جند يزيد بن معاوية بالحرم الشريف ما اوقع ولمّا بلغه الخبر وهو بالشام انشد

ليت اشياخي ببدر شهدوا جزع الخزرج من وقع الاسل

وشاع ذلك عنه وذاع وكان ذلك على عهد اكابر الصحابة واولادهم ولا تعرّض احد منهم للنكير عليه ولا تصدّى للقيام بكلام وامّا ما يرجع الى جواب الكتاب فامّا ما حكيت عن الصدّيق رضى الله عنه في اهل البيت والاحاديث الواردة في انّه يجب احترامهم وتعظيمهم وتبجيلهم لاجل النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فان كان يجب عليكم تعظيمهم فان تعظيمهم يجب علىّ اولاً واولاً عملاً بقوله تعالى قل لا اسالكم عليه اجراً الّا المودّة في القربي واجرى سبحانه وتعالى عادة حكمه ما تصدّى احد لعداوة اهل البيت النبويّ الّا اكبه الله لوجهه وامّا ما اردتم من حديث النصح فانّي والله احبّ ان تنصحنى سرّاً وعلانيةً مع زيادة شكري عليه واراها لك مودّة واعدّها محبّة ولكن افعل من ذلك ما اقدر عليه لانّ الله سبحانه وتعالى يقول لا يكلّف الله نفساً الّا وسعها ولهذا قال اكثر العلماء في صدور تصانيفهم ولم ال جهداً في كذا لانّ النفوس الشريفة العليّة لاتترك من فعل الخير والجدّ في اكتسابه الا ما عزّ تناوله وصعب اكتسابه عليها وامّا ما ذكرتم من امر ابي محلّى وسيرته وما كان تسلّط عليه امّا ما كان من عدم استنهاضكم اليه اما تذكر استنهاضنا لكم المرّة بعد المرّة وتكرّرت في ذلك اليكم الرسل حتّى اجبت اليه ولا تحتاج فيه لاقامة حجّة غير كونه خرج عن الجماعة وقوله عليه السلام من اراد ان يشقّ عصاكم فاقتلوه كائناً من كان والّا فلو دخل الملك من بابه وبايعه اهل الحلّ والعقد واخذ ذلك بوسائط مثل بيعة جدّنا المرحوم الذي

تظافرت عليه علماء المغرب واهــل الدين المشاهير ولو كان وصل لذلك بمثل هذه الوسائط لا يجب حربه ولا القيام عليه بما ذكرتم لانّ السلطان لا ينعزل بالفسق والجور والاّ فانّ الصحابة رضى الله عنهم في زمن يزيد بن معاوية لا يحصى عددهم ومــا تصدّى احد منهم للقيام عليه ولا قال نعزله والاّ فانّهم لا يقيمون على الضلالة ولو نشروا بالمناشر وامّا ابو محلى فبمجرّد قيامه يجب عليك وعلى غيرك اعانتنا عليه لانّك في بيعتنــا وهى لازمة لك فالطاعة واجبة عليك واعلم ايضاً انّ والدك افضل منك بدليل اباؤكم خير من ابنائكم الى يوم القيامة وكان عمّنا عبد الملك رضى الله عنه وسمح له على مــا كان عليه واشتهر به اعلاناً وكان والدك في دولته وبيعته ووفد عليه ولم يستنكف من ذلك ولا ظهر منه ما يخالف السلطنة ولا انكر عليها ولا تعرّض لمـا يسوء ملك الوقت ولا سمع ذلك منه فان كان راضياً بفعله فهو مثله وان لم يكن راضياً فما وجه سكوته والوفادة عليه وقد تحقّقت وعلمت انّ ولاية احمد بن موسى الجزوليّ كادت ان تكون قطيعة واشتهر امره عند الخاصّ والعامّ حتّى اطبق اهل المغرب على ولايته وكان على عهد مولانا عبد الله الغالب بالله برّد الله ضريحه وكان المولى المذكور على ما كان عليــه واشتهر امره ومــا برح الشيخ المذكور يدعو له ولدولته بالبقاء ويظهر حبّه وكان المولى المذكور يعزل ويولّي ويقتل وغير ذلك وكان شرد منه لزاويــة المرابط الاندلسيّ وولد ازيك وامثــالهم وكان يتقدّم للشفاعة ويشفع ولا يتعقّب ولا يعاتب ولا يبحث على ما وراء ذلك باقٍ على عهده ومودّته وكان المولى المذكــور بعث لابن حسين يسدّ داره فسدّها وما فتحها حتّى امره بفتحها ولا استعظم احد ذلك ولا اكثر فيه ولا جعله سبباً لفتح باب الفتنة وكان قوّاد المولى المذكور مثل وزيره ابن شقرا وعبد الكريم بن الشيخ وعبد الكريم بن مومن العلج والهبطىّ والزرهونيّ وعبد الصادق ابنِ ملوك وغيرهم ممّن لم يحضرني ذكرهم لبعد عصرهم قد انغمسوا في شرب الخمور واتخاذ القيان وبسط الحرير وغير ذلك من الات الفضّة والذهب وكانوا

في عصر احمد بن موسى المذكور وابن حسين الشرقيّ وابي عمر القسطليّ ومحمّد بن عبد الله التمارتيّ والشطيبيّ وغير هولاء من المشائخ واهل الدين الذين لا يسع من يدّعى هذه الطريقة التقدّم عليهم ولا اكتساب الفضيلة دونهم فاحسنوا السيرة ولا تعرّضوا للسلطنة ولا سمع منهم ما يقدح في ولاة الامر وقاداة الاجناد ممّن ذكر الذين كان الملك يدور على ايديهم ويرجع في تدبيره اليهم ومثل من ذكر من الاولياء كان علّامة الزمان واوحد وقته شيخ مشائخ افريقية وبعض اهل المغرب عبد العزيز القسنطينيّ الشيخ المتكلّم بالصوفية صاحب الايات البينات قد كان من سكّان تونس وكان ملك تونس ومن انضاف اليها من عمالتها على الفساد الذي لا يحصى واشتهر امرهم حتّى عرفوا به في المشارق والمغارب ولم يبرح الشيخ المذكور من بينهم ولا تصدّى لتغيير المنكر ولا للامر بالمعروف حتّى قبضه الله اليه وامّا ما ذكرتم من انّ من اعان على قتل مسلم ولو بشطر كلمة جاء يوم القيامة مكتوباً بين عينيه ايس من رحمة الله فهذه حجّة عليك لا علينا لانّي ما سعيت في قتل احد ولا قتل من قتل الّا بامر القضاة واهل العلم ان كان واعلم انّه اذا كان هذا يكون وحيداً في قتل الواحد فما بالك بمن يريد فتح باب الفتنة حتّى لايقف القتل على الماية والمايتين والالف والخمسة الاف ونهب الاموال وكشف الحريم وغير ذلك اما تعلم انّ ايّام فتنة ابي محلّى قد هلك من النفوس والاموال بسببها ما لا يحصى عدده حاسبٌ ولا يستوفى نهايته كاتب وكان ذلك على رقبته لانّه هو المتسبّب الاول الفاتح ابواب الفتنة لانّه كان يقتل كلّ من انتمى الينا حتّى قتل بسببه في يوم واحد خمسماية قتيل ولولا ابو محلّى ما قتلوا واعظم في حرمة النفوس من هذا قوله تعالى من اجل ذلك كتبنا على بنى اسرائيل انّه من قتل نفساً بغير نفس او فساد في الارض فكانّما قتل الناس جميعاً وليس في قول المواق ما يحتجّ به على السلطان وانّما تكلّم في اصحاب الخطط على الترتيب الذي كان على عهده مثل اصحاب الشرط كصاحب شرطة السوق الذي ينفذ عن القاضى وغير ذلك

من الولاة وولاية ابي محلّي لا تعدّ ولاية حتّى يعدّ عزله عزلاً وما عند المواق وغيره وقفنا عليه وعرفناه وتلقّيناه من الشيوخ الجلة وعرفنا ما عند الشافعيّة والحنفيّة ودرّسناه المرّة بعد المرّة ولست ممّن ينطبق عليه قوله اشقى الناس عالم لم ينفعه الله بعلمه ولكن لماذا تجنح لقول المواق لغرضك وتجعله حجّة ولم تجبنا نحن فيما كتبنا اليك فيه في يونس اليوسى وقلنا لك قال صلى الله عليه وسلّم الحرم لا يعيد عاصياً وقال الابيّ وهذا يحتجّ به على اهل الزوايا واضربت صفحاً عن الجواب وليس ذلك من ادب الجدال ولكن اخبرنا عن الوجه الذي منعت به يونس اليوسىّ من الشرع فانّ متاعنا عنده واماء اهلنا في داره الى يوم الوقعة وترتّب في ذمّته للمسلمين من الاموال والدماء فان كنت ممّن يريد العدل فهلاّ عدلت فحينئذ تعلم انّك لا تريح جهته ولا تذهب بك النفس مذهبها لاجرم حينئذ تكون عند ما تريد ومع هذا لمّا مسكنا زوجته وكتبت لنا فيها فسرّحناها ساعة وصول خطابك من غير توقّف فلو كنت عنادياً لعبثت بها عبثه هو باماء اهلى واهل داري على انّي ما رددت قط شفاعتك مذ عرفتك بعثت لي على ابراهيم بن يعزى فسرّحناه لغرضك على انّه ترتّب في ذمّته ما ينيف على خمسين الف اوقية وذلك المال انّما يقال له مال بيت مال المسلمين وانّما كان يجب تخليده في الحبس واهل الحصن اخرجناهم منه عن اخرهم وانفذتم كتابكم في ردّهم فامرنا بردّهم عن اخرهم وابن يعقوب اوزال حاكم البلد وشبه الخليفة تركناه على دارنا وحرّك من غير اذننا ولا مشورتنا وبعثنا مكانه فانقدت الكتاب فيه فردّ لمكانه ما هو الامر الذي سافرت كتبك فيه الاّ واسرعنا اليه خفافاً واماّ مسالة اهل ازمّور لمّا جاء كتابكم عزلنا صاحبه وسرّحنا من كان عنده ورددنا الخيل وقضية الحناشة الناس في شانهم بالاجتهاد وقضية العرب اعلم انّ العرب قد افسدوا الارض واستطالوا سواء هذه البلاد والغرب والذي يليق بهم ما افتى به سحنون في عرب افريقية والمغرب ولو طالبناهم بمجرد العشر هذه مدّة الفتنة بالمغرب لاذى ذلك على اموالهم والناس خرجت عن اطوارها

واحبّوا الفتن طلباً للراحة انظر كتاب الافادة للقاضى واستطالتهم فيه عليه في قضية شرعيّة مصرحة في رسمها القديم على انّهم اضعف النـاس قلوباً انظر ما صدر منهم فما بالك بالعرب الذين خربوا البلاد وتساوي الشيخ والصغير في ذلك فان كنت تصغى لمقالتهم واسعاف شهواتهم والتعرّض للسلطان دونهم فهذا نفس خراب العالم وطالع كتاب صاحبنا من عند الرحامنة وما صدر بخبركم ورايت ان اقدّم لك مقدّمة امام هذا وان كانت ادبيّة قيل لابن الرومىّ وهو علىّ بن العباس لِمَ لم تقل كعبد الله بن المعتزّ

كانّ اديورتنـا والشمس فيه كالية
مداهن من ذهب فيهـا بقـايا غاليـة

فاجاب بان قال لا يقدر هو ان يقول مثل قولي في وصف الرقاقة

ما انسى لانسى خبازا مررت به يدحو الرقاقة وشك اللمح بالبصر
مـا بين رويته في كف غرته وبين رويتهـا قوراء كالقمر
الا بمقـدار مـا تنداح دايره في صفحة الماء يرمى فيه بالحجر

وقال كلّ منّا يصف اوانى بيته وربّ البيت واهل مكّة ادري بشعوبها والصيرفى اعرف بنقد الدينار وقضية الخضر والكليم صلوات الله على نبيّنا وعليهما السلام فيها كفاية لمن يعتبر في خرقه السفينة وقتله الغلام واقامته للجدار والكليم يردّ عليه في كلّ ذلك حتّى انباه الله بسرّ ما لم يعلم على انّ علم الخضر في علم موسى كحلقة ملقـاة في فلات من الارض هكذا قال بعض العلمـاء وقال بعضهم كلّ منهم على علم خصّه الله به ومن هنا جوّز ابن العربي الحـاتمىّ في بعض كتبـه واحسب انّ ذلك في كتـاب الفصوص انّ الوليّ الذي يتّخذه الله ويصطفيه بمحبّته يطلعه على علم لم تطـلعه الانبياء صلوات الله وسلامه عليهم

فقال مشيراً لنفسه طالعنى الله على علم لم يطالعه ادم فمن دونه واعلم انّ السلطنة لها اشراط لا بدّ منها وسياسة يكره ظاهرها ولكن نرجع الى غرضك ومرادك اخبرنا كيف تحبّ نسلك مع الناس في الغرب فان كنت تحبّ نسلك فيهم مسلك مولاي عبد الله فالزمان غير الزمان والاسعار قد طلعت وبلغت النهاية والله تبارك وتعالى قد بعث انبيائه وانزل كتبه بحسب ما يقتضيه الزمان وهذا يعرفه من خالط الشرائع والكتب المنزلة واخذ العلم من افواه الرجال وادبته مجالس العلم ونحن نلخص لكم الكلام على بعض ما اورد الناس في الخراج امّا ما بنوا عليه فرضه في صدر الاسلام وفي الدول العظام فلا نطيل بذكره لشهرته وامّا ما في الغرب خصوصاً فاوّل من فرضه عبد المومن بن علىّ وجعله على اقطاع الارض بناء على انّ الغرب فتح عنوة واليه ذهب بعض العلماء ومنهم من يقول انّ السهل فتح عنوة والجبل صلحاً فاذا تقرّر هذا علمت انّ اهل هذا العصر قد بادوا واندثروا فيكون السهل كلّه ارثاً لبيت المال تعيّن ان يكون الخراج فيه على ما يرضى صاحب الارض وهو السلطان والجبل تتعذّر معرفة ما كان الصلح عليه ولا سبيل الى الوقوف عليه فيرجع للاجتهاد وقد اجتهد سلفنا الكرام رضوان الله عليهم في فرضه لاوّل الدولة الشريفة على وفق ايّمة السنّة ومشائخ اهل العلم والدين في ذلك العهد فجرى الامر على السنن القويم الى ان هبّت عواصف الفتنة لايّام ابن عمّنا صاحب الجبل وازاله مولانا الامام وصنوه المرحوم عن حواضر المغرب وسبيله عند الزحف بالاتراك وامتدّت به الفتنة في الجبل الى ان هلك مع النصارى دمّرهم الله في الغزوة الشهيرة وجاء الله بمولانا المقدس بالجبل العاصم للاسلام من طوفان الاهوال فقدر رضى الله عنه الاشياء حقّ قدرها وراى المغرب غبّ تلك الفتن قد فغر افواهه لاتهامه عدوّان عدوّ عظيم من الترك وعدوّ الدين الطاغية فاضطرّ رحمه الله الى الاستكثار من الاجناد لمقاومة الاعداء والذبّ عن الدين وحماية ثغور الاسلام فدعا تضاعف

الاجناد الى تضاعف العطاء وتضاعف العطاء الى تضاعف الخراج وتضاعف الخراج الى الاجحاف بالرعية والاجحاف بالرعية امر يستنكف رضى الله عنه من ارتكابه ولا يرضاه في سيرة عدله طول ايّامه فلم يبق له حينئذ الّا ان امعن النظر رحمه الله في اصل الخراج فوجد بين السعر الذي بنى عليه في قيمة الزرع والسمن والكبش الذي تعطى الرعية منذ زمان الفرض وبين سعر الوقت اضعافاً فحينئذ تحرى العدل فخيّر الرعية بين دفع كلّ شئ بوجهه او دفع ما يساوي سعر الوقت فاختاروا السعر مخافة ان يطلع الى ما هو اكثر فاسعفهم رضى الله عنه وعرف الناس الحقّ فلم ينكره احد من اهل الدين ولا من اهل السياسة ليت شعرى لو طالبنا نحن الرعية اليوم بسعر الوقت الذي طلع الى اضعاف مضاعفته ماذا تقولون وقد انتقدتم علينا ما هو اخفّ من ذلك والحاصل راجعوا رضى الله عنكم ما عند الامام الماورديّ في الا حكام السلطانيّة في ضرب الخراج فقد استوفى الكلام في ذلك وامّا ما تقتضيه من العجب لتعطيل اجوبتنا عنك نحن نراجع اقلّ منك ولكن كتابك اكّدت مبناه على قضية اهل ازمور فانفذنا من اخرج الذي كان به وامضاه وسرّح من كان عنده فتوقّف الجواب حتّى يرجع الخديم فحينئذ اجبناكم بما وصلكم وتعجيل الاجوبة وبطؤها فاعلم انّ الذي يقتضى ذلك امور منها ان يكون ما سمعت ولا بلغنى ان يكون الامر الذي ورد الخطاب فيه منكم فنوجّه للبحث فيه والفحص عن اسبابه فربّما اوجب ذلك البطء بحسب الامكان والبلدان فيكون جوابنا على اساس وبيان وان كان عندنا ما ورد فيه خطابكم فالجواب لا يتاخّر وقد وقع هذا منّا غير مرّة وكون تعطيله منشاه ما منّ الله به علينا من رجوعنا الى سرير ملكنا واجتماعنا بابناء امّنا فاعلم انّ اهل المغرب لما تمالئوا علىّ وخرجت للمشرق والتقيت بالترك والاروام جالسوني وجالستهم وخاطبوني وخاطبتهم منهم مشافهةً ومنهم مراسلةً وكنت ايّام مقامى بارضهم كمقامى على سرير ملكى لانّ كبيرهم وصغيرهم ورئيسهم ومرءوسهم كان ينتجع فضلى ويمدّ كفّ رغبته لنعمتى وواسيت الجميع

عطاء مترفاً مع قلّة الزاد والذخيرة وترفّعت عن مراسلات الاماثل والاكابر من العجم والعرب ولا ركنت لاحد بل تجوّدت بما قدرت عليه من الاخبية حتّى جعلت محلّة برماتها وخيلها فتراموا عليّ العجم بالرغبة وبسطوا كفّ الضراعة في المقام عندهم والدخول في جملتهم وعرضوا عليّ الاقطاع السنية والبلادات الملوكيّة بلطف مقال وادب خطاب حتّى قال السلطان مراد رئيس المجاهدين وما مثلك يكون مع العرب ها نحن نخدمك باموالنا وانفسنا وبما لنا من السفن حيث اردت واحببت ولا انفصلت عنهم حتّى كتبت لهم بخطّي انّي نحمل اهلى وحاشيتي وارجع اليهم الّا ان تمكّن لي الدخول في الملك والغلبة على البلاد او بعضها وقد قفلت من عندهم ولم يتعلّق ثوب عفافي ما يشينه معهم ولا مع العرب ولكن ليس لاحد عليّ منّة ولا نعمة الّا فضل الله تعالى وكان فضل الله علينا عظيماً ثمّ انّي دخلت سجلماسة على رغم انف اهلها وواليها ومنها دخلت للسوس وجعلت وليّ الله العارف بالله ابا محمّد عبد الله بن مبارك واسطة بيني وبين اخي حتّى اجتمعت باهلي ومالي وبعث اليّ الترك باحد بلكباش اسمه مصطفى صولجي الى السوس راغبين انجاز الوعد فجنحت للمسير اليهم فرايت الاهل والاتباع قد عظم عليهم الامر واستعظموا الخروج فاسفعت رغبتهم في المقام في المغرب وشيعت الرسول قافلاً الى قومه من سجلماسة عند الدخول الثاني لها ومغالبة اهلها عليها وعززته برسول من عندي اليهم بتحف واموال ورد بها مع رسولهم ثمّ انّي اقتحمت مرّاكش مع اهل فاس على كثرة عُدَدهم وعددهم وقلّتي ووحدتي وفتح الله عليّ ثمّ خرجت للسوس مرّة اخرى واوقعت بمولاي احمد الشريف وجموع مرّاكش وقد تعصّبوا عليه لانّهم شيعة جدّه ففضضته على رغمهم ونازلته بالسهل والحزن حتّى مكّن الله منه وحكم بيني وبينه ثمّ نجم الغوى ابو محلّي وغلبت على الراي وقد قال من هو افضل منّي مولانا عليّ كرّم الله وُجهه لا راي لمن لا يطاع ودخل هذه البلاد وخرجت انا للسوس ربما تجتمع الينا قبائلنا في المكان الذي كان اجتماعهم فيه الى ان بلغتهم وقصد اليهم

ابو محلّى فقاتلوه ورحل عنهم بعد ان اثخنوا فيه بالقتل ثمّ وافيتهم بمكان والحرب بيننا سجال فهل سمعتم خلال هذه الاحوال انّي احتجت لاحد فيما قلّ اوجلّ وهذاكلّه بحيث لا يخفى عليك اللهمّ الاّ ان تعتدّ الوفادة التى وفدنا عليك من قبيل الاضطرار والاحتياج فلادري على انّي ما قصدتك لطلب دنيا لانّي كنت اسمع ما انت عليه من متانة الدين والصلاح والاقبال على طاعة الله والتمسّك بسنّة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لاغرو من كان هذا وصفه كان جديراً بان يقصد للدعاء والتبرّك ولاصلاح القلب ولا شكّ انّنا نزلنا دارك وحللنا مكانك ولمّا وقع الاجتماع معك جرت المذاكرة في ابي محلّى وغيره حتّى كتبت الكتاب الذي علمنا عليه وها هو بيدي بخطّك فان نسينا بعض لفظ ممّا فيه ولا فعلنا فاخبرنا به نستدركه وهذا مرّاكش الذي ذكرتم قد كنت فيه كما ذكرتم ووقفت الى عبد المومن بن ساسى وعدته مرّة اخرى في مرضه وهل قصدته لطلب دنيا او عرفته لاجلها ومحمّد ابو عمر لمّا وقفت بالمدرسة التى من بناء مولاى عبد الله وقفت عليه في داره وكان ذلك انّما نفعله تاكيداً للمحبّة وزيادة في المعرفة بالله ولو علمت انّ ذلك يعدّ ويظنّ انه نوع من الاحتياج والله ما كنت لاقف على احد ولو انّه يملكنى الدنيا بمدافرها لانّ الخير والشرّ بيد الفاعل المختار وهو اولى بالاضطرار اليه وامّا سربي فما تروّع قط حتّى يامن وامّا من كان في الدار التى ذكرتم فانّما هم اهلى ومتروك اعمامى وهذه الدار التى ذكرتم فها نحن ننتقل منها لبعض البلاد المغربيّة البحريّة كما قلت لك ذلك مشافهةً ساعة قلت لي ينبغى للاسلاف بناء بالجبل لوقته وحكيت ذلك عن والدك وامّا ما اخبركم به القاضى عند ايّام ورودي لسوس وقت بلغنى كتابكم الذي نصّه قد اجتمعت اناس وفسدت النيات وتعيّنت المطامع واردنا تدبيركم لانّ الملوك اهل التدبير والمراد رجوعنا لاوطاننا من غير وصمة تلحق الجانبين فكلّ ما حمل فهو عنّى والتزمته الى الان الاّ ماطرا علينا فيه النسيان ذكّرونا به فانّا لا نخرج عنه وامّا يمين المصحف

وانّي كنت حلفت فيه للقائد غبد الصادق فلا والله ما حلفت فيه ولا نحلف لاحد الى لقاء الله اما علمت انّي حضرت بيعة صاحب المغرب سمح الله له وحضر اولاد السلطان واستحلفهم له الاّ انا فانّه رضى الله عنه قال فلان لا يحلف ولا يحتاج اليه فما نامره به يفعله وعظم ذلك على اخوتي وظهرت في وجوههم الكراهيّة لاجله ولكن الذي قلت لابن عبد الصادق احلف للمرابط وانا اوفى لك به وما زلت على ذلك لانّ الذي كنت تقول ذلك الوقت اخاف ان تقع في اهل مرّاكش والاكابر ونحو هذا مثل حكومة عبد القادر ونحوها امّا اهل مرّاكش فما تعرّضنا لاحد حتّى تركنا متاعنا لاجلكم كولد المولوع وغيره وهذا الميدان والشعر ابعث من رضيت ينادي فيهم من له علينا حقّ ننصفه منه ومن خدّامى ايضاً وان كنت سمعت قضية منصور العكاري فالعكاري نزل اهلنا في خيمته عند وقعة راس العين فلمّا ارادوا الطلوع للجبل تركوا اكثر ما لهم في خيمته مع بعض الخدّام خوفاً من غائلة البرابر لما كان وقع منهم لبابا ابي فارس فاخذ سماطاً من ذهب يزيد على ستّين الف اوقية وكان ايّام ابي حسّون معه وفي جملته حتّى مات القائم دخل حجّته بانجاز عشرين الفاً والباقى حتّى يوديه على سعة وطلب ان يتعمّل ويتولّى الخطط لينتفع ويجمع بعض ذلك فصدقناه حتّى جاء ابو محلى ووقع ما وقع طلبناه بمتاعنا وهو لا يسعه انكاره وهكذا عبد الكريم الذي هو في زاويتك بنفسه يعلم انّ اخوته اخذوا لي سلعة في وسط حلّتهم وانا بين بيوتهم تزيد على خمسين الفاً واخذوا الابل وها نحن سكتنا عنهم ولا طلبناهم بها وايضاً ان قال لك انظر ما فعل باخوتي وكذلك تكاتبنا وانت لا علم لك باصل المسالة واما الاموال فانّ الله عزّ وجلّ وسع علينا من فضله فعندنا ما يكفى الخامس والسادس من الولد وعرفنا الناس وعرفونا وعاملناهم وعاملونا ولو اردت خمس ماية الف مثقال من صاحب افلامنك او من الانجليز وكتبت لهم بذلك ما تانّوا في بعثه ولا لاذوا فيه بمعذرة وقد كفانا الله والحمد لله على ذلك واعلم انّ الظنّ فيك جميل ولولا

ذلك ما اعطيتك خمسة الاف مثقال وسمحت بالمال الذي حمل اليكم ابن عبد الواسع اخراً ولا بسلعة السفن وبهذا كلّه تستدل على صفاء النية وصالح السريرة والله سبحانه وتعالى يعلم ذلك وامّا الامتعاض من عدم الانة القول وحسن الخطاب كما قال الله تعالى وقولوا للناس حسنـاً وانّك لم تبلغ ولو نصف ما خاطب به الايّمة رضوان الله عليهم اهل زمانهم اتّكالاً على علمنا به فحسبي نصح الفضيل بن عياض وسفيـان الثوريّ ومالك ابن انس رضى الله عنهم فهذه المسالة حسبي في الجواب عنك والسلام . وقد وقفت على رسالة كتب بها اليه القاضى العدل الفقيه الاجلّ ابو مهدي عيسى بن عبد الرحمن السجتانيّ وكان يحي استشاره فيما عزم عليـه اذّاك لانّه كان قاضياً بتارودانت فلم يوافقه وابى عليه من مساعفته على ذلك فغضب عليـه يحي حتّى انّه امر بقتله غيلة فخرج من المدينة خائفا يترقّب فسلّمه الله منه وذهب حتّى نزل بمرّاكش وهذا نصّ الرسالة بسم الله الرحمن الرحيم وصلّى الله على سيّدنا محمّد وآله وصحبه وسلم يقول العبد الفقير الشديد الحـاجة الى رحمة مولاه الغنيّ به عمّن سواه السائل منه التوفيق واللطف في ظعنه وماواه كاتبه عيسى بن عبد الرحمن عفا الله عنه وسـامحه الحمد لله الذي جعل الصدع بالحقّ وظيف الرسل والانبيـاء واورثه بعدهم من خلقه فريقاً من العلماء العاملين الاولياء والصلاة والسلام على من آكد امر النصح وقال انّ الدين النصيحـة فقـالوا لمن يا رسول الله فقال لله ولرسوله ولايّمة المسلمين وعامّتهم والرضى عن آله وصحبه الذين سلكوا سبيله وانتهجوا من المناهج طريقه وعن التابعين وتابع التـابعين لهم الى يوم الدين والفصل والقصاص بين الخليقة وبعد فانّي قفلت والحمد لله بسلامة وعافية الى حيّ وجدت اهلى واولادي مستوحشين البادية وان كانت محلّ سلفى ومقرّ تلادي بعد ان الفوا الحواضر وطبعوا على طباعهـا فكانوا احقّ بهـا واهلها وكنت في غاية الضيق والتاسّف لمـا حـلّ بالاولاد فتذكرت قول بعض فقهاء الاندلس لمّـا نابه ما نابنى واصابه مثل ما اصابنى

اليس من القبيـح مقـام مثلي　　بدار الخسف منخسف الجمال
اخالط اهـل سـائمة ورعى　　وارتع بين راعيـة الجمـال

فجلت بفكري وان كان الكلّ بقدر الله وارادته فرايت ان في ذلك القضاء لطف امر انتجـه كما لا يخفى على ذي بصيرة مـا حلّ بالمغرب من افتراق الكلمة وتلاعب شياطين الانس والجنّ بذوي العقول منهم فصاروا احزاباً وفرقاً فتبعت كلّ طائفة من هواها ما كانت تعبد حتّى اذا عرض لعاقل او عرض عليه سهم الاقلاع بادرت الشيـاطين فسدّوا عليه بابه وواروه باغوائهم وزيّنوا له انّ ذلك يشينه عند العامّة ويوجب له السقوط من اعيان النـاس مع انّه لا يعدّه من السقوط الّا لوسواس الخنّاس الذي يوسوس في صدور الناس من الجنّة والناس واين يغيب عن الموفق انّ السقوط من عين الله هو الطامّة الكبرى واين غاب عنه انّ العبرة بكتاب الله وسنّة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لا بكلام الهمج الرعاع ممّن لا يزال الشيطـان يلعب به آخذاً بزمامه ساكنـاً على قلبه ولسانه واين يغيب عنه من كتاب الله فامّا من طغى واثر الحياة الدنيا فان الجحيم هى الماوى وامّا من خاف مقام ربّه ونهى النفس عن الهوى فانّ الجنّة هى الماوى وقلت انّا لله وانّا اليه راجعون هذه مصيبة عظيمة نزلت بغربنا فافترق ملاؤهم وقتلت سراواتهم وانتهبت اموالهم وهتكت حرماتهم ومزقت اعراضهم وفسدت اديانهم واختلّت وبعدت عن التوفيق اراؤهم وكادت تطمع بل طمعت فيهم اعداؤهم اللهمّ يا ذا الطول والامتنان يا حنّان يا منّـان يا ذا الجـلال والاكرام تداركنا بالطافك الخفية في ديننـا ودنيـانا خالق الارض والسمـاء فان قلت ما ذكرته من انّ خروجك من الحواضر الى البوادي هو نتيجة افتراق الكلمة كما فعله من يقتدي به من الصحابة رضى الله عنهم فهو قصد صحيح وما دليلك على التلاعب قلت مـا خرّجه ايمّة الصحاح من منع الخروج عن الايمّة وان الواجب في حقّ من راى منهم ما يكره الصبر والاحتساب اذ غاية الجور وان

تفاحش اقلّ بكثير من غايلة الخروج الذي يترتّب عليها فساد المهج والاموال والاعراض والاديان وهتك الحرم ولهـذا صبر على جور الحجّاج من علماء الصحابة والتـابعين من صبر حتّى لقوا الله تعـالى سـالمى الاديان وبالعبادة مغتنمى الزمان وتذكّر ما آل اليه الحال ووقع بالمرابط ابي محلّى فانّه كان في قطره عالي الصيت يقصد للزيارة ويتبّرك به ويعتقد فيه انّه قطب زمانه وبلغ به الحـال الى ان سوّلت له نفسه او سوّل له انّه يصلح به مـا لم يصلح بغيره من الانام فقام واعانه عليه قوم اخرون حتّى ملا الدنيا صياحاً ودعاوي وعياطاً واكاذيب ممّا لم يشهد به عقل ولا نقل فتجرا على المسلمين حتّى لم يسلموا من لسانه ولا من يده فسبّ واغتاب وقتل ونهب وحمل نفسه ما لا تطيقه فاستهوته شيـاطين الانس والجنّ والنفس والهوى ثمّ بعد ذلك كلّـه لم يحصل من سعيه على طائل وافته الغفلة عن الكتاب والسنّة والرضى عن النفس والهوى حتّى انّه حكمها فصارت تلعب به الى ان فاه وادعى دعاوى بما استباح ما كان معصوماً من دمه وهلكت بعده بسببه نفوس واموال وغير ذلك ايشكّ من ارتاض بالكتاب والسنّة ونظر بعين الشريعة ان فعله ذلك ممّا حمله عليه من يجب عليه مخالفته من الشياطين والنفس والهوى وربّما استحسن فعله ذلك من شيعته من ابتلى به اوقلّده تقليداً ردياً في فعله فان تولّيت فانّما عليك اثم الاريسيين والى الان كانوا يستصوبون فعله ويستحسنون قوله مع انه بمعزل من الكتاب والسنّة فان قلت هذه طوائف الفقراء مـا بين متعصّب متحزّب ومتحيّل متصيّد ومتسوّر على ما استاثر الله به من الغيوب مرتكباً للاثام مصرًّا على العيوب قلت هذه طوائف الفقراء فيها جلّ ما تقدّم وزيادات تضيق على الاحاطة بها السطور والطروس قد بددتها والعياذ بالله بالفتن وشردتها ما تخوفته من المحن فماتت العلوم واضمحلّت الفهوم وتعطّلت الرقوم فلا منطق بذكر ولا مفهوم

هذا الزمـان الذي كنّـا نحاذره   في قول كعب وفي قول ابن مسعود

ان دام هــذا ولم يحــدث له غير   لم يبك ميت ولم يفرح بمـولود

قلت وهذا الشيخ ابو زكرياء هو الذي يساق الى نصحه الحديث كنّا نستشفى به ونستشفى وكانت تشدّ له الرحال ولايانف من اتيانه النساء والرجال قد اتته من اقطار مغربنا الوفود ودانت له الذياب والاسود وكان يعلم الجاهل ويهدي الضالّ ويطعم الجائع ويكسى العريان ويعين ذا الحاجة ويغيث اللهفــان وهى سبيل يا لها من سبيل وطريقة مــا احسنها من طريقة ثمّ صارت تلك الجموع ايادي سبا وتلاشت شذراً مذراً ما لها من نبــا وكان امر الله قدراً مقدوراً ايّها الشيخ اكرمك الله بتسديده اوتجد في الوجود ملكاً اعظم من ذلك الملك فتطلبه او تجد سلطاناً يوازيه او يقاربه فتحاوله اين خفى عليك هذا الشيخ وهو ضروريّ واين ضلّت عنك نصوص الكتاب والسنّة وانت معقول الم يان للذين امنوا ان تخشع قلوبهم لذكر الله لمقت الله اكبر من مقتكم انفسكم وان ابغض الكلام الى الله ان يقول الرجل للرجل اتّق الله فيقول عليك نفسك وهو طرف من حديث خرجه النساءي قد وعظتك وذكرتك ان نفعتك الذكرى لقوله جلّ من قائل وذكّر فانّ الذكرى تنفع المومنين فقلت من التعجّب ليت شعرى اايقاظ امية ام نيام فان قال شيطان من شياطين الانس والجنّ هذه ما اريد به وجه الله قلت الله الموعد اياكم والظنّ فانّ الظنّ اكذب الحديث وستلقون ربكم فيسالكم عن اعمالكم وان خطر هذا او هجس بقلب الشيخ اكرمه الله قلت والشيطان يجري من ابن ادم مجرى الدم قلت ادلّ دليل على انّي قصدت محض النصيحة هو انّه استنصحنى على دفاع ابي محلّى فنصحته وقلت له انّ هذا لا تستقيم معه الديانة فكانّه ما قبل فانفصلت عنه وهو يقول استخر لي الله فكاتبته بان لا يفعل ثمّ لمّا نزل وكان على باب الغزو من تارودانت خلوت به وقلت له اذّاك انّ النــاس يقولون كذا وكذا وعرّفته اذّاك بما عرفته من ابناء الزمان فجمعتنا في رملة الى الان اتحيل حرّها ونبــاري من كلّ ما يقال وما زلت على المنع حتّى جاءت

كراريس من قبل ابي محلّى فتاملّتها فوجدتها مشتملة على كفريات في جزئيات فحينئذ شرح الله صدري لاباحة دفاعه ثمّ انّي قلت بعد ذلك يا نفسى امره واقول في نفسى ما كان يقوله الامام سحنون في قضية ابي الجواد ما لي وله الشرع قتله ولو غششت لغششت في قضية ذلك الرجل وزينت لك قتاله أوّلاً لانّ ذلك مقتضى التعصّب للامير واذا لم اتعصّب اذّاك فكيف استسهله الان فتعين انّي نصحت لكم ان قبلتم والاّ فكما قال الله تعالى اخباراً عن نبىّ من انبيائه ولكن لا تحبّون الناصحين انشدك الله الذي باذنه تقوم السماوات والارض اني قلت لك بعد رجوعك الاوّل من مرّاكش بل العام الذي قبله لانّ العذر لا يحسن ولوحت وصرحت بانّ شقّ العصا لايحلّ غير ما مرّة وما كان كفاني القول الدليل على ذلك الى ان زدت الفعل وخرجت من مدينة لا ابغضها كما قال الشاعر

فوالله ما فارقتها عن ملالها   وانّى بشطىء جانبيها لعارف

ورضيت بالبادية مع جفائها فراراً من الفتنة وعملاً بقوله صلّى الله عليه وسلّم يوشك ان يكون خير مال الرجل غنم يتبع بها شعاب الجبال ومواقع القطر يفرّ بدينه من الفتن ثمّ بعد فعلى هذا كلّه نصحت فلم افلح وخانوا فافلحوا واسكننى نصحى بدار هوان وعدّوا علىّ من القبائح طاعتى للامير مع انّك يوم جاء لدارك قلت لهم هذا اميركم ونحن لا نشكّ انّك من المعتبرين في مغربنا وانّ بيعتك لاحد لازمة لنا وكذلك حين ذهبت لمرّاكش في وقعة ابي محلّى قد اراد اهل مرّاكش بيعتك فابيت والجت البلاد لخدّام الامير وقلت لهم انّه امير وفهمه الناس عنك بلسان الحال وبلسان المقال ونصروه بمرئى منك ومسمع أَفَنَشكّ بعد ان كان منك هذا انّك مبايع وانت قدوة واذا كان هذا فاىّ حجّة لك على الامير وعلى المامورين فمن زيّن لك قتاله فقد غشّك اذ هو مسلم وابن مسلمين فان قلت موافقتى مشروطة بشروط لم يوف لي بها

قلتُ هب انه لم يوف اتستبيح لقتاله لاجل ذلك والرسول صلى الله عليه وسلّم يقول اذا التقى المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول للنار الحديث فبالله ايّها الشيخ ما تقول في هذا الحديث وانظاره وما تقول فيمن انتهب وعسى ان ينتهب من اموال الناس او اخذ بغير حقّ وانفق في سبيل الطاغوت والرسول صلّى الله عليه وسلّم يقول لا يحلّ مال امرئ مسلم الاّ عن طيّب نفس منه أَوَما تستحى من ربّك يوم تسال عن النقير والقمطير ولست ممّن يخفى عليه ذلك كلّه فتعذر عند المخلوقين أَوَما علمت انّ كثيراً من العوامّ يعتقد جواز ذلك اذا راوك ارتكبته فتكون قد سننت هذه السنّة وضلّ بسبب ذلك كثير من الناس أَوَما خشيت دعوة المظلوم التى ما بينها وبين الله حجاب او ما كنت تعيّر على من يرتكب مثل ذلك من الولاة وتتاسّف عليه لاتعيّر اخاك المؤمن الحديث لا تنهِ عن خلق وتاتي مثله عار عليك اذا فعلت عظيم البيت اما انتبهت لما وقع لاهل درعة من النهب والسلب واسترقاق الاحرار وهتك الحرم انّ دماءكم واموالكم عليكم حرام الحديث وقد اتانا السوال من قبل الشيخ عن صنع ذلك ولم يستطع اذّاك من نظر بنور العلم ان يقول لهم في وزن قطر الماء الى ماآل اليه الحال في اهل درعة مع انّ جلّهم حملة القرءان وعامّتهم بله واكثر اهل الجنّة بله افيليق في حقّ الصلحاء ان يسلط عليهم من لا يرحمهم ولا تنزع الرحمة الاّ من قلب شقيّ انّما يرحم الله من عباده الرحماء من لا يرحم لايُرحم الراحمون يرحمهم الرحمان ارحموا من في الارض يرحمكم في السماء انسيت انّه يقتص من الجماء من القرناء وانّ الظلم الذي لايتركه الله ظلم الناس بعضهم لبعض افي علمك انّ حسناتك تفى بما عليك من التباعات او انّه لا تباعة لاحد عليك ولو كنت بدرياً لاحتمل في شانك ما قال عليه السلام لعمر وما يدريك ان يكون الله اطلع على اهل بدر اعملوا ما شئتم فقد عبرت لكم او كما قال والظلم ظلمات يوم القيامة او تستطيع ان تقتحمُ ظلمات الصراط والاّ فانت مسئول عن القيراط وحتّى اهل تارودانت بلغنا انّهم لم يغن في شانهم الترويع بل بلغ بهم الجور والحال الى التفريع فاتّق الله

ايّها الشيخ ولاتكن كمن اذا قيل له اتّق الله اخذته الغرّة بالاثم هذا بعض ما يتعلّق بحقوق النـاس على العموم ويتعلّق بحقّ كاتبه على الخصوص انّك اخذت عليه اذ ادى الطاعة للامير ووعى ما هو من شيم المومنين من حسن العهد والتبرّي من القذر وشقّ العصا بعد ابدال وسعه في نصحك ونصح الامير وحاول بكلّيّته على جمع الكلمة وتعب في ذلك واقتحم عقبات لا يقطعها الاّ بازل ولا سبيل اليها لمن يكون في دينه وعلمه مثلي ممّن هو نازل كما قيل اذا غاب ملاّح السفينة فارتمت بها الريح هدًّا جاذبتها الضفادع وقيل

لعمر ابيك ما نسب المعلى الى كرم وفي الدنيا كريم
ولكن البلاد اذا اقشعرت وضوح نبتها رعى الهشيم

ولكن ليس من شروط النصيحة كمال النـاصح كما انّه ليس من شرط تغيير المنكر عدم ارتكاب المغير لها لانّ هذه طاعة وتلك اخرى والتوفيق بيد الله سبحانه نعم بلغنى مع ذلك وجزم لي بانّك مع بذل النصيحة لك وللامير اصلح الله الجميع واصلح ذات بينهم اخذت عليّ بالرصد في قفولي لصيتي والرجوع اليهم رعاية لمـا يجب ويندب من حقوقهم وهل هذا ايضـاً الاّ حكم الهوى والشيطـان اعندك اكرمك الله مـا تستبيح به ذلك مع انّي والحمد لله اينما كنت لا اسعى الاّ في مصلحة جهد الاستطاعة او بثّ نصيحة حيث لا ارى من يبثّها او اغاثة ملهوف حين تجب اغاثته لئن بسطتّ الىّ يدك الاية ولكن البارى سبحانه وتعـالى يقول ولا يحيق المكر السيء الاّ باهله وفي التورية من حفر حفرة فليوسعها ولا تحفر بئراً تريد اخاها البيت فاين وجدت ما يسوغ لك ارتكاب مثل هذا قولاً او فعلاً او اشـارةً او تلويحاً او تصريحاً واي جريمة توازي هذه الجريمة او كبيرة من الاثم اكبر منها والى الله الموعد وسيعلم الذين ظلموا اى منقلب ينقلبون هذا والسعاية المصحوبة بسؤال عن دفع سجتانة اين

تجدون ما يوجب اباحتها اين غاب عنكم انّها من الكبائر واين غاب عنكم قوله عليه السلام انّ الرجل لا يتكلم بكلمة يهوى بها في جهنم سبعين خريفاً هذا من اخلاق المومنين والصالحين وانت من بيت الصلاح ماكان جدّك يرضى مثل هذا وما كان ابوك امرء سؤ وهذا والله اعلم نتيجة قرناء السؤ وقد قيل لا تصحب من لا ينهضك حاله ولا يدلّك على الله مقاله والى هذا يتمى حقّ الصحبة اعنى بذل النصح انّ الله يسال عن صحبة ساعة ونحن صاحبناك واعتقدناك ونصحناك ووعظناك انصر اخاك ظالماً او مظلوماً ونصرناك بالردّ الى الجادّة اين انت من مولانا الحسن بن علىّ اذ تخلّى لابن عمّه معاوية مع انّه هاشمىّ علويّ فاطمىّ احد ريحانتى النبىّ صلّى الله عليه وسلّم ومعاوية امويّ يجمعهما عبد مناف عن الامارة مع انّه امام ابن امام واصلح الله به وهو سيّد بين فئتين عظيمتين من المسلمين بعد ان كان يلقّب بامير المؤمنين فقال له اصحابه اذ سلم له في الامارة يا عار المسلمين فلم يكترث بذلك ولم يبال به وقال النار اشدّ من العار الهمنا الله واياّكم لرشد انفسنا وجعلنا واياّكم من الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه .

ذكر الخبر عن بقيّة اخبار عبد الله بن الشيخ بن المنصور

وما وقع له مع الثوار بفاس

كان عبد الله في حياة ابيه الشيخ تحت امره يصغى له ولا يقطع امراً دونه وكان غالب جنده وانصاره من اشراقة وبهم كان يستعصم حتّى اعطاهم اجنّة الناس وديارهم فكان الرجل ياتي بستانه فيجد اعرابيًّا بخيمته في وسطه فيقول له اعطانيه السلطان ومدّوا ايديهم في حرايم الناس ونهبوا الاسواق وجاهروا بالفساد واظهروا السكر في الطرقات واقتحموا على الناس دورهم حتّى انّ امرءة كانت تطبخ خليعاً وولدها رضيع عندها فاقتحم عليها الدار احد اشراقة

فهربت المراة واغلقت عليها مشرفة لها فلم يقدر لها على شئ فراودها على النزول اليه فابت المراة فقال لها ان لم تنزلي اليّ رميت الولد في الطنجير فتمادت على الامتناع فرمى به صاحت صيحة عظيمة والقت بنفسها عليه فاندقّت عنقها فماتت فغاظ الناس ذلك وقام على الشرافة رجل يقال له سليمان بن محمّد الشريف الزرهونيّ ويلقّب بالاقرع واعصوصب عليه كثير من العامّة وقاموا في نصرته فقتل الشرافة والتلمسانيّين بفاس حيث وجدوا وحكم في رقابهم السيف واخرجهم من فاس قهراً وحمى المدينة من اذايتهم وطهّرها من قبائحهم فاستحسنوا الناس امره واذعنوا له وكان ابتداء امر الشراقة واشتداد شوكتهم من عام ستّة عشر والف وكان قيام سليمان عليهم في ربيع النبويّ سنة عشرين والف وكان عبد الله في ثوران سليمان وفتكه فيهم غائباً بسلا فلمّا بلغه الخبر قدم ورام الصلح بين اهل فاس والشراقة وراودهم على ذلك فقالوا لا لا فسمّى ذلك العام عام لالا وامر سليمان الناس بشراء العدّة والتهيّئ لملاقاة اشراقة وخرجوا لمقاتلة الشراقة خارج باب الجيسة فهزموا الشراقة وتسكّن حال المدينة وامن الناس اماناً لم يعهد منذ زمان السلطان الغالب بالله وفي يوم الاربعاء رابع عشر جمادى الثانية عام عشرين والف كانت وقعة المترب موضع خارج باب الفتوح وسببها ان اهل فاس استغاث بهم الملالقة مكيدةً وحيلةً واستصرخهم على الشرافة فخرجوا في يوم شديد الريح فكمن لهم الشراقة بخولان فغاروا عليهم فجاةً فانهزم الناس وقتل من اهل فاس نحو من الفين وغلقت الابواب واضطربت المدينة وهاج الشرّ بسبب ذلك مدّة وخرج اهل فاس مرّة لمقاتلة عبد الله بن الشيخ فهزموه واسروه وبقى في ايديهم فعفوا عن قتله واطلقوه وذهبوا خلفه حتّى دخل داره بفاس الجديد ولمّا قتل ابوه الشيخ وبلغته وفاته استبدّ بفاس وما انضاف اليها على وهن وفشل ريح وعزم ان يتوجّه لاخذ ثاره وازمع للمسير لذلك ووافقه سليمان والفقيه المربوع واصحابهما فامتنعت العامّة من الذهاب لذلك لانّ الشيخ لم تبق له في

نفوس المسلمين مودّة حيث باع العرائش للنصارى فاجتمعت العامّة بجامع القرويّين وقالوا لا نقبل سليمان ولا المربوع وحاصوا حيصة حمر الوحش واتّخذوا رؤساء اخرين فوقع بسبب ذلك شرّ عظيم ووقع الغلاء حتّى بيع القمح باوقيتين وربع للمدّ وكثرت الاموات حتّى انّ صاحب المرستان احصى من الاموات من عيد الاضحى من عام اثنين وعشرين الى ربيع النبويّ من العام بعده اربعة الاف وستّماية وخربت اطراف المدينة وخلت المداشر ولم يبق بلمطة الّا الوحوش وكثر النهب في القوافل وفي المحرّم فاتح ستة وعشرين والف قبض سليمان اربعة من كبار الشراقة ثمّ قتلهم فوجم له اللمطيّون وخاف الناس على المدينة وتوقعوا الشرّ وسكن الرعب في القلوب حتّى وقعت بسبب ذلك هزيمة في كلّ مسجد له خطبة بفاس كان الامام يخطب بجامع القرويّين والناس في صحن المسجد فوقع مطر غزير فابتدر من في صحن المسجد الدخول تحت السقف فظنّ النـاس انّ سليمان غدروه الشراقة فانهزم الناس وهربوا من المسجد لا يلوى احد على احد وبلغ الخبر للطالعة فكان كذلك وفي يوم السبت الخامس من صفر سنة ستّ وعشرين قتل سليمان غدراً في جنازة لمطىّ خرج بها قتله المربوع وقتل اباه وابناء عمّه وستّة من اصحابه ودفن مع والده في مسجد الجرف ولمّا مات سليمان بقيت المدينة في يد المربوع اللمطىّ وتالف عليه اللمطيّون وتقوّى بهم ثمّ قدم اخوان سليمان من رزهون وراموا الغدر بالمربوع ففطن لهم ووقع بينه وبينهم قتال مات فيه نحو ماية واحد وثلاثين رجلاً وسلم المربوع ثمّ انّ المربوع واصحابه اتوا برجل كان يتعبّد بزرهون يقال له عبد الرحمن الخنود في جمادى الاولى سنة سبع وعشرين وراموا ان يملكوه ويجتمعوا عليه فانزلوه مع اصحابه بروضة سيّدي علىّ بن حرزهم فبلغ الخبر للقائد احمد عميرة وزير عبد الله بن الشيخ فاتى الى الروضة وفتك باصحاب الرجل ولجأ الرجل لداخل الروضة بضريح الشيخ ابن حرزهم فرموه من طاق هنالك فقتلوه وسقط على القبر ميّتاً ولمّـا سئم اهل فاس من الحصار وضاق بهم الحال من غارة الاعراب

ذهبوا الى عبد الله بن الشيخ بفاس الجديد ونصروه واظهروا له المحبّة ففرح بهم غاية وتحالفت العامّة والخاصّة على نصره والاذعان له فعفى عنهم عبد الله بن الشيخ وصفح عن كلّ ما سلف منهم له وصلح حال الجميع وبعث وزيره للمربوع بالامان فلم يصدق وخاف على نفسه وصمّم مع اللمطيّين على قتال عبد الله بن الشيخ وتهيّا لذلك حتّى لم تُصَلّ بالقرويّين الصلوات الخمس ثمّ انّ وزير عبد الله القائد عميرة نادى بالامان على اللمطيّين فهرب اللمطيون عن المربوع حتّى لم يبق معه الاّ القليل فبعث له عبد الله بالامان سبحته وخاتمه فلم يامن وهرب ليلاً لبنى حسن فاخذه شيخهم سرحان واتى به لعبد الله فعفى عنه وسرّحه لداره فعادت دولة عبد الله لشبابها وتهيّا له الامر وتمهدت له البلاد ودانت له العباد وذلك في جمادى الاولى عام سبعة وعشرين والف فجمع الجيوش وبعث بعض اجناده لحصار تطاون وبعضهم لقبض الاعشار وبعث وزيره حمّ بن عمر مع المربوع لانجرا موضع من جبال الزبيب فغدر المربوع بالوزير وقتله اعتماداً على كلام سمعه من عبد الله فغضب عبد الله واسرّها في نفسه ثمّ في يوم الاثنين ثالث ربيع النبويّ عام ثمانية وعشرين والف قتل المربوع اللمطىّ ونهبت داره ثمّ بعد ايّام وظّف عبد الله على اللمطيّين ثمانين الفاً فثقل عليهم امرها وهربوا فاسقط عنهم النصف منها والامر لله عزّ وجلّ

ذكر الخبر عن قيام محمّد بن الشيخ المدعوّ بزغودة

على اخيه عبد الله بن الشيخ وما وقع بينهما في ذلك

قال في شرح زهرة الشماريخ لمّا راى اهل بلاد الهبط ما وقع من افتراق الكلمة وتوقّد نيران الفتن بايعوا محمّد بن الشيخ المعروف بزغودة على ضريح مولانا عبد السلام بن مشيش نفعنا الله به وكان الذي قام بدعوته السيّد الحسن

بن عليّ بن محمّد بن ريسون وبايعوه على إحياء دين الله وإماتة الباطل واقامة الحقّ فلمّا بلغ خبره لاخيه عبد الله خرج لقتاله فلمّا التقى الجمعان هزم عبد الله ودخل محمّد فاساً في شعبان عام ثمانية وعشرين والف وقبض على بعض عمّال عبد الله فقتلهم واستصفى اموالهم وفي اخر شعبان المذكور وقعت المعركة بينهما بمكناس فهزم محمّد ودخل عبد الله فاساً في مهلّ رمضان واظهر العفو عن الخاصّ والعامّ ثمّ قتل اهل فاس قائده ابن شعيب واخذوا حذرهم من عبد الله الشيخ ووقع قتال بين اهل الطالعة وفاس الجديد ايّاماً عديدة حتّى اصطلحوا تاسع ربيع الثاني من عام تسعة وعشرين والف ثمّ انّ عبد الله خرج لمقاتلة اخيه محمّد فوقعت المعركة بينهما ببهت فهزم محمّد وفرّ شريداً الى ان قتله ابن عمّه احمد بن زيدان كما ياتي ذكر ذلك ان شاء الله وفي يوم الجمعة خامس ذي القعدة من عام اثنين وثلاثين والف قتل الفقيه الشهير القاضى ابو القاسم بن ابي النعيم بعد ان نزل من صلاة الجمعة بفاس الجديد قتله اللصوص بباب المدرسة العنانيّة لانّهم اتهموه بالميل لعبد الله بن الشيخ فوقع بسبب قتله شرّ عظيم بين اهل العدوتين بفاس ولم يزل عبد الله في معالجة اهل فاس تارة يميلون اليه وتارة يحرفون عنه لقبح سريرته وفساد طويته حتّى كان قائده مامى العلج ينهب الديار جهاراً ويعطى لعبد الله كلّ يوم عشرة الاف ممّا ينهب من الناس من غير جريمة ولا دعارة وقام عليه بمكناسة الزيتون امّنها الله ايضاً رجل يقال له الشريف امغار وقام عليه بتطاون المقدّم احمد النقسيس ولم يبق له الّا فاس الجديد وامّا فاس القديم فتارة بتارة كما ذكرنا قبل لانّه استولى عليها سليمان والمربوع ولمّا قتلا كما ذكرنا قريباً قام بفاس محمّد بن سليمان اللمطىّ وعلىّ بن عبد الرحمن فقتل ابن سليمان وقام ابن الاشهب مع ابن عبد الرحمن المذكور فوقعت بينهما مقاتلات وحروب ثمّ قام الحاجّ علىّ سوسان وابن العربيّ وتولّى ايضاً يزرور ومسعود بن عبد الله وغيرهم من القيّام وكانت فاس في ايّام هولاء على فرق وشيع لا يامن التاجر على نفسه الّا ان استاجر باحد من هولاء

ووقع من الفتن ما اظلم به جوّ فاس ونتن افقها الذي كان عاطر الانفاس وخلا اكثر المدينة واستولى عليها الخراب ودام الشرّ بين اهل العدوتين حتى كادت فاس ان تضمحل ويعفو رسمها وحدّث غير واحد من الثقاة انّ الشرّ لمّا دام بين اهل العدوتين ولم يكن لاهل الاندلس غلبة على اللمطيّين قال الشيخ العارف بالله سيّدي عبد الرحمن بن محمّد الفاسيّ لايغلب احد اللمطيّين ما داموا مواظبين على قراءة حزب الشاذليّ الكبير وكانت طائفة من اللمطيّين يقرءونه صباحاً بزاوية سيّدي رضوان من عدوة اللمطيّين فسمع بذلك اهل عدوة الاندلس فاحتالوا على ابطال قراءة ذلك الحزب فبعثوا رجلاً يحتال على اولائك الذين يقرءونه فاستضافهم وباتوا عنده جميعاً في منزله فلمّا طلع الفجر او كاد زعم انّ مفتاح الدار ضلّ وسقط ولم يزل يعاني فتحها الى ان طلعت الشمس فخرجوا ولم يقرءوا الحزب ذلك اليوم فاخبر اهل الاندلس فحملوا على اهل عدوة اللمطيّين فهزموهم وحكموا فيهم السيف وكانوا لم يجدوا لهم سبيلاً ببركة قراءتهم حزب الشاذليّ وذكر بعضهم هذه الشرور فحكى انّ عبد الله بن الشيخ في بعض غلباته لاهل فاس في ثورانهم عليه استشفعوا له خوفاً منه وطلباً لرضاه عنهم بالوليّين والصالحين المجذوبين سيّدي جلّول بن الحاجّ وسيّدي مسعود الشراط وكانا على قدم الملامية فلمّا وقفا بين يديه قال ما وجد اهل فاس شفيعاً يقدمونه اليّ غير هولاء الخرّائين في ثيابهما فغضب سيّدي جلّول وقال والله لا تصرف فيها يعنى في فاس احدى واربعين سنة وانصرفا فقيل انّ عبد الله انقلبت معدته فخرج غائطه من فمه اياماً الى ان اتى بالشيخين فاسترضاهما وكان امر فاس كما قال سيّدي جلّول لم يطاطئ رؤس اعيانها ملكاً الى ان جاء الله بمولانا الرشيد بن الشريف رحمه الله كما سياتي وكملت المدّة وانّما كان يتصرّف فيها اللصوص ويسمّونهم اهل فاس السياب وهذه حكاية صحيحة سمعتها من غير واحد وملخصها ما ذكرناه ولم يزل عبد الله في محاربة اهل فاس القديم من عام عشرين والف قبل وفاة والده الشيخ

بنحو عامين وبعد وفاته الى ان توفّى عام ثلاثه وثلاثين والف بسبب مرض اعتراه من اسرافه في الخمر وادمانه عليه وكان لا يفارقه ليلاً ولا نهاراً ويتعاطاه اسراراً وجهاراً ومن اثار عبد الله بن الشيخ القبّة التى على الخصّة الكائنة تحت المنارة في وسط صحن جامع القرويّين فانّه لم يكن في القديم الّا القبّة التى على الخصّة المقابلة لها شرقى الجامع المذكور حدّثنى شيخنا الفقيه الحافظ ابو الحسن علىّ ابن احمد قال شيخ شيوخنا الفقيه الامام ابو عبد الله محمّد بن احمد ميارة يقول انّ احمد بن الاشهب الذي تقدّم ذكره قبل من القيام اخبره النبىّ صلّى الله عليه وسلّم قال والحديث بذلك مذكور في كتاب الجامع الكبير للحافظ جلال الدين السيوطىّ

ذكر الخبر عن بقية احوال زيدان بن المنصور

وما كان من امره الى ان توفّى

كان زيدان رحمه الله من لدن مات ابوه في محاربة اخوته وابنائهم ومقاتلة القائمين عليه من الثوّار الذين تقدّم ذكرهم ولم يخل قط في كلّ سنة من ايّام دولته من هزيمة عليه او وقيعة باصحابه ووقعت بينه وبين اخوته معارك يشيب لها الرضيع وكان ذلك سبب خلاء المغرب وخصوصاً مدينة مرّاكش وممّا عدّ من نحس زيدان واستدلّ به على فشل ريح زنده انّه في بعض الوقائع بعث الكاتب عبد العزيز الثعالبىّ بعشرة قناطير من الذهب الى ملك اصطنبول وطلب منه ان يمدّه ببعض اجناده كما فعل مع عمّه عبد الملك الغازي رحمه الله فجهّز له السلطان العثمانيّ من جيش الاتراك اثنى عشر الفاً وركبوا في البحر فغرقوا جميعاً ولم ينج منهم الّا غراب واحد فيه شرذمة قليلة وكان زيدان على ما وصفناه قبل وقع بينه وبين اخيه الشيخ وولده عبد الله حروب عظيمة واخرها

انّ عبد الله لمّـا سمع بنزول النصارى دمّرهم الله على العرائش استصرخ في الناس وحضّهم على الذهـاب للجهـاد فتهيّئوا لذلك وعزموا على اغاثة العرائش فما راعهم الاّ زيدان اقبل من ناحية ادخســان ونزل بمقاربه وضرب انفاضه فانهزم الناس عن عبد الله ودخل الشرافة فاس فبعث زيدان قائده عبد الصمد لتسكين روعة البلاد وامر المنادي ان ينادي بنصره فنزل المنادي وهو ينادي الى ان بلغ باب السلسلة فقام في وجهه بعض السياب من اهل العدوة فضربه وجرحه فرجع وبطل الامر فبلغ الخبر لزيدان فاطلق السبيل في اهل فاس وحكم فيهم السيف ثمّ ندم واطلق النداء بالعفو عنهم وسكن روعتهم ونزل زيدان بوادي فاس فخرج الناس للقائه واستولى على فاس فخطب عليهم وجعل يسبّ جماعتهم وهمّ بقتل بعض اعيـانهم ولكن الله سلم ثمّ انّ العرب اجتمعوا عند القنطرة المهدومة في نحو ثمانية الاف فخرج اليهم زيدان ومعه عرب الشرق فهزم ولم يبق معه الاّ رهط قليل فراى زيدان امامه ابلا قليلة فقصدهم فاذا فيهم عبد الله بن الشيخ فهرب مع انّ زيدان انّما قصد الفرار فتراجع اصحاب زيدان اليه ومن الغد خرج اليه اهل فاس يهنّونه كباراً وصغاراً فظنّ انهم قصدوا الاستهزاء به فامر بهم فسلبوا رجالاً ونساء وبقى بعضهم ينظر الى عورة بعض وكان عدد السلب عشرة الاف كسوة ودخل اصحاب زيدان فاساً فنهبوها وفعلوا بها الافعال القبيحة ثمّ امر زيدان بتسكين الروعة والامان وكان ذلك كلّه سادس رجب عام تسعة عشر والف فلمّـا كان حادي عشر من الشهر نزل عبد الله بن الشيخ براس الماء وخرج اليه زيدان فالتقيا فهزم زيدان وقتل من اصحابه نحو الخمسماية وفرّ بمحلّته التى ترك بادخســان وهذا كان اخر رجوع زيدان لفـاس وفي كتاب ابتهاج القلوب في اخبار المجذوب مـا صورته تكلّم الشيـخ الربّانيّ سيّدي قدّار يوماً في ملوك وقته فقال امّا الشيـخ معطى العرائش للنصارى فانّ اهل الله قد دقّوا اوتاده هنالك حتى يموت فلم يعد ذلك الموضع الذي قال حتّى مات به حوز تطاون بموضع يقال له فجّ الفرس وذلك سنة اثنتين وعشرين

والف وامّا زيدان فقال ضربه مولاي ادريس برجله لمّا اطلق السبيل في اهل فاس ضربة صيّرته وراء وادي العبيد فلا يجاوزه ابداً فلم يرجع لفاس بعد ذلك . واقتصر زيدان على مرّاكش ونواحيها وكان رحمه الله غير متوقّف في الدماء ولا يبالى بالعظائم وهو الذي سمّ الفقيه العلاّمة قاضى الجماعة بفاس سيّدي علىّ بن عمران السلاسىّ بعد ان سجنه لامر بلغه عنه وفي ايّام سجن القاضى المذكور كتب الاديب الكاتب ابو عبد الله محمّد بن احمد المكلاتي بهذه الابيات

اما لهلال غاب عنّا سفور فيجلى به خطب دجاه ثبور
تصبّر لدهر راح يمنحك الاسى وانت عظيم والعظيم صبور
سيظهر ما عهدته من جمالكم فللبدر من بعد الكسوف ظهور
وتحيي رسوماً للمعالي تغيّرت فللميت من بعد الممات نشور
ابا حسن انّي على الحبّ لم ازل مقيماً عليه ما اقام ثبير
ففى فىّ ماء من بقايا جنائكم فطعمه عندي سائغ ونمير
عليكم سلام الله ما هطل الحيا وغنّت باغصان الرياض طيور

فقال منشدها انشدتها له بمحبسه فبكى حتّى ظننت انّه سيهلك ثمّ افاق وتلا الاية لله الامر من قبل ومن بعد ثمّ بعد ايّام راجعنى رضى الله عنه جواباً بابيات وهى هذه

تفتّق عن زهر الربيع سطور فما هى الاّ روضة وغدير
هزمت من الصدر الجريح همومه فانت على جند الكلام امير
محمّد هل في العصر مثلك شاعر له معلم في الخافقين ظهور
بنىّ كذلك الوداد وانّنى ساشهد قلبي بالهموم كسير
متى وعسى يثنى الزمان عنانه بعثرة جد والزمان عثور

فتدرك امال وتقضى مئارب وتحدث من بعد الامور امور
عليكم سلام الله منّي وانّني غريب باقصى المغربين اسير

ومن نظم القاضى المذكور ايضاً مخمّساً رحمه الله بيتين لامير المؤمنين ابي العبّاس المنصور

رماني بلحظ منه يا قوم فاتر فيا عجباً من فاتر وهو باتر
ولمّا جنا حبّي وملّك سائر طرقت حماه والاسود خوادر
به فتولّى بي الظما وهو بعيد
الم يدر انّي قادم ومقدّم وفي الحرب والهيجا هزبر وضيغم
ولست ابالى ما الخميس العرمرم فعلّمت اساد الثرى كيف تقدم
وعلّمت غزلان النقا كيف تشرد

وكان قتل القاضى المذكور في مهلّ ربيع الاوّل عام ثمانية عشر والف وكان زيدان فقيهاً مشاركاً متضلّعاً من العلوم وله تفسير على القرءان العظيم اعتمد فيه على نقل ابن عطية والزمخشريّ وكان كثير المراء والجدال كما وقع له مع سيّدي احمد بالقاسم الصومعيّ وله شعر لا باس به ومنه قوله

اهلكتنا سوالف وخدود وشعور على المناكب سود
ووجوه تبارك الله فيها وعيون مدعجات رقود
اهلكتنا الظبا ونحن اذلة وخضعنا لها ونحن اسود

وقوله ايضاً

مررت بقبر رائق وسط روضة عليها من النوار مثل النمارق
فقلت لهم هذا فقالوا بدلّة ترحم عليه انه قبر عاشق

وكانت وفاته رحمه الله سنة سبع وثلاثين والف ودفن بجنب قبر ابيه رحمه الله من قبور الشرفاء بظاهر قبلى جامع المنصور ومّما نقش في رخامة على قبره

هذا ضريح من له   يفتخر المفاخر
زيدان سبط احمد   مبتكر المئاثر
حامى حمى الدين بكلّ   دابل وباتر
اجلّ من خاض الوغى   وللاعادي قاهر
لا زال صوب رحمة   الله عليه ماطر
ومن شذا رضوانه   نفحة كلّ عاطر
ارّخ وفاة من غدا   جاراً لربّ غافر
بمقعد الصدق على   ذوي المعالي ناصر

ووزراؤه الباشا محمود ويحي اجانا الوريكيّ وغيرهما وكتّابه كاتب ابيه عبد العزيز الفشتاليّ وعبد العزيز بن محمد الثعلبيّ وغيرهما وقاضيه ابو عبد الله الرجْراجيّ

ذكر الخبر عن عبد الملك بن الشيخ

بن ابي العباس المنصور

قال في شرح زهرة الشماريخ لمّا توفّى عبد الله بن الشيخ ولي اخوه عبد الملك فيّ شعبان عام ثلاثة وثلاثين والف ولم يزل مقتصراً على ما كان صفا لاخيه الى ان توفّى سنة ستّ وثلاثين والف

ذكر الخبر عن ابي العبّاس احمد الاصغر

ابن السلطان زيدان ابن السلطان المنصور

قال في شرح الزهرة لمّا توفّى السلطان زيدان بمرّاكش قام ولده احمد ودخل فاساً بعد وفاة ابيه بستة واربعين يوماً وذلك يوم الجمعة الخامس والعشرين من صفر وصار يضرب سكّته وفي ثالث عشر شوال قتل ابن عمّه محمّداً الشيخ المعروف بزغودة غدراً بالقصبة وفي احد عشر من ذي الحجّة سجن بدار الملك من فاس الجديد ولم يتمّ له الامر

ذكر الخبر عن السلطان ابي مروان عبد الملك بن زيدان

بن احمد المنصور وما وقع في ذلك

ترك زيدان من اولاده عدّة منهم عبد الملك والوليد واحمد ومحمّد الشيخ وغيرهم ولمّا توفّى زيدان كما ذكرنا بويع من بعده ابنه عبد الملك المذكور ولمّا تمّت له البيعة ثار عليه اخواه الوليد ومحمّد الشيخ المذكوران فوقعت بينه وبينهما حروب ومعارك الى ان هزمهما واستولى على ما كان في يديهما من الذخائر والعدّة وكان فاسد السريرة مطموس البصيرة وبلغ من قلّة ديانته انه تزايد له مولود فاظهر انّه اراد ان يحتفل بسابعه فبعث لنساء اعيان مرّاكش وخدّامه ان يحضرن وطلع هو لمنارة في داره فنظر للنساء وهنّ منتشرات قد وضعن ثيابهنّ فاتّهن اعجبته بعث لها وكان مدمناً على شرب الخمر الى ان قتله العلوج بمراكش وهو سكران يوم الاحد السادس من شعبان سنة اربعين والف ودفن بجنب قبر ابيه رحمه الله وممّا رايته منقوشاً في رخامة على قبره

لا تقنطنّ فانّ الله منّـان وعنده للورى عفو وغفران
ان كان عندك اهمال ومعصية فعند ربّك افضال واحسان

ووزراؤه محمود باشا العلج وجؤدر ويحي اجانا الوريكيّ وغيرهم وقضاته عيسى بن عبد الرحمن السجتانيّ بمرّاكش ومفتيها الفقيه احمد السالميّ رحمهما الله

ذكر الخبر عن دولة السلطان الوليد بن زيدان

بن احمد المنصور السعديّ

لمّا هلك السلطان مولاي عبد الملك بن زيدان بويع اخوه مولاي الوليد بن زيدان في اليوم الذي توفّي فيه اخوه وهو سادس شعبان سنة اربعين والف قال في شرح الزهرة وكان الوليد متظـاهراً بالديانة ليّن الجـانب حتّى رضيته الخاصّة والعـامّة وكان مائلاً للعلماء بكلّيّته متواضعاً لهم والّف له القـائد عليّ الطيب منظومته الشهيرة في الفواكه الصيفيّة والخريفيّة والف له القاضى عيسى بن عبد الرحمن السجتـانيّ شرح صغرى الشيخ السنوسيّ ومحاسنه رحمه الله كثيرة وكان الوليد يقتل الاشراف مـن بنى عمّه واخوته حتّى افنى اكثرهم وسجن اخاه محمّداً الشيـخ الاصغر اذ كان يتخوّف من شقّه العصا عليه وانتزاع خاتم الملك من يده وفي ايّامه وقع الغلاء وفي عام ستّة وثلاثين كانت زلزلة عظيمة عند فجر يوم السبت الثـالث والعشرين من رجب وفي خامس شعبان من السنة نزل برد عظيم على قدر بيض الدجاج واكبر واصغر ورئي حجر منها نزل على خيمة فخرقها وهرب اهلها وبقى لم يذب ثلاثة ايّام على ما قيل وكان الوليد مولعاً بالسماع لا ينفكّ عنه ليلاً ولا نهاراً ولم يزل مقتصراً على ما كان لابيه الى ان قتله الاعلاج وسبب قتله انّهم طلبوه في مراتبهم واعطياتهم

على العادة وقالوا له اعطنا مـا ناكل فقال لهم على طريق التهكّم كلوا قشور الارنج بالمسرّة فغضبوا من ذلك وكمن له اربعة منهم فقتلوه غدراً يوم الخميس الرابع عشر من شهر رمضان المعظّم سنة خمس واربعين والف والامر لله عزّ وجلّ

ذكر الخبر عن دولة السلطان محمّد الشيخ الاصغر بن زيدان

بن احمد المنصور رحمه الله وما وقع فيها

لمّا قتل السلطان مولانا الوليد كما شرّحناه قبل اختلف الناس فيمن يقدمونه للخلافة ثمّ اجتمع رايهم على مبايعة اخيه مولاي محمّد الشيخ والقـاء القياد له فاخرجوه من السجن وبويع بمرّكش يوم الجمعة الخامس عشر من رمضان سنة خمس واربعين والف ولمّا بويع سار في الناس سيرة حميدة والان الجانب للكافّة وكان في نفسه متواضعاً صفوحاً عن الهفوات متوقّفاً على سفك الدماء مائلاً للراحة والدعة الاّ انّه كان منكوس الراية مهزوم الجيش وبسبب ذلك لم يصف له ممّـا كان بيده الاّ مرّاكش وبعض عمالته وفي ايّامه قويت شوكة اهل الدلاء وانتشرت كلمتهم في بلاد المغرب وبعث لهم قاضيه الفقيه العلاّمة ابا عبد الله المزوار المرّاكشيّ فطلب منهم ترك الشقـاق والرجوع لاجتماع الكلمة ويحتجّ عليهم بانّ اباهم الوليّ الصـالح سيّدي محمّد بن ابي بكر كان بايع اخاه مولاي الوليد بن زيدان والتزم طاعته وانّكم اولى الناس باقتفاء طريقته واتباع منهجه فلمّا بلغهم القاضى المذكور وادى الرسالة ونثر عليهم ما في العيبة وبيّن قصده اعتذروا له بمسائل وتعلّلوا عليه بوجوه وقد وقفت على رسالة كتب بها السلطان مولاي محمّد الشيخ المذكور اليهم بعد رجوع القـاضى المذكور من السفـارة وهذا نصّها على التمام والكمال الحمد لله الذي نصب الدول في

الاصقاع حصوناً ذات اسوار لصون النفوس والحريم والاموال والشرائع وحضّ على فري فرع واصل العادين الثوّار الساعين بالاعتناء في هدّ قواعد الجماعة بانواع البدائع ونشهد انّه واحد ما له في فسيح وجوده شبه ولا شريك ولا قادر يقوم دونه بوظيف كلّ ضرير وضريك او يستفتى فينبيك عمّا في كنه غيبه او يريك يفعل ما يريد ويختار ويقبل تضرّع المضطرّين ويقيل العثار وانّ سيّدنا ونبيّنا ومولانا محمّداً عبده ورسوله الى الاحمر والابيض والاسود ونعم الشفيع غداة يعثر العاثر ما لم يكن بعهده تعود صلّى الله عليه وعلى آله الاجلّة الانجاب والخلفاء والاصحاب ما تبسّمت البساتين ومدامع تحنن السحاب الرضى عن كلّ تابع بعد تابع العاقدين على تشبيه هذا الدين عقد الاصابع هذا ولنصرف عنان عرضة الغرض لمن عيّناه لمسنون العتاب المفترض من هم في دقائق الحجاز مرابطون وفي حلائق الجواز ضابطون اهل وطن الدلاء لمن لورود الشرب محتاج السيد ابي القاسم بن ابراهيم والسيّد عمر والسيّد محمّد الحاج ومن لنشر صحف الانصاف منهم مطابق كالسيّد عبد الخالق سلام عليكم ما اثرت المواعظ في اصلاب الطباع وفترت الحفائظ عن المتعوّذ بها خطوات الشيطان وسطوات السباع ورحمة الله تعالى وبركاته ما صانت اشعلة المصباح مشكاته والّا وقد كاتبناكم من الحضرة الدامغة هامات الجاحدين والملحدين حمراء اللمتونة والموحّدين كتب الله لها منكم وقاية من لا يعنو عمّا صنع وبراءة من رام تزويجها كرهاً فتعوّق عنها وامتنع ولا زائد بعد الخطبة التى هى عند الادباء براعة الاستهلال وبضاعة يعرب عنوانها عن معنى الحال والاستقبال الّا قصد استيقاظكم من السنة التى طال لطلوع الشمس من المغرب ليلها وامتدّ كارض المحشر فرسخها وميلها هل هذا منكم استحقاق بحظوة الخلائف او تعام او تصامم عمّا يجب على الرعايا من لوازم الوظائف هذا من العار الماحى لصحو المناقب ولا ياوي من توخّاه الا المهيع لا تحمد لمنتجبه العواقب سيّما من نكث البيعة على من ولّاه المعين بسيطة المعمور وحمله اعباء القيام بما يحدث من تاريف

الامور بشرط ان يزن فيعدل ولا يغيّر ولا يبدل وان يذبّ عن حفظ بيضة الدين بالرماح والسهام والنضول ويحسم اعناق الزائغين عن الابواب والفصول خصوصاً مثلهم الذي شقّ عصا الشقاق وشرع يمدّ ايدي الاطماع في استخلاص القبائل في الافاق على العموم والاطلاق الجمكم البله والوله في حصون الجبال كالمواشى وكنتم لا تدرون لباس القمص ولا الشواشى الى ان جسركم على وطء الغرب واخذكم معه المغترّ محمّد العياشىّ بدّد شمل الشراقة على سيخة ابن احمد وترك غيرهم اعمش وارمد يتردّد في همع الكمد وهمع بكلّ ما زاغ ومازغة حتّى اوطاهم على جبال بنى يازغة فخلا لكم الجوّ وشرعت تمدّ اليكم اعناق الدو فنبذتم اذّاك موائد الضيوف وتقلّدتم بلا حياء السيوف واعانكم اضطراب القبائل عام وقوع الجوع ومن مضى لايّ قطر تعذّر عليه الرجوع ان مكّنتم من نواصيها وازقتها ضعاف الرعايا وكلّ عنيد من رباط تازى الى وادي العبيد فاستحليتم سكراً بجبايات من الابريز والفضّة وفروج اماء الشاوية ما بين الحمراء الخمريّة والبيضاء الفضّيّة المفضة الى ان جمعتم منها ما لا يحصر بواسطة القرافي والمنتصر من غير ان تنفقوه على اقامة جند يصدم بقوّته وشدّته ذوي الصليب الكافر او تختطّوا مدينة او سوراً او جسراً يحصل ويتّصل لكم بفعله الذكر الجميل والثواب الوافر ولا انتفع به الاّ شيع الموسسات الثواب وشياطين الفساد والشراب ولم تراقبوا مكر من رفعكم عن عماء عموم البرابر واقعدكم في القباب على الاسرّة وفي بيوت الله على الكراسى والمنابر خلتم من غواياتكم ان عرين الغاب خال من النمور والضراغم اللواتي لانوف الطغاة والبغاة رواغم عويتم علينا معشر الثوار كالدئاب من كلّ عراء وشعبة لتكون عزيمة نهوضنا اليكم معطلة صعبة وانا لا ندري اين تميل النفوس وتطاطا له الرءوس هل لملك الصحاري او لرئيس ايلغ السوس حلتمونا سخريا خوامل كظفر فريش عبد الرحمن الداخل لكن من الحزم ان ننبّه كلّ ذي غفلة سكران من نشوة الرقدة ونخترط صارم الصولة القاطع لعرى كلّ لبّة وعقدة على انّ الملوك لهم ولاية

تصانيف الجموع على جانب كلّ زعيم فعله نافذ وقوله مقبول مسموع لا سيّما وهذا الغرب الذي لايزال ملاناً من نوامس كلّ كاهن ومراهن قرقار تمسى فيه البومة خاملة الذكر وتصبح بالمخلب والمنقار ومعادن اللمز والغمز والهمز والتبر والمجون هم الزوايا والرباطات والفنادق والطرازات والاسواق والسجون وفيما سلف من دول المغرب الزام تحريض الصغار على تعلّم انواع العلوم والصنائع وتعنيق الكبار المتكفين في حلق المجامع وقد اذهب على السوس هبتها عمّن تحت يده من البلدان بسرف هبة الذهب واللجين والخيول والاماء والعبدان لكن من صفعته يمناه لا يمكنه ان يئن او يتحسر او يبكى ومن عقد مقوده لمعصم سواه فاساء به لا يتصرّع ولا يشتكى اهملناكم وامهلناكم واهلناكم واقمناكم لعوائدكم من العبادة واطعام الطعام فطلعتم لنا في الاعناق عظماء زعام لم تعلم الفقراء الاّ بحرمة جاه الدخيل على صلح او زواج كسماح الشحيح البخيل وما كفاية كلّ عاد تعدى دون تكليف طوره الاّ ان يعجل المنتقم سبحانه تعييره وعوره واحرى من باع ولا تخلّص بالدنيا عرضه ومروءته ودينه ليضيع الحقّ ويشيع الجور في كلّ بادية او مدينة بمجال اللهو بين حامية وبهو وحتّى الان دعوناكم لعقد البيعة الواجبة لنا على كلّ من اطاع او عصى من وجدة الى حدود السوس الاقصى فنجهر لكم فيما يقوم بحقّ تلك الزاوية واهلها بشرط ان تفيق من استغراق الغفلة حيلة اهلها وان امسكتم اقدام الانقياد عن سلوك سبيل السداد وقبول رسوله فاذنوا بحرب من الله ورسوله فقد شيعنا نحوكم فقيهنا وقاضينا ابا عبد الله السيّد محمّد المزوار فصددتموه اوصب صدّ وانقلب على الحافرة وردّ اقبح ردّ ولو لم نبال بكم بالفكر والذكر ما صرّفنا فيما سلف وصيفنا الامير مبارك السوسىّ فشيّد واشاد وبنى واجاد ضريح والدكم السيّد محمّد بن السيّد ابي بكر فدنستم خالصُ عرضه وضيّعتم لازم مسنونه وفرضه وانه لنا عليكم بريد وبصيرة بما انطوت لَكم عليه غرة الحصيرة فقصّ علينا دون ان نفحص ان عين الجهش

في الناذر وانّ من غدا في امداد وغد الاوغاد وجد عينهـم غادر وعيبهم عن صفو الموارد صـادر وعلى هذا ان لكم نسبة لروغان الثعالب فحسبنا الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوّة الّا بالله العلىّ العظيم الحفيل ولا يسعنا ان ندعكم مع اشراف سجلماسة مع بنى موسى تلعبوا بنا كهرّ الغالية في القفص لا يغتنم غناء غلّته الّا بوخز المصـال التى تكلفه الرقص حلبتم ضروع الاقطار في البلاد باليمين والشمـال ونفضتمونا كما انتفض الاثواب من درن الرمـاد والرمال وحاصل الغرض تودية البيعة بقول وفعل واعتقاد كما عقدها ابوكم الابرّ الجواد المرحوم الفاضل المجيد لاخينـا الارضى مولاي الوليد لننتظم بعون الله كلمة ملّة الاسـلام ولا يبقى للغير فعل وكلام لو فعلتم لاقتفى اثركم جمـوع المتتجعين والامصار ولا يبقى من يصغى لغيرنا باذان ولا يطمح بابصار وان عظمت اليكم مفارقة حبّ الرءوس والذنب والايدي والفت ركوب بنى الوجية واللاحق لا الاعراس والصيد فانتظروا صبيحة طلوعى عليكم طلوع الفجر على غسق الليل يسيل كموج البحر والرماة والخيل وتغمركم من باسنا غمائم شديدة الغمرة وينفذ فيكم الحكم العدل نهيه وامره انشر بعونه ما انطوى من المراحل وندمّ بعدكم دولة الاشراف السجلماسية ونلوي على زاوية السـاحل الى ان تعود الايالة الشيخيّة علويّة عليّة بحسن الحال وصيت الذكر او تهوى لحضيض بنى سعد بن بكر وليكن ما ابصرتموه لانفسكم من صدق الصفـا جواباً وصواباً والعـاقل احسن مفتاح لحلّ ما انعضض من الابواب وليعلم منكم اي نبراس يخرجنا من حرج هذا الخندس وهل قبلة عبـادتكم مكّة او بيت المقدس وليكن منّا هذا ختام مفيد الكلام والسلام وكان المخترع لها محمّد بن عبد الرحمن ببستان جنان ميمون من قصبة الحضرة المرّاكشيّة حرس الله اوطانهـا ومتّع بالهناء رعاياها وسلطانها ضحوة يوم الاثنين حادي عشر جمادي الثانية من سنة سبع واربعين والف انتهى وهذا جواب اهل زاوية الدلاء الحمد لله الذي له الملك الكامل في الدنيـا والاخرة وعليه الاتّكال واليه المصير يستدرج بحكمته الانسان من

حضيض دقايق الهوان للحضرة البادخة الفاخرة وهو العلىّ العظيم السميع البصير يضع بعدله اقواماً اعزّة ويرفع بفضله خوامل اخر ولا يسال عمّا يفعل وهم يسالون كلّ واحد على الذي قدّم واخّر وما كانوا يعملون ونشهد انّ لا اله الّا الله وحده لا شريك له الصادق الصمد الباقى على الابد والدوام السرمد الامد وانّ سيّدنا ونبيّنا ومولانا محمّداً عبده ورسوله المبلغ ليمين الامانة ليكرع في حياض الايمان والاسلام من تاخّر عنه ومن ادرك زمانه صلّى الله عليه وعلى آله نجوم السعد وصحابته رجوم من رمى دين الهدى بالسهم البعد وعلى جمهرة التابعين ومن تبعهم على مساق الرشد مهطعين سامعين وبعد فقد اجملنا الخطاب جواباً لمن زكى وتاثل فرع اصله وطاب ابي عبد الله مولانا محمّد الشيخ نجل امير المؤمنين ابي المعالى مولانا زيدان ابن الاثير الهمام الاوحد امير المؤمنين ابي العبّاس مولانا احمد احمد الله لنا ولكم وللمسلمين الاوائل والعواقب وجدّد لكم ما غرس الاجداد في المغرب من محمود المناقب وسدّد الموفق للفلاح اقوالك وافعالك واوطا في بساط الطرب والانبساط نعالك وقاد بالميمونة ناصيتك لقطع شأفة من نافق عنك وختر وللعهد نقد وخفر ونصبك حصناً مصوناً لعرض من اقام آمناً او سفر او نفر سلام عليكم سلام من اسلم اموره بعد القادر اليك ورحمة الله وبركاته ما غرد الطائر على مخضل الايك فقد كاتبناكم من زاوية عبادة الهادي الى الصراط المستقيم العالم بحكمة تفضيل المنتج على العقيم والظاعن والمقيم والستر المسدول على اصحاب الكهف والرقيم كتب الله لنا ولكم حجب الامن والعفو والعافية واسبغ علينا وعليكم وعلى المسلمين خوامى حلل حلمه الوافية ولا زائد بعد حمد الله الذي وجب على العباد حمده وشكره ونختم تعبّداً تقديسه وتسبيحه وذكره ولا نامن يغشنا قضاؤه ومكره الّا انّ مسطوركم الاحرش لمّا ورد ساحتنا سلب منا الاذهان والعقول كما صفدت صلابته الايدي عمّا تفعل واخرس صيته الالسن فاتلفت ما تقول فلا جارحة الّا ولها من خبطه طنين فكادت الحبالى تسقط المشائم

فضلاً عن الجنين فيـا له من سوط الزجر الذي لا ينسى علينا طول السنين اسمعتنا غرائب لم تمرّ مدارتها على اهل الدهر الاتي والغابر ولو صرخ بها على جبّانة لنهض اهل المقابر وليست هذه عوائد من سبقك لتلك الدرجة من الاعمام والاخوان منهم القريب لك والدك مولانا زيدان حتّى سُمْتنا بالدلالة في اسواق المذلّة والهوان وما نحن الاّ ركن ووكر لمن طرقته وصمة او غمّته غمّة او حذر اخاه او اباه او عمّه يأمن لدينا بنفسه وذويه وفلسه متى عرته نكبة من هجر او وقعة لم يجد في الغـالب مؤلاً سوى هذه البقعة وانت تمتثل تدبيراً باشارة الاعلاج المجبولين على طبائع الخدائع والغشّ على تلّ قواعد ملكهم هناى عن عريش العشّ ومن الدليل والشاهد والبرهان فتهكم باخيك مع مشورة النسوان على غيب من الجند والديوان عرضهم في المغرب نشر سنّة الباس التى نشروها في المشرق بعد المعتصم من بنى العبّـاس فلا تدعهم يخدمونك حتّى يدركون فيتفكّروا مـا فعل اباؤهم المشركون قاتلهم الله انى يوفكون وهم سلبوا روح جدّك السمىّ من غمد الجسد وحملوا هامته في مخلاة من مسدّ وحرّكوا الى عمّك مولانا عبد الله لوادي اللبن حوز صنهـاجة لولا انّ الحىّ القيّوم سبحانه صرّف اغراضهم عن قضاء الحاجة وايم الله لئن داموا لك في الغرب فطانة حتّى يطلّقوا عليك ثلاثا اوطانه وامّا نحن فبيعة والدنا لكم لم تزل لنا في الاعناق وحطناها بشغف واشفاق ولا ينبغى ان تعاد فتكرّر كالظهير لمن اراد ان يحرّر وايضاً منعنا من تجديدها انسلال البربر عن ساحتنا فيكون اقوى سبباً لاحاطة حجاب الصون لفضيحتنا واجلها هذا الاجدل الذي لا تؤذيه سموم الليالي ولا حرارة قيظ المصيف مولانا محمّد ابن مولانا الشريف عقـاب اشهب على قنة كلّ عقبة لم يقنعه عدد المال عن حسم الرقبة وربمّا عرتنا غفلة فيشنّ الغارة الشعواء على شعـاب بشعوب ملوية او ينشر جيوشه على رباط تازى بالرايات والالوية سيّما وجناحاه ذووا النفوس النفيسـة بربر صنهـاجة ودخيسة بزاة النزوات بالحلّة والمحال والغزوات والعياشى كما تعلمون كانت همة هجرته اوّلاً

لردع همّة اهل الشرك ثمّ مدّ الخطا لطلب درجة الملك قد خدع دون وفقنا طوائف البربر فخوّض زروع العرب عام الجوع ليصبغ لنا ولهم كفّ العداوة بالوقوع فكان الامر كذلك الى ان سدّ القدر المحتوم بيننا وبينهم المسالك واما وصيفكم الامين مبارك السوسىّ حيث اناخ علينا كلكل الاقامة لاختطاط ضريح الوالد رحمه الله بما اقامه اقنا بوظيف حقّه الظاهر والباطن وسرّحنا له بعد الاستراح اقدام الجولان حتّى اختبر بعين الحقيقة انجاد الاماكن واغوار المواطن ولا شكّ انّ حال مطالعته هى التى رخصت لنا في سوق خواطركم الاسعار الى ان نصبتم لنا بعد الرضى حبائل العار الجالب للادعار وجد قبائلنا متبدّدة على ضمّ الحبوب في الصيف ولا عاينهم مستعدّين على الخيول برمح ولا مدفع ولا سيف فخالهم على غرّة غنيمة باردة ولا علم انهم اغوال القيل صادرة وواردة فان كانت معاينته هى التى اطمعتك ان يعودوا بعد العز نوائب فادر انّ ظنّه الخاوي خائب من ركب الخيل لنفسه دون راتب المخزن لا ترضى همّته ان يهان فيحزن وقاضيك السيّد محمّد المزوار حيث عاين وفود الاقاليم منتشرة كالجراد على الازقّة والادراب دون من لزم الابواب والحظ علينا العرصات والقباب تحقّق عياناً انّ شمل المالك والمملوك لا يكون منتظماً الّا على عظماء الملوك فقصّ عفا الله عنّا وعنه عليكم وعلى من حضر ما اعتقد سمع ونظر وحتّى الان ان قصدتم الغرب والعرب او حصن فاس لا تنالكم منّا مساءة ولا باس فبعد ان يكون لكم في المدينة البيضاء الجديدة والقديمة قرار يكون لنا بعد ذلك حكم الاختيار بين ان ننوبك او نترك لك الديار او نستصرخ بمن هو مثلك شريف حقيقىّ وسلطان له شغف اكثر منك في ضبط الاوطان فنقابل اذّاك القسورة بالساط ونلقى بطانة من شاط لاسنان الامشاط ايّهما للغرب غلب نودى له على غمة الرغم ما رغب وطلب وان انت قنعت بحوز الحمراء من مرّاكش ورفضتّ عنك معاناة الهراش والشاوش فدعنا ومراعاة من تجارته الرياسة وهمّته اشتراء بقيس السياسة ضرغام غاب سجلماسة وامّا صاحب ايليغ السوس فما مراده

ودويه الّا غنيمة سلامة الاعراض ونجاة سلب النفوس وفيما تلوناه عليك من القصص ابلغ كفاية في غنيمة العيش الارغد وتجريع الغصص فان غادرتنا مستترين في حرمة الوقار والاحترام فنعم وان زاحمتنا بمكنب الهوان والاحتقار يدافعك عنّا من ادّعى انّه زعم وان طرقنا مناخ عزم قصدك على عبر وادي ام الربيع يجمع الله بين من يشتري ويبيع والسلام وكتب عن اذن جمهور اخوانه عبد الله المسناوي بن محمّد بن ابي بكر الدلاءي يوم الاحد ثاني وعشرين من رجب الفرد الحرام عام سبعة واربعين والف ٠ وكانت بينه وبين اهل زاوية الدلاء معركة انقشع غبارها عن هزيمته وذلك بموضع يقال له بوعقبة احد مشارع وادي العبيد ولمّا راى محمّد الشيخ تعاصى اهل زاوية الدلاء عليه واستحكام اهل المغرب لهم وتقويتهم بالعدد والعدّة وضعف عن مقاومتهم وعجز عن مقارعتهم صرّف عنانه عن عنادهم ومنازلتهم ومنواتهم ومال الى مسالمتهم وقطع النظر عمّا في ايديهم وقد نبغ عليه رجل من هشتوكة خارج باب الخميس من مرّاكش وقاسى في محاربته تعباً شديداً ولم يزل يناوشهم القتال الى ان كانت عليهم الكرّة ففرّق جموعهم وشقّ عليه ايضاً قبيلة الشياظمة نقصدهم فكانت الملاقاة عند جبل الحديد فهزم هزيمة شنيعة والامر لله وحده يعزّ من يشاء ويذلّ من يشاء وقد وقفت على رسالة كتب بها مولاي محمّد الشيخ المذكور لمولانا محمّد بن الشريف الحسنيّ السجلماسيّ لمّا بويع بفاس يهنّيه بالملك ويحذّره من اهل المغرب وغدرهم من انشاء وزيره القائد محمّد بن يحي اجانا وفي اخرها قصيدة من انشاء القائد المذكور وهى هذه

يا شبل مولانا الشريف محمّدا   شمس السعادة والهلال الاكمل
ملات همّتك المهمّة مغربا   فزهت بمشرقنا اصبهان وموصل
صقر الصياصى على الاعادي صايل   غورا يغير وفي الملاحم يستل

اظفاره للمارقين صوارم وبكلّ ظفر منذ يسطو ذوابل
فجناحك الجرد العتاق وان نظر ت الى تلمسان يطيش الساحل
هاتيك ثوّار القبائل عنوة والوحش مهمى تغير غار المنهل
قد طبت ان عرقت عروقك في الوغى خلت العنابر ذيب فيها المندل
يا مالكاً سعدت به اوطانه فيما مضى وزهى له المستقبل
نادى بك النصر العزيز لمغرب ولكم على فاس الجديد الكلكل
فاحذر كما حذر الغراب ولا تكن كالبط يطفو من مصاه القلقل
واعدل تفوز ولا تواخى طامعا تردى العداة وتعمى عنك العدل
لا تصدمن جبل البرابر واصطبر حتّى يهون على الجوالس مدخل
لا تامن الاعراب في اقوالها واقمع فضاضة من يخون ويحتمل
وعليك بالغارات في اوطانها بكتائب تسبى الاثاث وتقتل
واغضض ولا توذي تجّار مدائن يبق عليك الستر دابا مسبل
لا تتّخذ من اهل فاس صاحبا او حاكما يصل الامور ويفصل
كالبغل عادته الفرار وان غدا في مربض فمتى استغرّك يركل
لا تنقلنّ الى الصحاري ذخائرا فيقول اهل الغرب حتما يرحل
واضرب لبيت الملك اوتاد الدهى تزداد صيتاً في العقول وتقبل
والق فؤاد العرب واعرف قدرها فغروم كل قبيلة لا تجهل
وابسط يديك على العيال هنية واذا غرست عروق عدل تنقل
هذي وصايا قد اضعن حقوقها في حقّ اخر ما ابتناه الاوّل
فتى شردنا للمعالي رحالنا يا باه نصر والمقادر تخذل
فرضينا محتسبين احكام القضا والله يفعل ما يريد ويعدل

فاجابه مولاي محمّد بن الشريف بقصيدة ختم بها جوابه من انشاء الفقيه سيّدي محمّد بن سودة

محمّد الشيخ بن زيدان الرضى فخر الخلائف والهمام الافضل
فلقد اجبتك عمّا فيه كتبت لي نثراً ونظماً كي ترى ما تسال
انّي ابثّ لكم وصايا جمّة ان انت للنصح المصرح تقبل
فالى متى طول الرقاد اما ترى اظعان ملكك كلّ يوم ترحل
والدهر ينتف في ريش جناحكم ويدنّسنّ من الصفا ما تغسل
ما من خليفة ذاق لذّة راحة الاّ تحلّله الهوان فيسفل
ومن احدى من كثرت شقا ثواره تعدى عليه بكلّ عاد معقل
تحتال تخدعه بكلّ قنيصة حتّى يصاد كما يصاد الغنتل
فاستيقظن من الخمار ومن رعى غنما من اسد الغضا لا يغفل
وانفض غبار الذلّ واخلع نعله يزداد وجهك بهجة ويهلّل
ضيّعت ملكك في الرخى وتركته للخزي في دور الولاية ذلّل
وركنت للظلّ الوريف وغادة يزهو البديع لكم اذا ما ترفل
واذا رغبت دوام هيبة همّة وتصير في ستر عليكم يسبل
دع عنك في الحمراء مروق سفرجل ومرفالاً به زعفران وفلفل
واركب مطايا الصافنات الى الوغى امّا تحوز مزيّة او تقتل
واقرع طبولاً للدعاة وفي الوغى يحيي الي الحرب العوار المحفل
وخض الغار وهز رمحاً وادّرع واعل العنان وفي اليمين المنصل
خاطر بنفسك في الفيافى جائلا تردى العدوّ وكلّ ليل منزل
واصطد بهارك بالسلاق وبعدها عقبانها وتراكل والاجدل
وقُد الجيوش كما الوحوش ولا تدع من يعص امرك تزجرنه فيفعل
جنّب اجانا الخنين في تدبيره واصحب شجاعا للذخائر يبذل
لا تجعلنّ من العلوج بطانة فطباعها الغدر البليغ الاعجل
امّا الشبانة فاحذرن من غيّها لا بدّ تغدر في الاخير وتخذل
ترجو عواقب دولة لنفوسها وتردّ من وافا جنابك يحفل

يعطف عليك الدهر بعد نفوره فتعود ايّام السرور وتقبل
ما ذاق زيدان ابوك حلاوة من حزمه حتّى انتحاه المنضل
واذا امتثلت جواب صدق وصيّتي يصفى الزمان لكم ويصفو المنهل

وكان في ايّام مولاي محمّد الشيخ رخاء مفرط وغلاء مفرط عام ستّين والف وتوفّى رحمه الله عام اربعة وستّين والف ودفن بقبور الاشراف قريباً من قبر ابيه وممّا كتب في رخامة على قبره

لبدر سماوات المعالي افول وفي الضريح كان منه نزول
محمّد الشيخ بن زيدان غاله حمام لحزن العالمين طويل
امام المعالي ذو المآثر فضله له غرّة في الصالحين جميل
حباه الاه العرش رحما تخصّه بما هو في الفردوس منه كفيل

ووزراؤه يحيي اجانا وولده محمّد وغيرهما وقضاته عيسى بن عبد الرحمن ومحمّد المزوار

ذكر الخبر عن السلطان مولاي احمد المدعوّ العبّاس

ابن السلطان مولاى محمّد الشيخ بن مولاي زيدان

لمّا توفّى مولانا محمّد الشيخ رحمه الله كما ذكرناه قبل بويع ولده مولانا العبّاس سنة إربع وستّين والف وقام مقام ابيه في جميع ما كان بيده الاّ انّ حى الشبّانة وهم اخواله قويت شوكتهم في ايّامه وغلظ امرهم عليه ووثبوا على الملك وراموا الاستبداد به فضايقوه وحاصروه بمرّاكش اشهراً ولمّا رات امّه

الامر لا يزيد عليه الّا شدّة كلّمته في ان يذهب الى اخواله وياخذ بقلوبهم ويزيل ما في انفسهم عليـه فذهب اليهم فلمّا تمكّنوا منـه قتلوه غيلة واقبلوا لمرّاكش مسرعين وبويع فيهـا لاميرهم عبد الكريم بن ابي بكر الشبانيّ ثمّ الحرزيّ وكان قتله سنة تسع وستّين والف وبموته رحمه الله انقضت الدولة السعديّة وانقضى بساطهـا وانهار جرفها فسبحان من لا يبيد ملكه ولا يتحوّل سلطانه قال المؤلف رحمه الله وقد ذكرتنى هذه الفعلة قول مـولاي محمّد بن الشريف في قصيدته السابقة

امّا الشبانة فاحذرن من غيّها   لا بدّ تغدر بالاخير وتخذل

فكان الامر كما قال مع انّ مولانا محمّد بن الشريف كتب بالقصيدة المذكورة لمولاي محمّد الشيخ سنة تسع وخمسين والف وغدر الشبـانة بمولاى العبّاس سنة تسع وستّين والف فبين ذلك عشر سنين ومولانا محمّد بن الشريف تلقّى ذلك من بعض اهل الكشف او نحوه فانّ كلامه كثيراً ما يقع فيه نحو ذلك وكانت مدّة هذه الدولة السعديّة نحواً من مـاية وخمسين سنة وعدد ملوكها على ما سلف بضعة عشر ملكاً فالله تعالى يسامحهم ويتجاوز عنهم فلقد كانت ايّامهم في جباه الكفر كالمكاوي والميـاسم واوقاتهم في وجـوه الاسلام اعياد ومواسم وللخلافة عند الله قدر عظيم لا يجهله الّا من جهل الفرق بين الحصباء والدرّ النظيم ولقد تجنّبنا التغالى في الذمّ في حقّ بعض من يستحقّه منهم ستراً للاعراض ورعياً لجانب الخلافة فانّ الملوك ان كانت لهم هفوات فلهم محاسن وحسنات فلا يهضم حقّهم سيّما هولاء الاشراف الذين

قطعوا ثمار المجد من غرس العلا   باكفّهم فلنعم غرس المغـارس
لهم لبـاب المجـد عزّة انفس   وذكاء البـاب وطيب مغـارس

خاتمة تشتمل على فوائد ثلاثة

الفائدة الاولى . وجد بخطّ ابن غازي رحمه الله ما نصّه استقرا ابن الخطيب السلمانيّ رحمه الله في كتـاب الاعلام فيمن بويع قبل الاحتـلام انّ الدولة تختم بما افتتحت به ومصداق ذلك في عبد الحقّ فانّ به ختمت دولة بني مرين وبه بديت . وربّما يجري ذلك هاهنا فانها بمولانا محمّد الشيخ بديت اذ هو اوّل ملوكها في الحقيقة وختمت بمولانا محمّد الشيخ اذ هو اخرهم في الحقيقة والله اعلم

الفائدة الثانية . ذكر الحافظ السيوطيّ وغيره كالدميريّ في حياة الحيوان انّ سادس الخلفاء مخلوع وعدّ من اوّل ملوك الاسلام جماعة كسيّدنا الحسن بن عليّ رضى الله عنهما فانّه السادس وقد خلع وربّما يجري ذلك هنا فانّ مولاي محمّد المسلوخ هو السادس باعتبار زيدان بن احمد الاعرج الذي بويع بسجلماسة وقد خلع من الملك والله اعلم

الفائدة الثالثة ممّا ينبغي ان يعلم الفرق بين الملك والسلطان . قال ابن فضل الله في كتاب المسـالك ذكر عليّ بن سعيد انّ الاصطـلاح ان لا تطلق هذه التسمية الّا على من يكون في ولايته ملوك فيملك مثلاً مصر والشام وافريقية والاندلس ويكون عسكره عشرة الاف فارس ونحوها فان زاد بلداً او عدداً في الجيش كان اعظم في السلطنة وجاز ان يطلق عليه السلطان الاعظم فان خطب له في مثل مصر والشام والجزيرة ومثل خراسان وعراق العجم وفارس ومثل افريقية والمغرب الاوسط والاندلس كان تسميته سلطان السلاطين والله اعلم . من حسن المحاضرات للسيوطيّ

ذكر التعريف بسيّدي محمّد العياشيّ وثناء العلماء الاكابر عليه
وابتداء امره
ومغازيه رضى الله عنه وارضاه وجعل الجنّة منزله وماواه

قال مؤلّفه امّا التعريف به فهو محمّد بن احمد المالكيّ الزيانيّ واشتهر لقباً بالعياشيّ وبنو مالك من عرب المغرب وبيته فيهم بيت خير وصلاح من قديم وقد وصفه الشيخ الامام ابو عبد الله محمّد بن احمد ميارة في شرح المرشد المعين بالوليّ الصالح العامل السائح قطب الزمان وكهف الامان المجاهد في سبيل ربّ العالمين المرابط في الثغور مدّة عمره لحياطة المسلمين ذي الكرامات الشهيرة العديدة والفتوحات العظيمة الحميدة من لا شبيه له في عصره وما قرب منه ولا نظير ولا معين له على نصرة الاسلام ولا نصير الّا الله الذي تفضّل به علينا واقرّه بمنّه وجوده بين اظهرنا وهو كما قيل

حلف الزمان لياتينّ بمثله　　　حنثت يمينك يا زمان فكفّر

البركة القدوة المجاب الدعوة ابو عبد الله سيّدي محمّد بن احمد العياشيّ . وبمثل ذلك وصفه العالم سيّدي العربيّ الفاسيّ ايضاً وكان الوليّ الكبير العارف بالله الشهير سيّدي محمّد بن ابي بكر المجاطيّ الدلاءيّ يربع محاسنه ويطيل الثناء عليه وكان يقول في دعائه له اللهمّ جازِ عنّا سيّدي محمّداً العياشيّ افضل المجازاة وكافِه عنّا احسن المكافاة واجعل مكافاتك له انكشاف الحجاب عن قلبه حتّى تكون اقرب اليه منّى اللهمّ لا تحرمنا توجّهه اليك وانقطاعه لخدمتك اللهمّ نفّس كربته وكمّل رغبته واجب دعوته وسدّد رميته واردد الكرّة على من عاداه في الحقّ انّك على كل شئ قدير . وقد وقفت على رسالة كتب بها سيّدي محمّد بن ابي

بكر ايضاً ونصّها الحمد لله الحليم العفو الرؤوف المنزه عن صفة من وصف بها وصلّى الله على سيّدنا محمّد مدينة العلم المسورة بسور السماحة والحلم وعلى سادتنا آله واصحابه وكلّ من انتظم في سلك اتباعهم من اهل حزبه هذا وانّ المجلى بنور طلعته ظلم الظلم والفساد المحلّى بخزائن المعالي بموجبات النفـاق على حين الكساد المستوطن حبّه بسويراء الفؤاد من القت اليه المكارم ازمّة الانقيـاد وصلحت به بحمد الله تعالى العباد واينعت ببركاته البلاد حوطة الإسلام وحمايته وخديم الدين المحمّدي وكفـايته سيّدي محمّد بن احمد العيـاشيّ المحمودي الاوصاف بشهادة من يعدّ من اهل الانصاف زاده الله من المكارم اعلاها ومن نفايس درر المجادة اغلاها وتوجّه بتاج الكرامة والرضى وامدّه بدائم مدده السرمديّ حتّى يرضى وسلم جنـابه القدسيّ العلميّ المرابطيّ المجاهديّ من جميع البلايا واتحفه من تحفه الفاضلة الوهبيّة باعلا المزايا واهدى اليه من طيب بركاته ورحماته ما يرضاه دينه العليّ لحماته قد شهدنا على انفسنا بالاقرار بفضله علينا وانّ ما يسرّه يسرّنا وانّ ما يضرّه يضرّنا على ذلك منّا يقينا من له معنى ادنى مخالطة بحيث لا يمكنه ان يرفع ذلك بنوع من المغالطة وان الضارّ بالعين ضارّ بانسانها لكن النفوس الانسانيّة محلّ لخطاها ونسيانها ومن اقمنا لديكم مقام الخديم والولد قد اساءنا ما اساءكم ممّا عنه ورد وطلبنا من جميل اوصـافكم بمعاملته بالصفح الجميل فلن يزال الانسـان الا من عصمة الله يستمال ويميل ولولا الحرارة ما عرف الظلّ ولولا الوابل لقيل النهاية في الطلّ وما عرف العفو لولا الاساءة ولا يقال صبر المرء الاّ فيما اساءه وماعرفنا صاحبه الاّ بجانب كلّ من للدين ينتسب فان خرج عن نظركم فقد اتاه الغلط من حيث لا يحتسب .

ووصفه الشيخ الامام العـالم الحجّة ابو عبد الله سيّدي محمّد بن ناصر الدرعيّ في رسـالة وقفت عليها بخطّ يده بامير المؤمنين وسيّد المسلمين وناهيك بهـا شهادة على علو منصب الرجل . وكما قال الاديب الكاتب ابو عبد الله محمّد بن احمد المكلاتي في مدحه

حديث العلا عنكم يسير به الركب ... وينقـله في صحفه الشرق والغرب
وحبّكم فرض عـلى كلّ مسلم ... تنـال به الزلفى من الله والقرب
فـانت رفيع من اصول رفيعـة ... نجوم الدياجى في الانام لها سرب
سمّى رسـول الله نـاصر دينـه ... تجلّى بكم عن افقه الشكّ والريب
ولم ار بحراً جاوز البحر قبلكم ... يجود بعسجد انـامله السحب
وما يستوي البحران عندي فانّ ذا ... اجاج لعمري للسواقى وذا عذب

قال الامام الشهير ابو محمّد سيّدي عبد الواحد بن عاشر رحمه الله في مدحه

يا حادي الاظعان في الرياشى ... ابلغ سلامى فخرنا العيّاشى
من فضله بدا ونوره غدا ... تغدو به الركبـان والمواشى
طود العلا عين الندا غمر الردى ... فريد وقته الامـام الخـاشى
لله سيف صارم وقاطع وقاصم ... ظهر العدا كبيرهم والناشى
كم غصّة جرّعهـا صدورهم ... جار بهـا واقفهم والمـاشى
يتركهم عند اللقا رهن الشقا ... صرعى على الارضين كالبواشى
تهنيّكم حياتكم يا مسلمين ... ما دام فيكم سيّدي العيّاشى
انام لا شكّ الانام الـكلّ في ... ظلّ الامـان ليّن الفراش
يا عاذلي في حبّه عذلك دع ... ولا تحدّثنى حديث الواشى
اني امرؤ بالحسن مفتون وعن ... جميع لـوم لايمي عـاشى
هديّة الى الكرام ابرزت ... للسـامعين الخير فيهم فاش

وثناء الناس عليه كثير يطول بنا تتبّعه وفي هذا القدر كفاية وامّا ابتداء امره رحمه الله تعالى فقـال الشيـخ الحافظ ابو زيد سيّدي عبد الرحمن ابن الامام سيّدي عبد القادر الفاسى رحمه الله في منظومته المسمّاة بزهرة الشماريخ في علم التاريخ ما نصّه

وبعد لام ظهر العياشى   شيًّا فشيأً ثمّ مات ناش

قال شارحها ما معناه كان ابتداء امر سيّدي محمّد العيّاشيّ رضى الله عنه انّه كان من تلامذة الوليّ الصالح العارف بالله تعالى سيّدي عبد الله بن حسّون السلاسيّ دفين سلا وكان اقرب التلامذة اليه واسرعهم لخدمته وكان مع ذلك قليل الكلام مداوماً على قراءة القرءان والصيام فكان الشيخ ملتفتاً اليه ولم يزل الامر كذلك الى ان شاعت مناقب الشيخ وكثرت غاشيته فاهدى له يوماً بعض اشياخ القبائل فرساً فامر الشيخ باسراجه وقال اين محمّد العياشيّ فقال له ها انا يا سيّدي فقال الشيخ اركب بحول الله فرسك ودنياك واخرتك فتقهقر متادّباً وحلفه وحبس له بيده الركاب وقال له ارتحل عنّى الى ازمّور وانزل على اولاد ابي عزيز ولا بدّ لك من الرجوع الى هذه البلاد وسيكون لك شان عظيم فوادعه ووضع الشيخ يده على راسه وبكى ودعا له بخير فقصد ازمّور ونزل حيث عيّن له الشيخ ولم يزل مثابراً على الجهاد شديد الشكيمة على العدوّ عارفاً بوجوه المكائد الحربيّة مقداماً في مواطن الاجحام صموتاً وقوراً ذا بطش شديد فطار بذلك في البلاد صيته وشاع بين الناس ذكره بما هو عليه من التضييق على العدوّ الكافر وفرح بذلك قائد ازمّور ولم يزل على ذلك الى ان توفّى قائد الفحص والبلاد فسال السلطان زيدان بن احمد المنصور عمّن يليق بتولية ذلك الثغر فقيل له سيّدي محمّد العيّاشيّ فكتب له بالتولية فنهض باعباء ما حمل وبتولية الفحص وكانت له مع النصارى وقائع عظام وضيّق عليهم اشدّ تضييق حتّى منعهم من الرعاية والحرث فبعث نصارى البريجة لحاشية زيدان بالتحف ونفيس الهدايا ليزيلوا عنهم سيّدي محمّد العيّاشيّ لمضايقته لهم فخوّفوا زيدان منه وحرضوه على عزله واظهروا له انّه مسموع الكلمة في تلك النواحى وانّه يخشى منه على الملك وكان سيّدي محمّد كلّما بعث بما يفتح الله عليه من الغنائم والاسارى لمرّاكش ازدادت شهرته وتناقل الناس

حديثه فوغر بذلك قلب السلطان وحقد عليه فبعث له قائده محمّداً السنوسيّ في اربعماية فارس للقبض عليه وقتله فالقى الله تعالى في قلب القائد المذكور الشفقة عليه لما يعلم من براءته ممّا قذف به فبعث له خفية ان انج بنفسك فانّك مغدور فخرج سيّدي محمّد في اربعين رجلاً فرساناً ورجالة قاصدين سلا فلمّا بلغ السنوسيّ ازمّور لم يجد له اثراً فاظهر العناية بالبحث عليه وعاقب على افلاته شرذمة من اهل الفحص ولمّا دخل رحمه الله سلا زار شيخه وبات عند ضريحه وجاءه اهل سلا وذكروا له ما هم فيه من الخوف من النصارى وانّ مسارحهم امتدّت لوادي المخازن وانّ النصارى الف من الرماة دون الفرسان فامرهم بالتهيّء واتخاذ العدّة فلم يجد بسلا الاّ نحو المايتين من العدّة فحضّهم على الزيادة والاستكثار منها فكان مبلغ عدّتهم بما زادوه زهاء اربعماية فخرج بهم الى المعمورة فصادف بها النصارى عدداً فكانت بينه وبينهم حروب عظيمة قرب المعمورة الى ان غابت الشمس فقتل من النصارى زهاء اربعماية ومات من المسلمين ماية وسبعون رجلاً ختم الله لهم بالشهادة وهذه اوّل غزوة اوقعها في الغرب بعد صدوره من ثغر ازمّور ومنها قصرت النصارى عن الخروج للغابة وضاق عليهم الحال ثمّ انّ زيدان لمّا بلغه اجتماع الناس على سيّدي محمّد العياشى بعث الى قائده على قصبة سلا الزعروريّ وامره باغتياله والقبض عليه ففاوض الزعروريّ في ذلك اشياخ الاندلس فاتّفق رايهم على ان يكون مع سيّدي محمّد العياشى جماعة منهم عيناً عليه وطلعة على نيّته واستخباراً لما هو عازم عليه وحفظاً له ممّا هو مطلوب به فلازمه بعضهم وكان زيدان قبل ذلك بعث لقائده الزعروريّ المذكور ان يجهّز لدرعة اربعماية من الاندلس الذين بسلا فجهّزهم اليها وطالت غيبتهم بها فهرب اكثرهم ومالت قلوبهم عن الزعروريّ وسلطانه فلمّا بعث زيدان لاهل سلا بتجديد البعث الى درعة امتنعوا من الانقياد له في ذلك وكرهوه وازمعوا على خلع طاعته ووشوا له بقائده الزعروريّ فبعث زيدان لقبضه فقبض ونهب الاندلس داره وكتبوا له مظهرين طاعته مكيدةً

منهم ونفاقاً فبعث لهم زيدان المملوك عجيب فمكث عندهم اياماً فلم يعتنوا به وصاروا يهزؤون بحاله وثمّ قتلوه فظهر منهم شقّ العصا على زيدان واظلم الجوّ بينه وبينهم وبقيت سلا فوضى لا ولي لها فكثر النهب ومدّ اللصوص ايديهم للمال والحريم وسيّدي محمّد ساكت لا يتكلّم وكثرت الشكاية من التجّار والمسافرين بخوف السبل وقطع الطرقات فهرع الناس الى سيّدي محمّد العياشيّ وكثرت وفوده واشرقت في الجوّ السلاويّ انواره وسعوده فشمر عن ساق الجدّ واظهر الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ولمّا طلبه الناس للتقدّم للنظر في مصالح المسلمين وامور جهادهم مع عدوّهم امر اشياخ القبائل واعيانها من عرب وبربر وروساء بان ينزلوا خطوطهم في ظهير بانّهم رضوه وقلّدوه وقدّموه على انفسهم والتزموا طاعته واي قبيلة خرجت عن طاعته وامر كانوا معه على مقاتلتها حتّى تفيء الى امر الله فكتبوا بذلك خطوطهم ووافق عليه قضاة الوقت وفقهاؤها من تامسنا لتازى وكان الحامل له على ذلك انّه بلغه عن بعض طلبة الوقت انّه قال لا يحلّ الجهاد الاّ مع الامير ففعل ذلك خروجاً من الدعوة الواهية والاّ فقد كتب له علماء الوقت كالامام سيّدي عبد الواحد بن عاشر والامام سيّدي ابراهيم الكلاليّ والامام سيّدي العربيّ الفاسيّ وغيرهم بان مقاتلة العدوّ الكافر لا تتوقّف على وجود السلطان وجماعة المسلمين تقوم مقامه ولمّا كمل امره وبايعه الناس على اعلاء كلمة الله وردّ الظلم على ضعفاء الامّة ضاق الحال على عرب الغرب لاعتيادهم الفساد وعدم الاحكام ومحبّتهم الخلاف والسيبة فنكث بيعته جماعة وكان ممّن نكث الناصر بن الزبير في لمّة من الشراقة فقاتلهم سيّدي محمّد العياشيّ رحمه الله فظفر بهم وعفا عنهم ونكث ايضاً الطاغى بالتاء بدل الطاء في السنتهم مع جماعة من اولاد اشجيز فغلبهم وعفا عنهم وكذلك عرب الحياينة طغوا على اهل فاس وعتوا وسعوا في اخلال البلاد بامر احمد ابن مولانا زيدان فقاتلهم سيّدي محمّد العياشيّ رحمه الله فكانت الدائرة عليهم وتاب على يده جماعة من روساء الشراقة الذين كانوا مع الحياينة وكانت عاقبة كلّ من

بغا عليه وطغا خسراناً مبيناً وامّا مغازيه رحمه الله فقال شارح الزهرة كان نزول النصارى بمرسى الحلق سنة اثنتين وعشرين والف وكان هذا الحلق قصراً للمسلمين ولقوا منه شدّة ولمّا اجتمعت الكلمة على سيّدي محمّد العياشيّ وردّ الله من نكث للعهد كان اوّل ما بدا به انّه تهيّا للخروج للحلق واستعدّ لقتاله ومنازلة من فيه من النصارى طمعاً في فتحه فيتقوّى بذخائره المسلمون وكان المسلمون قد حاصروه ايضاً فلم يقدروا له على شيء وصعب عليهم الامر وكان سيّدي محمّد العياشيّ رحمه الله اذا اراد الله ان يظفره بغنيمة راى في نومه انّه يسوق خنازير ولمّا سار بجموعه للحلق ونزل عليه راى قطعتين من الخنازير والعنوز معها فكان من قضاء الله انّه في صبح تلك الليلة قدمت اغربة من السفائن بقصد الدخول للحلق فضيّق عليهم الرماة من الخندق فارادوا ان يخرفوا للبحر فردّهم البحر لساحل الرمل فتمكن منهم المسلمون وقتلوا وسلبوا ونهبوا ووجدوا في الاغربة زهاء ثلاثماية اسير من المسلمين فاعتقهم الله واسروا من النصارى اكثر من ثلاثماية ومات اكثر من ماية منهم وظفر بقبطان من عظمائهم ففدى به طائف رئيس اهل الجزائر وكان عندهم في قفص من حديد ومنها غزوة العرائش وكانت سنة اربعين والف وذلك انّه صرّف همّته للتضيّق على نصارى العرائش وشنّ الغارات عليهم فكمن بالمسلمين بالغابة نحواً من ستّة ايّام فخرجوا بغتة فمكّن الله له من رقابهم وطحنهم في ساعة واحدة ووقع له مع نصارى العرائش ايضاً انّه اخذ حناشا من عرب طليق يقال له ابن عبود فاراد قتله فقال له استبقِني فانّي اقفع المسلمين وانّي تائب الى الله عزّ وجلّ فتركه وذهب اليهم وكان موثوقاً به عندهم حتّى انّهم كانوا يودون له الراتب على ذلك فقال لهم احياء العرب وخللهم قد نزلوا بوادي العرائش فلو غرتم عليهم لغنمتموهم فخرجوا مبادرين مكثرين فما شعروا الاّ ان احاط بهم سيّدي محمد العياشيّ فلم ينج منهم احد وكان عدد من قتل من الكفرة نحو الالف فاخذوا ابن عبود اذ بقي في ايديهم فقلعوا اسنانه ومثلوا به وراموا قتله لولا انّه رفعهم الى شرعهم

فسرّحوه ومن غزواته رضى الله عنه غزوة الحلق الكبرى وذلك انّ اهل فاس نزلوا بموضع يعرف بعين السبع وكمنوا ثلاثة ايّام وفي اليوم الرابع خرج النصارى على غرة فثار المسلمون عليهم وكانت الغنيمة اربعمـاية من العدّة وقتل من النصارى ستّماية وكان النصارى لمّا خرج جيش فاس بقصد الغزو اعلمهم مسلم مرتدّ كان عندهم فاعطوه سلعاً وجاء المرتدّ لسلا بقصد بيعها فاخذ وقتل فعمى عليهم الخبر اذ كانوا ينتظرونه بالخبر فلم يشعروا حتّى صاحبتهم الخيل فاحيط بهم ولم ينج منهم الاّ القليل حتّى لم يبت في الحلق تلك الليلة الا نحو الاربعين رجلاً منهم ولم يحضر سيّدي محمّد العياشى بنفسه في هذه الغزوة لانّه ذهب لطنجة قلقاً على يوم المسامير حيث صنعوا مسامير بثلاثة رؤس تنزل على الارض والرابع يبقى مرفوعاً مكيدة عظيمة تضرّر منها الفرسان والرجالة من المسلمين ولمّا رجع واعلم بضعف من بقى في الحلق بعث الى الاندلس بسلا يصنعون له السلاليم يصعد منها لمن بقى في الحلق فتثاقلوا عليه من صنعها غشّاً منهم للاسلام ومناواة لسيّدي محمّد العياشىّ حتّى جاء المدد لاهل الحلق فلمّا اتى بها لم تغن شيأً بعد ان ركبها ومن هنالك استحكمت البغضاء بينه وبين اهل الاندلس وكان اهل الاندلس اعلموا النصارى بانّ محلّة محمّد النازلة في محاصرة الحلق ليس له اقامة فبلغ ذلك لسيّد محمّد فاقام عليهم الحجّة وشاور العلماء في قتالهم فافتى سيّدي العربيّ الفاسىّ بجواز مقاتلتهم لانّهم حادوا الله ورسوله ووالوا الكفّار ونصحوهم ولانهم تصرفوا في مال المسلمين ومنعوهم من الراتب وقطعوا البيع والشراء على الناس وخصّوا به انفسهم وصادقوا النصارى وامدّوهم بالطعام والسلاح وكان الامام سيّدي عبد الواحد بن عاشر رحمه الله لم يجب عن ذلك الى ان راى بعينه حيث قدم لسلا الاندلس يحملون الطعام للكفّار ويعلمونهم بغرة المسلمين فافتى بجواز مقاتلتهم وحكم في رقابهم السيف ايّاماً الى ان اخمد بدعتهم ورجع بهم الى الكلمة ولمّا وقعت غزوة الحلق الكبرى جاءت الوفود بتهنية سيّدي محمّد بما منح الله له من الظفر فحضّهم على استيصـال شافة من بقى به وعيّر العرب بترك

النصارى في بلادهم وكان ممّن حضر في العرب جماعة من الخلط وبنى مالك والطاغي والدخيسيّ وغيرهم فقال لهم والله والله والله ان لم ياخذكم النصارى لياخذنكم البربر فقالوا له يا سيّدي وكيف يكون ذلك وانت فينا فقال لهم اسكتوا انتم الذين تقطعون راسى فكان كذلك وهذا من كراماته رضى الله عنه وامّا مقاتله اهل البريجة فسببها كما رأيته في رحلته بخطّ الفقيه العلّامة قاضى تامسنا في حينه ابي زيد عبد الرحمن بن احمد الغنامىّ الشاويّ انّ اهل البريجة عقدوا المهادنة مع اهل ازمّور مدّة فكان من عزّة النصارى وذلّة الاسلام في هذه المدّة ما تتفطّر منه الاكباد وتخرّ الجبال هدّاً فمن ذلك انّ زوجة القبطان خرجت ذات يوم في محفتها ومعها صواحبها الى ان وصلت حلّة العرب فلقّاها اهل الحلّة بالولاول والفرح وصنعوا لها من الاطعمة وحملوا لها هدايا من الدجاج والحليب والبيض فظلّت عندهم في فرح عظيم ولمّا كان الليل رجعت ووقع لها ايضاً مرّة اخرى انها امرت زوجها القبطان ان يخرج بجيوشه ويبعث لقايد ازمّور ويخرج بجيوش المسلمين فيلعبون فيما بينهم وهى تنظر اليهم وتتنزّه فيهم فكان ذلك فجعلوا يلعبون وهى تتفرّج فيهم فما كان الى ان حمل كافر على مسلم فقتله فكلم قائد المسلمين القبطان واخبره بما وقع فقال القبطان فما يضركم ان مات شهيداً يهزا به ويسخر بالمسلمين قال وكان الولىّ الصالح العابد الزاهد المجاهد رافع لواء الاسلام ومحى منهاج النبىّ عليه الصلاة والسلام سيّدي محمّد العياشى كلمّا سمع او راى شيًأ من ذلك تغيّر وبات لا يلتذّ بطعام ولا منام وهو ينظر كيف تكون الحيلة في زوال المعرّة عن المسلمين وغسل اعراضهم من وسخ الاهانة وهو مع ذلك يخاف من العيون التى ترصده من صاحب مرّاكش وقائد ازمّور ومن قبطان البريجة فمكث كذلك مدّة من ثلاث سنين فلمّا راى الامر لا يزيد الّا شدة اشار لبعض اولاد دويب من اولاد ابي عزيز ان يجلبوا للنصارى شيًأ من الزرع خفية ويكون شيًأ قليلاً فشيًأ قليلاً حتّى تطمئن نفوسهم ويذوقوا حلاوته ويريهم

النصيحة والمحبّة فلمّا حصل ذلك جاءه جماعة منهم واخبروه بذلك واطلعوه على غرّة النصارى فعزم على قصد البريجة ثمّ بدا له تقديم العرائش ثمّ ياتي البريجة وكان ذلك في رابع صفر عام تسعة واربعين والف ثمّ تحرّك للبريجة فذكروا له انّ وادي ام الربيع في نهاية المدود والانتهاء فلم ينته عن ذلك وسار حتّى بلغ الوادي فوجده ممتلياً جدّاً لا يكاد يدخله احد الّا غرق فقال لاصحابه ومن معه توكّلوا على الله واجتهد في الدعاء ثمّ اقتحم الوادي بفرسه متوكّلاً على الله وتبعه الناس فعبروا جميعاً ولم يتاخّر منهم احد وكان المـاء يصل الى قريب من ركب خيولهم مع انّ ذلك الوادي حين امتلائه لا يدركه له قعر عند الناس كما شوهد ذلك وهذه كرامـة عظيمة وبرهـان عظيم وقع له رضى الله عنه ولم نسمع بمثل هذا وقع الّا للصحابة رضوان الله عليهم كما وقع للعلاء ابن الحضرمىّ في فتوح العراق وذلك فضل الله يؤتيه من يشـاء وبلغ البريجة ووجد طائفة من اولاد ابي عزيز شعروا به ولجئوا للقبطان خوفاً من سيّدي محمّد العياشىّ ان يمكر بهم فخرج في خيله وكان سيّدي محمّد كامنـاً بازاء البريجـة بالغابة فلمّا انفصل القبطـان بجيشه عن البريجـة حمل عليهم سيّدي محمّد العيّاشى بخيله فقطعهم عن الهرب الى البريجة فهربوا للبحر فماتوا كلّهم قتلاً وغرقاً الّا نحو من سبع وعشرين فتغيّر صاحب مرّاكش على ذلك وانكر ما صنع هو وقاضيه الفقيـه السيّد عيسى بن عبد الرحمن وبالجملة فغزوات سيّدي محمّد العيـاشى رحمه الله كثيرة وحمايته للدين شهيرة ودابه عن الاسلام ممّـا هو واضح عند الخاصّ والعامّ وكان رحمه الله عازماً على اخذ العرائش فحال بينه وبينها الموت وكذلك كان ملحّـاً على اخذ طنجة فلم تسـاعده الاقدار ومن خطّ الفقيه العلّامة ابي عبد الله محمّد بن احمد ما صورته حدّثني من اثق به من الاخوان عن ابنه الفقيه العلّامـة الاشهر سيّدي عبد الله ابن سيّدي محمّد العيـاشىّ انّه وجد مقيّداً بخطّ والده رحمه الله انّ جملة ما قتل من الكفّار في جملة غزواته سبعة الاف كافر وستّماية كافر ونيف وسبعون كافراً . وكان الذي استولى عليه

سيّدي محمّد العياشيّ سلا ونواحيها وعلى تامسنا وعلى اعراب الغرب كلّ ذلك كان تحت طاعته وفي ولايته ولم يزل في نحر العدوّ حتّى امن سرب المسلمين وحقّ القول على الكافرين وكان رحمه الله مجاب الدعوة ما دعى الله في شئ الّا استجيب له شوهد ذلك منه مراراً وكان من كراماته انّه يعلم الناس بالغنيمة قبل وجودها وكان فقيهاً مشاركاً في الفنون من العلوم وله اتباع ظهرت عليهم بركاته ولاحت عليهم اسرار سرّه ونفحاته

ذكر الخبر عن قتله رحمه الله وسببه

وما وقع له في ذلك

قد ذكرنا قبل انّ الاندلس بسلا تحزّبوا عليه ورموه عن قوس واحدة وانّه كان اطلع على خياتهم للاسلام واهله ونصيحتهم للكفر وذويه وانّه استفتى العلماء في مقاتلتهم فافتوا باباحة مقاتلة من اتّصف بهذه الصفة فاطلق سيّدي محمّد فيهم السبيل ايّاماً فقتل من وجد منهم وهرب اكثرهم فمنهم طائفة ذهبت لمرّاكش وطائفة ذهبت للجزائر وطائفة فرّت للنصارى وفرقة ذهبت لاهل زاوية الدلاء فجاء اهل الدلاء يشفعون في الاندلس فابى سيّدي محمّد ان يقبل الشفاعة فيهم وقال انّ الراي في استيصال شاقتهم فلمّا راى اهل الدلاء امتناعه وردّه شفاعتهم غضبوا لذلك واجمعوا على مقاتلته وجاءوه فخرج اليهم سيّدي محمّد بجنوده فاوقع بينهم وهزم جمعهم وفتك بالعرب الذين كانوا مع الطاغى فتفرّقت الجموع وتبرّا التابع من المتبوع وذهب سيّدي محمّد لغزو طنجة فلمّا رجع من غزو طنجة وجد البربر مع اهل الدلاء وصلوا الى اطراف ازغار ومعه الطاغى واهل حزبه من الكراردة والدخيسى عزموا على مصادمة سيّدي محمّد فاراد سيّدي محمّد ان يغضّ طرفه عنهم ويصرّف عنانه لغيرهم فلم يزل به

اصحابه واهله الى ان نبذ لمقاتلتهم فلمّا التقى الجمعان كانت الوقعة على سيّدي محمّد فهزم من معه وقتل فرسه تحته فرجع الى بلاد الخلط وكان روساء الخلط اكثرهم في حزب الطاغى وعلى راي الكرادي فرجعت البرابر لاوطانهم وبقى سيّدي محمّد عند الخلط ايّاماً فغدروا به وقتلوه رحمه الله بموضع يسمّى عين القصب واحتزّوا راسه وحملوه الى سلا ومن كراماته المتواترة انّهم لمّا حملوا راسه سمعوه ليلاً يقرا القرءان جهاراً حتّى عاينه جميع من حضر فردّوه لمكانه وتاب بسببه جماعة من الناس ولمّا مات سيّدي محمّد فرح النصارى لموته غاية الفرح واعطوا البشارة على ذلك وعملوا المفرحات ثلاثة ايّام وحدّث رجل كان بالاسكندريّة انّه راى النصارى يفرحون ويخلون انفاضهم فسالهم عن ذلك فقالوا له قتل صانطوا في المغرب ومعناه المجاهد وكان قتله رحمه الله تاسع عشر من المحرّم سنة احدى وخمسين والف وقد رمزوا لتاريخ وفاته بقولهم مات زرب الاسلام باسقاط الف الوصل وفي الرحلة لابي سالم سيّدي عبد الله العيّاشيّ قال اخبرني الشيخ محمّد الفزار بمكّة قال كان بالمدينة المشرفة رجل مغربيّ من اهل العصر في السنة التى مات فيها الوليّ الصالح المجاهد سيّدي محمّد بن احمد العيّاشيّ فجاءني ذات يوم وقال لى انّي رايت في النوم اختى ورايت رجلاً جالساً مقطوع اليد تسيل دماً فقلت له من انت فقال انا الاسلام قطعت يدي بسلا قال فلمّا اخبرني قلت له الذي يظهر لي من رءياك انّ الرجل الصالح المجاهد الذي كان بسلا قد قتل قال وبعد ذلك في اخر العام قدموا الحجّاج من المغرب واخبروا بموته . ولولده الاجلّ الفقيه العلّامة عبد الله رحمه الله ارجوزة نظم فيها اهل بدر وتوسّل بهم الى الله عزّ وجلّ في هلاك اولائك الذين تمالئوا على قتل والده فلم تمض الّا مدّة يسيرة حتّى دارت عليهم دائرة السوء ولم ينج منهم احد والحكم لله الواحد القهار وقد رثي سيّدي محمّد العيّاشيّ بقصائد كثيرة منها ما قاله الفقيه الاديب البليغ الاريب ابو العبّاس سيّدي احمد الدغوغيّ

ان عاص ان غاض من افاض بحر ندا ... يجفّ روض منى كم مجّ منـه ندا
فليحكه الدمع طوفاناً طفا هو عن ... من لا نظير له في غربنـا وجدا
واطفئ النور والنيران موقدهـا ... مـا لا انطفـاء له من لوعة ابدا
فـلا جمود لدمـع لا خمود به ... لمـا تلظّى فؤادي منـه مفتـأدا
والشمس ان طلعت افلاكها عضلت ... احلاكهـا من تجلّيهـا ببدر هدا
كم شـادكم سادكم سدّ الثغور وكم ... آذى واوعى غياث الغيث مقتصدا
وكم اباد جموع الروم قهراً وكم ... اردى العدا وعن الاسلام ذاد ردا
يا عين ويحك سحّي واردفي وكفى ... ويا فؤادي تفاد اللهب والكمدا
مات السرور فساءتك الشرور وقد ... سرّت وفـاة نصير الحقّ من عندا
القـائم الصـائم المحيي اليـه الوفا ... رباط فـروّح الـطيف مجتهـدا
العـالم الدائم الحـروب في مدد ... واليوم صوما وصونا للعلا اعتمدا
لا خطب اعظم من هذا الملمّ لقد ... دهى واذهـل حتّى لم يدع جلدا
بحر الكرامات روح المكرمات مضى ... غيظ الحسود وحيد العصر منذ بدا
وقـرّة العين قاهر البغـاة غدا ... وعصمـة الدين والدنيـا معـا الجدا
هل كان الّا جناً للمتجنى وردا ... لمن غـدا بعدوّ الدين معـتضدا
ومـاجداً منجداً للمعتري ما بدا ... للمـعتدي وهدى للمـتقّين هُدا
يرجو ويرهب اذ يدعو ويرغب ان ... يدنو مع الشهداء الصفوة السعدا
حتّى استجاب له ربّ وصـاب له ... قرب وقابله ارب فـكم جهدا
فوق المنى نال لكن حسن مقلته ... في الله يوثر من امثـاله عددا
للذات والنفس لذّات لقد نهجت ... منه لوصل معـالي مـا لهنّ مدا
ما كان امنع تلك النفس لو رهبت ... لكنّها هربت من ارتهاب ردا
خلق له الخلق الصعب الابر حلا ... من الحفاظ زكيّ النفس سهل الندا
بعده مـا دابنـا عيش العلا سئموا ... عيش فلا عاش مـولود ولا ولدا
اجراء جرّ لليث قد جرى دمه ... بين الكلاب كأن لم يفترس اسدا

لم يمسِ قطّ ولم يصبح سوى قدم   يلقى فيلحم جمعاً من بيوت عدا
كانّه لم يصل في الله مستاصلا   لله منتصراً بالله من جحدا
كانّه لم يقم بالحقّ منتقبا   للحقّ او لم يقم من مبطل اودا
منه اكتسى جسد الدين الحياة الى   ان راح فارتاح روح فارق الجسدا
قد جاء في نصّ وحي لا يموت فتى   قد فاز بالروح والريحان في الشهدا
من اسمه اسم ابيه واسمه صفة   توليهما صفة للشاكرين يدا
كلّ المحاسن مولاها محمّدها   وكلّ وجدان حمد بعده فقدا
وكلّ حسن واحسان زهى شيما   قولاً وفعلاً ففي وجدانه وجدا
من لي ولا من باتيان الزمان به   في المكرمات بمثل يستحى صمدا
من لي ولا من بحاج للغثور ومن   لي به لا من بان احظى به ابدا
من لي ولا من بحام بعده بطل   لا في الوغا عدداً يخشى ولا عددا
نار القرى في القرع من مهندَه   وكم قرا الضيف من لحوم من عندا
فغادروه وقوم غدروه لهم   شيئان حكمهما سيان فاتّحدا
عدّوا وليسوا ذوى قربى وكالامنا   كانوا فخانوا من استدناهم بعدا
لو جملة بحسام العدل صبّحها   ما يبتّه جموع الجور منفردا
لكنّهم بقر ضلّوا وقد نفروا   راعيهم فليظلّوا يجأرون سدا
فليضحكوا اليوم وليبكوا فقد ذهلوا   عن علم ما جهلوا ممّن يرون غدا
وتلك ايّامها دنيا مداولة   من بات يفرح ساءته غداة غدا
وعيشكم آل عيّاشى فلا تهنوا   بعد محمّد ان يذمّ فقد حمدا
ان غاب مرءاه فالاثار شاهدة   مشهودة فليبؤ بالرغم من جحدا
في الخلد حيّاه رضوان وهنّاه   من مالك الملك بالرضوان اذ وفدا
يا اولياء قتيل الظلم حسبكم   سلطان نصر بنصر الذكر قد شهدا
ما غاض بل فاض بحر بعد ما انفجرت   من لجّه فجرت بحور ندا
بل في ابنه وبنيه الاسد ثم لهم   يمن سيملا عيناً بالمنى ويدا

ويتهى الامر منكم في الانام لما   عقباه ترضى وتردى اولياء عدا
فألي ببالي به في صدقه ولكم   ما فيهما من مصيب جدّ واجتهدا
كمال فوزي بحسن الحسنَيْن معاً   والله حسبي كفاني صدقه الفندا

ذكر الخبر عن اهل الزاوية الدلائيّة ومبتدا امرهم

وكيفيّة انتشار ذكرهم وكمال فخرهم رحمهم الله

امّا نسبهم فهم برابر مجاط بطن من صنهاجة حسبما ذكره ابن خلدون وغيره كما رايته بخطّ شيخنا الامام ابي عبد الله المسناوي رحمه الله وامّا مبدا امرهم فانّ جدّهم الوليّ الاشهر ابا بكر بن محمّد المعروف بحمّى بن سعيد بن احمد بن عمرو سكن الدلاء واتّخذ هنالك زاوية فجاء ولده الوليّ الاطهر محمّد بن ابي بكر فكمل من الفضائل ما بقى وابدا من الاسرار ما خفى فتناقل الركبان حديث هذه الزاوية في الافاق وقصدها الناس من كلّ جهة على الاطلاق الى ان كان من اولاد الرجلين ما كان وها نحن نرتب القول في ذلك فامّا السيّد ابو بكر بن محمّد فكانت ولادته سنة ثلاث واربعين وتسعماية ويقال انّ الذي سمّاه ابا بكر هو الشيخ الشهير ابو الحسن على بن ابراهيم البوزيديّ دفين اخرط وانّه جاز بتلك البلاد ايّام ولادته وادرك يوم عقيقة فاتوه بطعام من العقيقة وقالوا له فما نسميّه فقال ابو بكر فقالوا له ان البرابر يغيّرون الاسماء فيصيرون ابا بكريك فقال لهم انّهم لا يغيّرونه ان شاء الله فكان الامر كذلك ثمّ ان السيّد ابا بكر لمّا سبق له من العناية الربّانيّة تعلّقت همّته بابتغاء شيخ يسلك على يديه فرحل الى الشيخ ابي عمر المرّاكشى فلمّا جلس بين يديه اقبل عليه في اوّل مرة اقبالاً عظيماً وضمّه اليه والبسه قلنسوته بيده وكان راس ابي بكر اضخم من راس الشيخ ابي عمر فلم تسع القلنسوة راسه فجعل الشيخ يوسعها

ويكلفها راسه فاخبر سيدي ابو بكر انّه فتح له في ذلك الالباس امر عظيم من الملك والملكوت وعلم الملايكة ثمّ الغيبة عن ذلك كلّه ويقال انّ الشيخ ابا عمر امره بحراسة بستان له فاقام في خدمته مدّة الى ان اذن له الشيخ بالتوجّه الى بلاده فتوجّه اليها الاّ انّه كان يتردّد لزاوية الشيخ مع الاخوان وحكى انّه هاجت عليه المحبة يوماً وهب نسيم الشوق للشيخ فسار اليه وحده فوجده في جنازة والوباء اذّاك بمرّاكش ولعلّه وباء خمس وستّين وتسعماية فقال له الشيخ ما جاء بك الم يقل النبيّ صلّى الله عليه وسلّم اذا سمعتم به بارض فلا تقدموا عليها فقال لا عقل لي فقال واين رفقاؤك فقال انّما جئت وحدي فقال له الم يقل النبيّ صلّى الله عليه وسلّم الواحد شيطان والاثنان شيطانان فقال لا عقل لي فعذّره ولمّا توفّي الشيخ وجد ابو بكر في حاله نقصاً وفقد ما كان يالفه في نفسه ولم تقله ارض ولم تظلّه سماء وهام على وجهه في البريّة مع الوحوش والسباع واقبل على تلاوة القرءان فقرأ ختمات فلم يرجع اليه حاله ثمّ اقبل على ذكر لا اله الاّ الله مدّةً مديدةً فلم يجبر حاله ثمّ اشتغل بالصلاة على النبيّ صلّى الله عليه وسلّم زاهداً في الدنيا غير ملتفت اليها فعاد اليه حاله ووجد ما كان فقد وكان رحمه الله محافظاً على السنّة قائماً بالشريعة بحّاثاً على العلم حاضّاً على تعلّمه وتعليمه تالياً للقرءان كثير الذكر والصلاة على النبيّ صلّى الله عليه وسلّم زاهداً في الدنيا غير ملتفت اليها ولا ناصراً لزهرتها وكلّ ما فتح عليه منها صرّفه في مصارفه في الحين ولا يلتبس بقليل منها ولا بكثير وقال صاحب مرءات المحاسن في حقّه انّه من اكابر مشايخ المسلمين واولياء الله المقربين وحيد عصره ونسيج وحده متوسّم بالشريعة متحقّق بالحقيقة بحر جود لا ساحل له يعطى عطاء من لا يخاف الفقر فلو راى من مضى بعض من مكارمه لم يذكروا في الندا معنى ولا هرماً اقام الله به رسم الجود وافاض به نعمته على الوجود يكلّ اللسان والقلم على استيفاء فضائله التى هى اشهر من نار على علم وحسبك ان المغرب لمّا تداأئت قواعده وانهدّت اركان الملك به فاختلّ النظام وماج الناس كان ماوى لاهل

العلم والدين ومورد الضيوف والمساكين فاعتصم الاسلام منه بحصن حصين وربوة ذات قرار ومكين فهو الذي امسك رمقه وابقى رواءه ورونقه فداره ما زالت ولا تزل ان شاء الله دار العلم والدين ومشرع الجود والعذب المعين والنهوض باعباء مصالح المسلمين . وقد زاره الشيخ الحافظ ابو العبّاس سيّدي احمد بن يوسف الفاسيّ في محرّم فاتح ثمانية عشر والف فاقام عنده ايّاماً واخذ عنه وانتفع به فلمّا رجع الى فاس سالوه عنه فقال اخذ الناس بالاوصاف واخذ سيّدي ابو بكر بالاتّصاف . وكان رحمه الله كثير الاطعام بحيث بلغ فيه النهاية ويطعم الناس على اقدارهم تمسّكاً بحديث امرت ان انزل الناس منازلهم وكراماته وبركاته شهيرة توفّى رحمه الله عند طلوع الشمس يوم السبت الثالث من شعبان المبارك سنة احدى وعشرين والف ودفن في الدلاء وامّا ولده سيّدي محمّد بن ابي بكر فهو واسطة العقد خاتمة مشائخ المغرب وغرّة السعد اليها نتهت رياسة الدين والدنيا واستقلّ بسياسة الامور الجليلة والرتب العليّة الجميلة بلغ في الولاية مبلغاً لم يكن لاحد من اهل وقته في دهره وشاع له من الذكر وحسن الصيت ما لم يشع مثله لغيره وناهيك ان الفقيه المحدّث ابا الحسن سيّدي علىّ بن عبد الواحد الانصاري السلاويّ كتب رسالة الى شيخه الحافظ الفقيه ابي العبّاس احمد المقّري عام سبعة وثلاثين والف وابو العبّاس اذّاك بمصر فكان من جملة ما اخبره به فيها ان قال له ومحبّكم الاكبر ووليكم الاطهر سيّد اهل المغرب اليوم وشيخ الطريقة والمربّى في سلوك اهل الحقيقة العارف بالله تعالى الشيخ الربّانيّ ذو الكرامات العديدة والمقامات الحميدة سيّدي محمّد بن ابي بكر الدلاءي يحبكم ويعظّم قدركم ولسانه لكم ذاكر ناشر شاكر وهو على خير . وهذه الرسالة مثبتة في نفح الطيب للمقّري المذكور ولد رضى الله عنه تقريباً سنة سبع وستّين وتسعماية حسبما ذكره شيخنا في فهرسته واخذ عن الشيخ ابي عبد الله سيّدي محمّد بن ابي القاسم الشرقىّ بعد ان تطوّف على صلحاء المغرب غاضّاً طرفه عن سيّدي محمّد بن ابي القاسم المذكور فلم يقع اختياره على

امر غيره فتلمذ له الى ان حصل له من الحظوة والوجاهة فوق ما كان لسائر من عاصره وكان رحمه الله عالماً حافظاً درّاكاً متوسّعاً في علم التفسير ومعاني الحديث وعلم الكلام والعربيّة واللغة حسن المشاركة فيها وفي غيرها وقال صاحب بذل المناصحة في حقّه ما نصّه امتدّت اعناق الخلائق للعطاء منه شرفاء وعلماء وغيرهم وقد بسط رحمه الله يده في ذلك ما استطاع حتّى عزّ القاصر زيارته في الله عزّ وجلّ وانّما قصدوه فيما يتثلون من يده وحتّى ان من لم يرضه يطلق اللسان لقلّة الانصاف من الانسان وهل يقتضون ديوناً ترتّبت لهم عليه او اخترموا له فيما يعنون لديه يعرف صحيح البخاري ويتقن ضبطه لقيته وتذاكرت معه عقيدة الواحدي لا يثنيه فعله • وكان شيوخ الوقت كالحافظ ابي العبّاس المقّريّ وسيّدي عبد الواحد بن عاشر والحافظ ابي العبّاس احمد بن يوسف الفاسيّ والفقيه ابي عبد الله محمّد بن احمد ميارة وغيرهم يقصدون زيارته ويتبركون به ويراجعونه في عويص المسائل العلميّة • وقال في كتاب الاعلام ما نصّه في حقّه لو تفرّغ متفرّغ لجمع فضائله في ديوان مستقلّ لم يجمع منها الّا ما يندر ويقلّ ولو صنّف من انواعها اصنافاً والّف من اعدادها الافاً • وما احسن ما قال في مدحه الاديب البليغ الفقيه ابو العبّاس سيّدي احمد الدغوغيّ رحمه الله تعالى

اعجب لما لا تحاماه فسرّ به ... هل لا تحاماه عار من حلا ادبهْ
امدّعى الادب اقصرْ لا ابا لك ما ... انت بكفو لما اصبحت تفرح بهْ
مالى وللشعر لولا ما كلفت به ... من مدحىَ ابن ابي بكر على رتبهْ
محمّد القطب ما اغنى شمائله ... عن وصفه فهو مصباح على لهبهْ
لكنّه شمس نور بل له شرف ... من فوق ذلك لا يرقى لمكتسبهْ
العالم العلم الهادي الانام الى ... اهدى سبيل وذاك البعض من قربهْ
حامى التزيل مزيل الباس منزله ... على وفاق رضى الجبّار او غضبهْ

احيا الشرائع بل افنى البدائع بل — سدّ الذرائع منــه الجدّ عن تعبهْ
وربّمـا ارتاح طـوراً للمـزاح وكم — ازرى بذي الجدّ مرتاحاً على لقبهْ
اما ومعطيك من كلّ الفضائل ما — لم يعطه طـالب قد جدّ في طلبهْ
لبعض ما حزت كلّ المكرمات حكا — ك البحر بالدر والعقيان من حصبهْ
امسى حمى العلم ذا اهلين في حرس — لولاك اصبح يوم الجهل في خربهْ
كم نال منك غنى مسـكين متربة — وآل ذو سغب للخفض من سغبهْ
وكم فككت اسيراً لا نصير له — وكم جبرت كسيراً هيض من نوبهْ
وكم اخا كـربة خلّصته فنجـا — ممّا دهاه ونال الامن من كـربهْ
وكم سليب من الدنيـا واخر من — دين يرى بك كـلّ ردّ مستلبهْ
وكم ظلوم ومـظلوم اجرت على — نصر عـلى ذاك مـع رد لمنتهبـهْ
وكم دفعت ولا دفع الغضنفر عن — اشباله الرخص عن ذي الحيل من عطبهْ
وكم كان لم يكـن للمسلمين اب — سواك والنـاس كلّ يعترى لا بهْ
ما زلت مذ كنت اتقى الناس اكرمهم — واكرم النـاس اتقـاهم على رهبهْ
وانت احـرصهم رفقـاً واعزمهم — سبقاً اذا اختـار ذو سبق مدا نصبهْ
نعم وارسخهـم علمـاً واصونهم — عرضاً وارسنهم حلمـاً على حسبهْ
بل انت اجودهم كفّاً وارشـدهم — كفّاً لهم عن اذى يخشى وعن سببهْ
يا ليت شعري لو جاء الاوائل من — قسّ البيـان ومن جاراه في خطبهْ
هل يستطيعون ان يثنوا اذا اعتسفوا — عـلى كمالك بالمعشـار من نخبـهْ
من مرتضى كملت اوصـافه وزكى — اصلاً وفرعاً الى حيث انتهى نسبهْ

وكان لبرابرة ملوية فيه اعتقاد عظيم وخدمة تامّة يتبرّكون باثاره ولا يتجاوزون رايه ويقفون عند حدّه ومقداره وكان للزاوية صيت عظيم وكان بها من معاناة العلوم والدءوب على التدريس والاقراء ليلاً ونهاراً حتّى تخرج به جماعة من صدور العلماء واعيانهم وكانت له الرحلة في المغرب لا يعدوها طالب ولا يأمل

غيرها راغب وحدّث غير واحد من الاشياخ انّه لمّا دنت وفاته رحمه الله جمع اولاده وذويه وقال لهم انّ الله عزّ وجلّ اخبر عن قول طالوت لقومه ان الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس منى ومن لم يطعمه فانّه منّى الاّ من اغترف غرفة بيده وانا اقول لكم ولا من اغترف غرفة بيده يشير لهم بذلك الى ما يتجاذبونه من امر الرياسة بعده ويبتلون به من ابهة الخلافة وذلك من مكاشفته رحمه الله وقد اعترض عليه بعض الطلبة في قوله وانا اقول بانّه سوء ادب لمقابلته كلام الله تعالى بكلامه واجاب عن ذلك من احفاده شيخنا الفقيه العلاّمة الشهير ابو عبد الله سيّدي محمّد بن احمد بن المسناويّ ابن سيّدي محمّد بن ابي بكر برسالة مستقلّة لولا الاطالة لجلبناها بنصّها وكانت وفاته رحمه الله سنة ستّ واربعين والف فكان عمره نحواً من ثمانين سنة بجال تقريب ولمّا توفّى سيّدي محمّد بن ابي بكر خلّف عدّة من الاولاد فكان اكبرهم هو السيّد محمّد الملقب بالحاج لانّه حجّ مع ابيه وجدّه مراراً ولقى بالحجاز ومصر عدّة من المشائخ ويقال انّه صلّى بالناس يوم عرفة على ظهر الجبل لامر اقتضاه ولم يكن ذلك لاحد من اهل المغرب قبله وكان السيّد محمّد الحاجّ فقيهاً عالماً مشاركاً جواداً رايت بخطّ الفقيه الاديب ابي العبّاس احمد بن سليمان الداوديّ رحمه الله ما صورته كتب لسيّدي محمّد الحاجّ حفظه الله تعالي بمنّه

ايا سيّد الاقوام آن ارتحالنا ولابن السبيل في جنابك مطمع
جميل ولا حملان الاّ بحملكم عديم ولا عدوان لكن سميدع
فان لم يكن طرف فانّى ببغلة والا بعير فيه مرءى ومسمع

قال ففرح بالابيات وتضاحك منها وبعث له بثلاثين مثقالاً وقال هى لك اخفّ مؤنة وكان لاهل الزاوية اعتناء بعلم الادب وارتياح لرائق الاشعار ومنتخب الخطّ ولقد نبغ من ابنائهم جماعة ممّن لهم السبقيّة في ذلك المضمار والاجادة

التى اشرقت اشراق الاقمار فقد وجدت بخطّ العلّامة سيّدي عبد الوهّاب الفاسيّ رحمه الله قال انشدني سيّدي محمّد الشرقىّ في ابي بكر بيتاً يستفهمنى فيه عن زوال الشمس

هل زالت الشمس ام لا فاقضيَنْ اربي لا زال ظلك ممدوداً على الادب

فاجبته

قد زالت الشمس لا زالت مكارمكم تنوّر الافق في الدنيا مدا الحقب
وان تك الشمس غابت في مغاربها فشمسكم في سماء الفضل لم تغب
وان يك الافق الغربيّ مطلّبها فما لنا من سوى الشرقىّ من ارب

ولسيّدي الشرقى المذكور

الصفح يرتقب الاجابة منكم والحلم يخدم كالاسير الاعجم
انّ السهولة والسماحة والنهى للمرء والاحسان خير توسّم
الندب من ظهرت بشاشة وجهه والغمر من يصمى العقول بأسْهم
اجعل مُريضاً ان اتاك اجاجة عذباً تسوّغه لذيذ المطعم

ومن اشهرهم الاديب العلّامة ابو عبد الله سيّدي محمّد الطيّب بن المسناويّ ابن سيّدي محمّد بن ابي بكر واشعاره وموشحاته مشهورة ومن اعيانهم في التضلّع بالعلوم خصوصاً علم العربية ابو عبد الله محمّد المرابط بن محمّد بن ابي بكر له شرح على التسهيل لم يولف مثله وشرح البسيط والتعريف وشرح الورقات وغير ذلك وكان له في الادب الباع المديد وبالجملة فالاعتراف بالحقّ فريضة ومسائل اهل الدلاء طويلة عريضة ولو تتبّعت ما لهم من النظام والنثار لادى ذلك الى الملل والاكثار ولا يجهل فضلهم الّا الاغمار الذين قلوبهم بداء الحسد مريضة والّا فرياض مفاخرهم بالكمالات اريضة

اذا لم يكن للمرء عين بصيرة فلا غرو ان يرتاب والصفح مسفر

وكان السيّد محمّد الحاج رحمه الله احسن سيرة الفقهاء وسيرة الملك فقام بالوظيفتين واجمل في الطريقتين وفي ايّامه تكامل امر اهل الزاوية الدلائيّة وشاع وعلا صيته وذاع حتّى ملا الاسماع وتمهّد الامر لابي عبد الله محمد الحاج واولاده واخوته وبنى عمّه الى ان تملّك مدينة فاس ومكناس واحوازهما وكافّة القطر التادليّ واجتمعت برابر ملوية اليه واذعنوا له بالطاعة واعصوصبوا عليه ووقعت بينه وبين السلطان محمّد الشيخ بن زيدان السعديّ وقعة ابي عقبة فهزم السلطان المذكور وانتشر جمعه وذلك في حدود الخمسين والالف ومن ثمّ قطع النظر عمّا وراء وادي العبيد وفي ضحى يوم السبت ثاني عشر ربيع النبويّ سنة ستّ وخمسين والف كانت وقعة الخارة بينه وبين صاحب سجلماسة ابي عبد الله محمّد بن الشريف الحسنيّ فوقعت الهزيمة على السيّد محمّد بن الشريف ودخل السيّد محمّد الحاجّ سجلماسة وفعل البربر فيها الأفاعيل العظيمة ثمّ انبرم الصلح بينهما على انّ من الصحراء الى جبل بنى عيّاش فهو لمولاي محمّد بن الشريف وما دونه لاهل الدلاء وشرط اهل الدلاء على مولاي محمّد خمسة مواضع ممّا هو تحت يده وجعلوها لهم وهى الشيخ مغفر في اولاد عيسى والسيّد الطيّب في قصر السوق واحمد بن علىّ في قصر بنى عثمان وقصر حليمة في وطن اغريس واسرير فركلا فهذه الخمسة الاماكن شرطوا عليه الاّ يحرك لهم فيها ساكن وانبرم الصلح بينهما على ذلك ورجع اهل الدلاء بجموعهم فما كان غير بعيد حتّى اطلع مولاي محمّد بن الشريف على ما اوجب ان فتك بالشيخ مغفر وبعض من شرطوا عليه ابقاءه فبلغ ذلك اهل الدلاء فجمعوا جموعهم وقصدوا سجلماسة وعزموا على الاّ يدعوا لمولاي محمّد بن الشريف قليلاً ولا كثيراً وان يستاصلوه وكتبوا له كتاباً فخدّوه فيه ورموه بالغدر وانه عاقد ناكث وقاسم حانث واغلظوا له في الكتاب وافحشوا عليه في الخطاب

فاجابهم مولاي محمّد بن الشريف برسالة نصّها باختصار الى السيّد محمّد الملقب بالحاجّ ابن السيّد محمّد بن السيّد ابي بكر بن محمّد وهو حمّى بن سعيد بن احمد بن عمر ابن سير الوجّاريّ الزمّوريّ ومن شمله معه رداء الديوان من الابناء والاعمام والاخوان سلام على جلّهم سلام استحباب وسنّة فقد كتبناه اليكم من سجلماسة كتب الله لها من شركم انفع تمائم والبسها من الظفر بكم ارفع عمائم وبعد السلام فانّ نيران هذه الفتن التى اضرمتموها بعد خمودها لستم لها باهل لم يعرفكم اهل المغرب الاّ باطعام قصاع العصائد وهجو بعضكم لبعض بما لا يسمع من بشيع القصائد وامّـا العلوم فقد اقررنا لكم فيها بانصاف التسليم لو قصدتم بها العمل واجراء التعليم وايم الله لئن نظم فينا الديّان شمل الديوان حتّى تعاين انت وبنوك ما تبنيه لنا البنون والاخوان ولقد حدّثت السادات اهل السريرة وان ستدور عليكم منّا الدوائر المبيرة اتطمعون في النجاة بعد ترويعكم الشرفاء والشريفات والعـابدين والعابدات النظيفات فشمّر ان شئت عن سـاعد الجدّ في الصلح واغتنم السلم ما دام يساعدكم وقته فانّ الحرب نار والتخلّف عنها بعد وقوعها شنـار والله يعلم انّ هذه المراودة ليست بجزع ولا وجل منكم وما نشبتم عند الهراش الاّ بما يطيش حول المصابيح من الفراش بل المراد الاوكد نشر رداء التبرّىء لئلاّ تجاروا متى انشبنا فيكم مخالب التجرّىء وما قذفتم به اعراضـاً من خسّة القدر وانّنـا قساة لا نصغى لقبول العذر فانتم تنهون عن الفحشاء وقد ملاتم منها الاحشاء وان زجرتم عنها قلتم كلا وحشى ولكن من انتج نسلاً نسب اليه ومن خاف من شىء سلط عليه واما مـا احتوى عليه بساط الغرب ما بين بربر وعرب فقد طمعنا من الله كونه في القبض ان لم اكنه بالذات والديوان فبـالابناء والاخوان كعـوائد الدول يشرق الاخير بما اسّسه الحازم الاوّل وانظروا ما يكون لخاطركم به اطمنان فنساعدكم عليه ويكون الوقوف عنده ويبديه فلله درّه من دغوغيّ اشاع عارك بابيات انشدها لنا مولاي محمّد بن مبارك وهى هذه

واعلم بانّك من دجاجل مغرب   فبعيسى صولة نصره ستموت
انتم عساكر خلّفتكم عاهر   وابو سعيد جدّكم جالوت
شبّانكم مرد وكلّ كهولكم   قرنان صنعة شيخكم ديّوت
كرهت لدولتكم سماوات العلا   واستثقلتها الارض والبهموت

وما انت في الحقيقة الّا قرد من القرود والقرّاد اللاصق في كلّ كلب مجرود وما صرّحت به من انّ الصلح بين الملوك مكيدة قد سبقك به السلطان ابو حمّ رحمه الله وحتّى الان اخر المراجعة بيننا هذا الكتاب فان رغبتم في الخير فهو مطلبي ومغناطيس طبّي وان عشقتم الغير فجوابي لكم قول ابي الطيّب المتنبّي

فلا كتب الّا المشرّفية والقنا   ولا رسل الّا بالخميس العرمرم

والسلام . والدغوغىّ الذي سلف ذكره ونقل مولاي محمّد الشريف في رسالته هجوه هو من موالي اهل الدلاء ونشا فيهم فبرع في الادب وكان هجّاء لا يكاد يسلّم من هجوه احد وحكى انّه كان يجلس عند موضع معدّ لطرح الكناسات والقمامات فلا يمرّ به ذكر ولا انثى الّا هجاه نظماً ونثراً وكان يصيب في عرض الهجاء وهجا عدّة من الشعراء فتحدّاهم قيل ولم يعجمه الّا رجل اسلامىّ كان ممن رضع ثدى الادب في الزاوية فقال فيه وكان الدغوغىّ فيه نقط من البرص ما نصّه

يا نقمة جلست بمربض البقر   ونقطة ظهرت في اقبح الصور
اذا راك اناس قال قائلهم   سبحان من اظهر الشيطان للبشر

ولم يزل مولاي محمّد بن الشريف رحمه الله مقتصراً على ما وقع عليه الصلح بينه وبين اهل زاوية الدلاء الى ان بعث له اهل فاس كما سياتي بيانه ان شاء الله تعالى فبايعوه واقام عندهم مدّة فجهّز له السيّد محمّد الحاجّ جيشاً عظماً فوقعت الكائنة على ظهر الرمكة بظاهر فاس يوم الثلاثاء عاشر شعبان سنة

تسع وخمسين والف فهزم مولاي محمّد مع اهــل فاس هزيمة شنيعة وذهب مولاي محمّد لسجلمــاسة ودخل اهل الزاوية مدينة فاس وعادت لهم الدولة فيها ولم يزل امر اهل الزاوية مستقيماً بعد الى ان ثار السلطان الافخم مولانا الرشيد ابن مولاي الشريف ببلاد الجريد وقدم بجيـوش يقودها من عرب انفاد ومن انجادها وكماتها فحاصر مدينة فاس مدّة الى ان استولى عليها كما سياتي ان شاء الله ثمّ توجّه نحو الدلاء فجهّز له ابو عبد الله محمّد الحاجّ عسكراً عظيما من البربر وغيرهم فالتقت الفئتان بموضع يقال له بطن الرمّان فوقعت الهزيمة على اهل الدلاء وذلك اوائل المحرّم فاتح سنة تسع بمثناة وسبعين بتاخير الموحّدة والف قال الشيخ ابو علىّ اليوسىّ في محاضراته ولمّا وقعت الهزيمة دخلت على ابي عبد الله محمّد الحاجّ وكان لم يحضر المعركة لكبر سنّه فاظهر اولاده واخوانه حزناً شديداً وضيقاً كثيراً وجزعاً عظيماً فلمّا راى منهم ذلك قال لهم ما هذا الجزع وما هذا الحزن ان قال لكم حسبكم فحسبكم يريد الله تعالى . ولمّا دخل مولانا الرشيد الزاوية غيّر محاسنها وفرّق جمعها وطمس معالمها وصارت حصيداً كانّ لم تغن بالامس وكانت مشرقــة كاشراق الشمس فمحت الحوادث ضياءها وقاصت ظلالها وافياؤهـا وطالت ما اشرقت بابي بكر وابتهجت وفاحت من شذاهم وتارّجت ارتحلت عنها فرسان الاقلام الذين ينجـاب بوجوههم الظلام وبانت منها ربّات الخدور واقامت اثاراً للصدور ولقد كان اهلها يعفون اثار الرياح فعفت الريــاح اثارهم واذهبت ابدانهـم وابقت اخبـارهم فثلّ ذلك العرش واعتدلت الليــالي حين امنت من الارش ولم يدفع الرمح ولا الحسام ولم تنفع تلك المنن الجسام فسحقاً لدنيا مــا راعت لهم حقوقاً ولا ابقت شروقاً وهى الايّام لا تبقى من تجنيها ولا تبقى موليها ومدينها ادبرت اثار حلف واخمدت نار المحلّف وذلّت غرّة ابن شداد واهدت القصر ذا الشرافات من سنداد وكلّ يلقى معجله وموجله ويبلغ الكتاب اجله ولقد احسن ربّي نعمهم المقرّ باحسانهم الامام الذي وقع على علمه وعمله الاتّفــاق شيخ مشائخ المغرب على الاطلاق ابو

علىّ الحسن بن مسعود اليوسىّ رحمه الله في رائيّته التى رثى بهـا زاوية الدلاء وبكى ايّامهم واوّلها

اكلّف جفن العين ان ينثر الدرا فيابي ويعتـاض العقيق بها جمرا

وهى طويلة ولشهرتهـا تركنا جلبها وامر الرشيد سيّدي محمّد الحاج واولاده واقاربه ان يحملوا لفاس ويسكنوا بها فحملوا اليها واستوطنوها مدّة ثمّ امر بهم ان يذهبوا عنها لتلمسان فذهبوا اليها وسكنوها وحدّثونا انّ السيّد محمّداً الحاج لّما دخل تلمســان قال وجدت في بعض كتب الحـدثان انّي ادخل تلمســان فظننت انّي ادخلهـا دخول الملوك فدخلتها كما ترون ولم يزل بها الى ان توفّى رحمه الله بعد الثمانين ودفن بضريح الامام السنوسىّ رضى الله عنه ولمّا توفّى مولانا الرشيد رحمــه الله رجع اولاده واقاربه لفـاس فسكنوها باشـارة من السلطان المظفّر مولانا اسماعيل قدّس الله روحه في الجنان وفي ذلك انشدني غير واحد من اصحابنا الفاسيّين للفقيه ابي محمّد عبد الوهّاب ابن العلاّمة سيّدي العربيّ الفاسىّ من قصيدة له يمدح بها اهل زاوية الدلاء

اهل الدلاء اهل نجد وارضهم ارض رامة
لن يبرح المجد فيهـم حتى تقـوم القيـامة

وعاقبه السلطان الرشيد بن الشريف على ذلك وحرمه من اعطائه وقال له انّ هذا المدح لا يليق الاّ باهل البيت ومن اللطائف الادبيّة انّ السلطان مولانا الرشيد رحمه الله لّمـا استولى على اهل الزاوية كما ذكرنا قبل كان ابو عبد الله محمّد المرابط يوماً في مجلسه فانشد السلطان الرشيد معرضاً به

ومن نكد الدنيا على الحرّ ان يرا عـدوّاً له مـا من صداقتـه بدّا

ففهم ابو عبد الله اشارته فقال له ايّد الله الامير انّ من سعادة المرء ان يكون خصمه عاقلاً فاعجبه ذلك واستحسن الحاضرون بديهته ولطافة منزعه والله ولى من تولّاه

ذكر الخبر عن قيام ابي الحسن علىّ بن محمّد بالسوس وصنوه ابي حسّون وما وقع في ذلك

هو علىّ بن محمّد بن الوليّ الصالح ابي العبّاس سيّدي احمد بن موسى السوسىّ السملاليّ رحمه الله كان بدء امره انّه لمّا ضعف زيدان عن القيام بالامر بالصقع السوسىّ وفشل ريحه فيه نبغ هو فدعا لنفسه وجرّ نار الرياسة لقرصه وتالّفت عليه البرابر من بسائط جزّولة وحرسا واجتمعت عليه القبائل السوسيّة واستولى على تارودانت وعمالتها الى ان اخرجه عنها الفقيه المرابط ابو زكرياء يحيي بن عبد الله وصفى لابي الحسن القطر السوسىّ ونفذ به امره وسمعت كلمته ومدّ يده لدرعة فاستولى عليها ثمّ مدّ يده لسجلماسة فاستولى عليها وعلى نواحيها واستحكم امره وتقوّى عضده ولم يزل امره بسجلماسة الى ان ثار عليه عقاب الشائف الاسد الهصور مولانا محمّد بن الشريف فاخرجه من سجلماسة بعد معارك وزلازل يشيب لها الرضيع ثمّ اخرجه من درعة ايضاً ووقع بينهما بدرعة حروب عظيمة ولم يزل ابو الحسن قائما بالسوس الى ان توفّى سنة سبعين والف وكان رحمه الله ليّن الجانب محمود السيرة موصوفاً بالعفاف متوقّفاً في الدماء ولمّا مات خلفه ولده ابو عبد الله محمّد بن علىّ ولم يزل قائماً مقام والده الى ان اقتحم عليه السلطان مولانا الرشيد رحمه الله كما ياتي فبلغ صقر ابي الحسن ايلغ السوس وتركه لامس الدابر والملك لله وحده

ذكر الخبر عن قيام عبد الكريم

بن ابي بكر الشبانيّ بمرّاكش

لمّا قتل السلطان مولانا العباس بن مولانا الشيخ ابن زيدان كما ذكرنا ذلك قبل قام بمرّاكش كبير حيّ الشبانة عبد الكريم ابن القائد ابي بكر الشبانيّ الحريريّ وهو فخذ النبغة والصميم من الشبانة وعبد الكريم هذا يعرف بكروم الحاجّ على السنة العامّة فدخل لمرّاكش ودعا الناس لبيعته فبويع بها سنة تسع وستّين والف وانتظمت له مملكة مرّاكش ونواحيها وسار في الناس سيرة حميدة وكان في ايّامه الغلاء المورّخ بعام سبعين وهو غلاء مفرط بلغ الناس فيه غاية الضرر حتّى اكلوا الجيف ولم يزل مستقيم الراس بمرّاكش الى ان توفّى بها سنة تسع وسبعين والف قبل ان يولّى مولانا الرشيد باربعين يوماً ولمّا مات بويع ولده ابو بكر واستقام له الامر بمرّاكش وسار في الناس سيرة ابيه وبقى الى ان تقبّض عليه وعلى بنى عمّه السلطان الرشيد فقتلهم وافنى الشبانة قتلاً واخرج عبد الكريم من قبره واحرقه بالنار والبقاء لله سبحانه

ذكر الخبر عن الدولة السجلماسيّة الشريفة الحسنيّة

وذكر لمع من محاسنها ومفاخرها البهيّة

لا بدّ اوّلاً من ذكر نسبهم الشريف وان كان اجلى من الشمس واحلى من الظلّ الوريف غنى واعتناء عن التعريف فنقول الملوك الثلاثة الاوّل منهم وهم مولانا محمّد ومولانا الرشيد ومولانا اسماعيل ابناء مولانا الشريف ابن

مولانا على ابن مولانا محمّد ابن مولانا علىّ ابن مولانا يوسف ابن مولانا علىّ الملقّب بالشريف ابن مولانا الحسن ابن مولانا محمّد ابن مولانا الحسن ابن مولانا قاسم ابن مولانا محمّد ابن مولانا بلقاسم ابن سيّدي محمّد ابن مولانا الحسن ابن مولانا عبد الله ابن مولانا ابي محمّد عرفة ابن مولانا الحسن ابن مولانا ابي بكر ابن مولانا علىّ ابن مولانا الحسن ابن مولانا احمد ابن مولانا اسماعيل ابن مولانا قاسم ابن مولانا محمّد المدعوّ النفس الزكية ابن مولانا عبد الله الكامل ابن مولانا الحسن المثنى ابن مولانا الحسن السبط ابن علىّ بن ابي طالب وفاطمة بنت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم هكذا ذكر هذا النسب الذي هو حقيق ان يسمّى سلسلة الذهب جماعة من العلماء والاكابر كالشيخ ابي العبّاس احمد بن ابي القاسم الصومعىّ والشيخ الامام ابي عبد الله محمد العربي بن يوسف الفاسىّ ورايته في كتاب الدرّ السنى فيمن بفاس من النسب الحسنىّ لشيخ شيوخنا ابي محمّد عبد السلام القادريّ وغيرهم ممّن لا يحصى كثرة وقد وقفت على كتاب الشيخ النسّابة الشريف ابي عبد الله الازورقانيّ فوجدته ذكرهم فقال ومن النسب السيّد محمّد النفس الزكية بينبوع النخل السيّد محمّد والسيّد الحسن ابنا عبد الله بن محمّد بن ابي عرفة وكان اصل سلفه بالينبوع هو واجداده لانّ جدّهم مولانا علىّ بن ابي طالب كرّم الله وجهه كان النبيّ صلّى الله عليه وسلّم اقطعه ايّاه فلذلك بقيت فيه سلالته رضى الله عنه واوّل من دخل بلاد الغرب من اجداده الحسن بن قاسم قرات بخطّ بعض الفضلاء من اهل بلدنا حرّسها الله ما صورته اخبرنا شيخنا العلاّمة ابو عبد الله محمّد بن سعيد المرغيتى قال اخبرني سيّدي ومولاي وسمط عضد محياى ابو محمّد مولانا عبد الله بن علىّ بن طاهر الحسنىّ انّ جدّهم الداخل للمغرب من ينبوع النخل هو الحسن بن قاسم قال وكان دخوله للمغرب اواخر المياية السابعة وكان حينئذ من ابناء الستّين ونحو ذلك وتوفّى رحمه الله قبل انقضاء الماية المذكورة وذكر بعضهم انّ دخوله سنة اربع وستّين وستّماية قال الشيخ

الامام ابو اسحاق ابراهيم بن هلال انّ دخوله كان في الدولة المرينيّة ذكره في منسكه وعلى هذا فيكون دخوله في دولة ابي بكر بن عبد الحقّ المرينيّ ووفاته حسبما ياتي في خلافة السلطان يعقوب بن عبد الحقّ اخى ابي بكر المذكور ونقل صاحب الارجوزة عن ابن هلال انّه دخل في المـاية السادسة وقال شيخ شيوخنا الامام ابو سالم العياشيّ في رحلته انّ مولانا الحسن دخل المغرب في الماية السابعة واليه اشار صاحب الارجوزة بقوله

ثمّ ابن سـالم عبيـد الله   اكـرم به من عالم اواه
ذكر في رحلته الفـاضلة   دخول ذا الامجد في السابعه

وكان سكناه بينبوع النخل بمدشر يعرف بمدشر بنى ابراهيم وذكر صاحب مولانا الانوار السنيّة في نسبة من بسجلماسة من الاشراف المحمّدية انّ سبب قدوم الحسن انّ ركّاب الحج المغربيّة كانت تتوارد على الاشراف هنالك وكان امير الركب اذّاك احد اهل سجلماسة اظنّه والله اعلم السيّد ابو ابراهيم فلمّا حج بعض السنين اجتمع هنـالك بالسيّد الحسن المذكور وكانت سجلماسة يومئذ خالية من سكنى الاشراف بهـا فلم يزل السيّد ابو ابراهيم يحسن له موطنهـا ويزيّن له الاقامة بالمغرب حتّى استماله فاجمع السير معهم وقدموا به مع ركبهم الى المغرب فرغب في سكناه ببلدهم اهل سجلماسة وقال حفيد الامام ابي محمّد عبد الله بن على بن طاهر فيما قيّد عنه وكان الذين اتوا به من اهل سجلماسة من اهلهـا اولاد البشير واولاد المغزاريّ واولاد بن عاقلة واولاد المعتصيّ وصاهره منهم اولاد المغزاريّ ٠ وذكر صاحب الارجوزة انّ الشيخ ابا ابراهيم احد الذين جاءوا به من ذرّيّة سيّدنا عمر بن الخطّاب رضى الله عنه وقال بعضهم انّ اهل سجلماسة لم تكن تصلح الثمار ببلدهم فذهبوا للحجاز بصدد ان ياتوا برجل من اهل البيت فاتوا بمولانا الحسن المذكور فخفق الله رجاءهم واصلح

لهم ثمارهم حتّى عادت بلادهم هى هجر المغرب ونقل بعضهم على ما رايته بخطّ بعض اصحابنـا ايضاً انّ سبب مجيئهم انّ الشرفاء الادارسة تفرّقوا ببلاد المغرب وانتشر نظامهم واستولى عليهم القتل والصغـار من امراء زناتة فقلّ الشرفاء بالمغرب وانكره كثير من الاشراف حقناً لدمائهم فلمّا طلع نجم الدولة المرينيّة اكبروا الاشراف ورفعوا اقدارهم واحترموهم فلم يكن ببلاد سجلماسة احد من الاشراف فاجمع راي اعيانهم وكبرائهم على ان ياتوا بمن يتبرّكون به من النسب الشريف فقيل ان الذهب يطلب في معادنه والياقوت يجلب من مواضعه وان بلاد الحجاز هى مقرّ الاشراف وصدف جوهر ذلك النسب فذهبوا اليه واتوا بمولانا الحسن على مـا ذكرناه فاشرقت شمس النبوءة على اهل سجلماسة وضـاءت ارجاؤها حتّى قيل ان مقبرة اهل سجلماسة هى بقيع اهل المغرب وليس لاهل سجلماسة مزيّة اعظم من هذه المزيّة ولولا هى ما رفعت لهم راية اسم ولا شاع لهم ذكر وفي ذلك انشد شيخ شيوخنا ابو علىّ الحسن بن مسعود اليوسىّ رحمه الله هذا البيت

لولا المكارم آل المصطفى نزلوا   بارضهم اخر الزمان ما ذكروا

وهذا البيت من مقطعات له يهجو بهـا بعض فقهاء اهل سجلماسة وهى هذه

حىّ الاحّبـة عنّى اينما ذكـروا   وخصّ من جيرتي قوماً هم الغرر
ولا تحىّ لئـامـاً قد عـهدتهم   سجيّـة فـيهم الايذاء والـضرر
وقل لذاك السجلمـاسىّ انّ لنـا   عرضـاً مصوناً فلا تهتكه يا غدر
وليس من عجب ان كنت منتهشا   لحم الورى فعـل كلب ليس ينتزجر
فانّ اسلافك الانذال قد اكـلوا   لحم الكلاب فـذاك الطبع مـدّخر
اهل سجلماسة (البدويّ) ان نطقوا   والأم النـاس احلامـاً اذا قدروا
لولا المـكارم آل المصطفى نزلوا   بارضهم اخر الزمـان مـا ذكروا

وذكر بعضهم انّ اهل سجلماسة لمّا طلبوا من مولانا قاسم ان يبعث معهم احد اولاده للمغرب لانّه كان اكثر شرفاء الحجاز في وقته شهرةً وديانة اختبر اولاده ممّن يليق بذلك فيقال انّه كان له من الولد ثمانية فكان يسال منهم الواحد بعد الواحد ويقول من فعل فيك الخير ما تفعل معه فيقول افعل معه الخير ومن فعل معك الشرّ فيقول له افعل معه الشرّ فيقول له اجلس الى ان بلغ مولانا الحسن الداخل فقال له ومن فعل معك الشرّ فقال له افعل معه الخير قال فيردّ ذلك بالشرّ فيقول له اعود له بالخير الى ان يغلب خيري على شرّه فاستنار وجه مولانا قاسم وتهلّل فرحاً به ودخلته اريحيّة هاشميّة ودعا له بالبركة فيه وفي عقبه فاجاب له دعوته وامّا ما اشتهر على الالسنة انّهم وزنوه لابيه بالمال فحكاية واهية لا راس لها ولا ذنب والله اعلم بحقيقة الحال وبين مولانا الحسن الداخل وبين جدّه محمّد النفس الزكية خمسة عشر اباً كما تقدّم قال صاحب كتاب الانوار السنيّة وعمود نسبه لم يزل محفوظاً عدده عند بنيه موصولاً نسبه فيما بينهم ونقل كذلك ايضاً عن كثير من الايمّة الاعلام كالسيّد محمّد بن يحيي العلميّ جدّ الشرفاء الشفشاونيّين حسبما قيّده من خطّه صاحب مرءات المحاسن انتهى باختصار وسبق ما يعضد من ذلك وبالجملة فانّ شرف السادات السجلماسيّين ممّا لا نزاع في صراحته ولا خلاف في صحّته عند اهل المغرب قاطبة قال الشيخ ابو علىّ اليوسىّ انّ شرفهم مقطوع فهو بصحته كالشمس الضاحية وحدّثني صاحبنا الفقيه المورّخ ابو العباس احمد الوزير الغسانيّ قال سمعت شيخنا ابا العبّاس احمد بن عبد الله بن معن الاندلسيّ يقول ما ولى الملك بعد الادارسة اصحّ نسباً من شرفاء تافيلالت وسمعت بعض اشياخنا يذكر عن شيخه الامام ابي محمّد عبد القادر الفاسيّ رحمه الله انّه قسم الاشراف اهل المغرب بحسب القوّة والضعف الى خمسة اقسام ومثل القسم الاوّل وهو المتّفق على صحّته بافراد الاعيان ومنهم هولاء السادات السجلماسيّون وكان مولانا الحسن الداخل رحمه الله رجلاً صالحاً ناسكاً له مشاركة في العلوم

وخصوصاً علم البيـان فانّه كانت له فيه اليد الطولى ولمّـا استقرّ بسجلماسة
واطمـانت به الدار زوّجه السيّد ابو ابراهيم ابنته وسكن على ما يقـال في
موضع يقال له المصلح ولمّا توفّى رحمه الله تنازع في دفنه اهل سجلماسة حتّى
كادت نار الفتنة تنشب بينهم فاجتمع رايهم على ان يقسموا ارض سجلمـاسة
بالحبال فقسموها ارباعاً ودفنوه في موضع يتوسّط جميع النواحى الاربعة بحيث
لا يكون اقرب لجهة دون جهة وكانت وفاته رحمه الله حسبما يستفاد ممّا تقدّم
سنة ستّ او سبع وسبعماية قال المؤلّف سدّده الله في دخول مولاي الحسن
للمغرب وايواء اهل سجلماسة واكبابهم عليه كاكباب اهل المغرب في الزمـان
المتقدّم على التاج ادريس رضى الله عنه تصديق للحديث المروى عن رسول
الله صلّى الله عليه وسلّم قال في الجمان روى انّ فاطمة بنت رسول الله صلّى
الله عليه وسلّم اعطت جارية لها صدقة بعد وفاة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم
وقالت لها امضى الى السوق بها وقولي من يقبل صدقة بنت رسول الله صلّى
الله عليه وسلّم فمن قبلهـا منك فاتينى به فمضت الجارية الى السوق وقالت من
يقبل صدقة بنت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقال رجل مغربيّ انا موضع
صدقة آل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فاعطته الصدقة وقالت له اجب بنت
رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقال لها نعم فلمّا بلغ الباب سالته من انت فقال
لها انا رجل مغربيّ فقـالت له من ايّ المغرب فقال من البربر فبكت فاطمة
وقالت قال لي والدي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لكلّ نبيّ حوارى وحوارى
ذرّيّتى البربر سيقتل الحسن والحسين ويفرّ اولادهما الى المغرب فلا ياويهما الاّ
البربر فيا سوم من فعل بهم ذلك وطوبى لمن اكرمهم واعزّهم انتهى بلفظه ولم
يخلّف مولانا الحسن من الاولاد الاّ ولداً واحداً وهو مولانا محمّد وترك
مولانا محمّد هذا ولداً وهو مولانا الحسن سمّى باسم جدّه وهو الان مدفون
حول المدينة العظمى بازاء سيّدي محمّد الخرّاز بسجلماسة وخلّف السيّد الحسن
هذا ولدين السيّد عبد الرحمن المكنى بابي البركات وهو اكبرهما ومن بنيه اولاد

السيّد ابي حميد بالتصغير القاطنين بوادى الرتب بالقصر الجديد على مرحلة من سجلماسة ومنهم الشرفاء الساكنون ببنى زروال ومولانا على المعروف بالشريف ومنه تكاثرت فروع المحمّديّين وكان رجلاً صالحاً مجاب الدعوة كثير الاوقاف والصدقات حاجّاً مجاهداً ذا همة سنيّة واحوال مرضيّة رحل في بعض الاوقات الى فاس وسكنها مدّة طويلة وكان سكناه منها بالحومة المعروفة بجزاء ابن عامر من عدوة فاس الاندلس وترك هنالك داراً واقام مدّة بقرية صفرو خلّف بها عقاراً واثاراً هى بها الان واقام مدّة ببلد جرس الدين على مرحلتين ونصف من سجلماسة وترك بها مثل ذلك وكذلك رحل الى عدوة جزيرة الاندلس برسم الجهاد مراراً واقام بها مدّة طويلة ثمّ رحل الى سجلماسة فكاتبه اهل الاندلس يطلبون منه الرجوع اليهم ويحضّونه على الاعتناء بامور الجهاد ويظهرون له ضعف الجزيرة وانّها شاغرة ممّن تجتمع عليه القلوب وقد كانوا يراودونه وهو مقيم عندهم في ان يملكوه عليهم ويبايعوه والتزموا له الطاعة والنصرة فرغب عن ذلك كلّه زهداً منه فيه وورعاً وغضّ طرفه عن زهرة الدنيا رضى الله عنه وقد وقفت على رسائل عديدة بعثها اليه علماء غرناطة اعادها الله داراً للاسلام يحرضونه على الجواز اليهم والنفور الى حماية بيضة الاسلام ويذكرون انّ كافّة اهل غرناطة من علمائها وصلحائها وروسائها وظّفوا على انفسهم من خالص اموالهم دون توظيف سلطان عليهم اموالاً كثيرة برسم الغزاة الواردين معه من المغرب وحلّوه في بعض تلك الرسائل بما نصّه الى الضرغام الهمام وقطب دائرة فرسان الاسلام الشجاع المقدام الاسد الهصور والفتّاك الجسور الناسك طليعة جيش الجهاد وعين اعيان الانجاد المويّد بالفتح في هذه البلاد المسارع الى مرضات ربّ العباد ابي الحسن مولانا علّي الشريف انتهى نصّ التحلية وكتبوا لعلماء فاس يامرونهم ان يحضّوا مولانا عليّاً على العبور الى العدوة فكتبوا اليه علماء فاس بمثل ذلك وحثّوه على المسارعة الى اغاثتهم وذكروا له فضل الجهاد وانّه من افضل اعمال البرّ وكان

من موجبات تخلّفه عن اغاثة اهل غرناطة انّه عزم على المشى الى الحجّ فقالوا له في بعض الرسائل وعوّض هذه الوجهة الحجّيّة التى اجتمع رايكم وتوفّر عزمكم عليها بالعبور الى الجهاد فانّ الجهاد اصلحكم الله تعالى عند اهل الغرب افضل من الحجّ كما افتى به ابن رشد رحمه الله حين سئل عن ذلك وقد بسط الكلام عليه في اجوبته ووجهه بما ذهب اليه من ذلك . وكان الذي كتب اليه من علماء غرناطة جماعة منهم شيخ المواق الامام ابو عبد الله بن سراح قاضى الجماعة ومن شيوخ فاس الذين كتبوا له الشيخ ابو عبد الله العكرمى شيخ الامام ابن غازي وابو العبّاس الماواسىّ شارح الروضة وابو زيد عبد الرحمن الرقعىّ صاحب النظم المشهور وغير هولاء رضى الله عنهم ممّن تركنا ذكره اختصاراً وممّا ضمنوه في بعض تلك الرسائل قصيدة طنّانة في مدح مولانا علىّ الشريف وصاحبه الفاضل ابي عبد الله سيّدي محمّد بن ابراهيم العمريّ وحثّوهما على اجابتهم وهى من انشاء العلّامة ابي الربيع الغرناطىّ

ايا راحلاً يطوي المفاوز والقفرا	رشدت والقيت السلامة والخيرا
ترحّل وجدّ السير يوماً وليلة	وسافر تجد ما في مطالعها زهرا
تحمّل حماك الله منّى الى الحمى	تحيّة مشتاق تهيّجه الذكرا
وامّ ديار الحىّ من سجلماسة	فتلك ديار تجمع العزّ والفخرا
وسلّم على تلك الخيام واهلها	سلام محبّ لم يطق عنهم صبرا
فعندي لهم حبّ جرى في جوارحى	ومازج منّى العظم والدم والشعرا
فتلك بقاع الدين والخير والهدى	فكم مرتقّ في سماها سمى بدرا
هم القوم لا يشقى بهم جلساؤهم	يضوع عبير الزهر من بينهم نشرا
وقل يا اهيل القبلة السادة الاولى	اذا ما دعوا في حادث اسرعوا النفرا
وخصّ سليل الهاشمىّ ابن صهره	على الذي يعلو على زحل قدرا
ابا الحسن المولى الشريف الذي به	على الغرب شمس النصر اشرق بالصحرا

ولاحت بآفاق القلوب عجائب　　بها سلب الالباب تحسبها سحرا
هو الصقر مهمى اهتزّ كلّ مجلجل　　هزبر اذا ما انشب الناب والظفرا
هو الغوث ان دارت رحى الحرب للقا　　وغيث اذا ما المزن ما امطرت قطرا
اغار على الاعلاج فاجتاح جمعهم　　وجدّ لهم قتلى وشرّدهم اسرا
بطنجة قد طاب الممات لزمرة　　بنصرتها ترجو من الملك الاجرا
دعاها بادني السوس قدماً فاسرجوا　　من الصاقبات الجرد لم ياخذ الحذرا
فهبّت ركاب القوم والشمس اشرقت　　وارهق جيش الله اعداءه خسرا
ولا عجب انّ الاولى هو منهم　　ليوث الشرى ان عاد من جبّها هترا
اجرْ جارك اللهفان من عثراته　　ابا حسن وانصر جزيرتك الخضرا
ونادي ابا عبد الاله خليلكم　　به تجلب السرّاء في حادث الضرّا
سليل ابي اسحاق اكرم به ابا　　لقد خلّف الفرع الزكيّ الرضى البرّا
اليس الذي لبّى ندا اهل طنجة　　وجمّع اهل الغرب من حينه طرّا
واوقع بالكفّار ايّ وقيعة　　فمن لم يمت بالسيف مات بها ذعرا
واصبح ثغر الدين اشنب باسما　　وارهق وجه الكفر من حزن قترا
ونال من الله السعادة والرضى　　وجنّة عدن في المعاد له ذخرا
وقل ايها العدل الذي اتخذ التقى　　شعارا وسامى في منازلها الشعرا
ارى كلّ من في الغرب اصبح قانطا　　واندلس ترجو بطلعتكم نصرا
وغرناطة الغرّاء نادتكما اقبلا　　وبالراية البيضاء كي تنصر الحمرا
فسكّانها وقف عليكم رجاؤهم　　كبيرهم والطفل والكاعب العذرا
فجئنا بمن في ارضكم حامياً لهم　　رجالاً وفرساناً غطارفة غرّا
حماة اباة الضيم من كلّ ماجد　　كريم يباري الغيث والسيل والبحرا
لقد طمع الكفّار ملك رقابنا　　باهلاكهم في ارضنا الحرث والثمرا
فدونكم الكفّار تفنى طغاتهم　　وتشبع من قتلاهم الوحش والطيرا
منازلها من كلّ حصن وقرية　　تناديكما غوثا لخطب اتى مرّا

فكم من ضعيف لا حراك لجسمه　　وشيخ بها اربى على مـاية عشرا
وسمر وبيض من اوانس كالدمـا　　وصبية مهد لا تقى النفع والضرّا
ومنـبر جمع للخطـابة والدعـا　　ومسجد دين للصلاة ولـلاقرا
وكرسيّ عـلم مقعد لمـهذّب　　تصدّر يملى مـا يضىء لنا الصدرا
واجداث ابنـاء الصحابة فوقهـا　　وكلّ وليّ اشعث لابس طمرا
تنـاديكمـا غوثاً من الله سرعة　　فقد كاد ان يستاصل الكفر ذا البرّا
فحثّ لنـا المسير امّ لنـا قربـة　　اجيراً لنا من كيد من اضمر الجورا
وعزماً باخرى مثل تلك التى مضت　　ليبصر هـذا الفنش حلّتكم كبرا
واتم بحمد الله تدرون مـا اتى　　عن المصطفى في الغزو من خبر خبرا
فللـه مـا اسنى وددت لو انّنى　　قتلت فاحيـا ثمّ اقتـل مذ مرا
وما في كتـاب الله من آية اتت　　كشمس ضحى في الصحو سافرة غرّا
خذاها بحمد الله عذراء جبّتهـا　　تضوع شذا تهدى لمغنـا كما عطرا
وتبلـغ عنّى للكـرام تحيّـة　　باندلس للغرب قد عبّروا البحرا
فغوثا رجال الله عزمـاً لعدوة　　احاطت بها الباساء وامرهـا الضرّا
فاتم لنـا الحرز القـويّ ونحوكم　　تشـوّفنـا فاستعجلوا نحونا السيرا
ونثنى على خير البريّة ذي الهدى　　محمّد المبعـوث بـالملّة الـيسرا
وآل وصحب ثمّ تـال لـنهجـه　　ومن لذوي الاسلام قد قصد النصرا

وبهذه الرسائل العذبة الالفاظ المستوفية الالحاظ يعلم انّ مولانا عليّاً الشريف كان مشهوراً في عصره متقدّمـاً على كافّة اهل قطره وانّه كان ملحوظاً بعين الاجلال عندهم وانّ هذه الدار معظّمة من قديم مشهود لها بالتقديم ولم يزل رحمه الله ورضى عنه دؤوباً على فعل الخير حريصاً على اسباب الطاعة وقسم عمره بين حجّ وجهاد ويحكى انّه في بعض السنين رجع من حجّة حجها فسنح له ان يذهب الى ناحية اكدج بالكاف المعقودة قبل الدال وهى بلدة في بلاد

السودان فحارب مدينة من مدن الكفّار وليس لها الّا طريق واحدة وهى قنطرة من الحديد فلمّا ضيّق بهم رفعوا تلك القنطرة فحمل على فرسه نحوهم فلم يجد لهم مدخلاً فارتمى نحو الباب بفرسه فلمّا راوه دخل عليهم القوا عليه قطعة من الحديد قطعت الفرس نصفين وسلّمه الله فتساقط عليه اصحابه والمسلمون في الحفير فاطلعوه اليهم واخذوا المدينة قهراً وجلس في بابها واتاه الكفّار بجاريتين فائقتين في الحسن والجمال فقالوا له اختر ايّهما شئت فاختار واحدة فاخذ الكفّار الجارية المختارة وذبحوها وضيّفوه بها فلما جاءوه بالطعام عليه اللحم استنكره مكاشفة او فراسة رضى الله عنه فسالهم عن اللحم فقالوا له لحم الجارية المختارة فقتلهم عن اخرهم الّا من اسلم وذكر صاحب كتاب الانوار بعد ما تقدّم قبله انّ مولانا عليًّا الشريف المذكور مكث اربع عشرة سنة لا يولد له شئ ثمّ ولد له بعد ذلك ولدان وهما مولانا مَحمّد بفتح الميم ومولانا ابو الجمال يوسف وهو اصغرهما امّا مولانا محمّد فترك اربعة اولاد السيّد الحسن والسيّد عبد الله والسيّد عليّاً والسيّد قاسماً وهم على هذا الترتيب في السنّ ويقال لسائرهم اولاد محمّد نسبة الى هذا الجد وفروعهم كثيرة يطول بنا تتبّعها وامّا مولانا يوسف فانّه ولى زاوية ابيه واجتمع الناس على انّه المتاهل لها دون غيره لرزانته ووفور عقله فتولّاها بعد نزاع ورسم توليته لها لم يزل موجوداً بيد بعض حفّاده وذلك كلّه كان في دولة بنى مرين وقال صاحب كتاب الانوار قيل انّه لم يكن له اولاد حتّى بلغ ثمانين سنة فولد تسعة من الولد خمسة منهم اشقّاء وامّهم السيّدة خليفة من ذرّيّة المرابطين الذين بسجلماسة وهم السيّد علىّ وهو جدّ مولانا نصره الله والسيّد احمد والسيّد عبد الله والسيّد الطيّب والسيّد عبد الواحد المكنّى بابي الغيث لكثرة ما نزل من المطر عند ولادته وكان الناس قبله في جذب شديد وهم على هذا الترتيب في السنّ واربعة منهم اشقّاء ايضاً امّهم السيّدة الطاهرة من ذرّيّة بعض المرابطين هنالك ايضاً وهم السيّد الحسن بالتكبير والسيّد محمّد والسيّد الحسين بالتصغير والسيّد عبد الرحمن

ومن منازل الاشقّاء الخمسة اليوم اختوسن وتفصيل انساب اولاده الثمانية يطول ولنقتصر على مولانا علىّ لانّه الغرض المقصود فنقول ولد لمولانا علىّ ثلاثة من الولد وهم مولانا مَحّمد بالفتح ومولانا محرز ومولانا هاشم وهو جدّ اهل زاوية الامراني وكلّهم قد عقبوا فامّا مولاي مَحّمد فولد له مولانا علىّ وهو الجدّ الاقرب لمولانا نصره الله مع عدّة اولاد غيره وتوفّى بمرّاكش رحمه الله وبنى عليه حفيده امير المؤمنين مولانا الرشيد قبّة تلقاء ضريح القاضى عياض رحمه الله ورضى عنه وذكر بعض العلماء انّ رجلاً من الاولياء قدم مرّاكش من اهل المشرق فتحدّث اناس بانّه من اهل المكاشفات وادّعى انّه يميّز بين الاموات في القبور ويعرف الصالح من الطالح والكامل من الناقص فذهب به بعض الفقهاء لزاوية القاضى عياض بقصد الاختبار فادخله القبّة التى بمقبرة ابي الفضل فلمّا دخلها قال انّي ارى هنا خنازير فكان كذلك لانّ هذه القبّة لم يدفن فيها الّا الاعلاج فادخله لقبّة مولانا علىّ فقال انّي اشمّ هنا رائحة المصطفى صلّى الله عليه وسلّم وفي الحكاية طول وبعضهم يزيد فيها ما لا اعتقد صحّته وولد لمولانا علىّ تسعة من البنين مولانا الشريف والد مولانا نصره الله والسيّد الحفيد والسيّد حجّاج والسيّد محرز والسيّد مروان والسيّد فضيل والسيّد ابو زكرياء والسيّد مبارك والسيّد سعيد فهولاء عدد اولاد مولانا علىّ وكان مولانا الشريف افضلهم واشهرهم وله رحمه الله عدّة اولاد كلّهم نجوم زاهرة ولهم همم باهرة منهم مولانا اسماعيل نصره الله وهو واسطة عقدهم ومنهم مولانا مَحّمد بفتح الميم وهو اكبرهم ومنهم مولانا الرشيد وهو افضلهم حلماً وسياتي خبرهما في السمط الثاني ان شاء الله تعالى ومنهم مولانا الحران ومولانا محرز ومولانا يوسف ومولانا احمد ومولانا الكبير ومولانا حمادي ومولانا العباس ومولانا سعيد ومولانا هاشم ومولانا علىّ ومولانا المهدي وهو شقيقه نصره الله هذا ما تيسّر جمعه وذكره في نسبهم الشريف وفيه كفاية والله اعلم بغيبه واحكامه وبيده تصاريف الامور

ذكر الخبر عن كيفيّة اتّصال مولاي محمّد بن الشريف بالملك

رحمه الله وركوبه في ذلك الفلك

كان ابو الاملاك مولانا الشريف رحمه الله وجيهاً عند اهل سجلماسة وكافّة اهل المغرب يقصدونه في المعضلات ويستشفعون به في الازمّات ويهرعون اليه فيما جلّ وقلّ من الملمّات وكان رحمه الله وهو صبيّ صغير مرّ ذات يوم على الامام العالم العامل ابي محمّد عبد الله بن عليّ بن طاهر الحسنيّ فسال عنه ابو محمّد اذ لم يكن يعرفه فقيل له هو ابن مولانا عليّ بن محمّد ففرح به ومسح على ظهره وقال ماذا يخرج من هذا الظهر من الملوك والسلاطين فتيقّن الناس ان هذا الامر يقع لما يعلمون من ولاية ابي محمّد رضى الله عنه فكان مولانا الشريف بعد ان كبر وتزايد له الاولاد يشيع ذلك ويقول انّ هذا الامر لا بدّ ان يصير الى بنيه ويملكونه وانّه سيكون لهم الشان العظيم اعتماداً منه على فراسة مولانا عبد الله بن عليّ بن طاهر رحمه الله وكان بين مولانا الشريف وبين اهل تابوعصامت وهو حصن منيع من حصون سجلماسة عداوة عظيمة فاستصرخ عليهم بابي الحسن عليّ بن محمّد صاحب السوس المتقدّم الذكر لمحبّة كانت بينه وبينه واستصرخ اهل تابوعصامت باهل زاوية الدلاء فاغاثوهم وتوافى عسكر ابي الحسن وعسكر اهل الزاوية بسجلماسة فانفصل الجمعان من غير قتال صلحاً وحقناً لدماء المسلمين وكان ذلك سنة ثلاث واربعين والف ولمّا راى اهل تابوعصامت ما بين مولاي الشريف وبين ابي الحسن عليّ بن محمّد السوسيّ من المصادقة والمحبّة تمالوا بكلّيّتهم لابي الحسن وخدموه بانفسهم واولادهم واظهروا له النصيحة والمحبّة وصدق الخدمة طمعاً في ان يفسدوا ما بينه وبين مولاي الشريف من الصداقة اذ كان ظاهراً عليهم به فلم يزالوا

يفسدون ما بينهما الى ان اظلم الجوّ بينهما واستحكمت القطيعة ثمّ ان السيد مولاي محمّد بن الشريف لمّا راى ذلك انتهز الفرصة في اهل تابوعصامت وخرج ليلاً في نحو مايتين من الفرسان مظهراً انّه قاصداً لبعض النواحى فما راع اهل تابوعصامت الاّ ومولاي محمّد تسوّر عليهم وحكم السيف فيهم ومكّنه الله منهم واستولى على ذخائرهم فقرّت بذلك عين مولاي الشريف وبلّغه الله في اعدائه ما كان يرجو ثمّ انّه نمى خبر اهل تابوعصامت لابي الحسن فغضب لذلك غضباً شديداً وكتب لعامله على سجلماسة ان يحتال على مولاي الشريف حتّى يقبض عليه ويبعثه اليه حبيساً ففعل ذلك العامل وحمل مولانا الشريف لصاحب السوس فاعتقله في قلعة هنالك مدّة الى ان افتكه ولده مولاي محمّد بمال عظيم فراح لسجلماسة في حكاية طويلة اضربنا عنها اختصاراً وكان ذلك في حدود عام سبعة واربعين والف وفي ايّام اعتقال مولاي الشريف كان ولده مولاي محمّد مجمعاً على اهلاك من بقى من اهل تابوعصامت وحريصاً على استيصال شافتهم وقوّى عضده بما اخذ من اموال اهل تابوعصامت واتّخذ جيشاً لا باس به وانضاف له جمع من اهل سجلماسة ونواحيها لانّ اصحاب السيّد ابى الحسن علىّ بن محمّد اساؤوا السيرة بسجلماسة ونصبوا حبالة الطمع حتّى بذروا بذر بغضه في قلوب اهلها ولقد كان اصحابه بسجلماسة وضربوا الخراج على كلّ شئ حتّى على من يجدونه في الشمس زمان الشتاء او في الظلّ زمان المصيف وضيّقوا على الناس فازدرتهم العيون وكرهتهم القلوب فلمّا ثار مولاي محمّد وجد فيهم الداغية للخلاف فوجّهوا وجه العناية اليه واعصوصبوا عليه واجلوا اصحاب ابي الحسن عنه واخرجوا عمّاله من بلادهم واعلنوا بعدم طاعته فوافقهم القدر المقدور وكان امر الله قدراً مقدوراً والى الله تصير الامور

ذكر الخبر عن بيعة مولاي محمّد بن الشريف

وبقيّة اخباره الى ان قتل رحمه الله تعالى

كانت مبايعة مولاي محمّد بن الشريف رحمه الله بسجلماسة بعد جلاء اصحاب ابي الحسن عنها سنة خمسين والف ووافق على بيعته اهل الحلّ والعقد يومئذ بسجلماسة ولمّا تمّت له البيعة شمر لمضايقة ابي الحسن بدرعة اذ كانت تحت ولايته فوقع بينهما حرب عظيم وقتال فضيع يشيب له الرضيع وانقشع سحاب الفتنة عن غلبة مولاي محمّد وهزيمة ابي الحسن وفراره فاستولى مولاي محمّد على درعة ولمّا عظمت ايالة مولانا محمّد وتوفّرت جموعه وانتشر في البلاد صيته بعث له اهل فاس وعرب المغرب يطلبون منه المجيء الى ارضهم ويواعدونه بالنصرة له وتقويته بالعدّة والعدد فاقبل نحوهم مسرعاً الى ان دخل لفاس الجديد دخول الشمس بدار الحمل منسلخ جمادي الثانية سنة تسع وخمسين والف فبايعه اهل فاس القديمة والجديدة وبقي هنالك مدّة الى ان جلاه عنها اهل الزاوية كما ذكرناه قبل في السنة المذكورة فرجع لسجلماسة ولم يزل مقتصراً على ما صفا له من درعة وسجلماسة ونواحيها الى ان ثار عليه اخوه مولانا الرشيد بن الشريف بعرب انجاد بعد ان كان تحت طاعته وفي خدمته فوقع بينهما ما اوجب البغضاء الى ان فرّ مولانا الرشيد منه خوفاً على نفسه ولم يزل يجول في البلدان طامعاً في اقتناص الملك الى ان ادّته خاتمة الجولان الى قصبة ابن مشعل فوجد فيها يهودياً من اهل الذمّة له اموال طائلة وذخائر نفيسة وله على المسلمين صولة واستهزاء بالدين واهله فلم يزل مولانا الرشيد ينظر في كيفيّة اغتيال ذلك اليهوديّ الى ان امكنه الله منه في قضية يطول جلبها فقتله واخذ امواله وذخائره وفرّقها فيمن تبعه وانضاف اليه فتقوّى

بذلك عضده وتوافر جمعه وتناقل الركبان حديثه ولمّا انتهى خبره لمولاي محمّد تخوّف منه لمـا يعلم من صدامته فتوجّه لمقاتلته والقبض عليه فلمّا التقى الجمعان كانت اوّل رصاصة في نحر مولاي محمّد رحمه الله فوافته منيّته وقضى نحبه يوم الجمعة التاسع من المحرّم فاتح خمســة وسبعين والف فاسف مولانا الرشيد رحمه الله على قتله واظهر الحزن عليه ولما قتل رحمه الله انحشرت جموعه برمّتهـا لاخيه مولانا الرشيد ودخلوا تحت طاعته اجمعين وتقوّى امره في الحين والملك لله وحده يوتى الملك من يشاء وكان مولانا محمّد رحمه الله شجاعاً مقداماً لا يبالي بنفسه ولا يخطر في خاطره خوف احد من ابناء جنسه ولقد احسن اهل زاوية الدلاء حيث قالوا في حقّه اجدل لا توذيه سموم الليالي ولا حرارة قيظ المصيف عقـاب اشهب على قنّة كل عقبة لا يقنعه المال عن حسم الرقبة وشجاعته شهيرة وكان قوياً ايّداً لا يقاوم في المصارعة وحكى انّه في بعض حصاره لتابوعصامت جعل يده في ثقب القصر وصعد عليها ما لا يحصى من الناس كانّها خشبــة منصوبة او لبنة مضروبة وكان سخيّـاً جواداً حتّى انه اعطى للاديب الشهير المتقدّم في صناعة الشعر الموزون والملحون ابي عثمان السيّد سعيد التلمسانيّ نحواً من خمسة وعشرين رطلاً من خالص الذهب جائزة له على بعض امداحه فيه وحكايته في هذا المعنى شهيرة ولمّا قتل قام ولده مولانا محمّد مقامه لكنّه لم يتمّ له الامر في قضيّة يطول ذكرها

ذكر الخبر عن دولة السلطان الافخم مولانا الرشيد

بن الشريف وما وقع فيها الى ان مات رحمه الله تعالى

لمّا قتل مولانا محمّد بن الشريف كما سلف استولى مولانا الرشيد على جيوشه وتوجّه لتازى فافتتحها بعد محاربة طويلة وتمكّن منها ثمّ توجّهت عنايته لفاس فلمّا بلغها حاصره اهلها فاناخ عليهم بكلكله وارجف عليهم بخيله ورجله مدّة

الى ان اقتحمها عليهم قهراً وفتك بابطالها واوقع بحماتها وكانت فاس قبله تقاسمها الثوار ونبغ منها في كلّ جهة قائم وصاح في كلّ كدية ديك فكان ابن صالح حامى بيضة الاندلسيّين وما انضاف اليهم وكان ابن صغير كبير اللمطيين ومن انضاف اليهم ووقع بين الفريقين حروب كثيرة كما المعنا اليه قبل هذا وكان امر فاس الجديد في يد رجل يقال له الدريديّ فاقتحم مولانا الرشيد فاساً القديمة فافنى روساءها قتلاً وحكم فيهم السيف فتمهّدت له البلاد واجتمعت له الكلمة وكان دخوله لفاس القديمة صبيحة يوم الاثنين الاوّل من ذي الحجّة سنة ستّ وسبعين والف وبويع له فيها يومه ذلك ولمّا تمّت له البيعة افاض المال على علمائها وغمرهم بجزيل العطايا وبسط جناح الشفقة على اهلها واظهر احياء السنّة ونصر الشريعة فحلّ من قلوبهم بالمكان الارفع وسكنت محبّته في قلوب الخاصّة والعامّة ولم يلبث فيها الّا يسيراً ثمّ توجه للدلاء فاطفى جمرتهم وفرّق جماعتهم وبدّد شملهم وكلمتهم حسبما شرّحناه قبل ثمّ توجّه لمقاتلة الشبانة بمرّاكش وجمع الكلمة بهم فلمّا بلغهم الخبر بتوجّهه اليهم هربوا عنها رعباً منه لما بلغهم انّه افتك باهل الزاوية الدلائيّة ومزقهم كلّ ممزق فخامر قلوبهم من الجزع ما حملهم على الفرار من المدينة الى بعض شواهق الجبال فدخل مرّاكش وافنى من وجد فيها من الشبانة قتلاً واستنزل تلك الفئة الشديدة من الصياصى واخذهم بالاقدام والنواصى ثمّ توجّه الى سوس الاقصى فمهّد جوانبه وسكن روعته واناخ على ايلغ مقرّ ابي الحسن فتركه شذراً فتمهّدت له بلاد المغرب من تلمسان الى وادي نول من تخوم الصحراء وكان رحمه الله محبّاً في جانب العلماء موثراً لاغراضهم مولعاً بمجالستهم محسناً اليهم حيث ما كانوا وكان جواداً سخيّاً رحل الناس اليه من المشرق فما دونه وقصده بعض طلبة الجزائر ومدحه ببيتين وهما

فاض بحر الفرات في كلّ قطر   من ندا راحتيك عذبا فراتا

غرف الناس فيه والتمس الفقر خلاصاً فلم يجده فماتا

فوصله بالفين ونصف دنانير وثناؤه رحمه الله في السخاء لا يلحق والحكايات عنه بذلك شهيرة وفي ايّامه كثر العلم وظهر للعلماء ابهة ورياسة واعتزّ العلم واهله وكانت ايّامه ايّام سكون ودعة ورخاء عظيم وسبب وفاته رحمه الله انّه كان ركب على فرس جموح فاجراه فلم يملك عنانه الى ان قصد به شجرة نارنج فهشم غصن منها راسه فكانت فيه منيّته وفي ذلك قال بعضهم

وما شجّ ذاك الغصن راس امامنا　　لسوء ولا قدر المحبّة جاحد
ولكنّه قد غار من لين قدّه　　وانّ من الاشجار من هو حاسد

وكانت وفاته رحمه الله بمرّاكش ليلة الجمعة حادي عشر ذي الحجّة عام اثنين وثمانين والف ودفن بها الى ان نقل منها فدفن بروضة الوليّ الصالح العالم العلم الواضح ابي الحسن سيّدي علىّ بن حرزهم بفاس لوصيّة منه بذلك

ذكر الخبر عن السلطان المظفّر مولانا اسماعيل

بن الشريف رحمه الله تعالى

لمّا توفّى مولانا الرشيد رحمه الله تعالى بمرّاكش بلغت وفاته ابا النصر مولانا اسماعيل رحمه الله وكان خليفة بفاس الجديد ليلة الاربعاء السادس عشر من ذي الحجّة سنة اثنتين وثمانين والف فبويع رحمه الله وحضر على بيعته اعيان المغرب وصلحاؤه بحيث لم ينازع في انه احقّ بها واهلها احد ممّن يشار اليه وكانت مبايعته رحمه الله في الساعة الثانية من يوم الاربعاء سادس عشر ذي الحجّة متمّ عام اثنين وثمانين والف ووافق ذلك ثالث يوم من شهر ابريل

وكانت سنّه يوم بويع ستّاً وعشرين سنة لانّ ولادته كانت في وقعة الخارة وهى مورّخة بخطّ من اثق به سنة ستّ وخمسين والف ولمّا تمّت له البيعة نهض باعباء الخلافة واحسن السيرة وضبط الامور كلّها وتمهّدت له البلاد ودان له قريبها وبعيدها مع محاربات طويلة ومنازلات عديدة مع الثوار عليه كان ولد اخيه ابي العبّاس مولانا احمد بن محرز بن الشريف ثار عليه بمرّاكش وغيرها ولم يزل في دفاعه الى ان قتل في اواسط ذي القعدة عام ستّة وتسعين والف ووقعت بينهما وقائع عظام يطول في بسطها القول وشقّ عليه العصا ايضاً اهل فاس فحاصرهم مدّة من خمسة عشر شهراً الى ان اتوه مذعنين في التاسع عشر من رجب عام اربعة وثمانين وما وقع له رحمه الله من الحروب مع الباغين عليه يطول فيها الشرح والغرض الاختصار ولم يزل رحمه الله في مقاتلة العادين من الثوّار والعاصين من القبائل الى ان دوّخ بلاد المغرب كلّها وطوّعها وعرها وسهلها واستولى على تخوم السودان وبلغ فيها ما وراء النيل وانتشرت دولته في عماير السودان وبلغ في ذلك ما لم يبلغه السلطان ابو العبّاس احمد الذهبيّ المنصور ولا احد قبله وامتدّت مملكته من جهة الشرق الى قرب بلاد بسكرة من بلاد الجريد ونواحى تلمسان والله يعلم حيث يجعل رسالاته

ذكر الخبر عن محاسن هذه الدولة وعدد مفاخرها

وما يناسب ذلك

لا يخفى على من نظر بعين الانصاف وتحلّى بقول الحقّ الذي هو احمد الاوصاف انّ هذه الدولة الحسنيّة لم ير الراءون ولا سمع السامعون مثلها لما اشتملت عليه من المفاخر التى يكلّ في تعدادها الاوّل والاخر ولقد ظهر فيها

من الخيرات ما لا يحصى وراى الناس من الامن والرخاء والهنا ما لم يخطر لاحد ببال وكلّ ذلك ممّا شاع وذاع وامتلات منه الاسماع ومن محاسن هذه الدولة ادامها الله تعالي تنقية بلاد المغرب من نجاسة الكفر وردّ كيد العدوّ الكافر وقد فتح رحمه الله عدّة من المدن كانت بيد النصارى من مفاسد المغرب ولم يهن للمسلمين معهـا قرار من ذلك المعمورة المسمّاة بالمهديّة فانه رحمه الله فتحها عنوة بعد ان حاصرهـا مدّة وكان فتحها يوم الخميس الرابع عشر من ربيع الثاني عام اثنين وتسعين والف واسر بهـا نحو الثلاثماية من الكفّار ومنها طنجة فانّه رحمه الله بعث جيوشه فضيّقوا على من بها من النصارى الى ان ركبوا سفائنهم وهربوا في البحر وتركوها خاوية على عروشها وذلك في ربيع الثاني عام خمسة وتسعين والف ومن ذلك مدينة العرائش فانّ النصارى دمّرهم الله استولوا عليها من يد السلطان محمّد الشيخ بن المنصور الذهبيّ ولم يزالوا بها الى ان اخرجهم مولانا اسماعيل رحمه الله فبعث لها جيوشه وحاصروهم نحواً من ثلاثة اشهر ونصف ثمّ منّ الله عليه بفتحهـا بعد معـانات شديدة وحصار ومقاتلات عديدة وذلك انّهم حفروا حفائر وشحنوها بالبارود فاسقط بعض سور المدينة فاقتحم منهـا المسلمون ووثبوا على من بالاسوار فوقعت ملحمة عظيمة ثمّ فرّ الكفّار للبساتين واقاموا بها يوماً وليلة فدخلهم الخوف فخرجوا منها صاغرين وقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين وكان عدد نصـارى العرائش قبل الاستيلاء عليهم ثلاثة الاف ومايتين ولـمّـا ظفر بهم المسلمون اسروا منهم الفين ومات نحو اثنى عشر ماية ووجد بها من البارود ما لا يحصى كثرة ومن الانفاض نحو ماية وثمانين منها اثنان وعشرون من النحاس والبـاقى من الحديد منها نفض يسمّى بالقصاب في طوله خمس وثلاثون قدماً بالحساب زنة كورته خمسة وثلاثون من الارطـال بحيث حلق عليه بقرب خزانته اربعة رجال كذا سمع من المشاهدين لذلك بعد السوال عنه فازداد المسلمون واميرهم بذلك قوّة وفرحوا بذلك فرحاً عظيماً وسرّوا

به سروراً ونصرة وحلّ بالكفار لاجل فتح العرائش ندامة وحسرة فدخل الرعب جميعهم بحراً وبرّاً اذ دخلوها المسلمون عنوة وكان فتح العرائش في الثامن عشر من المحرّم عام احد ومـاية والف وفي فتح العرائش هذا انشد الشيخ الخطيب البليغ اديب حضرة فاس ومفتيها ابو محمّد عبد الواحد البوعنانيّ الشريف يمدح السلطان مولانا اسماعيل يهنّيه ويحرضه فقال وما اسرّ ما قال

الا ابشر فهذا الفتح نور ... قد انتظمت بعزكم الامور
وطير السعد نادى حيث غنّا ... قد انشرحت بفتحكم الصدور
وضوء النصر ساعده التهاني ... ونور الفخر نحوكم يدور
وقد وافتكم الخيرات طرّا ... وطاب العيش واتّصل السرور
حميتم بيضة الاسلام لمّا ... بثغر الحقّ قد حرس الثغور
وجاهدتم وقاتلتم فانتم ... لدين الله اقمار بدور
واطعمتم صوارمكم لحوماً ... لدى الهيجاء صاحبها كفور
ففقت البدر يوم السلم حسناً ... وفي يوم الوغا الاسد الهصور
وفي ثغر العرائش قد تبدّى ... لقدركم على الشعرى الظهور
لقد كان الملوك يساومونها ... وراموها ومنها بدا نفور
فلمّا جئتها نادت وقالت ... اليك يحقّ مولانا السرور
ملكت قياد ساكنها بذلّ ... فما اغنى الحصار ولا العبور
قهرتم بابطال عظام ... على الهيجاء كلّهم جسور
فكم راس من الكفّار امسى ... قطيع الراس مجروراً يخور
وكم نحر قلادته رماح ... وسنّ الرمح مركزه النحور
وكم اسر وكم قتل بارض ... وكم جرحى دماؤهم تفور
واضحى الناس كلّهم نشاوي ... على طرب وما شربت خمور
فبشراكم فهذا الفتح نور ... وبشراكم به من الغفور

به زادت مـآثركم عـلواًّ وقد عظمت بذكركم الاجور
الا يا معشر الكفّـار هذا يبدّدكـم وليس له فتور
الا يا اهل سبتـة قد اتاكم بسيف الله سلطـان وقـور
اذا مـا جاء سبتة في عشي تـناديه اذا كان البكـور
متى ياتي ويفتحهـا قريبـاً ويلحق اهلهـا منه الثبور
ووهران تنـادي كلّ يوم متى ياتي الامـام حتّى يزور
فيهزمكم ويقنصكـم ويسبي وسيف الحقّ في يده ينور
ايا مولاي قم وانهض وبادر لاندلس فـانت بهـا الامير
وجاهدُهم وحاربهـم وفرّق جموعهـم فربّكـم النصير
ولا يمنعْ بفضـل الله منهـا كما قد قـال براًّ او بحور
لسان الحال ينشد كلّ يوم ومعنى الحال تفهمه الصدور
بقرطبة تنـال المجـد طرّا وياتي العزّ والملك الكبير
وذلكـم بعـون الله سهـل ومن بركاتكـم امر يسير
ايا مولاي اسمـاعيل هذا عبيدكم الضعيف المستجير
ينـاديكم ينـاديكم ويدعو دعـاءً لا توهّنـه الدهور
فيـا ربّ البريّة يا الاهي ويا رحمـان يـا نـعم المجير
ابثّ هـذا الامير بكلّ خير ولا تجعـل تجـارته تبور
وابق الملك فيـه وفي بنيه ولو كرهت زيود او عمـور
ونحن رعيّـة نرجو هنـاء وبالسلطـان تنتظم الامور
عليكـم من عبيدكم سـلام مـدا الدنيـا يضمّنـه العبير
يعمّ جنـابكم مـا قال صبّ الا ابشر فـهذا الفتح نور

وبالجملة فمحاسن هذه الدولة السعيدة ممّا يضيق القول في استقصائها ويكلّ اللسان والقلم عن احصائها وقد اجمع اهل العقول الكاملة على انّ مثل هذه الدولة

السعيدة المنصورة لم يكن ولا سمع بنظيرها فيما غبر من الدول وقد بلغت من ضخامة المملكة وعظم السلطنة ما انسى دول المغرب السالفة نسال الله ان يديم علينا ظلها الوريف ويحفظ من الافات جانبها الشريف فانّ وجوده عصمة من طوفان الفتن وملجا من ياجوج المحن وقد قرات في كتاب الحلية للحافظ ابي نعيم رحمه الله قال مرّ هارون الرشيد على الفضيل بن العياض رضى الله عنه فوقف الفضيل ينظر فيه وفي اصحابه الى ان غاب عنه فقال ماذا يرى الناس من الفتن عند غروب شمس هذا الرجل . واذا كان ذلك في زمانهما الذي الغالب على اهله الخير والصلاح فما ظنّك بزماننا هذا الذي جرت فيه امواج الفساد والشرّ هو ديران العباد وما احسن ما انشدنيه صاحبنا الفقيه ابو عبد الله محمّد بن عبد الله الجزوليّ لنفسه في قصيدة في مدح هذه الدولة

مولاي اسماعيل يا شمس الورى   يا من جميع الكائنات فدى له
ما انت الاّ سيف حقّ منتضى   الله مـن دون الخليفـة سلّه
من لا يرى لك طاعة فالله قد   اعماه عن قصد الهوى واضلّه

قال مؤلّفه عبيد الله سبحانه محمّد الصغير بن الحاجّ محمّد بن عبد الله الوفرانيّ النجار المرّاكشيّ الوجار جبر الله صدعه وسكن روعه هنا انتهى ما حمّ لنا تسطيره ووفا ما وافى روض طروسنا مطيره من اخبار الملوك والروساء وذكر طبقات من احسن منهم ومن اساء مع الالماع بفوائد مستملحة وبدائع يقع عليها اختيار من لمحة وادبيّات بدورها في افق المحاضرات زواهر وغرائب جواهر فوائدها للعقول بواهر وقد بلغت المنتقى في ذلك غاية وصرّفت لجمعه عنان العناية وبذلت فيه جهدي وانفقت من وجدي على قدر ما عندي وقد كنت جمعت محصله في بطائق فاذا رمت تهذيبه عاق منه عائق ولمّا الّمت بنا تلك المصيبة الفادحة ورمتنا باسهمها التى هى في عرض الدين قادحة عاد رتك فكري سجاحاً واستولى عليّ ما صيّرت به احاديث النشاط ضعافاً واحاديث الكسل صحاحاً واشتغلت الجوانح والجوارح بدعى اهوال همل وبوارح ونبذت تلك التقاييد بزوايا الهجران حتّى نسجت عليها عناكب النسيان وصرت اذا وجهت الوجهة لاكمال تلك النزهة انشد لسان الحال الجد العاثر ،

هذا زمان دراهم لا غيرها　　دع الدفاتر للزمان الفاتر

ثمّ تكرّر الطلب اليّ واكّد في جمع ذلك التاليف عليّ من لا استطيع مقابلة امره بالاهمال ولا اقدر ان اسجل على بيّنة غرضه الا بالاعمال وهو عين الاعيان وصدر ارباب البلاغة والبيان الفقيه الذي تهتدي الفقهاء بعلمه وعمله والاديب الذي تقتدي البلغاء ببراعة قلمه بقيّة السلف وقدوة الخلف الوليّ الصالح ابو عبد الله سيّدي محمّد الصالح ابن الوليّ العارف سيّدي محمّد المعطى حفيد تاج العارفين وخاتمة الاولياء المحبوبين ابي عبد الله سيّدي محمّد الشرقيّ نفع الله به وابقى جلاله محروساً وادام ذكره في روض المكارم مغروساً فهو الذي اعاد لفكري قوّة النشاط ونشر عليه بساط الانبساط فانقشع عنّي سحاب الكسل

والجاب وناديت فكري مع ضعفه للتاليف فاجاب ورقمت ما فاق به الخطاب وطاب الوطاب وانا في ثوب الغنى رافل وقلمى ان لم يويّد عن الاصابة غافل فالحمد لله الذي يسّر في هذا القدر مع تكدّر منهل الصدر ومنّ به مع نزر البضاعة والتطفّل على هذه الصناعة والحمد لله الذي هدانا لهذا ومـا كنّا لنهتدي لولا ان هدانا الله وصلّى الله على سيّدنا محمّد خاتم النبيين وشافع المذنبين ورضى الله تعالى عن آله واصحابه الاكرمين واخر دعونا ان الحمد لله ربّ العالمين كمل بحمد الله تعالى وحسن عونه وتوفيقه الجميل وبمنّـه ولا حول ولا قوة الّا بالله العلّى العظيم

انتهى

فهرسة

مطبعة بوردين وشركاه في انجيه شارع كَارنيه نمرة ٤

IMPRIMERIE ORIENTALE DE ANDRÉ BURDIN ET Cie, A ANGERS.

20

NOZHET-ELHÂDI

HISTOIRE

DE LA

DYNASTIE SAADIENNE AU MAROC

(1511-1670)

PAR

MOHAMMED ESSÉGHIR BEN ELHADJ BEN ABDALLAH ELOUFRÂNI

TEXTE ARABE PUBLIÉ

PAR

O. HOUDAS
PROFESSEUR A L'ÉCOLE DES LANGUES ORIENTALES VIVANTES

نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي

PARIS
ERNEST LEROUX, ÉDITEUR
LIBRAIRE DE LA SOCIÉTÉ ASIATIQUE
DE L'ÉCOLE DES LANGUES ORIENTALES VIVANTES, ETC.
28, RUE BONAPARTE, 28

1888

ANGERS, IMPRIMERIE BURDIN ET Cie, 4, RUE GARNIER

PUBLICATIONS

DE

L'ÉCOLE DES LANGUES ORIENTALES VIVANTES

III^{e} SÉRIE. — VOL. II

HISTOIRE

DE

LA DYNASTIE SAADIENNE AU MAROC